الضعيف والمسكوت عنه

تاريخ الطبري

الخلافة في عهد الأمويين

٦٥ هـ - ٧٧ هـ

للإمام أبي جعفر بن جرير الطبري

(٢٢٤ - ٣١٠ هـ)

حققه وخرج رواياته وعلق عليه

محمد بن طاهر البرزنجي

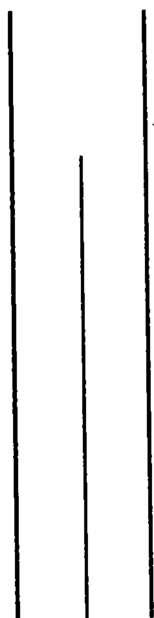
بإشراف ومراجعة المحقق

محمد صبحي حسن حلاق

المجلد العاشر

دار ابن كثير

بسم الله الرحمن الرحيم



الضَّعِيفُ وَالمَسْكُوتُ عَنْهُ

تاريخ الطبري

الخلافة في عهد الأمويين

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

1428 هـ ـ 2007 م

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير و النقل و الترجمة و التسجيل المرئي و المسموع و الحاسوبي و غيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من

دار ابن كثير

للطباعة و النشر و التوزيع

دمشق ـ بيروت

الرقم الدولي :

الموضوع : تاريخ

العنوان : صحيح و ضعيف تاريخ الطبري 13/1

التأليف : الإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري

نوع الورق : أبيض

ألوان الطباعة : لونان

عدد الصفحات : 6299

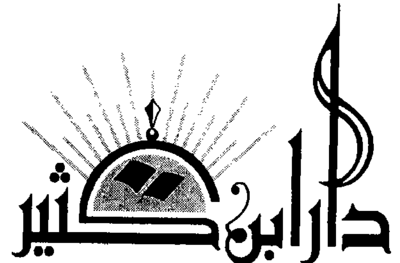
القياس : 17×24

نوع التجليد : فني - كعب لوحة

الوزن : 13 كغ

التنفيذ الطباعي : مطابع المستقبل

التجليد : مؤسسة فؤاد البعينو للتجليد



دمشق ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا ـ بناء الجاب

ص.ب : 311 ـ هاتف : 2225877 ـ 2228450 ـ فاكس : 243502

بيروت ـ برج أبي حيدر ـ خلف دبوس الأصلي ـ بناء الحديقة

ص.ب : 113/6318 ـ تلفاكس : 01/817857 - جوال : 03/204459

www.ibn-katheer.com - info@ibn-katheer.com

ذكر الخبر عن مقدم المختار بن أبي عبيد الكوفة

قال أبو جعفر: وفي النصف من شهر رمضان من هذه السنة كان مَقدَم المختار بن أبي عُبَيد الكوفة.

ذكر الخبر عن سبب مقدمه إليها:

قال هشام بن محمد الكلبيّ: قال أبو مخنف: قال النضر بن صالح: كانت الشيعة تَشتُم المختار وتُعتِبه لِما كان منه في أمر الحسن بن عليّ يوم طُعن في مُظلِم ساباط، فحُمل إلى أبيَض المدائن، حتى إذا كان زمنَ الحسين، وبعث الحسينُ مسلمَ بن عقيل إلى الكوفة، نزل دارَ المختار، وهي اليوم دارُ سَلْم بن المسيّب، فبايعه المختار بن أبي عُبيد فيمن بايعه من أهل الكوفة، وناصَحه ودعا إليه من أطاعه، حتى خرج ابن عقيل يوم خرج والمختار في قرية له بخُطَرْنِيَة تُدعَى لقفا، فجاءَه خبرُ ابن عقيل عند الظهر أنه قد ظهر بالكوفة، فلم يكن خروجُه يومَ خرج على ميعاد من أصحابه، إنما خرج حين قيل له: إنّ هانئ بن عروة المراديّ قد ضُرِبَ وحُبِس، فأقبل المختار في موالٍ له حتى انتهى إلى باب الفيل بعد الغروب، وقد عَقَد عبيد الله بن زياد لعمرو بن حُريث راية على جميع الناس، وأمره أن يقعد لهم في المسجد، فلما كان المختار واقفاً على باب الفيل مرّ به هانئ بن أبي حيّة الوادعيّ، فقال للمختار: ما وقوفُك هاهنا! لا أنت مع الناس، ولا أنت في رَحْلك؛ قال: أصبح رأيي مرتجّاً لعُظْم خطيئتكم؛ فقال له: أظنك والله قاتلاً نفسَك، ثمّ دخل على عمرو بن حُريث فأخبرَه بما قال للمختار وما ردّ عليه المختار[1]. (٥/ ٥٦٩ ـ ٥٧٠).

قال أبو مخنف: فأخبَرَني النضر بن صالح، عن عبد الرحمن بن أبي عمير الثّقفيّ؛ قال: كنت جالساً عند عمرو بن حريث حين بلّغه هانئ بن أبي حيّة عن المختار هذه المقالة، فقال لي: قم إلى ابن عمك فأخبره أن صاحبه لا يدري أين هو! فلا يجعلنَّ على نفسه سبيلاً، فقمت لآتيه، وثب إليه زائدة بن قدامة بن مسعود، قال له: يأتيك على أنه آمِن؟ فقال له عمرو بن حُرَيث: أمّا منّي فهو

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

آمن ، وإن رُقّي إلى الأمير عبيد الله بن زياد شيء من أمره أقمتُ له بمحضره الشهادة ، وشَفَعت له أحسنَ الشفاعة ، فقال له زائدة بن قدامة : لا يكوننّ مع هذا إن شاء الله إلا خيرٌ.

قال عبد الرحمن: فخرجتُ ، وخرج معي زائدة إلى المختار ، فأخبرناه بمقالة ابن أبي حيّة ، وبمقالة عمرو بن حُرَيث ، وناشدناه بالله ألا يجعل على نفسه سبيلا ، فنزل إلى ابن حريث ، فسلّم عليه ، وجلس تحت رايته حتى أصبح ، وتذاكرَ الناس أمرَ المختار وفعلَه ، فمشى عُمارة بن عقبة بن أبي مُعيط بذلك إلى عبيد الله بن زياد ، فذكر له ، فلما ارتفع النهار فُتِح بابُ عبيد الله بن زياد وأذِن للناس ، فدخل المختار فيمن دخل ، فدعاه عبيد الله ، فقال له: أنت المقبلُ في الجموع لتنصُر ابن عَقِيل! فقال له: لم أفعل ، ولكني أقبلت ونزلت تحتَ راية عمرو بن حُرَيث ، وبتّ معه وأصبحت ، فقال له عمرو: صدق أصلَحَك الله! قال: فرفع القضيبَ ، فاعترض به وجهَ المختار فخبط به عينَه فشَتَرها ، وقال: أوْلَى لك! أمَا والله لولا شهادةُ عمرو لك لضربتُ عنقك؛ انطلقوا به إلى السجن فانطلقوا به إلى السجن فحُبس فيه فلم يزل في السجن حتى قُتل الحسين ، ثمّ إنّ المختار بعث إلى زائدة بن قدامة ، فسأله أن يسير إلى عبد الله بن عمرَ بالمدينة فيسألَه أن يكتبَ له إلى يزيد بن معاوية ، فيكتب إلى عبيد الله بن زياد بتخلية سبيله ، فركب زائدةُ إلى عبد الله بن عمر فقَدِم عليه ، فبلّغه رسالةَ المختار ، وعلمتْ صفيّة أختُ المختار بمَحبِس أخيها وهي تحت عبد الله بن عمر ، فبكت وجزعت ، فلما رأى ذلك عبد الله بن عمَر كتب مع زائدة إلى يزيدَ بن معاوية: أمّا بعد ، فإنّ عبيد الله بن زياد حبس المختار ، وهو صهري ، وأنا أحبّ أن يعافَى ويُصلَح من حاله ، فإن رأيتَ ـ رحمنا الله وإيّاك ـ أن تكتب إلى ابن زياد فتأمرَه بتخليته فعلتَ. والسلام عليك.

فمضى زائدة على رواحله بالكتاب حتى قدم به على يزيدَ بالشام ، فلما قرأه ضحك ثم قال: يشفّع أبو عبد الرحمن ، وأهلُ ذلك هو ! فكتب له إلى ابن زياد: أما بعد ، فخلّ سبيلَ المختار بن أبي عُبيد حين تنظرُ في كتابي ، والسلام عليك.

فأقبَل به زائدة حتى دفعه ، فدعا ابن زياد بالمختار ، فأخرجه ، ثم قال له قد أجّلتُك ثلاثاً ، فإن أدركتُك بالكوفة بعدَها قد برئتْ منك الذّمّةُ.

فخرج إلى رحله ، وقال ابن زياد: والله لقد اجترأ عليّ زائدة حين يرحل إلى أمير المؤمنين حتى يأتيني بالكتاب في تخلية رجل قد كان من شأني أن أطيل حبسَه ، عليّ به ، فمرّ به عمرو بن نافع أبو عثمان ـ كاتبٌ لابن زياد ـ وهو يُطلَب ، وقال له: النَّجاءَ بنفسك ، واذكرها يداً لي عِندَك.

قال: فخرج زائدة ، فتوارى يومَه ذلك ، ثمّ إنه خرج في أناس من قومه حتى أتى القعقاعَ بن شَوْر الذّهليّ ، ومسلم بن عمرو الباهليّ ، فأخذا له من ابن زياد الأمان[١]. (٥/ ٥٧٠ ـ ٥٧١).

قال هشام: قال أبو مخنف: ولما كان اليوم الثالث خرج المختار إلى الحجاز ، قال: فحدّثني الصقعب بن زهير ، عن ابن العِرْق ، مولىً لثقيف.

قال: أقبلتُ من الحجاز حتى إذا كنت بالبَسِيطةِ مِنْ وراء واقِصَة استقبلتُ المختارَ بن أبي عُبيد خارجاً يريد الحجاز حين خَلَّى سبيلَه ابنُ زياد ، فلما استقبلتُه رحَّبت به ، وعطفتُ إليه ، فلما رأيت شتَـرَ عينه استرجعتُ له ، وقلتُ له بعدما توجّعت له: ما بالُ عينِك ، صرف الله عنك السوءَ!

فقال: خَبَط عيني ابن الزانية بالقَضيب خبطةً صارت إلى ما ترى ، فقلتُ له: ما لَه شلّت أنامِلُهُ! فقال المختار: قتلني الله إن لم أقطع أنامِلَه وأباجلَه وأعضاءَه إرْباً إرْباً؛ قال: فعجبتُ لمقالته ، فقلت له: ما علمُك بذلك رحمك الله؟ فقال لي: ما أقول لك فاحفظْه عنّي حتى ترى مصداقَه.

قال؛ ثمّ طَفِق يسألني عن عبد الله بن الزبير ، فقلت له: لجأ إلى البيت ، فقال: إنما أنا عائذٌ بربّ هذه البنيّة ، والناس يتحدّثون أنه يبايع سرّاً ، ولا أراه إلا لو قد اشتدّت شوكته واستكثف من الرجال إلا سيُظهر الخلافَ؛ قال: أجَل ، لاشكّ في ذلك ، أمَا إنه رجلُ العرب اليومَ ، أما إنه إنْ يخطُطْ في أثرى ، ويسمعْ قولي أكفِه أمرَ الناس ، وإلا يفعلَ فوالله ما أنا بدون أحد من العرب ، يا بنَ العِرْق ، إنّ الفتنة قد أرعدتْ وأبرقتْ ، وكأنْ قد انبعثتْ فوطئت في خطامها ، فإذا رأيتَ ذلك وسمعتَ به بمكان قد ظهرتُ فيه فقل: إن المختار في عصائبه من المسلمين ، يطلب بدم المظلوم الشهيد المقتول بالطّفّ ، سيِّد المسلمين ، وابن

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

سيِّدها ، الحسين بن عليّ ، فوربِّك لأقتلنّ بقتله عِدّةَ القتلى التي قتلت على دم يَحيَى بن زكريا عليه السلام؛ قال: فقلت له: سبحان الله! وهذه أعجوبة مع الأحدوثة الأولى؛ فقال: هو ما أقول لك فاحفظه عنّي حتى ترى مصداقَه. ثمّ حرّك راحلته ، فمضَى ومضيت معه ساعةً أدعو الله له بالسلامة ، وحُسنِ الصحابة. قال: ثمّ إنّه وقف فأقسم عليّ لما انصرفتُ ، فأخذتُ بيده! فودّعته ، وسلمت عليه ، وانصرفت عنه ، فقلت في نفسي: هذا الذي يذكر لي هذا الإنسان ـ يعني المختار ـ مما يزعم أنه كائن ، أشيءٌ حدّث به نفسه! فوالله ما أطلَع الله على الغيب أحداً ، وإنما هو شيءٌ يتمنَّاه فيرى أنه كائن ، فهو يوجب رأيَه ، فهذا والله الرأيُ الشعاع ، فوالله ما كلّ ما يرى الإنسان أنه كائن يكون ، قال: فوالله ما مُتّ حتى رأيتُ كلّ ما قاله ، قال: فوالله لئن كان ذلك من علمٍ ألقيَ إليه لقد أثبِتَ له ، ولئن كان ذلك رأياً رآه ، وشيئاً تمنّاه ، لقد كان[1]. (٥/ ٥٧١ ـ ٥٧٣).

قال أبو مخنف: فحدّثني الصقعب بن زهير ، عن ابن العِرْق ، قال: فحدّثت بهذا الحديث الحجَّاج بن يوسف ، فضحك ثم قال لي: إنه كان يقول أيضاً:

ورافِعةٍ ذيلَهَا وداعِيَة وَيْلَهَا
بِدِجْلَةَ أَوْ حَوْلَهَا

فقلت له: أترى هذا شيئاً كان يخترعه ، وتخرُّصاً يتخرّصُه ، أم هو من علم كان أوتيَه؟ فقال: والله ما أدري ما هذا الذي تسألني عنه ، ولكن لله دَرُّهُ! أيّ رجل ديناً ، ومِسْعَرَ حرب ، ومقارعَ أعداء كان![2] (٥/ ٥٧٣).

قال أبو مخنف: فحدّثني أبو سيف الأنصاريّ من بني الخزرج ، عن عباس بن سهل بن سعد ، قال: قدم المختار علينا مكة ، فجاء إلى عبد الله بن الزبير وأنا جالسٌ عنده ، فسلّم عليه ، فردّ عليه ابن الزبير ، ورحّب به ، وأوسع له ، ثم قال: حدِّثني عن حال الناس بالكوفة يا أبا إسحاق؛ قال: هم لسلطانهم في العلانية أولياء ، وفي السرّ أعداء؛ فقال له ابن الزبير: هذه صفة عَبيد السوء ، إذا رأوا أربابَهم خدموهم وأطاعوهم ، فإذا غابوا عنهم شَتَموهم ولعنوهم. قال: فجلس

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.
(٢) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

معنا ساعةً ، ثم إنه مال إلى ابن الزبير كأنه يُسارّه ، فقال له : ما تنتظر! ابسُطْ يدك أبايعْك ، وأعطِنا ما يُرضينا ، وثب على الحجاز فإنّ أهل الحجاز كلهم معك. وقام المختار فخرج ، فلم يُرَ حولاً؛ ثم إنِّي بينا أنا جالسٌ مع ابن الزبير إذ قال لي ابن الزبير: متى عهدُك بالمختار بن أبي عُبيد؟ فقلت له: ما لي به عهد منذ رأيتُه عندَك عاماً أوّل؛ فقال: أين تراه ذهب! لو كان بمكة ، لقد رئيَ بها بعدُ ، فقلت له: إني انصرفت إلى المدينة بعد إذ رأيتُه عندَك بشهر أو شهرين ، فلبثتُ بالمدينة أشهراً ، ثمّ إني قدمتُ عليك ، فسمعت نفراً من أهل الطائف جاؤوا معتمرين يزعمون أنه قدم عليهم الطائف ، وهو يزعم أنه صاحب الغضب ، ومُبِير الجبّارين ، قال: قاتله الله! لقد انبعث كذّاباً متكهِّناً ، إنّ الله إنْ يُهلِك الجبَّارين يكن المختار أحدهم ، فوالله ما كان إلا ريث فراغنا من منطقنا حتى عنّ لنا في جانب المسجد ، فقال ابن الزبير: اذكرْ غائباً ترَهُ ، أين تظُنُّه يهوِي؟ فقلت: أظنه يريد البيت فأتى البيت فاستقبل بالحجر ، ثم طاف بالبيت أسبوعاً[1] ، ثمّ صلى ركعتين عند الحِجرْ ، ثمّ جلس ، فما لبث أن مرّ به رجال من معارفه من أهل الطائف وغيرهم من أهل الحجاز ، فجلسوا إليه ، واستبطأ ابن الزبير قيامَه إليه ، فقال: ما ترى شأنه لا يأتينا! قلت: لا أدري ، وسأعلم لك علمه ، فقال: ما شئتَ ، وكأن ذلك أعجبه.

قال: فقمتُ فمررتُ به كأنيّ أريد الخروجَ من المسجد ، ثمّ التفتُّ إليه ، فأقبلت نحوَه ثمّ سلّمت عليه ، ثمّ جلست إليه ، وأخذت بيده ، فقلتُ له: أين كنت؟ وأين بلغت بعدي؟ أبالطائف كنت؟ فقال لي: كنتُ بالطائف وغير الطائف ، وعمّس عليّ أمرَه ، فملتُ إليه ، فناجَيْته ، فقلت له: مِثْلُك يغيب عن مِثلِ ما قد اجتمع عليه أهلُ الشرف وبيوتاتِ العرب من قريش والأنصار وثقيف! لم يبق أهلُ بيت ولا قبيلة إلا وقد جاء زعيمُهم وعميدُهم فبايع هذا الرجل ، فعجباً لك ولرأيك ألا تكون أتيتَه فبايعته ، وأخذتَ بحظِّك من هذا الأمر! فقال لي: وما رأيتَني؟ أتيتُه العامَ الماضي ، فأشرت عليه بالرأي ، فطوى أمرَه دوني ، وإني لما رأيته استغنى عنِّي أحببت أن أرِيَه أنِّي مستغن عنه ، إنه والله لهو أحوجُ إليّ مني إليه؛ فقلت له: إنك كلمتَه بالذي كلمته وهو ظاهر في المسجد ، وهذا الكلام

(١) أي: سبع أشواط.

لا ينبغي أن يكون إلا والستور دونه مُرخاة والأبواب دونه مُغلَّقة ، اِلقَه الليلةَ إن شئتَ وأنا معك؛ فقال لي: فإنِّي فاعل إذا صلَّينا العَتَمة أتيناه ، واتَّعدْنا الحِجْر.

قال: فنهضتُ من عنده ، فخرجت ثم رجعتُ إلى ابن الزبير ، فأخبرتُه بما كان من قولي وقوله ، فسرّ بذلك ، فلما صلينا العتَمة ، التقَيْنا بالحِجْر ، ثمّ خرجنا حتى أتينا منزلَ ابن الزبير ، فاستأذنَّا عليه ، فأذن لنا ، فقلت: أخلِّيكما؟ فقالا جميعاً: لا سِرَّ دونك ، فجلستُ ، فإذا ابن الزبير قد أخذ بيَدِه ، فصافَحه ورحّب به ، فسأله عن حاله وأهل بيته ، وسكَتا جميعاً غيَر طويل.

فقال له المختار وأنا أسمع بعد أن تبدَأ في أوّل منطقه ، فحَمِد الله وأثنَى عليه ثمّ قال: إنه لا خيرَ في الإكثار من المنطق ، ولا في التقصير عن الحاجة ، إني قد جئتك لأبايعَك على ألاّ تقضيَ الأمورَ دوني ، وعلى أن أكونَ في أوّل مَنْ تأذَن له ، وإذا ظهرت استعنتَ بي على أفضل عملك ، فقال له ابن الزبير: أبايعك على كتاب الله وسنّة نبيّه ﷺ؛ فقال: وشرّ غلماني أنت مبايعه على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ ، مالي في هذا الأمر من الحظّ ما ليس لأقصى الخلق منك؛ لا والله لا أبايعك أبداً إلا على هذه الخصال.

قال عبّاس بن سهل: فالتقمتُ أذنَ ابن الزبير ، فقلت له: اشترِ منه دينَه حتى ترى من رأيك؛ فقال له ابن الزبير: فإنّ لك ما سألتَه ، فبسط يدَه فبايعه ، ومَكث معه حتى شاهد الحِصارَ الأوّل حين قدم الحصين بن نمير السَّكونيّ مكة؛ فقاتل في ذلك اليوم ، فكان من أحسن الناس يومئذ بلاءً ، وأعظمهم غَناءً ، فلما قُتل المنذر بن الزبير والمسور بن مَخْرَمة ومصعب بن عبد الرحمن بن عوف الزهريّ ، نادى المختار: يا أهل الإسلام ، إليّ إليّ! أنا ابن أبي عُبيد بن مسعود ، وأنا ابن الكُرّار لا الفُرّار ، أنا ابن المُقدِمين غير المُحجمين إليّ يا أهلَ الحِفاظ وحُماةَ الأوتار ، فحمِيَ الناس يومئذ ، وأبلى وقاتل قتالاً حسَناً.

ثم أقام مع ابن الزبير في ذلك الحِصار حتى كان يوم أحرِق البيت ، فإنه أحرق يوم السبت لثلاث مضَين من شهر ربيع الأوّل سنة أربع وستين ، فقاتل المختار يومئذ في عصابة معه نحو من ثلاثمئة أحسنَ قتال قاتَله أحدٌ من الناس ، إنْ كان ليقاتل حتى يتبلَّد ، ثم يجلس ويحيط به أصحابه ، فإذا استراح نهض فقاتل ، فما

كان يتوجَّـه نحـو طائفـة من أهل الشـام إلاّ ضاربَهـم حتى يكشـفَهم[١]. (٥/ ٥٧٣ ـ ٥٧٦).

قال أبو مخنف: فحدّثني أبو يوسف محمد بن ثابط، عن عبّاس بن سهل بن سعد، قال: تولَّى قتالَ أهل الشام يوم تحريق الكعبة عبدُ الله بن مطيع وأنا والمختار، قال: فما كان فينا يومئذ رجلٌ أحسن بلاءً من المختار.

قال: وقاتل قبل أن يطَّلع أهلُ الشام على موت يزيدَ بن معاوية بيوم قتالاً شديداً، وذلك يوم الأحد لخمس عشرةَ ليلة مضتْ من ربيع الآخر سنة أربع وستين، وكان أهلُ الشام قد رَجوْا أن يَظفروا بنا، وأخذوا علينا سِكك مكَّة.

قال: وخرج ابن الزبير، فبايَعه رجالٌ كثير على الموت؛ قال: فخرجتُ في عصابة معي أقاتل في جانب، والمختار في عصابة أخرى يقاتل في جُمِّيعةٍ من أهل اليمامة في جانب، وهم خوارج، وإنما قاتلوا ليدفعوا عن البيت، فهم في جانب، وعبد الله بن المطيع في جانب.

قال: فشدَّ أهل الشام عليَّ، فحازوني في أصحابي حتى اجتمعتُ أنا والمختار وأصحابه في مكان واحد، فلم أكن أصنع شيئاً إلا صنع مثله، ولا يصنع شيئاً إلا تكلفتُ أن أصنع مِثلَه، فما رأيتُ أشدَّ منه قطّ؛ قال: فإنا لنقاتل إذ شدّت علينا رجال وخيل من خيل أهل الشام، فاضطّروني وإياه في نحو من سبعين رجلاً من أهل الصبر إلى جانب دار من دُور أهل مكة، فقاتلهم المختارُ يومئذ، وأخذ يقول رجل لرجل:

لا وألـــتْ نـفـــسُ امــرئٍ يـفـــرُّ

قال: فخرج المختار، وخرجتُ معه، فقلت: ليخرجْ منكم إليّ رجل فخرج إليّ رجلٌ وإليه رجل آخر، فمشيت إلى صاحبي فأقتُله، ومشى المختار إلى صاحبه فقتله، ثم صِحْنا بأصحابنا، وشدَدْنا عليهم، فوالله لضَربناهم حتى أخرجناهم من السِّكك كلها؛ ثمّ رجعنا إلى صاحِبيْنا اللّذَين قتلْنا. قال: فإذا الذي قتلتُ رجلٌ أحمرُ شديدُ الحمرة كأنه روميّ، وإذا الذي قتل المختار رجل أسودُ شديدُ السواد، فقال لي المختار: تعلّمْ والله إنّي لأظنّ قتيلَينا هذَيْن عبدَين؛ ولو

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

أنّ هذين قَتلَانا لفُجع بنا عشائرنا ومن يرجونا ، وما هذان وكلبان من الكلاب عندي إلا سواء ، ولا أخرج بعد يومي هذا لرجل أبداً إلا لرجل أعرفه ، فقلت له : وأنا والله لا أخرج إلا لرجل أعرِفه .

وأقام المختار مع ابن الزبير حتى هلك يزيدُ بن معاوية ، وانقضى الحصار . ورجع أهلُ الشام إلى الشام ، واصطَلَح أهل الكوفة على عامر بن مسعود ، بعد ما هلك يزيد يصلى بهم حتى يجتمع الناس على إمام يرضَوْنه ، فلم يلبث عامر إلا شهراً حتى بعث ببيعته وبَيعة أهل الكوفة إلى ابن الزبير ، وأقام المختار مع ابن الزبير خمسةَ أشهر بعد مَهلِك يزيدَ وأيّاماً[١] . (٥/ ٥٧٦ ـ ٥٧٧) .

قال أبو مخنف : فحدثني عبد الملك بن نوفل بن مساحق ، عن سعيد بن عمرو بن سعيد بن العاص ، قال : والله إني لمع عبد الله بن الزبير ومعه عبد الله بن صَفْوان بن أميّة بن خلف ، ونحن نطوف بالبيت ، إذ نظر ابن الزبير فإذا هو بالمختار ، فقال لابن صفوان : انظر إليه؛ فوالله لَهو أحذَرُ من ذئب قد أطاقت به السباع؛ قال : فمضى ومضنيا معه ، فلما قضينا طوافَناوصلّينا الركعتين بعد الطواف لحقنا المختار ، فقال لابن صفوان : ما الذي ذكرني به ابن الزبير؟ قال : فكَتمَه ، وقال : لم يَذكُرك إلا بخير؛ قال : بلى وربِّ هذه البنيّة إن كنتُ لمن شأنكما ، أما والله ليخطّنّ في أثَرى أو لأقدَنّها عليه سَعْراً ، فأقام معه خمسةَ أشهر ، فلما رآه لا يستعمله جعل لا يقدم عليه أحدٌ من الكوفة إلا سأله عن حال الناس وهيئتهم[٢] . (٥/ ٥٧٧) .

قال أبو مخنف : فحدّثني عطية بن الحارث أبو رَوْق الهمدانيّ ، أنّ هانئ بن أبي حيَّة الوادعي قدم مكة يريد عُمرَة رمضان ، فسأله المختار عن حاله وحال الناس بالكوفة وهيئتهم؛ فأخبره عنهم بصلاح واتّساق على طاعة ابن الزبير ، إلا أن طائفة من الناس إليهم عدد أهل المصر لو كان لهم رجل يجمعهم على رأيهم أكل بهم الأرض إلى يومٍ ما؛ فقال له المختار : أنا أبو إسحاق أنا والله لهم! أنا أجمعهم على مَرّ الحقّ ، وأنفي بهم ركبان الباطل ، وأقتُل بهم كلّ جبَّار عنيد؛

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك .
(٢) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك .

فقال له هانئ بن أبي حيّة: وَيْحك يا بن أبي عبيد! إن استطعتَ ألاّ تُوضع في الضلال ليكن صاحبهم غيرك، فإنّ صاحب الفتنة أقربُ شيء أجلا، وأسوأ الناس عملاً؛ فقال له المختار: إني لا أدعو إلى الفتنة إنما أدعو إلى الهدى والجماعة، ثم وثب فخرج وركب رَواحلَه، فأقبل نحو الكوفة حتى إذا كان بالقَرْعاء لقيه سلمة بن مرثَد أخو بنت مرثد القابضيّ من هَمْدان ـ وكان من أشجع العرب، وكان ناسكاً ـ فلما التقيا تصافحا وتساءلا، فخبره المختار؛ ثم قال لسلمة بن مرثد: حدّثني عن الناس بالكوفة، قال: هم كغنمٍ ضلّ راعِيها؛ فقال المختار بن أبي عبيد: أنا الذي أحسِن رِعايتَها، وأبلُغ نهايتَها؛ فقال له سلمة: اتق اللهَ واعلم أنك ميت ومبعوث، ومحاسب ومجزيٌّ بعَملك إنْ خيراً فخيرٌ وإنْ شرّاً فشرّ، ثمّ افترقا، وأقبل المختار حتى انتهى إلى بحر الحِيرة يوم الجمعة، فنزل فاغتسل فيه، وادّهن دُهناً يسيراً، ولبس ثيابه واعتمّ، وتقلَّد سيفه، ثمّ ركب راحلتَه فمرّ بمسجد السَّكون وجبَّانة كِنْدة، لا يمرّ بمجلس إلا سلَّم على أهله، وقال: أبشروا بالنّصر والفلج، أتاكم ما تحبّون، وأقبل حتى مرّ بمسجد بني ذُهل وبني حُجْر، فلم يجد ثمَّ أحداً، ووجد الناس قد راحوا إلى الجمعة، فأقبل حتى مرّ ببني بدّاء، فوجد عبيدة بن عمرو البَدّي من كِنْدة، فسلم عليه، ثم قال: أبشر بالنصر واليُسر والفلج، إنك أبا عمرو على رأي حَسَن، لن يَدَع الله لك معه مأثماً إلا غفره، ولا ذنباً إلا ستَره ـ قال: وكان عبيدة من أشجع الناس وأشعرهم، وأشدِّهم حبّاً لعليٍّ رضي الله عنه، وكان لا يصبر عن الشراب ـ فلما قال له المختار هذا القول قال له عبيدة: بشّرك الله بخير إنك قد بشّرتنا، فهل أنت مفسرٌ لنا؟ قال: فالقنِي في الرّحل الليلةَ ثمّ مضى[1]. (٥/ ٥٧٧ ـ ٥٧٩).

قال أبو مخنف: فحدّثني فُضَيل بن خَديج، عن عبيدة بن عمرو قال: قال لي المختار هذه المقالة، ثم قال لي: القني في الرَّحل، وبلِّغ أهلَ مسجِدكم هذا عنِّي أنهم قومٌ أخذ الله ميثاقَهم على طاعته، يقتلون المُحلِّين، ويطلبون بدماء أولاد النبيّين، ويهديهم للنور المبين، ثم مضى فقال لي: كيف الطريق إلى بني هند؟ فقلت له: أنظرني أدلّك، فدعوتُ بفَرَسي وقد أسرِج لي فركبتُه؛ قال: ومضيت معه إلى بني هند، فقال: دُلّني على منزل إسماعيل بن كثير، قال: فمضيتُ به

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

إلى منزله ، فاستخرجته ، فحيّاه ورحّب به ، وصافحه وبشّره ، وقال له : القَنِي أنتَ وأخوك الليلة وأبو عمرو فإني قد أتيتكم بكل ما تحبّون؛ قال: ثمّ مضى ومضينا معه حتى مرّ بمسجد جُهَينة الباطنة ، ثم مضى إلى باب الفيل ، فأناخ راحلتَه ، ثم دخل المسجد واستَشرف له الناس ، وقالوا: هذا المختار قد قَدِم ، فقام المختار إلى جنب سارية من سواري المسجد ، فصلّى عندها حتى أقيمت الصلاة ، فصلّى مع الناس ثمّ ركد إلى سارية أخرى فصلّى ما بين الجمعة والعصر ، فلما صلى العصر مع الناس انصرف[١] . (٥/ ٥٧٩) .

قال أبو مخنف: فحدّثني المجالد بن سعيد ، عن عامر الشعبيّ ، أن المختار مرّ على حلقة همدان وعليه ثياب السَّفَر ، فقال: أبشروا ، فإني قد قدمتُ عليكم بما يسرّكم ، ومضى حتى نزل داره ، وهي الدار التي تُدعى دار سلم بن المسيب. وكانت الشيعة تختلف إليها وإليه فيها[٢] . (٥/ ٥٧٩) .

قال أبو مخنف: فحدّثني فُضَيل بن خَدِيج، عن عبيد بن عمرو، وإسماعيل بن كثير من بني هند ، قالا : أتيناه من الليل ، كما وعَدنا ، فلما دخلنا عليه وجلسنا ساءَلنا عن أمر الناس وعن حال الشيعة ، فقلنا له: إنّ الشيعة قد اجتمعت لسليمان بن صُرَد الخُزاعيّ ، وإنه لن يلبثَ إلا يسيراً حتى يخرج؛ قال: فحمِد الله وأثنَى عليه وصلّى على النبيّ ﷺ ثم قال:

أما بعد ، فإنّ المهديّ ابن الوصيّ ، محمّد بن عليّ ، بعثني إليكم أميناً ووزيراً ومنتخباً وأميراً ، وأمرني بقتال الملحِدين ، والطلب بدماء أهلِ بيته والدفع عن الضّعفاء[٣] . (٥/ ٥٧٩ _ ٥٨٠) .

قال أبو مخنف: قال فضيل بن خَدِيج: فحدّثني عبيدة بن عمرو وإسماعيل بن كثير ، أنهما كانا أوّل خلق الله إجابةً وضرباً على يده ، وبايعاه.

قال: وأقبل المختار يبعث إلى الشيعة وقد اجتمعت عند سليمانَ بن صُرد ، فيقول لهم: إني قد جئتكم من قبل وليّ الأمر ، ومَعِدن الفْضل ، ووصيِّ الوصيّ

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.
(٢) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.
(٣) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

والإمام المهديّ ، بأمر فيه الشفاء ، وكشفُ الغطاء ، وقتل الأعداء ، وتمام النَّعماء: إنّ سليمان بن صُرد يرحمنا الله وإيّاه إنما هو عَشَمة من العَشم وحِفشٌ بالٍ ، ليس بذي تجربة للأمور ، ولا له علمٌ بالحروب؛ إنما يريد أن يُخرجكم فيقتل نفسه ويقتلكم ، إني إنما أعمل على مثال قد مُثِّل لي ، وأمرٍ قد بُيِّن لي ، فيه عزّ وليّكم ، وقتل عدوّكم ، وشفاء صدوركم ، فاسمعوا مني قولي ، وأطيعوا أمري ، ثمّ أبشِروا وتباشَروا؛ فإنّي لكم بكل ما تأملون خيرُ زعيم.

قال: فوالله ما زال بهذا القول ونحوه حتى استمالَ طائفةً من الشيعة ، وكانوا يختلفون إليه ويعظِّمونه ، وينظرون أمرَه ، وعُظمُ الشيعة يومئذ ورؤساؤهم مع سليمان بن صرد ، وهو شيخ الشيعة وأسنُّهم ، فليس يَعدِلون به أحداً؛ إلاّ أنّ المختار قد استمال منهم طائفةً ليسوا بالكثير ، فسليمان بن صُرَد أثقل خلق الله على المختار ، وقد اجتمع لابن صُرَد يومئذ أمرُه ، وهو يريد الخروج والمختار لا يريد أن يتحرّك ، ولا أن يهيّج أمراً حتَّى ينظر إلى ما يصير إليه أمرُ سليمان ، رجاءَ أن يستجمع له أمرُ الشيعة ، فيكون أقوَى له على دركِ ما يطلب ، فلما خرج سليمان بن صرَد ومضى نحو الجَزيرة قال عمر بن سعد بن أبي وقّاص وشَبَث بن رِبْعيّ ويزيد بن الحارث بن رُويْم لعبد الله بن يزيد الخطميّ وإبراهيم بن محمد بن طلحة بن عبيد الله: إنّ المختار أشدّ عليكم من سليمان بن صُرَد ، إن سليمان إنما خرج يقاتل عدوّكم ، ويذللهم لكم ، وقد خرج عن بلادكم؛ وإنّ المختار إنما يريد أن يثبَ عليكم في مصركم ، فسيروا إليه فأوثِقوه في الحديد ، وخلِّدوه في السجن حتى يستقيمَ أمرُ الناس ، فخرجوا إليه في الناس ، فما شعر بشيء حتى أحاطوا به وبداره فاستخرجوه ، فلما رأى جماعتهم قال: ما بالُكم! فوالله بُعدَ ما ظفِرتْ أكفّكم! قال: فقال إبراهيم بن محمد بن طلحة بن عبيد الله لعبد الله بن يزيد: شُدّه كتافاً ، ومشّه حافياً؛ فقال له عبد الله بن يزيد: سبحان الله! ما كنت لأمشّيه ولا لأحفيه ولا كنت لأفعلَ هذا برجل لم يُظهر لنا عداوةً ولا حرباً. وإنما أخذناه على الظنّ. فقال له إبراهيم بن محمد: ليس بعُشِّكِ فادْرُجي. ما أنت وما يبلغنا عنك يا بن أبي عبيد! فقال له: ما الذي بلغك عني إلا باطلٌ، وأعوذ بالله من غشٍّ كغِشّ أبيك وجدّك!.

قال: قال فُضَيل: فوالله إني لأنظرُ إليه حين أخرج وأسمع هذا القول حين قال

له ، غير أنّي لا أدري أسمعه منه إبراهيم أم لم يسمعه؛ فسكت حين تكلم به؛ قال: وأتى المختار ببغلة دهماءَ يركبها ، فقال إبراهيم لعبد الله بن يزيد: ألا تشدّ عليه القيود؟ فقال: كفى له بالسجن قيداً(١) . (٥/ ٥٨٠ ـ ٥٨١).

قال أبو مخنف: وأما يحيى بن أبي عيسى فحدّثني أنه قال: دخلت إليه مع حميد بن مسلم الأزديّ نزوره ونتعاهده ، فرأيته مقيّداً؛ قال: فسمعتُه يقول: أما وربِّ البحار ، والنخيل والأشجار ، والمَهامِه والقفار ، والملائكة الأبرار ، والمصطفَين الأخيار ، لأقتلنّ كلَّ جبّار ، بكلّ لَدْن خَطّار ، ومهنَّدٍ بَتّار ، في جُموع من الأنصار ، ليسوا بِميل أغمار ، ولا بُعْزل أشرار ، حتى إذا أقمتُ عَمودَ الدين ، ورأبْتُ شَعْب صَدْع المسلمين ، وشفيتُ غليلَ صدور المؤمنين ، وأدركتُ بثأر النبيِّين ، ولم يكبُر عليّ زوال الدنيا ولم أحفل بالموت إذا أتى.

قال: فكان إذا أتيناه وهو في السجن ردّد علينا هذا القول حتى خرج منه؛ قال: وكان يتشجَّع لأصحابه بعدما خرج ابن صُرَد(٢) . (٥/ ٥٨١ ـ ٥٨٢).

ثم دخلت سنة خمس وستين

ذكر الخبر عمّا كان فيها من الأَحداث الجليلة.

فمن ذلك ما كان من التوَّابين وشخوصِهم للطلب بدم الحسين بن عليّ إلى عبيد الله بن زياد.

قال هشام: قال أبو مخنف: حدّثني أبو يوسف ، عن عبد الله بن عوف الأحمريّ ، قال: بعث سليمان بن صُرَد إلى وجوه أصحابه حين أراد الشخوص وذلك في سنة خمس وستين ، فأتوه ، فلما استهلّ الهلال هلالُ شهر ربيع الآخر ، خرج في وجوه أصحابه ، وقد كان واعَدَ أصحابه عامّة للخروج في تلك الليلة للمعسكر بالنُّخَيلَة فخرج حتى أتى عسكرَه ، فدار في الناس ووجوه أصحابِه ، فلم يعجبه عدّة الناسِ ، فبعث حكيم بن مُنقِذ الكنديّ في خيل ، وبعث الوليد بن غُصَيْن الكنانيّ في خيل ، وقال: اذهبا حتى تدخلا الكوفة فناديا:

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.
(٢) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

يا لَثأراتِ الحسين! وابلُغا المسجد الأعظم فنادِيَا بذلك ، فخرجا ، وكانا أوّل خلق الله دَعَوا: يا لَثأراتِ الحسين! قال: فأقبل حكيم بن منقذ الكنديّ في خيل والوليد بن غُصَين في خيل ، حتى مرّا ببني كثير ، وإنّ رجلاً من بني كثير من الأزْد يقال له عبد الله بن خازم مع امرأته سَهْلة بنت سبرة بن عمرو من بني كثير ، وكانتْ من أجمل الناس وأحبِّهم إليه ، سمع الصوت: يا لَثأرات الحسين! وما هو ممن كان يأتِيهم ، ولا استجابَ لهم. فوثب إلى ثيابه فلبسها ، ودعا بسلاحه ، وأمر بإسراج فَرَسه ، فقالت له امرأته: ويحك! أَجُنِنت! قال: لا والله ، ولكنّي سمعتُ داعيَ الله ، فأنا مُجيبه ، أنا طالبٌ بدم هذا الرجل حتّى أموت ، أو يقضيَ الله من أمري ما هو أحبّ إليه ، فقالت له: إلى مَن تدعُ بُـنَـيَّك هذا؟ قال: إلى الله وحدَه لا شريك له؛ اللهمّ إني أستودِعُك أهلي وَوَلَدي ، اللهمَّ احفظني فيهم ، وكان ابنه ذلك يُدعى عَزْرة ، فبقي حتى قتل بعدُ مع مصعب بن الزبير ؛ وخرج حتى لحق بهم ، فقعدت امرأته تبكيه واجتمع إليها نساؤها ، ومضى مع القوم ، وطافت تلك الليلة الخيل بالكوفة ، حتى جاؤوا المسجدَ بعد العتمَة ، وفيه ناسٌ كثير يصلُّون ، فنادوا: يا لثأرات الحسين! وفيهم أبو عزَّة القابضيّ وكرب بن نِمْران يصلّي ، فقال: يا لثأرات الحسين! أين جماعة القوم؟ قيل: بالنُّخَيلة ، فخرج حتى أتى أهله ، فأخذ سلاحه ، ودعا بفرسه ليركبه ، فجاءته ابنتُه الرُّواع ـ وكانت تحت ثُبَيت بن مرثد القابضيّ. فقالت: يا أبتِ ، مالي أراك قد تقلدت سيفَك ، ولبستَ سلاحك! فقال لها: يا بنيّة ، إن أباك يفرّ من ذنبه إلى ربّه ، فأخذتْ تَنتحِب وتبكي ، وجاءه أصهارُه وبنو عمه ، فودَّعهم ، ثم خرج فلحق بالقوم؛ قال: فلم يصبح سليمان بن صرَد حتى أتاه نحوٌ ممّن كان في عسكره حين دخله؛ قال: ثمّ دعا بديوانه لينظر فيه إلى عدّة من بايعه حين أصبح ، فوجدهم ستة عشر ألفاً ، فقال: سبحان الله! ما وافانا إلا أربعة آلاف من ستة عشر ألفاً[١]. (٥/ ٥٨٣ـ ٥٨٤).

قال أبو مخنف: عن عطية بن الحارث ، عن حميد بن مسلم ، قال: قلت لسليمان بن صُرَد: إنّ المختار والله يثبّط الناسَ عنك ، إنّي كنت عنده أوّل ثلاث ، فسمعتُ نفراً من أصحابه يقولون: قد كمُلنا ألفَي رجل؛ فقال: وهَبْ أنّ

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

ذلك كان؛ فأقام عنّا عشرة آلاف ، أمَا هؤلاء بمؤمنين! أمَا يخافون اللهَ! أمَا يذكرون الله ، وما أعطَوْنا من أنفسهم من العهود والمواثيق ليُجاهدُنّ ولَيُنصرُنّ! فأقام بالنُّخَيْلة ثلاثاً يبعث ثِقاتِه من أصحابه إلى مَنْ تخلّف عنه يذكِّرهم اللهَ وما أعطَوْه من أنفسهم ، فخرج إليه نحوٌ من ألف رجل ، فقام المسَيّب بن نجَبَة إلى سليمان بن صُرَد ، فقال: رحمك الله ، إنه لا ينفعك الكارهُ ، ولا يقاتل معك إلا مَن أخرجَتْهُ النيّة ، فلا تنتظرنّ أحداً ، واكمُشْ في أمرك . قال: فإنك والله لَنِعمَّا رأيت! فقام سليمان بن صُرَد في الناس متوكِّئاً على قوس له عربيَّة . فقال: أيها الناس ، مَنْ كان إنما أخرجتْه إرادةُ وجهِ الله وثوابِ الآخرة فذلك منّا ونحن منه ، فرحمة الله عليه حيّاً وميتاً ، ومَنْ كان إنما يريد الدنيا وحَرْثَهَا فوالله ما نأتي فيئاً نستفيئه ، ولا غنيمةً نغنَمُها ، ما خلا رضوان اللهَ رَبِّ العالمين ، وما معنا من ذهب ولا فضّة ، ولا خَزّ ولا حرير ، وما هي إلا سيوفنا في عواتقنا ، ورماحنا في أكفّنا ، وزادٌ قدر البُلْغة إلى لقاء عدوّنا ، فمن كان غيرَ هذا ينوي فلا يصحبْنا .

فقام صُخَير بن حذيفة بن هلال بن مالك المُزَنيّ ، فقال: آتاك الله رشدَك ، ولقّاك حُجَّتك ؛ والله الذي لا إله غيره ما لنا خيرٌ في صحبةِ مَنِ الدنيا همَّتُهُ ونيَّته . أيّها الناس ، إنما أخرجتْنا التوبةُ من ذنبنا ، والطلبَ بدمِ من نبيِّنا ، ﷺ ليس معنا دينارٌ ولا درهم ، إنما نقدَمُ على حدّ السيوف وأطراف الرِّماح ؛ فتنادَى الناسُ من كلّ جانب: إنَّا لا نطلب الدنيا ، وليس لها خرجْنا[1] . (٥/ ٥٨٤ ـ ٥٨٥) .

قال أبو مخنف: عن إسماعيل بن يزيد الأزديّ ، عن السّريّ بن كعب الأزديّ ، قال: أتينا صاحبَنا عبد الله بن سعد بن نفيل نودّعه ، قال: فقام فقمنا معه ، فدخل على سليمان ودخلنا معه ، وقد أجمع سليمان بالمسير ، فأشار عليه عبد الله بن سعد بن نُفَيل أن يسيرَ إلى عبيد الله بن زياد ، فقال هو رؤوس أصحابه: الرّأي ما أشار به عبد الله بن سعد بن نُفَيل أن نسير إلى عبيد الله بن زياد قاتِل صاحبِنا ، ومِن قِبَلِه أُتينا ، فقال له عبد الله بن سعد وعنده رؤوس أصحابه جلوس حوله: إنّي قد رأيت رأياً إن يكُن صواباً فالله وفَّق ، وإن يكن ليس بصواب فمِن قِبَلي ، فإني ما آلوكم ونفسي نصحاً؛ خطأ كان أم صواباً ، إنما خرجنا نطلب

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك .

بدم الحسين ، وقَتَلة الحسين كلهم بالكوفة ، منهم عمر بن سعد بن أبي وقّاص ، ورؤوس الأرباع وأشراف القبائل ، فأنّى نذهب ها هنا وندع الأقتال والأوتار! فقال سليمان بن صُرَد: فماذا ترون؟ فقالوا: والله لقد جاء برأيٍ ، وإنّ ما ذكر لكما ذكر ، والله مانلقى من قَتَلةِ الحسين إن نحن مضينا نحو الشام غيرَ ابن زياد ، وما طِلبَتُنا إلا ها هنا بالمِصْر؛ فقال سليمان بن صُرَد: لكن أنا ما أرىٰ ذلك لكم ، إنّ الذي قتل صاحبكم ، وعَبّأ الجنودَ إليه ، وقال: لا أمانَ له عندي دون أن يستسلم فأمضِي فيه حُكمي هذا الفاسق ابن الفاسق ابن مَرْجانة ، عبيد الله بن زياد؛ فسيروا إلى عدوّكم على اسم الله؛ فإن يُظهركم الله عليه رجَوْنا أن يكون مَن بعده أهونَ شوكةً منه ، ورجونا أن يدين لكم مَن وراءكم من أهل مِصْركم في عافية ، فتنظرون إلى كل مَن شرك في دم الحسين فتقاتلونه ولا تغشموا ، وإن تُستشهَدوا فإنما قاتلتم المحلِّين ، وما عندَ اللهِ خيرٌ لِلأَبْرارِ والصدّيقين؛ إني لأحبّ أن تجعلوا حدّكم وشوكتكم بأوّل المحلِّين القاسطين. والله لو قاتلتم غداً أهلَ مصركم ما عدم رجلٌ أن يرى رجلاً قد قتل أخاه وأباه وحميمَه ، أو رجلاً لم يكن يريد قتله؛ فاستخيروا الله وسيروا. فتهيَّأ الناس للشخوص. قال: وبلغ عبد الله بن يزيد وإبراهيم بن محمد بن طلحة خروجُ ابن صُرَد وأصحابه ، فنظروا في أمرهما ، فرأيا أن يأتياهم فيَعرِضا عليهم الإقامة ، وأن تكون أيديهم واحدةً ، فإن أبوْا إلا الشخوص سألوهم النّظِرَةَ حتى يعبّوا معهم جيشاً فيقاتلوا عدوّهم بكثفٍ وحدٍّ؛ فبعث عبد الله بن يزيد وإبراهيم بن محمد بن طلحة سويدَ بن عبد الرحمن إلى سليمان بن صُرَد ، فقال له: إنّ عبد الله وإبراهيم يقولان: إنّا نريد أن نجيئك الآن لأمر عسى الله أن يَجعل لنا ولك فيه صلاحاً؛ فقال: قل لهما فليأتيانا ، وقال سليمان لِرفاعة بن شدّاد البَجَليّ: قمْ أنت فأحسِن تَعبئةَ الناس؛ فإنّ هذين الرجلين قد بعثا بكَيتَ وكَيتَ ، فدعا رؤوس أصحابه فجلسوا حولَه فلم يمكثوا إلا ساعةً حتى جاء عبد الله بن يزيدَ في أشراف أهل الكوفة والشُّرَط وكثير من المقاتِلة ، وإبراهيم بن محمد بن طلحة في جماعة من أصحابه ، فقال عبد الله بن يزيد لكلّ رجل معروف قد علم أنه قد شَرّك في دم الحسين: لا تصحبنّي إليهم مخافة أن ينظروا إليه فيَعدُوا عليه ؛ وكان عمر بن سعد تلك الأيام التي كان سليمان معسكِراً فيها بالنُّخيلة لا يبيت إلا في قصر الإمارة مع عبد الله بن يزيد مخافة أن يَأتِيَه القوم في داره ، ويذمُروا عليه في بيته وهو فاعل

لا يعلم فيقتَل. وقال عبد الله بن يزيد: يا عمرو بن حريث، إن أنا أبطأتُ عنك فصلِّ بالناس الظهر.

فلما انتهى عبد الله بن يزيدَ وإبراهيم بن محمد إلى سليمان بن صُرَد دخلا عليه، فحَمِد الله عبد الله بن يزيد وأثنَى عليه ثمّ قال: إن المسلم أخو المسلم لا يخونه، ولا يغشّهُ، وأنتم إخوانُنا، وأهلُ بلدنا، وأحبّ أهلِ مصْر خلَقَهُ الله إلينا، فلا تفجعونا بأنفسكم، ولا تستَبِدّوا علينا برأيكم، ولا تنقصوا عدَدنا بخروجكم من جماعتنا؛ أقيموا معنا حتى نتيسّر ونتهيأ، فإذا علمنا أن عدونا قد شارف بلدنا خرجْنا إليهم بجماعتنا فقاتلْنَاهم. وتكلم إبراهيم بن محمد بنحو من هذا الكلام. قال: فحمِد الله سليمانُ بن صرَد وأثنىٰ عليه ثم قال لهما: إنّي قد علمت أنكما قد مَحَضْتما في النصيحة، واجتهدتما في المشورة، فنحن بالله وله، وقد خرجنا لأمر، ونحن نسأل الله العزيمة على الرشد والتسديد لأصوَبه، ولا نرانا إلا شاخصين إن شاء الله ذلك. فقال عبد الله بن يزيد: فأقيموا حتى نُعبِّيَ معكم جيشاً كثيفاً، فتلقوا عدوكم بكثف وجمع وحدٍّ. فقال سليمان: تنصرفون، ونرىٰ فيما بيننا، وسيأتيكم إن شاء الله رأيٌ[1]. (٥/ ٥٨٥ ـ ٥٨٧).

قال أبو مخنف: عن عبد الجبّار ـ يعني ابن عباس الهمدانيّ ـ عن عَوْن ابن أبي جُحَيفة السُّوَائيّ، قال: ثمّ إنّ عبد الله بن يزيدَ وإبراهيم بن محمد بن طلحة عَرَضا على سليمان أن يقيم معهما حتى يلقوا جموعَ أهل الشأم على أن يخصّاه وأصحابه بخراج جُوخَى خاصّة لهم دون الناس، فقال لهما سليمان: إنَّا ليس للدّنيا خرجنا؛ وإنما فعلا ذلك لما قد كان بلغهما من إقبال عُبيد الله بن زياد نحوَ العراق. وانصرف إبراهيم بن محمد وعبد الله بن يزيدَ إلى الكوفة. وأجمع القوم على الشخوص واستقبال ابن زياد، ونظروا فإذا شيعتُهم من أهل البَصرة لم يوافوهم لميعادهم ولا أهل المدائن، فأقبل ناس من أصحابه يلزمونهم، فقال سليمان: لا تلزموهم فإني لا أراهم إلا سيُسرعون إليكم، لو قد انتهى إليهم خبركم وحينُ مسيركم، ولا أراهم خلّفهم ولا أقعدَهم إلا قلّةُ النفقة وسوءُ العُدّة، فأقيموا ليتيسّروا ويتجهّزوا ويلحقوا بكم وبهم قوّة، وما أسرعَ القوم في

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

آثاركم. قال: ثمّ إنّ سليمان بن صُرَد قام في الناس خطيباً، فحمد اللهَ وأثنىٰ عليه، ثم قال:

أما بعد أيّها الناس، فإنّ الله قد علم ما تنوُون، وما خرجتم تَطلُبون، وإن للدّنيا تجّاراً، وللآخرة تجّاراً، فأما تاجر الآخرة فساع إليها، متنصّب بتَطْلابها، لا يشتري بها ثمناً، لا يُرى إلا قائماً وقاعداً، وراكعاً وساجداً، لا يطلب ذهباً ولا فضّة، ولا دنيا ولا لذّة، وأمّا تاجر الدّنيا فمُكبٌّ عليها، راتع فيها، لا يبتغي بها بدلاً؛ فعليكم يرحمكم الله في وجهكم هذا بطول الصلاة في جوف الليل، وبذكر الله كثيراً على كلّ حال، وتقرّبوا إلى الله جلّ ذكره بكل خير قدرتم عليه، حتى تلقَوا هذا العدوّ والمُحلّ القاسط فتجاهدوه. فإنّ تتوسّلوا إلى ربّكم بشيء هو أعظم عنده ثواباً من الجهاد والصلاة؛ فإنْ الجهاد سَنامُ العمل. جعلنَا الله وإيّاكم من العباد الصالحين، والمجاهدين الصابرين على الّلأواء! وإنا مُدْلجون الليلة من منزلنا هذا إن شاء الله فادّلجوا.

فادّلج عشيّة الجمعة لخمس مضَيْن من شهر ربيع الآخر سنة خمس وستين للهجرة.

قال: فلما خرج سليمان وأصحابُه من النُّخْيلة دعا سليمان بن صُرَد حكيم بن منقذ فنادى في الناس: ألا لا يبيتَنّ رجل منكم دون ديرْ الأعور.

فبات الناس بدير الأعور، وتخلّف عنه ناسٌ كثير، ثمّ سار حتى نزل الأقساس؛ أقساس مالك على شاطئ الفرات، فعرض الناس، فسقط منهم نحوٌ من ألف رجل، فقال ابن صُرد: ما أحبّ أن مَن تخلّف عنكم معكم، ولو خرجوا معكم ما زادوكم إلا خبالا؛ إنّ الله عزّ وجلّ كره انبعاثهم فثبطهم، وخصّكم بفضلِ ذلك، فاحمدوا ربّكم، ثم خرج من منزله ذلك دُلْجةً، فصبّحوا قبرَ الحسين، فأقاموا به ليلةً ويوماً يصلّون عليه، ويستغفرون له؛ قال: فلما انتهى الناسُ إلى قبر الحسين صاحوا صيحةً واحدة، وبكَوا؛ فما رُئي يومٌ كان أكثرَ باكياً منه[1]. (٥/ ٥٨٨ ـ ٥٨٩).

قال أبو مخنف: وقد حدّث عبد الرحمن بن جندب، عن عبد الرحمن بن

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

غزيّة ، قال: لما انتهينا إلى قبر الحسين عليه السلام بكَى الناس بأجمعهم ، وسمعتُ جُلّ الناس يتمنَّون أنهم كانوا أصيبوا معه؛ فقال سليمان: اللهمّ ارحم حسيناً الشهيدَ ابنَ الشهيد ، المهديّ ابنَ المهديّ ، الصدّيقَ ابن الصدّيق ، اللهمّ إنا نُشهدك أنا على دينهم وسبيلهم ، وأعداء قاتليهم ، وأولياء محبِّيهم ، ثمّ انصرف ونزل ، ونزل أصحابُه[1]. (٥/ ٥٨٩).

قال أبو مخنف: حدّثنا الأعمش ، قال: حدّثنا سلمة بن كُهَيْل ، عن أبي صادق ، قال: لما انتهى سليمان بن صُرَد وأصحابه إلى قبر الحسين نادَوْا صيحةً واحدةً: يا ربّ إنا قد خَذَلْنا ابْنَ بنت نبيّنا ، فاغفر لنا ما مضى منّا ، وتب علينا إنك أنت التّواب الرّحيم ، وارْحم حسيناً وأصحابه الشهداء الصدّيقين ، وإنا نُشهدك يا ربّ أنا على مثل ما قُتلوا عليه ، فإن لم تَغفر لنا وترحمْنا لنكوننّ من الخاسرين: قال: فأقاموا عنده يوماً وليلة يصلّون عليه ويبكون ويتضرّعون؛ فما انفكّ الناس من يومهم ذلك يترحّمون عليه وعلى أصحابه ، حتى صلّوا الغداة من الغَدِ عند قبره ، وزادهم ذلك حَنَقا ، ثمّ ركبوا ، فأمر سليمانُ الناسَ بالمسير ، فجعل الرجل لا يمضي حتى يأتيَ قبر الحسين فيقوم عليه ، فيترحّم عليه ، ويستغفر له ، قال: فوالله لرَأيتهم ازدحموا على قبره أكثر من ازدحام الناس على الحَجر الأسودَ.

قال: ووقف سليمان عند قبره ، فكلما دعا له قوم وترحّموا عليه قال لهم المسيّب بن نَجَبة وسليمان بن صُرَد: الحقوا بإخوانِكم رحمكم الله! فما زال كذلك حتى بقي نحو من ثلاثين من أصحابه ، فأحاط سليمانُ بالقبر هو وأصحابه ، فقال سليمان: الحمد لله الذي لو شاء أكرمَنَا بالشّهادة مع الحسين ، اللهمّ إذا حرمتَناها معه فلا تحرِمْناها فيه بعَده.

وقال عبد الله بن وال: أما والله إني لأظنّ حسيناً وأباه وأخاه أفضل أمة محمد ﷺ وسيلةً عند الله يوم القيامة ، أفما عجبتم لما ابتليتْ به هذه الأمة منهم! إنهم قتلوا اثنين وأشفَوْا بالثالث على القتل؛ قال: يقول المسيب بن نَجَبة: فأنا مِن قَتَلتِهم ومن كان على رأيهم بريءٌ إيّاهم أعادي وأقاتل. قال: فأحسن الرؤوس

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

كلُّهم المنطق ، وكان المثنَّى بن مخرّبة صاحب أحد الرؤوس والأشراف ، فساءني حيث لم أسمعه تكلَّم مع القوم بنحو ما تكلموا به؛ قال: فوالله ما لبث أن تكلّم بكلمات ما كنّ بدون كلام أحد من القوم ، فقال: إنّ الله جعل هؤلاء الذين ذكرتم بمكانهم من نبيِّهم ﷺ أفضل ممن هو دون نبيِّهم ، وقد قتلهم قوم نحن لهم أعداء ، ومنهم براء ، وقد خرجْنا من الديار والأهلين والأموال إرادةَ استئصال من قتلهم؛ فوالله لو أنّ القتال فيهم بمَغرِب الشمس أو بمنقَطع التراب يحقّ علينا طلبُه حتى نناله ، فإنّ ذلك هو الغُنْم ، وهي الشهادة التي ثوابها الجنّة ، فقلنا له: صدقتَ وأصبتَ ووُفِّقت.

قال: ثمّ إنّ سليمان بن صُرَد سار من موضع قبر الحسين وسرْنا معه ، فأخذنا على الحَصّاصة ، ثمّ على الأنبار ، ثمّ على الصدود ، ثمّ على القيَّادة.

قال أبو مخنف: عن الحارث بن حَصِيرة وغيره: إنّ سليمان بعث على مقدّمته كُريْبَ بن يزيد الحميريّ[1]. (٥/ ٥٨٩ ـ ٥٩١).

قال أبو مخنف: حدّثني الحصين بن يزيد ، عن السريّ بن كعب ، قال: خرجْنا مع رجال الحيّ نشيِّعهم ، فلما انهينا إلى قبر الحسين وانصرف سليمان بن صُرَد وأصحابه عن القبر ، ولزموا الطريقَ ، استقدَمَهم عبدُ الله بن عوف بن الأحمر على فرس له مهلوب كُمَيْت مربوع يتأكّل تأكَلاً ، وهو يرتجز ويقول:

خَرجْنَ يَلْمَعْنَ بنا أَرْسَالا عوابِساً يَحْملنَنا أَبْطَالاَ
نُرِيدُ أَنْ نَلقى به الأَقْتَالا القَاسِطِينَ الغُدُرَ الضُّلّالاَ
وقد رَفَضْنا الأَهْلَ والأَمْوَالا والخَفِراتِ البِيضَ والحِجالاَ
نُرْضي به ذا النِّعَم المِفْضَالا[2]

(٥/ ٥٩١).

قال أبو مخنف: عن سعد بن مجاهد الطائيّ ، عن المُحلّ بن خليفة الطائيّ ، أنّ عبد الله بن يزيد كتب إلى سليمان بن صُرَد ، أحسبه قال: بعثني به ، فلحقته بالقيّارة ، واستقدم أصحابه حتى ظنّ أنْ قد سبقهم ، قال: فوقف وأشار إلى

---

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.
(٢) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

الناس ، فوقفوا عليه ، ثم أقرأهم كتابه ، فإذا فيه:

بسم الله الرّحمن الرّحيم ، من عبد الله بن يزيدَ إلى سليمان بن صُرَد ومَنْ معه من المسلمين ، سلامٌ عليكم ، أما بعد فإنّ كتابي هذا إليكم كتابُ ناصح ذي إرعاء ، وكم من ناصح مستغَشّ ، وكم من غاش مستَنصَح مُحَبّ ، إنه بلغني أنكم تريدون المسير بالعَدَد اليسير إلى الجمع الكثير ، وإنه مَن يُرِد أن ينقل الجبال عن مراتبها تكلّ معاوِلُه ، وينزع وهو مذمومُ العقل والفعل. يا قومنا لا تُطمِعوا عدوّكم في أهل بلادكم ، فإنكم خيارٌ كلكم ، ومتى ما يُصِبْكم عدوّكم يعلموا أنكم أعلامُ مصركم ، فيُطمعهم ذلك فيمن وراءكم يا قومنا ، ﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓاْ إِذًا أَبَدًا﴾ يا قوم ، إن أيدينا وأيديكم اليوم واحدة ، وإن عدوّنا وعدوَّكم واحد ، ومتى تجتمع كلمتُنا نَظهَرَ على عدوّنا ، ومتى تختلف تهُنْ شوكتُنا عمَّن خالفنا؛ يا قومَنا لا تستغشوا نصحى ، ولا تخالِفوا أمري ، وأقبِلوا حين يُقرأ عليكم كتابي ، أقبلَ الله بكم إلى طاعته ، وأدبرَ بكم عن معصيته ، والسَلام.

قال: فلما قرئَ الكتاب على ابن صرد وأصحابه قال للناس: ما ترون؟ قالوا: ماذا ترى؟ قد أبيْنا هذا عليكم وعليهم ، ونحن في مصرنا وأهلنا ، فالآن خرجنا ووطَّنَا أنفسَنا على الجهاد ، ودنوْنا من أرض عدوّنا! ما هذا برأي ، ثمّ نادوه أن أخبرْنا برأيك ، قال: رأيي واللهِ أنكم لم تكونوا قطّ أقربَ من إحدى الحسنَيَيْن منكم يومَكم هذا؛ الشهادة والفتح ، ولا أرى أن تنصرفوا عما جمَعكم الله عليه من الحقّ ، وأردتم به من الفضل؛ إنا وهؤلاء مختلفون؛ إنّ هؤلاء لو ظهروا دعَونا إلى الجهاد مع ابن الزبير ، ولا أرى الجهاد مع ابن الزبير إلا ضلالا ، وإنا إن نحن ظهَرنا ردَدْنا هذا الأمرَ إلى أهله ، وإن أصِبْنا فعلى نيّاتنا ، تائبين من ذنوبنا ، إنّ لنا شكلاً وإن لابن الزبير شكلا؛ إنا وإيّاهم كما قال أخو بني كنانة:

أرى لكِ شَكْلاً غيرَ شَكلِي فأقْصِري عَنِ اللَّوْمِ إذ بُدّلتِ وٱختلف الشكلُ

قال: فانصرف الناس معه حتى نزل هيتَ ، فكتب سليمان:

بسم الله الرحمن الرحيم ، للأمير عبد الله بن يزيد ، من سليمان بن صُرَد ومن معه من المؤمنين ، سلامٌ عليك ، أما بعد ، فقد قرأنا كتابك ، وفهمنا ما نويتَ ، فنعم والله الوالي ، ونعم الأمير ، ونعم أخو العشيرة ، أنت والله من نأمنه

بالغيب ، ونستنصحه في المشورة ، ونحمده على كلّ حال؛ إنا سمعنا الله عزّ وجلّ يقول في كتابه : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾ ـ إلى قوله : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ . إن القوم قد استبشروا ببيعتهم التي بايعوا ، إنهم قد تابوا من عظيم جُرْمهم ، وقد توجّهوا إلى الله ، وتوكّلوا عليه ورَضُوا بما قضى الله ، ﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ ، والسلام عليك .

فلما أتاه هذا الكتاب قال : استمات القومُ ، أوّل خبر يأتيكم عنهم قتْلُهم ، وايم الله ليُقتلُنّ كراماً مسلمين ، ولا والذي هو ربّهم لا يقتلهم عدوّهم حتى تشتدّ شوكتُهم ، وتكثرَ القتلى فيما بينهم[1] . (٥/ ٥٩١ ـ ٥٩٣).

قال أبو مخنف : فحدّثني يوسف بن يزيد ، عن عبد الله بن عوف بن الأحمر ، وعبد الرحمن بن جندب ، عن عبد الرحمن بن غزيّة ، قالا : خرجْنا من هيتَ حتى انتهينا إلى قَرقِيسيَا ، فلما دنونا منها وقف سليمان بن صرد فعبَّأنا تعبيةً حسنة حتى مررنا بجانب قرقيسيا ، فنزلنا قريباً منها ، وبها زُفَر بن الحارث الكلابيّ قد تحصّن بها من القوم ، ولم يخرج إليهم ، فبعث سليمان المسيّب بن نجَبة ، فقال : ائت ابنَ عمك هذا فقل له : فليخرج إلينا سَوْقاً ، فإنا لسنا إياه نريد ، إنما صَمْدُنا لهؤلاء المُحِلّين ، فخرج المسيّب بن نَجَبَة حتى انتهى إلى باب قرقيسيا ، فقال : افتَحوا ، ممن تحصَّنون؟ فقالوا : من أنت؟ قال : أنا المسيّب بن نَجبة ، فأتى الهذيلُ بن زفر أباه فقال : هذا رجلٌ حسنُ الهيئة ، يستأذن عليك ، وسألناه من هو؟ فقال : المسيّب بن نجبة ـ قال : وأنا إذ ذاك لا علمَ لي بالناس ، ولا أعلم أيّ الناس هو ـ فقال لي أبي : أمَا تدري أي بُنيّ من هذا؟ هذا فارسُ مُضَر الحمراء كلها ، وإذا عُدّ من أشرافها عشرة كان أحدَهم ، وهو بعدُ رجلٌ ناسكٌ له دين ، ائذنَ له . فأذنتُ له ، فأجلَسَه أبي إلى جانبه ، وساءلَه وألطفه في المسألة ، فقال المسيّب بن نَجَبة : ممن تتحصّن؟ إنا والله ما إياكم نريد ، وما اعترينا إلى شيء إلا أن تُعينَنَا على هؤلاء القوم الظَّلَمَة المُحِلين ، فاخرج لنا سوقاً ، فإنا لا نقيم بساحتكم إلا يوماً أو بعض يوم ، فقال له زُفر بن الحارث : إنا لم نُغلق أبوابَ هذه

---

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك .

المدينة إلا لنعلم إيانا اعتريتم أم غيرَنا! إنَّا واللهِ ما بنا عجزٌ عن الناس ما لم تدهَمْنا حِيلة ، وما نحبّ أنا بُلينا بقتالكم؛ وقد بلَغَنا عنكم صلاح ، وسِيرةٌ حسنة جميلة .

ثم دعا ابنه فأمره أن يضع لهم سوقاً ، وأمر للمسيّب بألف درهم وفرس ، فقال له المسيّب: أما المال فلا حاجةَ لي فيه ، والله ما له خرجْنا ، ولا إياه طلبْنا ، وأما الفرس فإني أقبله لعلي أحتاج إليه إنْ ظَلَع فرسي ، أو غَمَزَ تحتي ، فخرج به حتى أتى أصحابَه وأخرِجتْ لهم السوقُ ، فتسوقوا ، وبعث زُفَر بن الحارث إلى المسيّب بن نَجَبة بعد إخراج الأسواق والأعلاف والطعام الكثير بعشرين جَزوراً ، وبعث إلى سليمان بن صُرَد مثلَ ذلك ، وقد كان زُفَر أمر ابنه أن يسأل عن وجوه أهل العسكر ، فسُمِّيَ له عبد الله بن سعد بن نُفَيل وعبد الله بن والٍ ورفاعة بن شدّاد ، وسُمّى له أمراء الأرباع .

فبعث إلى هؤلاء الرؤوس الثلاثة بعشر جزائر عشر جزائر ، وعلف كثير وطعام ، وأخرج للعسكر عِيراً عظيمةً وشعيراً كثيراً ، فقال غلمان زُفَر: هذه عِير فاجتَزِروا منها ما أحببتم ، وهذا شعير فاحتمِلوا منه ما أردتم ، وهذا دقيق فتزّودوا منه ما أطقْتم ، فظلّ القومُ يومَهم ذلك مُخصِبين لم يَحتاجوا إلى شراء شيء من هذه الأسواق التي وضعت ، وقد كُفُوا اللحم والدقيق والشعيرَ إلا أن يشتريَ الرجلُ ثوباً أو سوطاً ، ثمّ ارتحلوا من الغد ، وبعث إليهم زُفَر: إني خارج إليكم فمشيِّعكم؛ فأتاهم وقد خرجوا على تعبيَةٍ حسنة ، فسايرَهم ، فقال زفر لسليمان: إنه قد بعث خمسة أمراء قد فصلوا من الرّقّة فيهم الحصين بن نمير السَّكُونيّ ، وشُرَحْبِيل بن ذي كَلاع ، وأدهم بن محرِز الباهليّ وأبو مالك بن أدهم ، وربيعة بن المخارق الغَنَويّ ، وجَبَلَة بن عبد الله الخثعميّ؛ وقد جاؤوكم في مثل الشوك والشجر ، أتاكم عدد كثير ، وحدٌّ حديد ، وايم الله لقلّ ما رأيتُ رجالاً هم أحسن هيئةً ولا عُدّةً ، ولا أخلق لكلّ خير من رجال أراهم معك؛ ولكنه قد بلغني أنه قد أقبلتْ إليكم عدّة لا تحصى؛ فقال ابن صُرَد: على الله توكّلْنا ، وعليه فليتوكّل المتوكلون ، ثم قال زفر: فهل لكم في أمر أعرِضه عليكم؛ لعلّ الله أن يجعَل لنا ولكم فيه خيراً؟ إن شئتم فتحْنا لكم مدينتنا فدخلتموها فكان أمرُنا واحداً وأيدينا واحدةً ، وإن شئتم نزلتم على باب مدينتنا ، وخرجنا فعسكرْنا إلى جانبكم ، فإذا جاءنا هذا العدوّ قاتلْناهم جميعاً. فقال

سليمان لزفَر: قد أرادنا أهلُ مصرنا على مثل ما أردتنا عليه وذكروا مثلَ الذي ذكرت، وكتبوا إلينا به بعدما فصَلْنا، فلم يوافقنا ذلك، فلسنا فاعلين؛ فقال زفر: فانظروا ما أشير به عليكم فاقبَلوه، وخذوا به، فإنّي للقوم عدوّ، وأحبُّ أن يجعل الله عليهم الدائرةَ، وأنا لكم وادٌّ، أحِبّ أن يحوطكم الله بالعافية؛ إنّ القوم قد فصلوا من الرّقّة، فبادِروهم إلى عين الوَرْدَة، فاجعلوا المدينةَ في ظهوركم، ويكون الرّستاق والماء والمادّ في أيديكم، وما بين مدينتنا ومدينتكم فأنتم له آمنون، والله لو أن خيولي كرجالي لأمددتُكم، اطوُوا المنازلَ الساعة إلى عين الوردة؛ فإنّ القوم يسيرون سيرَ العساكر، وأنتم على خيول، والله لقلّ ما رأيتُ جماعةَ خيل قطّ أكرمَ منها؛ تأهّبوا لها من يومكم هذا فإني أرجو أن تسبقوهم إليها، وإن بدرتموهم إلى عين الوردة فلا تقاتلوهم في فضاء ترامونهم وتُطاعنونهم، فإنهم أكثر منكم فلا آمن أن يحيطوا بكم، فلا تقفوا لهم ترامونهم وتُطاعنُونهم، فإنه ليس لكم مثل عددهم، فإن استهدفتم لهم لم يُلبثوكم أن يَصرَعوكم، ولا تصفّوا لهم حين تلقونهم، فإني لا أرى معكم رجّالةً، ولا أراكم كلكم إلا فرساناً، والقومُ لاقُومكم بالرجال والفُرسان؛ فالفُرسان تحمي رجالها، والرجال تَحمي فرسانها، وأنتم ليس لكم رجال تَحمى فرسانكم، فالقوهم في الكتائب والمقانب، ثمّ بثّوها ما بين ميمنتهم وميسرتهم، واجعلوا مع كلّ كتيبة كتيبةً إلى جانبها فإن حمل على إحدى الكتيبتَين ترجَّلت الأخرى فنفّستْ عنها الخيلُ والرجال، ومتى ما شاءت كتيبة ارتفعت، ومتى ما شاءت كتيبة انحطَّت، ولو كنتم في صفّ واحد فزحفتْ إليكم الرجال فدفعتم عن الصفّ انتقض وكانت الهزيمة؛ ثم وقف فودَّعهم، وسأل الله أن يصحبهم وينصرَهم، فأثنَى الناسُ عليه، ودَعَوا له، فقال له سليمان بن صرد: نعم المَنْزول به أنت! أكرمت النزول، وأحسنتَ الضيافةَ، ونصحتَ في المَشورة، ثمّ إنّ القوم جدّوا في المسير، فجعلوا يجعلون كلّ مرحلتين مرحلة؛ قال: فمررنا بالمدن حتى بلغنا ساعا، ثمّ إنّ سليمان بن صُرّد عبّى الكتائبَ كما أمره زُفَر، ثمّ أقبل حتى انتهى إلى عين الوردة فنزل في غربيِّها، وسبق القومَ إليها، فعسكروا، وأقام بها خمساً لا يبرح، واستراحوا واطمأنّوا، وأراحوا خيلَهم[١]. (٥/ ٥٩٣ ـ ٥٩٦).

---

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

قال هشام: قال أبو مخنف، عن عطيَّة بن الحارث، عن عبد الله بن غَزِيَّة، قال: أقبل أهل الشام في عساكرهم حتى كانوا من عَيْن الوَرْدة على مسيرة يوم وليلة، قال عبد الله بن غزيّة: فقام فينا سليمان فحَمِد الله فأطال، وأثنى عليه فأطنَب، ثم ذكر السماء والأرضَ، والجبالَ والبحارَ وما فيهنَّ من الآيات، وذكر آلاءَ الله ونعمَه، وذكر الدنيا فزهَّد فيها، وذكر الآخرة فرغَّب فيها، فذكر من هذا ما لم أحصه، ولم أقدر على حفظه، ثم قال: أما بعد، فقد أتاكم الله بعدوكم الذي دأبتم في المسير إليه آناء الليل والنهار، تريدون فيما تظهرون التوبة النَّصُوح، ولقاءَ الله مُعذِرين فقد جاؤوكم بل جئتموهم أنتم في دارهم وحيِّزهم، فإذا لقيتموهم فاصدُقوهم، واصبروا إن الله مع الصابرين، ولا يولِّينّهم امرؤٌ دُبره إلاّ متحرّفاً لقتال أو متحيّزاً إلى فئة، لا تقتلوا مدبراً، ولا تُجهزوا على جريح، ولا تقتلوا أسيراً من أهل دعوتكم، إلا أن يقاتلكم بعد أن تأسروه، أو يكون من قَتَلةِ إخواننا بالطفّ رحمة الله عليهم؛ فإنّ هذه كانت سيرة أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب في أهل هذه الدعوة، ثم قال سليمان: إن أنا قُتلتُ فأميرُ الناس المسيَّب بن نَجَبة فإن أصيبَ المسيَّب فأميرُ الناس عبدُ الله بن سعد بن نفيل، فإن قُتل عبد الله بن سعد، فأميرُ الناس عبدُ الله بن والٍ، فإن قُتل عبد الله بن وال فأميرُ الناس رفاعة بن شدّاد، رحم الله امرأً صَدقَ ما عَاهَد الله عليه! ثمّ بعث المسيّب بن نَجَبة في أربعمئة فارس، ثم قال: سرْ حتى تلقى أوّل عسكر من عساكرهم فشُنّ فيهم الغارة، فإذا رأيت ما تحبُّه وإلا انصرفتَ إليّ في أصحابك؛ وإيّاك أن تنزل أو تَدَع أحداً من أصحابك أن ينزِل، أو يستقبل آخر ذلك، حتى لا تجدَ منه بدّاً[1]. (٥/ ٥٩٦).

قال أبو مخنف: فحدّثني أبي عن حُمَيْد بن مسلم أنه قال: أشهد أني في خيل المسيِّب بن نَجَبَة تلك، إذا أقبلنا نسير آخرَ يومنا كلّه وليلتنا، حتى إذا كان في آخر السَّحر نزلْنا فعلّقنا على دوابنا مَخالِيَها، ثمّ هومْنا تهويمةً بمقدار تكون مقدار قضْمِها ثم ركبناها، حتى إذا انبلج لنا الصبح نزلْنا فصلّينا، ثمّ رَكب فركبنا، فبعث أبا الجُوَيْرية العبديّ بن الأحمر في مئة من أصحابه، وعبد الله بن عوف بن

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

الأحمر في مئة وعشرين ، وحنش بن ربيعة أبا المعتمر الكنانيّ في مثلها ، وبقيَ هو في مئة؛ ثم قال: انظُروا أوّل من تلقَون فأتُوني به ، فكان أوَّلَ من لقينا أعرابيّ يطرُد أحمِرةً وهو يقول:

يا مـالِ لا تَعجلْ إلى صحْبِي وأسرحْ فإنّك آمِنُ السِّرْبِ

قال: يقول عبد الله بن عوف بن الأحمر: يا حَميْد بن مُسلم ، أبشر بُشرَى وربّ الكعبة ، فقال له ابن عوف بن الأحمر: ممّن أنت يا أعرابيّ؟ قال: أنا من بني تغْلبٍ؛ قال: غلبتم وربّ الكعبة إن شاء الله ، فانتهى إلينا المسيّب بن نجبة ، فأخبرناه بالذي سمعْنا من الأعرابيّ وأتيناه به ، فقال المسيّب بن نَجَبة ، أما لقد سُررتُ بقولك: أبشِر ، وبقولك: يا حميد بن مسلم ، وإني لأرجو أن تبشّروا بما يسرّكم ، وإنّما سرّكم أن تحمدوا أمرَكم ، وأن تَسلَموا من عدوّكم ، وإنّ هذا الفأل لهو الفأل الحسن ، وقد كان رسولُ الله ﷺ يعجبُه الفأل ، ثم قال المسيّب بن نجبَة للأعرابيّ: كم بيننا وبين أدنى هؤلاء القوم منّا؟ قال: أدنى عسكر من عساكرهم منك عسكرُ ابن ذي الكلاع ، وكان بينه وبين الحصين اختلاف ، ادّعى الحصين أنه على جماعة الناس ، وقال ابن ذي الكلاع: ما كنتَ لتولّى عليّ ، وقد تكاتبا إلى عبيد الله بن زياد ، فهما ينتظران أمره ، فهذا عسكر ابن ذي الكلاع منكم على رأس ميل؛ قال: فتركْنا الرجل ، فخرجنا نحوَهم مُسرِعين ، فوالله ما شعروا حتى أشرفْنا عليهم وهم غارّون ، فحملْنا في جانب عسكرهم ، فوالله ما قاتلوا كثيرَ قتال حتى انهزموا ، فأصبنا منهم رجالاً ، وجَرحنْا فيهم فأكثَرْنا الجراح ، وأصبنا لهم دوابّ ، وخرجوا عن عسكرهم وخلّوه لنا ، فأخذنا منه ما خفّ علينا ، فصاح المسيّب فينا: الرجعة ، إنكم قد نُصِرتم ، وغَنِمتم وسَلِمتم ، فانصرِفوا ، فانصرَفْنا حتى أتينا سليمان.

قال: فأتى الخبرُ عبيد الله بن زياد ، فسرّح إلينا الحُصَين بن نمير مسرعاً حتى نزل في اثني عشر ألفاً ، فخرجْنا إليهم يومَ الأربعاء لثمانٍ بقين من جُمادى الأولى؛ فجعل سليمانُ بن صُرَد عبد الله بن سعد بن نفيل على ميمنته ، وعلى ميسرته المسيّب بن نَجَبة ، ووقف هو في القلب ، وجاء حصين بن نمير وقد عبّأ لنا جُندَه ، فجعل على ميمنته جبلة بن عبد الله ، وعلى ميسرته ربيعة بن المخارق الغَنَويّ ، ثم زحفوا إلينا ، فلما دَنوْا دعونا إلى الجماعة على عبد الملك بن مروان

وإلى الدخول في طاعته ، ودَعوناهم إلى أن يدفعوا إلينا عُبيد الله بن زَياد فنقتلهَ ببعض من قتل من إخواننا ، وأن يَخلعوا عبد الملك بن مروان ، وإلى أن يُخْرَجَ مَن ببلادنا من آل ابن الزبير ، ثم نردّ هذا الأمر إلى أهل بيت نبيِّنا الذين آتانا الله من قلبهم بالنعمة والكرامة ، فأبى القوم وأبينا.

قال حميد بن مسلم: فحملتْ ميمنتُنا على ميسرتهم وهزمتهم ، وحملتْ ميسرتنا على ميمنتهم ، وحمل سليمان في القلب على جماعتهم ، فهزَمنْاهم حتى اضطررناهم إلى عسكرهم. فما زال الظفر لنا عليهم حتى حجز الليلُ بيننا وبينهم ، ثمّ انصرفْنا عنهم وقد حجزناهم في عسكرهم ، فلما كان الغد صبَّحهم ابن ذي الكَلاع في ثمانية آلاف ، أمدّهم بهم عبيد الله بن زياد، وبعث إليه يشتمه ، ويقع فيه ، ويقول: إنما عملتَ عَملَ الأغمار ، تُضيع عسكرك ومسالحكَ! سر إلى الحصين بن نمير حتى توافيَه وهو على الناس. فجاءَه ، فغدوا علينا وغادَيناهم ، فقاتلناهم قتالاً لم يرَ الشِّيبُ والمُرْدُ مِثلَه قطّ يومنا كلَّه ، لا يحجز بيننا وبين القتال إلا الصلاة حتى أمسَيْنا فتحاجزنا ، وقد والله أكثروا فينا الجراحَ ، وأفشيناها فيهم؛ قال: وكان فينا قُصّاصُ ثلاثة: رفاعة بن شدّاد البَجَليّ ، وصُحَير بن حذيفة بن هلال بن مالك المرّيّ ، وأبو الجُوَيْرِية العبديّ ، فكان رفاعة يقصّ ويُحضّض الناس في الميمنة ، لا يبرَحُها ، وجُرح أبو الجويرية اليوم الثاني في أوّل النهار ، فلزم الرّحال ، وكان صُحَير ليلتَه كلها يدور فينا ويقول: أبشروا عباد الله بكرامة الله ورضوانه ، فحقّ والله لمَنْ ليس بينه وبين لقاء الأحبّة ودخول الجنة والراحة من إبرام الدنيا وأذاها إلا فراقُ هذه النفس الأمّارة بالسوء أن يكون بفراقها سَخِيّاً ، وبلقاءِ ربه مسروراً ، فمكثْنا كذلك حتى أصبحنا ، وأصبح ابن نمير وأدهم بن محرز الباهليّ في نحو من عشرة آلاف ، فخرجوا إلينا ، فاقتتلنا اليومَ الثالثَ يومَ الجمعة قتالاً شديداً إلى ارتفاع الضّحى ، ثمّ إنّ أهل الشام كَثرونا وتعطّفوا علينا من كلّ جانب ، ورأى سليمانُ بن صُرد ما لقى أصحابُه ، فنزل فنادى: عبادَ الله ، من أراد البُكور إلى ربّه ، والتوبة من ذنبه ، والوفاء بعهده ، فإليَّ؛ ثم كسر جفنَ سيفِه ، ونزل معه ناسٌ كثير ، فكسروا جفونَ سيوفهم ، ومشَوْا معه ، وانزوت خيلُهم حتى اختلطت مع الرّجال ، فقاتلوهم حتى نزلت الرجال تشتدّ مُصلتةً بالسيوف ، وقد كسروا الجفون ، فحمل الفرسانُ

على الخيل ولا يثبتون ، فقاتلوهم وقتلوا من أهل الشام مقتلةً عظيمةً ، وجرحوا فيهم فأكثروا الجِراح ، فلما رأى الحصين بن نمير صَبْرَ القوم وبأسَهم ، بعث الرجالَ ترميهم بالنّبل ، واكتنفتْهم الخيل والرجال ، فقُتِل سليمان بن صُرَد رحمه الله ، رماه يزيد بن الحصين بسهم فوقع ، ثمّ وثب ثم وقع؛ قال: فلما قتل سليمان بن صُرَد أخذ الراية المسيّب بن نَجَبة ، وقال لسليمان بن صُرَد: رحمك الله يا أخي! فقد صدقت ووفَيت بما عليك ، وبقي ما علينا ، ثمّ أخذ الراية فشدَّ بها ، فقاتل ساعةً ثمّ رجع ، ثم شدَّ بها فقاتل ثمّ رجع ، ففعل ذلك مراراً يشدّ ثم يرجع ، ثم قُتل رحمه الله[1]. (٥/ ٥٩٧ ـ ٥٩٩).

قال أبو مخنف: وحدَّثنا فروة بن لقيط ، عن مولىً للمسيّب بن نجَبَة الفزاريّ ، قال: لقيته بالمدائن وهو مع شبيب بن يزيد الخارجيّ ، فجرى الحديثُ حتى ذكرْنا أهلَ عين الوردة[2]. (٥/ ٥٩٩).

قال هشام عن أبي مخنف: قال: حدّثنا هذا الشيخ ، عن المسيّب بن نَجَبة ، قال: والله ما رأيت أشجعَ منه إنساناً قطّ ولا من العصابة التي كان فيهم ، ولقد رأيتُه يومَ عين الوردة يقاتل قتالاً شديداً ، ما ظننتُ أنّ رجلاً واحداً يقدر أن يُبلي مِثلَ ما أبلَى ، ولا ينكأ في عدوّه مثلَ ما نكَأ ، لقد قتل رجالاً؛ قال: وسمعتُه يقول قبل أن يُقتَل وهو يقاتلهم:

قد علمتْ مَيالةُ الذَّوائبِ ... واضِحةُ اللَّبابِ والتَّرائبِ
أنِّى غَداةَ الرَّوعِ والتَّغالُبِ ... أشْجَعُ مِنْ ذي لِبَدٍ مُواثِبِ
قطَّاعُ أقرانٍ مَخُوفُ الجانِبِ[3]

(٥/ ٥٩٩ ـ ٦٠٠)

قال أبو مخنف: حدّثني أبي وخالي ، عن حُميد بن مسلم وعبد الله بن غزيّة ، قال أبو مخنف: وحدثني يوسف بن يزيدَ ، عن عبد الله بن عوف ، قال: لما قتل المسيّب بن نَجَبة أخذ الراية عبدُ الله بن سعد بن نُفَيْل ، ثم قال رحمه الله: أخويَّ

---

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.
(٢) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.
(٣) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

منهمْ مَن قَضى نحبه ، ومنهم من يَنتظر وما بَدَّلوا تبديلاً ، وأقبل بمن كان معه من الأزْد ، فحَفّوا برايته ، فوالله إنا لكذلك إذ جاءنا فرسان ثلاثة : عبد الله بن الخضِل الطائيّ ، وكثير بن عمرو المُزَنّي ، وسعر بن أبي سعر الحنفيّ ، كانوا خرجوا مع سعد بن حذيفة بن اليَمانِ في سبعين ومئة من أهل المدائن ، فسرّحهم يومَ خرج في آثارنا على خيول مقلّمة مقدّحة ، فقال لهم : اطوُوا المنازلَ حتى تلحقوا بإخواننا فتبشِّروهم بخروجنا إليهم لتشتدّ بذلك ظهورُهم ، وتخبروهم بمجيء أهلِ البصرة أيضاً ، كان المثنى بن مخرّبة العبديّ أقبل في ثلاثمئة من أهل البصرة ، فجاء حتى نزل مدينة بَهرُسير بعد خروج سعد بن حُذَيفة من المدائن لخمس ليال ، وكان خروجُه من البصرة قبل ذلك قد بلغ سعدَ بن حذيفة قبل أن يخرج من المدائن ، فلما انتَهوا إلينا قالوا : أبشروا فقد جاءكم إخوانكم من أهل المدائن وأهل البصرة؛ فقال عبد الله بن سعد بن نُفَيل : ذلك لو جاؤونا ونحن أحياء؛ قال : فنظروا إلينا ، فلما رأوا مصارعَ إخوانهم وما بنا من الجراح ، بكى القومُ وقالوا : وقد بلغ منكم ما نَرَى! إنّا لله وإنا إليه راجعون! قال : فنظروا والله إلى ما ساء أعينَهم؛ فقال لهم عبد الله بن نُفَيل : إنا لهذا خرجْنا ، ثمّ اقتتلنا فما اضطربنا إلا ساعةً حتى قتل المزنيّ ، وطعِن الحنفيّ فوقع بين القتلى ، ثم ارتُثّ بعد ذلك فنجا ، وطعن الطائيّ فجزِم أنفُه ، فقاتل قتالاً شديداً ، وكان فارساً شاعراً ، فأخذ يقول :

قــد علِمـتْ ذاتُ القَــوام الــرُّودِ ... أنْ لَـسْـتُ بالوانِـي ولا الرِّعدِيــدِ
يومــاً ولا بالفَــرِقِ الحَيُـودِ

قال : فحمل علينا ربيعة بن المخارق حملةً منكرة ، فاقتتلنا قتالاً شديداً.

ثمّ إنه اختلف هو وعبد الله بن سعد بن نفيل ضربتين ، فلم يصنع سيفاهما شيئاً ، واعتنق كلّ واحد منهما صاحبه ، فوقعا إلى الأرض ، ثمّ قاما فاضطربا ، ويحمل ابن أخي ربيعة بن المخارق على عبد الله بن سعد ، فطعنه في ثُغْرة نحره ، فقتله ، ويحمل عبد الله بن عوف بن الأحمر على ربيعة بن المخارق ، فطعنه فصرَعه ، فلم يُصِب مَقتلاً؛ فقام فكرّ عليه الثانية ، فطعنه أصحابُ ربيعة فصرَعوه؛ ثمّ إنّ أصحابَه استنقذوه ، وقال خالد بن سعد بن نفيل : أرُوني قاتلَ أخي ، فأرَيناه ابن أخي ربيعةَ بن المخارق؛ فحمل عليه فقنَّعه بالسيف واعتنقه

الآخرُ فخرّ إلى الأرض ، فحمل أصحابه وحملْنا ، وكانوا أكثر منّا فاستنقذوا صاحبَهم ، وقتلوا صاحبَنا ، وبقيت الرّاية ليس عندها أحدٌ.

قال: فنادينا عبد الله بن والٍ بعد قتلهم فرسانَنا ، فإذا هو قد استلحم في عصابة معه إلى جانبنا ، فحمل عليه رفاعة بن شدّاد ، فكشَفَهم عنه ، ثمّ أقبل إلى رايته وقد أمسكها عبد الله بن خازم الكثيريّ ، فقال لابن وال: أمسك عني رايتك؛ قال: امسكْها عنِّي رحمك الله ، فإنِّي بي مثلُ حالك فقال له: أمسك عني رايتك ، فإنّي أريد أن أجاهد؛ قال: فإنّ هذا الذي أنت فيه جهاد وأجر؛ قال: فصِحنْا: يا أبا عزَّة ، أطع أميرَك يرحَمُك الله! قال: فأمسكها قليلاً ، ثمّ إنّ ابن وال أخذها منه[١]. (٥/ ٦٠٠ ـ ٦٠١).

قال أبو مخنف: قال أبو الصلت التيميّ الأعور: حدّثني شيخ للحيّ كان معه يومئذ ، قال: قال لنا ابن وال: مَنْ أراد الحياة التي ليس بعدها موت ، والراحة التي ليس بعدها نَصَبٌ ، والسرورَ الذي ليس بعده حَزْنٌ ، فليتقرّب إلى ربّه بجهاد هؤلاء المحلِّين ، والرواح إلى الجنة رحِمكم الله! وذلك عند العصر؛ فشدّ عليهم ، وشددْنا معه ، فأصبنا والله منهم رجالاً ، وكشفناهم طويلاً ، ثمّ إنهم بعد ذلك تعطّفوا علينا من كلّ جانب ، فحازونا حتى بلغوا بنا المكان الذي كنا فيه ، وكنا بمكان لا يقدرون أن يأتونا فيه إلاّ من وجه واحد ، وولِيَ قتالَنا عند المساء أدهم بن مُحرِز الباهليّ ، فشدّ علينا في خيله ورجاله ، فقتل عبد الله بن وال التيميّ[٢]. (٥/ ٦٠١ ـ ٦٠٢).

قال أبو مخنف: عن فروة بن لقيط ، قال: سمعت أدهمَ بن محرز الباهليّ في إمارة الحجّاج بن يوسفَ وهو يحدّث ناساً من أهل الشأم ، قال: دفعت إلى أحد أمراءِ العراق؛ رجل منهم يقولون له عبد الله بن وال وهو يقول: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ . . . ﴾ الآيات الثلاث ، قال: فغاظني ، فقلت في نفسي: هؤلاء يَعدّوننا بمنزلة أهل الشرك ، يَرَون أنّ من قتلْنا منهم كان شهيداً.

---

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.
(٢) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

فحملتُ عليه أضرب يده اليسرى فأطَنَنْتها ، وتنحّيت قريباً ، فقلت له: أما إني أراك وَدِدْتَ أنك في أهلك ، فقال: بئسما رأيت! أما والله ما أحبّ أنها يدك الآن إلاّ أن يكون لي فيها من الأجر مثل مافي يدي؛ قال: فقلت له: لم؟ قال: لكيما يجعل الله عليك وِزْرَها ، ويُعظم لي أجرها؛ قال: فغاظني فجمعتُ خيلي ورجالي؛ ثمّ حملنا عليه وعلى أصحابه ، فدفعتُ إليه فطعنتُه فقتلتُه ، وإنه لمقبل إليّ ما يزول؛ فزعموا بعدُ أنه كان من فقهاء أهل العراق الذين كانوا يُكثرون الصوم والصلاة ويُفتُون الناس[1] . (٥/ ٦٠٢).

قال أبو مخنف: وحدّثني الثقة ، عن حميد بن مسلم وعبد الله بن غزيّة قال: لما هلك عبد الله بن والٍ نظرنا ، فإذا عبد الله بن خازم قتيل إلى جنبه ، ونحن نرى أنه رفاعة بن شدّاد البَجَليّ ، فقال له رجل من بني كنانة يقال له الوليد بن غضين: أمسك رايتَك؛ قال: لا أريدها؛ فقلت له: إنا لله! ما لَكَ! فقال: ارجعوا بنا لعلّ الله يجمعَنا ليوم شرّ لهم ، فوثب عبد الله بن عوف بن الأحمر إليه ، فقال: أهلكْتَنا ، والله لئن انصرفت ليركبُنّ أكتافنا فلا نبلغ فرسخاً حتى نَهلِك من عند آخرِنا ، فإن نجا منا ناج أخذه الأعراب وأهلُ القرى ، فتقرّبوا إليهم به فيُقتَل صبراً ، أنشدك الله أن تفعل ، هذه الشمس قد طفلتْ للمغيب ، وهذا الليلُ قد غشيَنا ، فنقاتلهم على خيلنا هذه فإنا الآن ممتنعون ، فإذا غَسَق الليل ركبنا خيولَنا أوّل الليل فرمينا بها ، فكان ذلك الشأن حتى نُصبح ونسير ونحن على مَهَل ، فيحمل الرجل منا جريحَه وينتظر صاحبَه ، وتسير العَشَرة والعشرون معاً ، ويعرف الناس الوجهَ الذي يأخذون ، فيتبع فيه بعضهم بعضاً؛ ولو كان الذي ذكرت لم تقف أم على ولدها ، ولم يعرف رجل وجهَه ، ولا أين يسَقُط ، ولا أين يَذهَب! ولم نصبح إلا ونحن بين مقتول ومأسور ، فقال له رفاعة بن شدّاد: فإنك نعمَ ما رأيت؛ قال: ثمّ أقبل رفاعة على الكنانيّ فقال له: أتمسكها أم آخذُها منك؟ فقال له الكنانيّ: إني لا أريد ما تريد ، إني أريد لقاء ربِّي ، واللَّحاق بإخواني ، والخروجَ من الدنيا إلى الآخرة ، وأنت تريد ورقَ الدنيا ، وتَهوَى البقاء ، وتكره فراق الدنيا ، أما والله إني لأحبُّ لك أن ترشد ، ثمّ دفع إليه الراية ، وذهب

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

ليستقدم ، فقال له ابن أحمر: قاتل معنا ساعةً رحمك الله ولا تُلقِ بيدك إلى التَّهلُكة. فما زال به يناشده حتى احتبس عليه ، وأخذ أهلُ الشام يتنادَوْن: إنّ الله قد أهلكهم؛ فأقدموا عليهم فافرُغوا منهم قبل الليل ، فأخذوا يقدمون عليهم ، فيقدمون على شوكة شديدة؛ ويقاتلون فُرساناً شجعاناً ليس فيهم سَقَط رجل ، وليسوا لهم بمضجرين فيتمكنوا منهم: فقاتلوهم حتى العشاء قتالاً شديداً ، وقتِل الكنانيّ قبل المساء ، وخرج عبد الله بن عزيز الكنديّ ومعه ابنه محمد غلام صغير ، فقال: يا أهل الشام ، هل فيكم أحدٌ من كندة؟ فخرج إليه منهم رجال ، فقالوا: نَعَم ، نحن هؤلاء.

فقال لهم: دونكم أخوكم فابعثوا به إلى قومكم بالكُوفة ، فأنا عبد الله بن عزيز الكنديّ ، فقالوا له: أنت ابن عمّنا ، فإنك آمن؛ فقال لهم: والله لا أرغب عن مَصارع إخواني الذين كانوا للبلاد نوراً ، وللأرض أوتاداً ، وبمثلهم كان الله يُذكرَ؛ قال: فأخذ ابنُه يبكي في أثرَ أبيه ، فقال: يا بنيّ ، لو أن شيئاً كان آثَرَ عندي من طاعة ربِّي إذاً لكنتَ أنتَ ، وناشَدَه قومه الشاميون لما رأوا من جزع ابنه وبكائه في أثره ، وأرى الشاميون له ولابنه رِقَّة شديدة حتى جزعوا وبكَوا ، ثم اعتزل الجانب الذي خرج إليه منه قومه ، فشدّ على صفّهم عند المساء ، فقاتلَ حتى قُتل[1]. **(٥/ ٦٠٢ ـ ٦٠٤)**.

قال أبو مخنف: حدّثني فضيل بن خَدِيج ، قال: حدّثني مسلم بن زَحْر الخَوْلانيّ ، أنّ كريب بن زيد الحميريّ مشى إليهم عند المساء ومعه راية بَلْقاء في جماعة ، قلّما تَنقُص من مئة رجل إنْ نقصَت ، وقد كانوا تحدّثوا بما يريد رفاعة أن يصنع إذا أمسى ، فقام لهم الحميريّ وجمع إليه رجالاً من حميَر وهَمْدان ، فقال: يا عباد الله! رُوحوا إلى ربّكم ، والله مافي شيء من الدنيا خَلَف من رضاء الله والتوبة إليه ، إنه قد بلغني أنّ طائفة منكم يريدون أن يرجعوا إلى ما خرجوا منه إلى دنياهم ، وإن هم ركنوا إلى دنياهم رجعوا إلى خطاياهم ، فأمّا أنا فوالله لا أولّي هذا العدوّ ظهري حتى أرِدَ مَوارِد إخواني؛ فأجابوه وقالوا: رأينا مثل رأيك ، ومضى برايته حتى دنا من القوم ، فقال ابن ذي الكَلاع: والله إني لأرى

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

هذه الراية حِمْيَريّة أو هَمْدانيّة ، فدنا منهم فسألهم ، فأخبروه ، فقال لهم: إنكم آمنون ، فقال له صاحبهم: إنه قد كنا آمنين في الدنيا ، وإنما خرجنا نطلب أمانَ الآخرة؛ فقاتلوا القوم حتى قُتلوا ، ومشى صُخير بن حذيفة بن هلال بن مالك المُزَنّي في ثلاثين من مُزَينة ، فقال لهم: لا تهابوا الموت في الله ، فإنه لاقيكم ، ولا ترجعوا إلى الدّنيا التي خرجتم منها إلى الله فإنها لا تَبقَى لكم ، ولا تَزهَدوا فيما رغبتم فيه من ثواب الله فإنّ ما عند الله خيرٌ لكم؛ ثمّ مضَوا فقاتَلوا حتى قُتلوا ، فلما أمسىٰ الناسُ ورجع أهل الشام إلى معسكرهم ، نظر رفاعة إلى كلّ رجل قد عُقر به ، وإلى كل جريح لا يُعينُ على نفسه؛ فدفعه إلى قومه ، ثمّ سار بالناس ليلتَه كلَّها حتى أصبح بالتُّنَيْنير فعبَر الخابُور ، وقطع المعابر ، ثمّ مضى لا يمرّ بمعبر إلا قطعه ، وأصبح الحصين بن نمير فبعث فوجدهم قد ذَهبَوا ، فلم يبعث في آثارهم أحداً ، وسار بالناس فأسرَعَ ، وخلَّف رفاعة وراءهم أبا الجُوَيْرية العبديّ في سبعين فارساً يَستُرون الناس؛ فإذا مرّوا برجل قد سقط حمله ، أو بمتاع قد سقط قَبَضَه حتى يعرفه ، فإن طُلب أو ابتُغيَ بعث إليه فأعلمه ، فلم يزالوا كذلك حتى مرّوا بقَرْقِيسيا من جانب البرّ ، فبعث إليهم زُفَر من الطعام والعلَف مثل ما كان بعث إليهم في المرة الأولى ، وأرسل إليهم الأطباء وقال: أقيموا عندنا ما أحببتم ، فإنّ لكم الكرامة والمواساة؛ فأقاموا ثلاثاً ، ثمّ زوّد كلَّ امرئ منهم ما أحبّ من الطعام والعَلَف؛ قال: وجاء سعد بن حُذَيفة بن اليمان حتى انتهى إلى هِيتَ ، فاستقبله الأعراب فأخبَروه بما لقى الناس ، فانصرف ، فتلقى المثنى بن مخرّبة العبديّ بصندوْداء ، فأخبره ، فأقاموا حتى جاءهم الخبر: إنّ رفاعة قد أظلّكم فخرجوا حين دنا من القرية ، فاستقبلوه فسلم الناس بعضُهم على بعض ، وبكى بعضُهم إلى بعض ، وتناعوْا إخوانَهم فأقاموا بها يوماً وليلة؛ فانصرف أهل المدائن إلى المدائن ، وأهل البصرة إلى البصرة ، وأقبل أهلُ الكوفة إلى الكوفة ، فإذا المختار محبوس[١]. (٥/ ٦٠٤ ـ ٦٠٥).

قال هشام: قال أبو مخنف: عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر ، عن أدهم بن مُحرز الباهليّ ، أنه أتي عبد الملك بن مروان ببشارة الفتح ، قال: فصَعد المنبر ، فحمِد الله وأثنى عليه ، ثمّ قال: أما بعد ، فإنّ الله قد أهلك من رؤوس

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

أهل العراق مُلقح فتنة ، ورأسَ ضلالة سليمان بن صُرَد ، ألا وإنّ السيوف تركتْ رأس المسيّب بن نجبَة خَذَاريف ، ألا وقد قتل اللهُ من رؤوسهم رأسَين عظيمين ضالَّين مضلَّين : عبد الله بن سعد أخا الأزد ، وعبد الله بن وال أخا بكر بن وائل ، فلم يَبقَ بعد هؤلاء أحدٌ عندَه دفاع ولا امتناع[١]. (٥/ ٦٠٥).

قال هشام ، عن أبي مخنف : وحُدِّثت أن المختار مكث نحواً من خمس عشرة ليلةً ، ثمّ قال لأصحابه : عدّوا لغازيكم هذا أكثرَ من عشر ، ودون الشهر ، ثمّ يجيئكم نبأ هِتْر ، من طعن نَتر ، وضرب هبر ، وقتل جمّ ، وأمر رَجم.

فمَنْ لها؟ أنا لها ، لا تُكْذَبُنَّ ، أَنا لَها[٢]. (٥/ ٦٠٥ ـ ٦٠٦).

قال أبو مخنف : حدّثنا الحصين بن يزيد عن أبان بن الوليد ، قال : كتب المختار وهو في السجن إلى رفاعةَ بن شدّاد حين قَدِم من عين الوردة :

أما بعد ، فمرحباً بالعَصَب الذي أعظَم الله لهم الأجر حينَ انصرفوا ، ورضيَ انصرافَهم حين قَفَلُوا ، أمّا وربّ البنيّة التي بَنَى ما خطا خاطٍ منكم خُطوةً ، ولا رَتا رتْوة ، إلا كان ثوابُ الله له أعظم من مُلْك الدنيا ، إنّ سليمان قد قضى ما عليه ، وتوفّاه الله فجعل روحَه مع أرواح الأنبياء والصدّيقين والشهداء والصالحين ، ولم يكن بصاحبكم الذي به تُنْصَرون إني أنا الأمير المأمور ، والأمين المأمون ، وأمير الجيش ، وقاتل الجبّارين ، والمنتقم من أعداء الدّين ، والمقيد من الأوتار ، فأعدّوا واستعدّوا وأبشِروا واستبشروا؛ أدعوكم إلى كتاب الله ، وسنة نبيّه ﷺ ، وإلى الطلب بدماء أهل البيت والدفع عن الضُّعفَاء ، وجهاد المُحلِّين؛ والسلام[٣]. (٥/ ٦٠٦).

قال أبو مخنف : وحدّثني أبو زهير العبسيّ ، أنّ الناس تحدّثوا بهذا مِنْ أمْر المختار ، فبلغ ذلك عبدَ الله بن يزيد وإبراهيم بن محمد ، فخرجا في الناس حتى أتيَا المختار ، فأخذاه[٤]. (٥/ ٦٠٦).

---

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

(٢) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

(٣) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

(٤) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

قال أبو مخنف: فحدّثني سليمان بن أبي راشد، عن حميد بن مسلم قال: لما تهيَّأنا للانصراف قام عبد الله بن غزيّة ووقف على القتلى فقال: يرحمكم الله، فقد صدقْتم وصَبرْتم، وكذبنا وَفَرَرْنا؛ قال: فلما سرنا وأصبحنا إذا عبد الله بن غزيّة في نحو من عشرين قد أرادوا الرجوع إلى العدوّ والاستقتال، فجاء رفاعة وعبد الله بن عوف بن الأحمر وجماعة الناس فقالوا لهم: نَنْشدكم الله ألاّ تزيدونا فُلولاً ونقصاناً، فإنا لا نزال بخير ما كان فينا مثلكم من ذوي النيّات، فلم يزالوا بهم كذلك يناشدونهم حتى ردّوهم غيرَ رجل من مزينة يقال له عُبيدة بن سُفيان، رحل مع الناس، حتى إذا غُفِل عنه انصرف حتى لقي أهل الشام، فشدّ بسيفه يضاربهم حتى قُتل[١]. (٥/ ٦٠٦ ـ ٦٠٧).

قال أبو مخنف: فحدّثني الحصين بن يزيد الأزديّ، عن حُميد بن مسلم الأزديّ، قال: كان ذلك المزنيّ صَدِيقاً لي، فلما ذهب لينصرفَ ناشدتُه الله، فقال: أما إنك لم تكن لتسألَني شيئاً من الدّنيا إلا رأيتُ لك من الحقّ عليّ إيتاءَكَهُ، وهذا الذي تسألني أريد اللهَ به؛ قال: ففارقني حتى لقي القومَ فقُتل؛ قال: فوالله ما كان شيء بأحبَّ إليَّ من أن ألقَى إنساناً يحدّثني عنه كيف صَنَع حين لقيَ القوم! قال: فلقيتُ عبدَ الملك بن جزء بن الحِدْرِجان الأزديّ بمكة، فجرى حديث بيننا، جرى ذكرُ ذلك اليوم، فقال: أعَجب ما رأيتُ يومَ عَين الوردة بعد هلاك القوم أنّ رجلاً أقبل حتى شدّ عليّ بسيفه، فخرجنا نحوه، قال: فانتهى إليه وقد عُقِرَ بِهِ وهو يقول:

إنِّـــي مـــنَ اللهِ إلـــى اللهِ أَفِـــرْ رِضْوانَكَ اللَّهـمّ أُبْـدِي وأُسِـرْ

قال: فقلنا له: ممن أنت؟ قال: من بني آدم، قال: فقلنا: ممن؟ قال: لا أحبّ أن أعرِفَكم ولا أن تعرفوني يا مُخربي البيتَ الحرام؛ قال: فنزل إليه سليمانُ بن عمرو بن محصن الأزديّ من بني النجار؛ قال: وهو يومئذ من أشدّ الناس؛ قال: فكلاهما أثخَنَ صاحِبَه، قال: وشدّ الناسُ عليه من كلّ جانب، فقتلوه، قال: فوالله ما رأيتُ أحداً قطّ هو أشدّ منه؛ قال: فلمّا ذُكر لي، وكنتُ أحبّ أن أعلم علمه، دمعتْ عيناي، فقال: أبيْنك وبينه قرابة؟ فقلت له: لا،

---

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

ذلك رجل من مضَر كان لي وُدّاً وأخاً ، فقال لي: أرقأ الله دمعَك ، أتبكي على رجل من مضَر قُتل على ضلالة! قال: قلتُ: لا ، والله ما قُتل على ضلالة ، ولكنه قتل على بيّنة من ربّه وهُدىً؛ فقال لي: أدخَلَك اللهُ مدخَله ، قلتُ: آمين ، وأدخَلَك الله مدخَل حصين بن نمير ، ثم لا أرقأ الله لك عليه دمعاً؛ ثمّ قمت وقام.

وكان مما قيل من الشعر في ذلك قولُ أعشى هَمْدانَ ، وهي إحدى المكتَّمات ، كنّ يُكتَّمن في ذلك الزمان:

أَلَـمَّ خيـالٌ منـكِ يـا أُمَّ غـالـبِ ... فَحُيِّيـتِ عنّـا مـن حَبيـبٍ مُجانـبِ
وما زِلت لي شَجْواً وما زلتُ مُقصَداً ... لِهَـمٍّ عَـرانِـي مـن فِـراقِـك نـاصِـبِ
فما أَنسَ لاَ أَنْسَ انْفِتالَكِ في الضُّحَى ... إلينا مع البيضِ الوِسام الخَراعِب
تَـراءَتْ لنـا هَيْفـاءَ مَهْضُـومَـةَ الحَشـا ... لطيفـةَ طيِّ الكَشْـح رَيَّـا الحَقـائِـبِ
مُبْتَلَّـةً غَـرَّاءَ ، رُؤْدٌ شَبَـابُهـا ... كشمسِ الضُّحَى تَنْكَلُّ بين السحائِب
فلمّـا تغشَّـاهـا السَّحـابُ وحـولَـهُ ... بَدَا حاجبٌ منها وضنَّتْ بحاجبِ
فتلك الهوى وَهْي الجَوَى ليَ والمُنَى ... فـأحْبِبْ بهـا مـن خُلَّـةٍ لـم تُصاقِبِ
ولا يُبْعِـدِ اللهُ الشَّبـابَ وذِكـرَهُ ... وحُبَّ تَصَافي المعْصِرَات الكَواعبِ
ويـزدادُ مـا أحببتُـه مـن عِتَـابِنَـا ... لُعَـابـاً وسُقيـاً للخَـديـن المُقَـارِبِ
فـإِنّـي وإنْ لـم أنسَهُـنَّ لـذَاكـرٌ ... رَزِيئَـةَ مِخْبـاتٍ كـريـم المَنـاصـبِ
تـوَسَّـلَ بـالتَّقْـوَى إلـى اللهِ صـادقـاً ... وتَقْـوى الإلَـهِ خيرُ تَكْسَابِ كـاسِبِ
وخَلَّى عـن الـدنيا فلـم يلتبِسْ بهـا ... وتـابَ إلـى اللهِ الـرَّفيـع المَـرَاتِـب
تخلَّـى عـن الـدنيـا وقـال اطَّـرَحتُها ... فلَسـتُ إليهـا مـا حَيِيـتُ بـآيِـبِ
ومـا أنـا فيمـا يُكبـرُ النـاسُ فَقـدَهُ ... ويسعـى لـه السـاعُـونَ فيهـا بِـرَاغِـبِ
فـوجَّهَـهُ نحـوَ الثَّـويَّـةِ سـائـراً ... إلى ابنِ زيادِ في الجموع الكباكبِ
بقـوم هـمُ أهـلُ التَّقِيَّـةِ والنُّهَـى ... مَصَـالِيـتُ أنجـادٌ سُـرَاةٌ مَنَـاجِـبِ
مَضَوا تارِكي رأْي ابنِ طلحة حَسْبُهُ ... ولـم يستجيبـوا لـلأَميـر المُخـاطِـبِ
فساروا وهمْ من بين مُلتَمِسِ التُّقَى ... وآخـرَ ممـا جـرّ بـالأَمـسِ تـائِـبِ
فلاقوا بعين الوردَةِ الجَيْشَ فاصِلا ... إليهـمْ فحسُّـوهـم ببيـضٍ قـواضِـبِ
يَمـانِيَـةٍ تـذْرِي الأَكـفَّ وتـارةً ... بخيـلٍ عِتـاقٍ مُقْـرَبـاتٍ سَـلاهِـب

فجاءَهُم جمعٌ من الشامِ بعده ... جُمُوعٌ كموج البحر من كلّب
فما بَرِحوا حتى أُبِيدَتْ سُراتُهُمْ ... فلم ينجُ منهم ثَمَّ غيرُ عصائِب
وغودِرَ أهلُ الصبر صَرْعى فأصبحوا ... تعاوِرُهم ريحُ الصَّبَا والجنائبِ
فأَضحَى الخُزاعيُّ الرئيسُ مُجَدَّلاً ... كأَن لم يقاتل مَرَّةً ويُحارِبِ
ورأسُ بني شَمْخٍ وفارِسُ قومِهِ ... شنُوءَةَ والتَيميُّ هادِي الكتائِب
وعمرو بنُ بِشرٍ والوليدُ وخالدٌ ... وزيدُ بنُ بكر والحُلَيسُ بن غالبٍ
وضارِبُ من هَمَدانَ كلّ مُشَيعٍ ... إذا شدّ لم يَنْكلْ كريمُ المكاسبِ
ومن كل قومٍ قد أُصِيبَ زعيمُهمْ ... وذو حَسَب في ذِروَةِ المجد ثاقِبِ
أَبَوْا غيرَ ضربٍ يَفلِقُ الهامَ وقعُهُ ... وطَعْنٍ بأَطرافِ الأَسِنَّةِ صائب
وإنَّ سعيداً يومَ يدْمُرُ عامِراً ... لأشجَعُ من لَيثٍ بِدُرنَى مُواثبِ
فيا خيرَ جيش للعراقِ وأَهلِهِ ... سُقيتم رَوايا كلِّ أَسَحَم ساكِبِ
فلا يَبْعَدنْ فُرسانُنا وحُماتنا ... إذا البِيض أبدتْ عن خِدَامِ الكواعِبِ
فإن يُقتَلوا فالقتلُ أكرَمُ مِيتة ... وكلٍ فتىً يوماً لإِحدى الشَّواعِبِ
وما قُتِلُوا حتى أثَاروا عِصابةً ... مُحِلِّين ثَوراً كاللُّيُوثِ الضَّوارِبِ

وقُتل سليمانُ بنُ صُرَد ومن قُتل معه بعَين الوردة من التوابين في شهر ربيع الآخر[١]. (٥/ ٦٠٧ ـ ٦٠٩).

ذكر الخبر عن بيعة عبد الملك وعبد العزيز ابني مروان

وفي هذه السنة أمر مروان بن الحكم أهل الشام بالبيعة من بعده لابنيْه عبد الملك وعبد العزيز، وجعَلهما وليَّي العهد.

* ذكر الخبر عن سبب عقد مروان ذلك لهما:

قال هشام عن عوانة قال: لما هَزم عمرو بن سعيد بن العاص الأشدق مصعبَ بن الزبير حين وجّهه أخوه عبدُ الله إلى فلسطين وانصرف راجعاً إلى مروان، ومروانُ يومئذ بدِمشقَ، قد غلب على الشام كلِّها ومصر، وبلغ مروان أنّ عمراً يقول: إنّ هذا الأمر لي من بعد مروان، ويدّعي أنه قد كان وعَده وعداً، فدعا مروانُ حسّان بن مالك بن بحدل فأخبَرَه أنه يريد أن يبايع لعبد الملك

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

* ذكر الخبر عمّا كان من أمرهما في ذلك وظهور المختار للدعوة إلى ما دعا إليه الشيعة بالكوفة:

ذكر هشام بن محمد عن أبي مخنف: أن فُضَيل بن خَدِيج حدّثه عن عُبيدة بن عمرو وإسماعيل بن كثير من بني هند: أنّ أصحاب سليمان بن صُرَد لمَّا قدموا كتب إليهم المختار:

أمَّا بعد؛ فإنّ الله أعظم لكم الأجر، وحطّ عنكم الوِزْر، بمفارقة القاسطين، وجهاد المُحلّين؛ إنّكم لم تنفقوا نفقة، ولم تقطعوا عقبة، ولم تخطوا خَطْوة إلاّ رفع الله لكم بها درجة، وكتب لكم بها حسنة إلى ما لا يحصيه إلا الله من التضعيف؛ فأبشروا فإنّي لو قد خرجت إليكم قد جرّدت فيما بين المشرق والمغرب في عدوكم السيف بإذن الله، فجعلتُهم بإذن الله رُكاماً؛ وقتلتُهم فذّاً وتؤاماً؛ فرحَّب الله بمن قارب منكم واهتدى؛ ولا يبعد الله إلا من عصى وأبى؛ والسلام يا أهل الهدى.

فجاءهم بهذا الكتاب سَيحان بن عمرو، من بني ليث من عبد القيس قد أدخله في قلنسوته فيما بين الظّهارة والبِطانة؛ فأتى بالكتاب رفاعة بن شدّاد والمثُنَّى بن مُخرّبة العبديّ وسعد بن حُذيفة بن اليَمَان ويزيد بن أنس وأحمرَ بن شُمَيْط الأحمسيّ، وعبد الله بن شدّاد البَجلِيّ، وعبد الله بن كامل؛ فقرأ عليهم الكتاب؛ فبعثوا إليه ابن كامل؛ فقالوا: قل له: قد قرأنا الكتاب؛ ونحن حيث يسرّك؛ فإن شئت أن نأتيَك حتى نخرجك فعلنا. فأتاه، فدخل عليه السجن؛ فأخبره بما أرسِل إليه به؛ فسُرّ باجتماع الشيعة له؛ وقال لهم: لا تريدوا هذا؛ فإني أخرج في أيّامي هذه.

قال: وكان المختار قد بعث غلاماً يُدْعى زِربِيّاً إلى عبد الله بن عمر بن الخطّاب، وكتب إليه:

أمّا بعد: فإني قد حُبست مظلوماً، وظنّ بي الولاةُ ظنوناً كاذبة؛ فاكتب فيّ يرحمك الله إلى هذين الظَّالمِيْن كتاباً لطيفاً؛ عسى الله أن يخلّصني من أيديهما بلطْفك وبركتك ويُمنك؛ والسلام عليك.

ذكر خبر مقتل حبيش بن دلجة

وفي هذه السنة قتل حُبيش بن دُلْجة، وأما حبيش بن دُلْجة، فإنه سار حتى انتهى ـ فيما ذُكِر عن هشام، عن عوانة بن الحَكَم ـ إلى المدينة، وعليهم جابر بن

الأسود بن عوف ، ابن أخي عبد الرّحمن بن عوف؛ مِن قِبَل عبد الله بن الزبير ، فهرب جابر من حُبيش ، ثمّ إنّ الحارث بن أبي ربيعة ـ وهو أخو عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة ـ وجَّه جيشاً من البصرة ، وكان عبد الله بن الزبير قد ولّاه البصرة ، عليهم الحُنيف بن السجْف التميميّ لحرب حبيش بن دُلْجة ، فلما سمع حبيش بن دُلْجة سار إليهم من المدينة ، وسرَّح عبد الله بن الزبير عبّاس بن سهل بن سعد الأنصاريّ على المدينة ، وأمره أن يسيرَ في طلب حبيش بن دُلْجة حتى يوافيَ الجند من أهل البصرة الذين جاؤوا يَنصرُون بن الزبير عليهم الحنيف ، وأقبل عبّاس في آثارهم مُسرعاً حتى لحقهم بالرَّبَذَة ، وقد قال أصحاب ابن دلجة له: دَعْهم ، لا تعجلْ إلى قتالهم؛ فقال: لا أنزل حتى آكلَ من مُقَنَّدهم ـ يعني السَّوِيق الذي فيه القَنْد ـ فجاءه سهمُ غَرْب فقتله ، وقتل معه المنذر بن قيس الجذاميّ ، وأبو عتّاب مولَى أبي سُفْيان ، وكان معه يومئذ يوسفُ بن الحكمِ ، والحجاج بن يوسف ، وما نَجَوا يومئذ إلا على جَمل واحد ، وتحرّز منهم نحوٌ من خمسمئة في عمود المدينة ، فقال لهم عباس: انزِلوا على حُكْمي ، فنزلوا على حُكْمِه فضرب أعناقَهم ، ورجع فلُّ حُبَيش إلى الشام. (٥/ ٦١١ ـ ٦١٢).

حدّثني أحمد بن زهير ، عن عليّ بن محمد أنه قال: الذي قتل حبيش بن دُلْجة يوم الرَّبَذة يزيد بن سِيَاه الأسواريّ ، رماه بنُشّابة فقتله ، فلما دخلوا المدينة وقف يزيد بن سياه على بِرْذون أشهبَ وعليه ثيابٌ بياض ، فما لبث أن اسودّت ثيابُه ، ورأيتُه ممّا مسح الناسُ به ومما صبّوا عليه من الطِّيب. (٥/ ٦١٢).

* * *

مقتل نافع بن الأزرق

قال أبو جعفر: وأمّا هشام بن محمد فإنه ذكر عن أبي مخنف ، عن أبي المخارق الراسبيّ من قصّة ابن الأزرق ، وبنِي الماحوزُ قصّةً هي غيرُ ما ذكره عمر عن زهير بن حرب ، عن وهب بن جرير؛ والذي ذكر من خبرهم: أنّ نافع بن الأزرق اشتدّت شوكته باشتغال أهلِ البصرة بالاختلاف الذي كان بين الأزْد وربيعة وتميم بسبب مسعود بن عمرو ، وكثرت جموعُه ، فأقبل نحوَ البصرة حتى دنا من الجسْر ، فبعث إليه عبدُ الله بن الحارث مُسْلمَ بن عبيس بن كريز بن

ربيعة بن حبيب بن عبد شمس بن عبد مناف في أهل البصرة ، فخرج إليه ، فأخذ يَحُوزه عن البصرة ، ويدفعه عن أرضها ، حتى بلغ مكاناً من أرض الأهواز يقال له: دُولاب ، فتهيّأ الناس بعضهم لبعض وتزاحفوا ، فجعل مسلم بن عبيس على ميمنته الحجّاج بن باب الحِميرَيّ ، وعلى ميسرته حارثة بن بدر التميميّ ، ثم الغُدَانيّ ، وجعل ابنُ الأزرق على ميمنته عَبيدة بن هلال اليَشْكريّ ، وعلى ميسرته الزبير بن الماحوز التميميّ؛ ثمّ التقَوا فاضطربوا ، فاقتتل الناس قتالاً لم يَرَ قتال قطّ أشدّ منه ، فقتل مسلم بن عُبيس أمير أهل البصرة ، وقتل نافع بن الأزرق رأس الخوارج ، وأمَّر أهل البصرة عليهم الحجّاج بن باب الحميريّ ، وأمَّرت الأزارقةُ عليهم عبدَ الله بن الماحوز ، ثمّ عادوا فاقتتلوا أشدّ قتال ، فقتل الحجّاج بن باب الحميريّ أمير أهل البصرة ، وقتل عبد الله بن الماحوز أمير الأزارقة ، ثمّ إنّ أهل البصرة أمَّروا عليهم ربيعة الأجذم التميميّ ، وأمَّرت الخوارجُ عليهم عُبيدَ الله بن الماحوز ، ثمّ عادوا فاقتتلوا حتى أمسَوا ، وقد كَرِه بعضُهم بعضاً ، وملُّوا القتال ، فإنهم لمُتواقفون متحاجزون حتى جاءت الخوراج سريّة لهم جامّة لم تكن شهدت القتال ، فحملتْ على الناس من قبَل عبد القيس ، فانهزم الناس ، وقاتل أمير البصرة ربيعةُ الأجذم ، فقتل ، وأخذ راية أهل البصرة حارثةُ بن بدر ، فقاتل ساعةً وقد ذهب الناس عنه ، فقاتل من وراء الناس في حماتهم ، وأهل الصبر منهم ، ثمّ أقبل بالناس حتى نزل بهم منزلاً بالأهواز ففي ذلك يقول الشاعر من الخوارج :

يا كَبِدَا من غير جُوعٍ ولا ظَمَإٍ ... ويا كَبِدي من حُبِّ أُمِّ حَكيمِ
ولو شَهِدَتني يوم دُولابَ أبْصرتْ ... طعَانَ آمرئٍ في الحرب غير لئيمِ
غَداةَ طَفَتْ في الماءِ بكْر بنُ وائل ... وعُجْنَا صُدُورَ الخيل نحوَ تميمِ
وكان لعبدِ القيْس أوّلُ حَدّنا ... وذَلَّتْ شُيُوخُ الأزْدِ وَهْيَ تَعُومُ

وبلغ ذلك أهل البصرة ، فهالَهم وأفزَعَهم ، وبعث ابنُ الزبير الحارثَ بن عبد الله بن أبي ربيعة القرشيّ على تلك الحَرّة ، فقَدم وعزل عبد الله بن الحارث ، فأقبلتْ الخوارجُ نحوَ البصرة ، وقَدِم المهلّب بن أبي صُفْرة على تلك من حال الناس من قبَل عبد الله بن الزّبير ، معه عهدُه على خراسان ، فقال الأحنف للحارث بن أبي ربيعة وللناس عامّة: لا والله ، ما لهذا الأمر إلاّ المهلّبُ

[بن أبي صُفرة] ، فخرج أشرافُ الناس ، فكلَّموه أن يتولّى قتالَ الخوارج ، فقال: لا أفعل ، هذا عهدُ أميرِ المؤمنين معي على خُراسان ، فلم أكن لأدَعَ عهدَه وأمره ، فدعاه ابن أبي ربيعة فكلّمه في ذلك ، فقال له مثل ذلك ، فاتفق رأي ابن أبي ربيعة ورأيُ أهل البصرة على أن كتبوا على لسان ابن الزبير:

بسم الله الرّحمن الرحيم ، من عبد الله بن الزُّبير إلى المهلب بن أبي صُفرة ، سلامٌ عليك ، فإني أحمد إليك اللهَ الذي لا إله إلا هو ، أما بعد ، فإنّ الحارث بن عبد الله كتب إليّ أنّ الأزارقة المارِقَة أصابوا جُنْداً للمسلمين كان عددُهم كثيراً ، وأشرافهم كثيراً ، وذكر أنهم قد أقبلوا نحو البَصرة ، وقد كنتُ وجَهتُك إلى خُراسانَ ، وكتبتَ لك عليها عهداً ، وقد رأيتُ حيث ذكر هذه الخوارج أن تكون أنتَ تلي قتالَهم ، فقد رجوتُ أن يكون ميموناً طائرُك ، مباركاً على أهل مِصرِك ، والأجر في ذلك أفضل من المسير إلى خُراسان ، فسرْ إليهم راشداً ، فقاتلْ عدوّ الله وعدوّك ، ودافع عن حقك وحقوقِ أهل مصرك ، فإنه لن يفوتَك من سلطاننا خُراسانُ ولا غيرُ خراسان إن شاء الله ، والسلام عليك ورحمة الله.

فأتِيَ بذلك الكتاب ، فلما قرأه قال: فإني والله لا أسير إليهم إلا أن تجعلوا لي ما غلبتُ عليه ، وتُعطوني من بيت المال ما أقوّي به مَن معي ، وأنتخب من فُرسان الناس ووجوههم وذَوِي الشرف مَن أحببت؛ فقال جميعُ أهل البصرة: ذلك لك؛ قال: فاكتبوا لي على الأخماس بذلك كتاباً ففعلوا ، إلا ما كان من مالك بن مسْمَع وطائفة من بكر بن وائل ، فاضطغَنَها عليهم المهلَّب ، وقال الأحنف وعبيد الله بن زياد بن ظَبيان وأشراف أهل البصرة للمهلَّب: وما عليك ألاّ يَكتُب لك مالك بن مسمع ولا من تابعه من أصحابه إذا أعطاكَ الذي أردتَ من ذلك جميع أهل البصرة! ويستطيع مالك خلاف جماعة الناس أوله ذلك! انكمشْ أيها الرجل ، واعزمْ على أمرِك ، وسرْ إلى عدوّك؛ ففعل ذلك المهلب ، وأمَّر على الأخماس ، فأمَّر عبيد الله بن زياد بن ظَبيانَ على خمس بكر بن وائل ، وأمَّر الحَريش بن هلال السعديّ على خمس بني تميم ، وجاءت الخوارج حتى انتهت إلى الجسْر الأصغر ، عليهم عبيد الله بن الماحوز ، فخرج إليهم في أشراف الناس وفُرسانهم ووجوههم ، فحازهم عن الجسر ، ودفعهم عنه ، فكان أوّل شيء دفعهم عنه أهل البصرة ، ولم يكن بقي لهم إلا أن يدخلوا؛ فارتفعوا إلى الجسر

الأكبر ، ثمّ إنه عبّأ لهم ، فسار إليهم في الخيل والرّجال ، فلما أن رأوا أن قد أظلّ عليهم ، وانتهى إليهم ، ارتفعوا فوق ذلك مَرحلة أخرى ، فلم يزل يحوزهم ويرفعهم مَرحلةً بعد مرحلة ، ومنزلة بعد منزلة ، حتى انتهَوْا إلى منزل من منازل الأهواز يقال له سَلَّى وسَلَّبْرَى ، فأقاموا به؛ ولما بلغ حارثة بن بدر الغُدَاني أن المهلب قد أمِّر على قتال الأزارقة ، قال لمن معه من الناس :

كَرْنِبُوا دَوْلِبُوا وحيث شئتمْ فاْذهبُوا
قد أُمِّرَ المهلَّبُ

فأقبل من كان معه نحو البصرة ، فصرفهم الحارثُ بن عبد الله بن أبي ربيعة إلى المهلب؛ ولما نزل المهلب بالقوم خندَق عليه ووضع المسالحَ ، وأذكى العيون ، وأقامَ الأحراس ، ولم يزل الجندُ على مصافِّهم ، والناس على راياتهم وأخماسهم وأبواب الخنادق عليها رجال موكَّلون بها ، فكانت الخوارج إذا أرادوا بَياتَ المهلَّب وجدوا أمراً مُحْكماً ، فرجعوا ، فلم يقاتلْهم إنسانٌ قطّ كان أشدّ عليهم ولا أغيظَ لقلوبهم منه[1]. (٥/ ٦١٣ ـ ٦١٧).

قال أبو مخنف : فحدّثني يوسف بن يزيد ، عن عبد الله بن عوف بن الأحمر : أن رجلاً كان في تلك الخوارج حدّثه أنّ الخوارج بعثتْ عبَيدَة بن هلال والزبير بن الماحوز في خيلين عظيمين ليلاً إلى عسكر المهلب ، فجاء الزبير من جانبه الأيمن ، وجاء عبَيدة من جانبه الأيسر ، ثمّ كبّروا وصاحوا بالناس ، فوَجَدوهم على تعبيتهم ومصافِّهم حَذِرين مُغِذِّين ، فلم يصيبوا للقوم غِرّةً ، ولم يَظفَروا منهم بشيء ، فلما ذهبوا ليرجعوا ناداهم عبيدُ الله بن زياد بن ظَبْيانَ فقال :

وجَدتمُونا وُقُراً أَنْجَادَا لا كُشُفاً خُوراً ولا أَوْغَادَا

هيهات! إنَّا إذا صِيحَ بنا أتَيْنا ، يا أهل النار ، ألاّ ابكروا إليها غداً ، فإنها مأواكم ومثواكم؛ قالوا : يا فاسق ، وهل تُدَّخر النار إلا لك ولأشباهك!

إنّها أعدّتُ للكافرينَ وأنت منهم. قال : أتسمعون! كلُّ مملوك لي حرّ إنْ دخلتم أنتم الجنة إن بقيَ فيما بين سَفَوان إلى أقصى حجر من أرض خُراسانَ مجوسيٌّ ينكح أمّه وابنته وأختَه إلا دخلها. قال له عُبيدة : اسكت يا فاسق فإنما

---

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

أنت عبد للجبّار العنيد ، ووزيرٌ للظالم الكفور. قال: يا فاسق ، وأنت عدوّ المؤمن التقيّ ، ووزير الشيطان الرّجيم. فقال الناس لابن ظَبيان: وفّقك الله يا بن ظبيان؛ فقد والله أجبتَ الفاسقَ بجوابه ، وصَدَقته. فلما أصبح الناس أخرجَهُم المهلَّب على تعبيتهم وأخماسهم ، ومواقفهم الأزدُ ، وتميم ميمنة الناس ، وبكر بن وائل وعبد القيس ميسرة الناس ، وأهل العالية في القَلْب وسط الناس.

وخرجت الخوارجُ على ميمنتهم عبَيدة بن هلال اليشكريّ ، وعلى ميسرتهم الزّبير بن الماحوز ، وجاؤوا وهم أحسن عُدَّة ، وأكرم خيولاً ، وأكثر سلاحاً من أهل البصرة؛ وذلك لأنهم مخَروا الأرض وجرّدوها ، وأكلوا ما بين كَرْمان إلى الأهواز ، فجاؤوا عليهم مَغافرُ تضرب إلى صدورهم ، وعليهم دُروعٌ يسحَبونها ، وسوق من زرَد يشدّونها بكلاليب الحديد إلى مناطقهم ، فالتقَى الناسُ فاقتتلوا كأشدّ القتال ، فصبر بعضُهم عامّة النهار ، ثمّ إنّ الخوارج شدّت على الناس بأجمعها شدّةً منكرة ، فأجفل الناسُ وانصاعوا منهزِمين لا تلوى أمٌّ على ولد حتى بلغ البصرة هزيمةُ الناس ، وخافوا السِّباءَ ، وأسرع المهلَّب حتى سبقهم إلى مكان يَفاع في جانب عن سنن المنهزمين.

ثمّ إنه نادى الناسَ: إليّ إليّ عبادَ الله ، فثاب إليه جماعةٌ من قومه ، وثابت إليه سَرِيّة عُمانَ فاجتمع إليه منهم نحوٌ من ثلاثة آلاف ، فلما نظر إلى مَنْ قد اجتمع رضي جماعتهم ، فحَمد الله وأثنَى عليه ثمّ قال: أما بعد ، فإنّ الله ربّما يَكلُ الجمعَ الكثيرَ إلى أنفسهم فيُهْزَمون ، ويُنزل النصرَ على الجمع اليسير فيَظهرون ، ولَعَمري ما بكم الآن من قلّة ، إني لجماعتكم لَراضٍ؛ وإنكم لأنتم أهل الصبر ، وفُرسان أهل المِصْر ، وما أحبُّ أنّ أحداً ممَّن انهزم معكم ، فإنهم لو كانوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ، عزمت على كلّ امرئٍ منكم لَما أخذ عشرة أحجار معه ، ثم امشوا بنا نحو عسكرهم ، فإنهم الآن آمنون ، وقد خرجتْ خيلُهم في طلب إخوانكم ، فوالله إنّي لأرجو ألاّ ترجع إليهم خيلُهم حتى تستبيحوا عسكرَهم ، وتقتلوا أميرهم ، ففعلوا ، ثمّ أقبل بهم راجعاً ، فلا واللهِ ما شعرت الخوارج إلا بالمهلّب يضاربهم بالمسلمين في جانب عسكرهم ، ثم استقبلوا عبيد الله بن الماحوز وأصحابه ، وعليهم الدّروع والسلاح كاملاً ، فأخذ الرجل من أصحاب المهلَّب يستقبل الرجلَ منهم ، فيستعرض وجهه بالحجارة فيرميه حتى يُثْخنَه ، ثم

يطعنه بعد ذلك برمحه ، أو يضربه بسيفه ، فلم يقاتلْهم إلا ساعة حتى قُتل عبيد الله بن الماحوز ، وضرب الله وجوهَ أصحابه؛ وأخذ المهلَّب عسكر القوم وما فيه ، وقتل الأزارقة قتلاً ذريعاً ، وأقبل مَنْ كان في طلب أهل البصرة منهم راجعاً؛ وقد وضع لهم المهلَّب خيلاً ورجالاً في الطريق تختطفهم وتقتلهم ، فانكفؤوا راجعين مفلولين ، مقتولين محروبين ، مغلوبين؛ فارتفعوا إلى كَرْمان وجانب أصفهان ، وأقام المهلّب بالأهواز ، ففي ذلك اليوم يقول الصَّلَتانُ العَبْديّ :

بِسِلَّى وسِلَّبْرَى مَصارِعُ فتْيَةٍ كرامٍ وقَتْلَى لم تُوَسَّدْ خدودُها

وانصرفت الخوارج حين انصرفت؛ وإنّ أصحاب النيران الخمس والست لَيجتمعون على النار الواحدة من الفلول وقلّة العدد ، حتى جاءتهم مادَّةٌ لهم من قبَل البحرين ، فخرجوا نحو كرْمان وأصبهان؛ فأقام المهلب بالأهواز فلم يزل ذلك مكانه حتى جاء مُصعب البصرةَ ، وعزل الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة عنها .

ولما ظهر المهلّب على الأزارقة كتب :

بسم الله الرحمن الرحيم ، للأمير الحارث بن عبد الله ، من المهلّب بن أبي صفرة ، سلام عليك ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو؛ أما بعد فالحمد لله الذي نَصر أميرَ المؤمنين ، وهزم الفاسقين ، وأنزل بهم نقمته ، وقتلهم كلّ قتلة ، وشرّدهم كلَّ مشرَّد ، أخبر الأمير أصلحَه الله أنَّا لقينا الأزارقة بأرض من أرض الأهواز يقال لها سِلّى وسِلَّبْرى؛ فزحفنا إليهم ، ثم ناهضناهم ، فاقتتلنا كأشد القتال مليّاً من النهار ، ثم إن كتائب الأزارقة اجتمع بعضها إلى بعض ، ثم حملوا على طائفة من المسلمين فهزموهم؛ وكانت في المسلمين جوْلة قد كنت أشفقت أن تكون هي الأصرّى منهم ، فلما رأيت ذلك عمَدت إلى مكان يَفاع فعلوته ، ثم دعوت إليّ عشيرتي خاصّة والمسلمين عامة ، فثاب إليّ أقوام شرَوْا أنفسَهم ابتغاءَ مرضاة الله من أهل الدّين والصبر والصدق والوفاء ، فقصدت بهم إلى عسكر القوم؛ وفيه جماعتهم وحدّهم وأميرهم قد أطاف به أولو فضلهم فيهم ، وذوو النيّات منهم ، فاقتتلْنا رمْياً بالنَّبْل وطعناً بالرماح .

ثم خلص الفريقان إلى السيوف؛ فكان الجلاد بها ساعة من النهار مبالطةً

ومبالدةً ، ثمّ إن الله عزّ وجلّ أنزل نصره على المؤمنين ، وضرب وجوه الكافرين ونزل طاغيتُهم في رجال كثير من حُماتهم وذوي نيّاتهم ، فقتلهم الله في المعركة ، ثمّ اتّبعت الخيل شرادَهم ، فقتلوا في الطريق والآخاذ ، والقريّ ، والحمد لله رب العالمين ، والسلام عليك ورحمة الله .

فلما أتى هذا الكتابُ الحارثَ بن عبد الله بن أبي ربيعة بعثَ به إلى الزُّبير فقرئ على الناس بمكّة .

وكتب الحارث بن أبي ربيعة إلى المهلَّب :

أما بعد ، فقد بلغني كتابك ، تذكر فيه نصر الله إيّاك ، وظَفَر المسلمين ، فهنيئاً لك يا أخا الأزد بشرف الدنيا وعزّها ، وثوابِ الآخرة وفضلها ، والسلام عليك ورحمة الله .

فلما قرأ المهلَّب كتابه ضحك ثم قال : أما تظنّونه يعرفني إلا بأخي الأزد! ما أهل مكة إلا أعرابٌ[1] . (٥/ ٦١٧ ـ ٦٢٠) .

قال أبو مخنف : فحدّثني أبو المُخَارق الراسبيّ أن أبا علقمة اليَحْمَديّ قاتَلَ يوم سِلَّى وسِلَّبرَى قتالاً لم يقاتله أحدٌ من الناس ، وأنه أخذ ينادي في شَباب الأزْد وفتيان اليَحْمَد : أعيرونا جَماجِمَكم ساعةً من نهار؛ فأخذ فتيانٌ منهم يكرّون ، فيقاتلون ثم يرجعون إليه ، يضحكون ويقولون : يا أبا علقمة القدورُ تُستعار! فلما ظهر المهلَّب ورأى من بلائه ما رأى وفّاه مئة ألف .

وقد قيل : إنّ أهلَ البصرة قد كانوا سألوا الأحنف قَبْل المهلب أن يقاتل الأزارقة ، وأشار عليهم بالمهلّب ، وقال : هو أقوى على حربهم مني ، وإن المهلب إذ أجابهم إلى قتالهم شَرَط على أهل البصرة أنّ ما غلب عليه من الأرض فهو له ولمن خفّ معه من قومه وغيرهم ثلاثَ سنين ، وأنه ليس لمن تخلّف عنه منه شيء ، فأجابوه إلى ذلك ، وكتب بذلك عليهم كتاباً ، وأوفدوا بذلك وفداً إلى ابن الزبير .

وإنّ ابن الزبير أمضى تلك الشروط كلّها للمهلَّب وأجازها له ، وإنّ المهلب

---

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك .

لما أجيب إلى ما سأل وجه ابنه حبيباً في ستمئة فارس إلى عمرو والقَنَا ، وهو معسكر خلْف الجسر الأصغر في ستمئة فارس ، فأمر المهلب بعقد الجسر الأصغر ، فقطع حبيب الجسر إلى عمرو ومَن معه؛ فقاتلهم حتى نفاهم عما بين الجسر ، وانهزموا حتى صاروا من ناحية الفُرات ، وتجهّز المهلب فيمن خفّ من قومه معه ، وهم اثنا عشر ألف رجل ، ومن سائر الناس سبعون رجلاً ، وسار المهلب حتى نزل الجسر الأكبر ، وعمرو القنا بإزائه في ستمئة.

فبعث المغيرة بن المهلب في الخيل والرّجالة ، فهزمتهم الرّجالة بالنّبل ، واتبعتهم الخيل ، وأمر المهلب بالجسر فعُقد ، فعَبر هو وأصحابه ، فلحق عمرو القنا حينئذ بابن الماحوز وأصحابه ، وهو بالمفْتَح ، فأخبروهم الخبر ، فساروا فعسكروا دون الأهواز بثمانية فراسخ ، وأقام المهلَّب بقية سنته ، فجبَى كُوَر دِجْلة ، ورَزَقَ أصحابَه ، وأتاه المدَد من أهل البصرة لما بلغهم ذلك؛ فأثبتهم في الديوان وأعطاهم حتى صاروا ثلاثين ألفاً[1] . (٥/ ٦٢٠ ـ ٦٢١) .

قال أبو جعفر: فعلَى قول هؤلاء كانت الوقعة التي كانت فيها هزيمة الأزارقة وارتحالهم عن نواحي البصرة والأهواز إلى ناحية أصبِهَان وكرمان في سنة ست وستين ، وقيل: إنهم ارتحلوا عن الأهواز وهم ثلاثة آلاف ، وإنه قتل منهم في الوقعة التي كانت بينهم وبين المهلَّب بسلّى وسلّبرى سبعة آلاف. (٥/ ٦٢١ ـ ٦٢٢) .

* * *

قال: أبو جعفر: وفي هذه السنة وجّه مرْوان بن الحكم قبل مهلكه ابنه محمّداً إلى الجزيرة ، وذلك قبل مسيره إلى مصر. (٥/ ٦٢٢) .

* * *

وفي هذه السنة عزل عبد الله بن الزّبير عبدَ الله بن يزيد عن الكوفة ، وولاّها عبد الله بن مطيع ، ونزع عن المدينة أخاه عبيدة بن الزبير ، وولاّها أخاه مُصعب بن الزبير ، وكان سبب عزله أخاه عبيدة عنها أنه ـ فيما ذكر الواقديّ ـ خَطَب الناس فقال لهم: قد رأيتم ما صُنع بقوم في ناقة قيمتها خمسمئة درهم ،

---

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

فسُميَ مقوِّمَ الناقة؛ وبلغ ذلك ابن الزبير فقال: إنّ هذا لهو التكلُّف. (٥/ ٦٢٢).

* * *

ذكر خبر بناء عبد الله بن الزبير البيت الحرام

وفي هذه السنة بَنَى عبد الله بن الزبير البيتَ الحرام، فأدخل الحِجْر فيه.

أخبرنا إسحاق بن أبي إسرائيل، قال: حدّثني عبد العزيز بن خالد بن رستم الصنعانيّ أبو محمد، قال: حدّثني زياد بن جيل أنه كان بمكّة يومَ غلب ابن الزبير، فسمعه يقول: إنّ أمي أسماء بنت أبي بكر حدّثتني أنّ رسولَ الله ﷺ قال لعائشة: لولا حداثةُ عهد قومك بالكفر رددت الكعبة على أساس إبراهيم؛ فأزيد في الكعبة من الحِجْر، فأمر به ابن الزبير فحفر، فوجدوا قِلاعاً أمثال الإبل، فحرّكوا منها صخرة، فبرقتْ بارقة فقال: أقرّوها على أساسها، فبناها ابن الزبير، وجعل لها بابين: يُدخل من أحدهما ويُخرَج من الآخرَ.

* * *

قال أبو جعفر: وحجّ بالناس في هذه السنة عبد الله بن الزبير، وكان على المدينة أخوه مصعب بن الزبير، وعلى الكوفة في آخر السنة عبد الله بن مطيع، وعلى البصرة الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي؛ وهو الذي يقال له القُباع، وعلى قضائها هشام بن هُبيرة، وعلى خراسان عبد الله بن خازم. (٥/ ٦٢٢).

* * *

خروج بني تميم بخراسان على عبد الله بن خازم

وفي هذه السنة خالف مَنْ كان بخُراسان من بني تميم عبدَ الله بن خازم حتى وقعتْ بينهم حروب.

* ذكر الخبر عن سبب ذلك:

وكان السبب في ذلك ـ فيما ذكر ـ: أن مَنْ كان بخُراسان من بني تميم أعانوا عبدَ الله بن خازم على مَنْ كان بها من ربيعة، وعلى حَرْب أوْس بن ثعلبة حتى قَتَل

من قَتَل منهم ، وظَفِر به؛ وصفا له خراسان ، فلما صفا له ولم ينازعه به أحد جَفاهم ، وكان قد ضمّ هَراةَ إلى ابنه محمد واستعمله عليها؛ وجعل بكير بن وِشَاح على شُرْطته ، وضمّ إليه شمّاس بن دثَار العُطَارديّ؛ وكانت أم ابنه محمد امرأةً من تميم تدعى صَفيَّة ، فلما جفا ابن خازم بني تميم أتوْا ابنه محمَّداً بهرَاة؛ فكتب ابن خازم إلى بكير وشمّاس يأمرهما بمنع بني تميم من دخول هَراة؛ فأما شماس بن دثار فأبَى ذلك ، وخرج من هَراة ، فصار من بني تميم ، وأما بُكير فمنعهم من الدخول.

فذكر عليّ بن محمد: أن زهير بن الهُنَيْد حدّثه: أنّ بُكير بن وِشَاح لمّا منع بني تميم من دخول هَرَاة أقاموا ببلاد هَرَاة ، وخرج إليهم شمّاس بن دثار فأرسل بكير إلى شماس: إني أعطيك ثلاثين ألفاً ، وأعطي كلّ رجل من بني تميم ألفاً على أن ينصرفوا ، فأبوْا ، فدخلوا المدينة ، وقتلوا محمد بن عبد الله بن خازم ، قال عليّ: فأخبرنا الحسن بن رُشيد ، عن محمد بن عزيز الكنديّ قال: خرج محمد بن عبد الله بن خازم يتصيَّد بهَراة ، وقد منع بني تميم من دخولها ، فرصدوه ، فأخذوه فشدّوه وثاقاً ، وشربوا ليلتَهم ، وجعل كلَّما أراد رجل منهم البوْل بال عليه ، فقال لهم شمّاس بن دثار: أما إذْ بلغتم هذا منه فاقتلوه بصاحبَيْكما اللّذَيْن قتلهما بالسياط ، قال: وقد كان أخذ قُبَيل ذلك رجلين من بني تميم ، فضربهما بالسياط حتى ماتا. قال: فقتلوه ، قال: فزعم لنا عمّن شهد قتله من شيوخهم أن جَيْهان بن مَشْجَعة الضبّيّ نهاهم عن قتله ، وألقى نفسه عليه ، فشكر له ابن خازم ذلك ، فلم يقتلْه فيمن قتل يوم فَرْتَنَا ، قال: فزعم عامر بن أبي عمر: أنه سمع أشياخهم من بني تميم يزعمون أن الذي وَلي قتلَ محمد بن عبد الله بن خازم رجلان من بني مالك بن سعد ، يقال لأحدهما: عَجَلة ، وللآخر كُسيب ، وقال ابن خازم: بئس ما اكتسب كُسيبٌ لقومه ، ولقد عجّل عَجَلة لقومه شرّاً. (٥/ ٦٢٣ ـ ٦٢٤).

قال عليّ: وحدّثنا أبو الذّيال زهير بن هُنيد العدويّ ، قال: لما قتَل بنو تميم محمد بنَ عبد الله بن خازم انصرفوا إلى مَرْو ، فطلبهم بُكَير بن وِشَاح فأدرك رجلاً من بني عُطارد يقال له شُمَيْخ؛ فقتله ، وأقبل وشمّاس وأصحابه إلى مرو ، فقالوا لبني سعد: قد أدركنا لكم بثأركم؛ قتلنا محمد بن عبد الله بن خازم بالجُشميّ

الذي أصيب بمَرْو ، فأجمعوا على قتال ابن خازم ، وولّوا عليهم الحَريشَ بنَ هلال القُرَيْعيّ . (٥/ ٦٢٤) .

قال : فأخبرني أبو الفوَارس عن طُفيل بن مرداس ، قال : أجمع أكثر بني تميم على قتال عبد الله بن خازم ، قال : وكان مع الحريش فرسان لم يدرك مثلهم ، إنما الرجل منهم كتيبة؛ منهم شمّاس بن دِثار ، وبحير بن ورقاء الصُّريميّ ، وشعبة بن ظَهير النَّهشَليّ ، ووَرْد بن الفلق العنْبريّ ، والحجّاج بن ناشب العدويّ ـ وكان من أرْمى الناس ـ وعاصم بن حبيب العدويّ ، فقاتل الحريشُ بن هلال عبدَ الله بن خازم سنتين .

قال : فلمّا طالت الحرب والشرّ بينهم ، ضَجِروا ، قال : فخرج الحريش فنادى ابنَ خازم ، فخرج إليه فقال : قد طالت الحرب بيننا؛ فعلامَ تقتل قومي وقومك! ابرز لي ، فأيُّنا قتل صاحبَه صارت الأرض له؛ فقال ابن خازم : وأبيك لقد أنصفتني؛ فبرز له ، فتصاولا تصاوُلَ الفَحلَين ، لا يقدر أحدٌ منهما على ما يريد ، وتغفَّل ابن خازم غفلة ، وضربه الحُرَيش على رأسه ، فرمى بفَرْوة رأسه على وجهه ، وانقطع رِكابا الحريش ، وانتزع السيف ، قال : فلزم ابن خازم عُنُق فرسه راجعاً إلى أصحابه وبه ضربة قد أخذتْ من رأسه ، ثم غاداهم القتال ، فمكثوا بذلك بعد الضربة أيّاماً؛ ثم ملّ الفريقان فتفرّقوا ثلاثَ فِرَق؛ فمضى بحير بن ورقاء إلى أبْرَشَهْر في جماعة ، وتوجَّه شمّاس بن دثار العُطارديّ ناحيةً أخرى ، وقيل : أتى سِجسْتان ، وأخذ عثمان بن بشر بن المحتفز إلى فَرْتَنا ، فنزل قصراً بها ، ومضى الحريش إلى ناحية مَرْوَ الرُّوذ ، فاتبعه ابن خازم ، فلحقه بقرية من قُراها يقال لها قرية الملحمة ـ أو قصر الملحمة ـ والحريش بن هلال في اثنَيْ عشر رجلاً؛ وقد تفرّق عنه أصحابه؛ فهم في خَرِبة؛ وقد نصب رماحاً كانت معه وتِرَسةً .

قال : وانتهى إليه ابنُ خازم ، فخرج إليه في أصحابه ، ومع ابن خازم مولىً له شديد البأس ، فحمل على الحريش فضربه فلم يصنع شيئاً ، فقال رجل من بني ضبّة للحرِيش : أما ترى ما يصنع العبد! فقال له الحريش : عليه سلاح كثير ، وسيفي لا يعمل في سلاحه ، ولكن انظر لي خشبةً ثقيلة؛ فقطع له عوداً ثقيلاً من عُنَّاب ـ ويقال له : أصابه في القصر ـ فأعطاه إيّاه؛ فحمل به على مولى ابن خازم؛

فضربه فسقط وَقِيذاً ، ثم أقبل على ابن خازم؛ فقال: ما تريد إليّ وقد خلّيتك والبلاد! قال: إنك تعود إليها ، قال: فإني لا أعود ، فصالحه على أن يخرج له من خُراسان ولا يعود إلى قتاله ، فوصله ابن خازم بأربعين ألفاً ، قال: وفتح له الحريش باب القصر ، فدخل ابن خازم ، فوصَله وضمن له قضاء دَينه ، وتحدّثا طويلاً ، قال: وطارت قُطْنة كانت على رأس ابن خازم مُلصَقة على الضربة التي كان الحريش ضربه ، فقام الحريش فتناولها ، فوضعها على رأسه ، فقال له ابن خازم: مَسُّك اليوم يا أبا قُدامة ألين من مَسِّك أمس ، قال: معذرة إلى الله وإليك؛ أما والله لولا أن رِكابيّ انقطعا لخالط السيف أضراسَك ، فضحك ابن خازم ، وانصرف عنه وتفرّق جمع بني تميم ، فقال بعض شعراء بني تميم:

فلو كُنتمُ مِثلَ الحَرِيش صبَرْتُم وكنتمْ بقصرِ المِلح خَيرَ فوارِسِ
إذاً لَسقَيْتم بالعَوالي ابنَ خازمٍ سجالَ دَمٍ يُورِثنَ طُولَ وَسَاوِسِ

قال: وكان الأشعث بن ذؤيب أخو زهير بن ذؤيب العَدويّ قتل في تلك الحرب ، فقال له أخوه زهير وبه رَمَق: مَنْ قتَلك؟ قال: لا أدري؛ طعنني رجل على بِرْذَون أصفر ، قال: فكان زهير لا يرى أحداً على برذون أصفر إلا حمل عليه؛ فمنهم مَن يقتله ، ومنهم من يهرب؛ فتحامى أهل العسكر البرَاذين الصُّفْر؛ فكانت مخلاّةً في العسكر لا يركبها أحد ، وقال الحريش في قتاله ابنَ خازم:

أَزَالَ عظمَ يَميني عَنْ مُرَكَّبِهِ حمْلُ الرُّدَيْنيّ في الإِدْلاجِ والسَّحَرِ
حَوْلَيْنِ ما اغْتَمَضَتْ عيني بمنزلةٍ إلاَّ وكفِّي وسادٌ لي على حَجَرِ
بَزَّى الحدِيدُ وسرْبالي إذا هَجَعَتْ عنّي العيونُ مِحالُ القارحِ الذَّكَرِ

(٥/ ٦٢٤ ـ ٦٢٦).

ثم دخلت سنة ستّ وستين

ذكر الخبر عن الكائن الذي كان فيها من الأُمور الجليلة.

فممَّا كان فيها من ذلك وثوب المختار بن أبي عُبَيد بالكوفة طالباً بدم الحُسين بن عليّ بن أبي طالب وإخراجه منها عاملَ ابن الزُّبير عبدَ الله بن مُطيع العَدويّ.

* ذكر الخبر عمّا كان من أمرهما في ذلك وظهور المختار للدعوة إلى ما دعا إليه الشيعة بالكوفة:

ذكر هشام بن محمد عن أبي مخنف: أن فُضَيل بن خَدِيج حدّثه عن عُبيدة بن عمرو وإسماعيل بن كثير من بني هند: أنّ أصحاب سليمان بن صُرَد لمَّا قدموا كتب إليهم المختار:

أمَّا بعد؛ فإنّ الله أعظم لكم الأجر، وحطّ عنكم الوِزْر، بمفارقة القاسطين، وجهاد المُحلّين؛ إنّكم لم تنفقوا نفقة، ولم تقطعوا عقبة، ولم تخطوا خَطْوة إلاّ رفع الله لكم بها درجة، وكتب لكم بها حسنة إلى ما لا يحصيه إلا الله من التضعيف؛ فأبشروا فإنّي لو قد خرجت إليكم قد جرّدت فيما بين المشرق والمغرب في عدوكم السيف بإذن الله، فجعلتُهم بإذن الله رُكاماً؛ وقتلتُهم فذّاً وتؤاماً؛ فرحّب الله بمن قارب منكم واهتدى؛ ولا يبعد الله إلا من عصى وأبى؛ والسلام يا أهل الهدى.

فجاءهم بهذا الكتاب سَيحان بن عمرو، من بني ليث من عبد القيس قد أدخله في قلنسوته فيما بين الظّهارة والبِطانة؛ فأتى بالكتاب رفاعة بن شدّاد والمثُنَّى بن مُخرّبة العبديّ وسعد بن حُذيفة بن اليَمَان ويزيد بن أنس وأحمرَ بن شُمَيْط الأحمسيّ، وعبد الله بن شدّاد البَجلِيّ، وعبد الله بن كامل؛ فقرأ عليهم الكتاب؛ فبعثوا إليه ابن كامل؛ فقالوا: قل له: قد قرأنا الكتاب؛ ونحن حيث يسرّك؛ فإن شئت أن نأتيَك حتى نخرجك فعلنا. فأتاه، فدخل عليه السجن؛ فأخبره بما أرسِل إليه به؛ فسُرّ باجتماع الشيعة له؛ وقال لهم: لا تريدوا هذا؛ فإني أخرج في أيَّامي هذه.

قال: وكان المختار قد بعث غلاماً يُدْعى زِربِيّاً إلى عبد الله بن عمر بن الخطّاب، وكتب إليه:

أمّا بعد: فإني قد حُبست مظلوماً، وظنّ بي الولاةُ ظنوناً كاذبة؛ فاكتب فيّ يرحمك الله إلى هذين الظّالميْن كتاباً لطيفاً؛ عسى الله أن يخلّصني من أيديهما بلطْفك وبركتك ويُمنك؛ والسلام عليك.

فكتب إليهما عبد الله بن عمر :

أمَّا بعد؛ فقد علمتُما الَّذي بيني وبين المختار بن أبي عبيد من الصِّهر ، والَّذي بيني وبينكما من الودّ؛ فأقسمت عليكما بحقّ ما بيني وبينكما لَمّا خلّيتما سبيله حتى تنظران في كتابي هذا ، والسلام عليكما ورحمة الله .

فلمَّا أتى عبدَ الله بن يزيد وإبراهيمَ بن محمد بن طلحة كتابُ عبد الله بن عمر دعوَا للمختار بكُفَلاء يضمنونه بنفسه ، فأتاه أناس من أصحابه كثير ، فقال يزيد بن الحارث بن يزيد بن رُؤيْم لعبد الله بن يزيد : ما تصنع بضمان هؤلاء كلّهم! ضمّنه عشرة منهم أشرافاً معروفين ، ودعْ سائرهم .

ففعل ذلك ، فلما ضمِنوه ، دعا به عبد الله بن يزيد وإبراهيم بن محمد بن طلحة فحلَّفاه بالله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة الرحمن الرحيم؛ لا يبغيهما غائلة ، ولا يخرج عليهما ما كان لهما سلطان؛ فإن هو فعل فعليه ألف بَدَنة ينحرها لدى رِتاج الكعبة؛ ومماليكُه كلّهم ذَكَرُهم وأنثاهم أحرارٌ ، فحلف لهما بذلك ، ثم خرج فجاء داره فنزلها[1] . (٦/٧ ـ ٩) .

قال أبو مخنف : فحدّثني يحيى بن أبي عيسى ، عن حُميد بن مسلم ، قال : سمعت المختار بعد ذلك يقول : قاتلهم الله! ما أحمقهم حين يَرَوْن أنّى أفي لهم بأيمانهم هذه! أمَّا حلِفي لهم بالله؛ فإنه ينبغي لي إذا حلفت على يمين فرأيت ما هو خير منها أن أدَع ما حلفت عليه وآتي الذي هو خير؛ وأكفّر يميني ، وخروجي عليهم خير من كفِّي عنهم؛ وأكفّر يميني؛ وأمَّا هَدْي ألف بَدَنة فهو أهْوَن عليّ من بصقة؛ وما ثمنُ ألف بدنة فيهولَني! وأمَّا عتق مماليكي فوالله لوددت أنه قد استتبّ لي أمري ، ثمّ لم أملك مملوكاً أبداً .

قال : ولمَّا نزل المختار دارَه عند خروجه في السِّجن ، اختلف إليه الشيعة واجتمعت عليه؛ واتَّفق رأيها على الرضا به ، وكان الذي يبايع له الناس وهو في السّجن خمسة نفر : السَّائب بن مالك الأشعريّ ، ويزيد بن أنس ، وأحمر بن شُميط ، ورفاعة بن شدّاد الفِتْياني ، وعبد الله بن شداد الجُشَميّ .

قال : فلم تزل أصحابه يكثُرون ، وأمره يقوَى ويشتدُّ حتَّى عزل ابنُ الزبير

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك .

عبدَ الله بن يزيد وإبراهيمَ بن محمد بن طلحة، وبعث عبد الله بن مُطيع على عملهما إلى الكوفة[١]. (٦/ ٩).

قال أبو مخنف: فحدّثني الصّقْعب بن زهير، عن عمر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، قال: دَعا ابن الزبير عبدَ الله بن مطيع أخا بني عدي بن كعب، والحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزوميّ؛ فبعث عبد الله بن مطيع على الكوفة، وبعث الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة على البصرة، قال: فبلغ ذلك بَحِيرَ بن رَيْسان الحميريّ؛ فلقيهما فقال لهما: يا هذان؛ إن القمر الليلة بالناطح، فلا تسيرا فأمَّا ابنُ أبي ربيعة؛ فأطاعه؛ فأقام يسيراً ثم شخص إلى عمله فسلم؛ وأمَّا عبد الله بن مطيع فقال له: وهل نطلب إلا النّطح! قال: فلقي والله نطحاً وبَطْحاً، قال: يقول عمر: والبلاء موكَّل بالقول.

قال عمر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام: بلغ عبد الملك بن مروان: أن ابن الزبير بعث عمالاً على البلاد؛ فقال: مَنْ بعث على البصرة؟ فقيل: بعث عليها الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة؛ قال: لا حُرَّ بوادي عوف، بعث عوفاً وجلس! ثم قال: مَنْ بعث على الكوفة؟ قالوا: عبد الله بن مطيع، قال: حازم وكثيراً ما يسقط وشجاع وما يكره أن يفرّ، قال: مَنْ بعث على المدينة؟ قالوا: بعث أخاه مُصعب بن الزبير، قال: ذاك الليث النَّهْد، وهو رجل أهل بيته[٢]. (٦/ ٩ ـ ١٠).

قال هشام: قال أبو مخنف: وقدِم عبد الله بن مُطيع الكوفة في رمضان سنة خمس وستين يوم الخميس لخمس بقين من شهر رمضان، فقال لعبد الله بن يزيد: إنْ أحببت أن تقيم معي أحسنتُ صحبتَك، وأكرمت مثواك؛ وإن لحقتَ بأمير المؤمنين عبدِ الله بن الزبير فابك عليه كرامة، وعلى مَنْ قبله من المسلمين، وقال لإبراهيم بن محمد بن طلحة: الحقْ بأمير المؤمنين. فخرج إبراهيم حتى قدم المدينة، وكسر على ابن الزبير الخراج؛ وقال: إنَّما كانت فتنة؛ فكفَّ عنه ابن الزبير.

---

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

(٢) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

قال: وأقام ابن مطيع على الكوفة على الصّلاة والخراج؛ وبعث على شرُطته إياس بن مضارب العجليّ، وأمره أن يُحسن السيرة والشدّة على المريب[1]. (٦/ ١٠).

قال أبو مخنف: فحدّثني حَصِيرة بن عبد الله بن الحارث بن دريد الأزديّ ـ وكان قد أدرك ذلك الزمان، وشهد قتل مُصْعب بن الزبير ـ قال: إني لشاهد المسجد حيث قدم عبد الله بن مطيع، فصعِد المنبر، فحمِد الله وأثنى عليه، وقال: أمَّا بعد؛ فإنّ أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير بعثني على مصركم وثغوركم، وأمرني بجباية فيئكم؛ وألاّ أحمل فضل فيئكم عنكم إلا برضاً منكم، ووصيَّة عمر بن الخطاب التي أوصى بها عند وفاته، وبسيرة عثمان بن عفان التي سار بها في المسلمين؛ فاتقوا الله واستقيموا ولا تختلفوا، وخذوا على أيدي سفهائكم، وإلاّ تفعلوا فلوموا أنفسكم ولا تلوموني؛ فوالله لأوقعنّ بالسقيم العاصي؛ ولأقيمنّ دَرْء الأصعر المرتاب، فقام إليه السائب بن مالك الأشعري، فقال: أمَّا أمر ابن الزبير إيّاك إلاّ تُحمل فضل فيئنا عنَّا إلا برضانا فإنا نشهدك أنَّا لا نرضى أن تحمل فضل فيئنا عنّا؛ وألاّ يقسم إلا فينا؛ وألاّ يُسار فينا إلا بسيرة عليّ بن أبي طالب التي سار بها في بلادنا هذه حتى هلك رحمة الله عليه، ولا حاجةَ لنا في سيرة عثمان في فيئنا ولا في أنفسنا؛ فإنها إنما كانت أثَرَة وهوىً، ولا في سيرة عمر بن الخطاب في فيئنا، وإن كانت أهون السيرتين علينا ضرّاً؛ وقد كان لا يألو النَّاس خيراً، فقال يزيد بن أنس: صدق السائب بن مالك وبَرَّ، رأيُنا مثل رأيه، وقولنا مثل قوله.

فقال ابن مطيع: نسير فيكم بكلّ سيرة أحببتموها وهويتموها ثم نزل. فقال: يزيد بن أنس الأسديّ: ذهبتَ بفضلها يا سائب؛ لا يعدمْك المسلمون! أما والله لقد قمتُ وإني لأريد أن أقوم فأقول له نحواً من مقالتك، وما أحبّ أن الله ولَّى الردّ عليه رجلاً من أهل المِصْر ليس من شيعتنا.

وجاء إياس بن مضارب إلى ابن مُطيع، فقال له: إنّ السائب بن مالك من رؤوس أصحاب المختار، ولست آمنُ المختار؛ فابعث إليه فليأتك؛ فإذا جاءك

---

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

فاحبسْه في سجنك حتى يستقيم أمر الناس؛ فإن عيوني قد أتتني فخبَّرتْني أنّ أمره قد استجمع له؛ وكأنه قد وثب بالمِصْر، قال: فبعث إليه ابن مُطيع زائدةَ بن قُدامة وحُسين بن عبد الله البُرْسُميّ من هَمْدان، فدخلا عليه، فقالا: أجب الأمير، فدعا بثيابه وأمر بإسراج دابَّته، وتحشحش للذهاب معهما؛ فلما رأى زائدةُ بن قدامة ذلك قرأ قول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾، ففهمها المختار، فجلس ثم ألقى ثيابه عنه، ثمّ قال: ألقوا عليّ القطيفة؛ ما أراني إلاّ قد وُعِكت، إني لأجد قفقفةً شديدة، ثم تمثَّل قول عبد العُزَّى بن صُهَل الأزديّ:

إذا ما مَعْشَرٌ تَركُوا نَداهُمْ ولم يأْتوا الكريهَة لم يُهَابُوا

ارجعا إلى ابن مطيع، فأعلماه حالي التي أنا عليها، فقال له زائدة بن قدامة: أمَّا أنا ففاعل؛ [فقال:] وأنت يا أخا همْدان فاعذرني عنده فإنه خير لك[(١)]. (٦/ ١٠ _ ١٢).

قال أبو مخنف: فحدثني إسماعيل بن نُعيم الهمْداني عن حسين بن عبد الله، قال: قلت في نفسي: والله إن أنا لم أُبَلِّغ عن هذا ما يُرضيه ما أنا بآمن مِن أن يظهر غداً فيهلكني، قال: فقلت له: نعم، أنا أضع عند ابن مطيع عذرك، وأبلغه كلّ ما تحبّ؛ فخرجنا من عنده؛ فإذا أصحابه على بابه، وفي داره منهم جماعة كثيرة. قال: فأقبلنا نحو ابن مطيع، فقلت لزائدة بن قدامة: أما إني قد فهمت قولك حين قرأتَ تلك الآية؛ وعلمت ما أردتَ بها، وقد علمت أنها هي ثَبّطته عن الخروج معنا بعد ما كان قد لبس ثيابه، وأسرج دابّته، وعلمتُ حين تمثَّل البيت الذي تمثَّل أنما أراد يخبرك أنه قد فهم عنك ما أردت أن تُفهمه، وأنه لن يأتيه. قال: فجاحدني أن يكون أراد شيئاً من ذلك؛ فقلت له: لا تحلف؛ فوالله ما كنت لأبلغَ عنك ولا عنه شيئاً تكرهانه؛ ولقد علمت أنَّك مشفق عليه، تجد له ما يجد المرء لابن عمه، فأقبلنا إلى ابن مطيع؛ فأخبرناه بعلَّته وشكواه؛ فصدَّقَنا ولها عنه.

قال: وبعث المختار إلى أصحابه؛ فأخذ يجمعهم في الدُّور حوله وأراد أن

---

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

يثِب بالكوفة في المحرّم؛ فجاء رجل من أصحابه من شِبَام ـ وكان عظيمَ الشرف يقال له عبد الرحمن بن شريح ـ فلقي سعيد بن منقذ الثَّوريّ وسعر ابن أبي سِعر الحنفيّ والأسود بن جَراد الكنديّ وقدامة بن مالك الجشميّ؛ فاجتمعوا في منزل سعْر الحنفيّ ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال:

أمّا بعد؛ فإنَّ المختار يريد أن يخرج بنا ، وقد بايعناه ولا ندري أرسله إلينا ابن الحنفية أم لا؛ فانهضوا بنا إلى ابن الحنفيّة فلنخبره بما قدم علينا به وبما دَعانا إليه؛ فإنْ رخّص لنا في اتّباعه اتّبعناه؛ وإن نهانا عنه اجتنبناه؛ فوالله ما ينبغي أن يكون شيءٌ من أمر الدنيا آثرَ عندنا من سلامة ديننا ، فقالوا له: أرشدك الله! فقد أصبت ووفِّقت؛ اخرج بنا إذا شئت.

فأجمع رأيهم على أن يخرجوا من أيَّامهم فخرجوا ، فلحقوا بابن الحنفيَّة؛ وكان إمامَهم عبدُ الرحمن بن شريح ، فلمَّا قدموا عليه سألهم عن حال النَّاس فخبَّروه عن حالهم وما هم عليه[١]. (٦/ ١٢ ـ ١٣).

قال أبو مخنف: فحدّثني خليفة بن ورقاء ، عن الأسود بن جراد الكنديّ قال: قلنا لابن الحنفيَّة ، إنّ لنا إليك حاجةً ، قال: فسرّ هي أم علانية؟ قال: قلنا: لا؛ بل سرّ ، قال: فرويداً إذاً؛ قال: فمكث قليلاً ، ثم تنحَّى جانباً فدعانا فقمنا إليه ، فبدأ عبد الرحمن بن شُريح ، فتكلَّم فحمِد الله وأثنى عليه ، ثمّ قال: أمّا بعد؛ فإنكم أهل بيت خصَّكم الله بالفضيلة ، وشرّفكم بالنبوّة ، وعظَّم حقكم على هذه الأمة؛ فلا يجهل حقكم إلا مغبون الرأي ، مخسوس النصيب؛ قد أصِبتم بحسين رحمة الله عليه ، عظُمت مصيبة اختُصصتم بها ، بعد ما عم بها المسلمون ، وقد قدم علينا المختار بن أبي عبيد يزعم لنا أنه قد جاءنا من تِلقائكم ، وقد دعانا إلى كتاب الله وسنة نبيِّه ﷺ ؛ والطلب بدماء أهل البيت ، والدفع عن الضعفاء؛ فبايعناه على ذلك ، ثم إنَّا رأينا أن نأتِيَك فنذكر لك ما دعانا إليه ، وندبنا له؛ فإن أمرتَنا باتباعه اتبعناه ، وإن نهيتنا عنه اجتنبناه.

ثم تكلمنا واحداً واحداً بنحو مما تكلم به صاحبنا؛ وهو يسمع ، حتى إذا فرغنا حمِد الله وأثنى عليه ، وصلَّى على النبي ﷺ ، ثم قال:

---

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

أمَّا بعد؛ فأما ما ذكرتم مما خصَّصنا الله به من فضل؛ فإن الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم؛ فلله الحمد! وأمَّا ما ذكرتم من مصيبتنا بحُسين؛ فإنّ ذلك كان في الذكر الحكيم وهي ملحمة كُتبت عليه، وكرامة أهداها الله له، رفع بما كان منها درجات قوم عنده، ووضع بها آخرين، وكان أمر الله مفعولا، وكان أمر الله قدراً مقدوراً.

وأمَّا ما ذكرتم من دعاء من دعاكم إلى الطَّلب بدمائنا؛ فوالله لوددت أنّ الله انتصر لنا من عدوّنا بمن شاء من خلقه؛ أقول قولي وأستغفر الله لي ولكم.

قال: فخرجنا من عنده، ونحن نقول: قد أذن لنا؛ قد قال: لوددت أنّ الله انتصر لنا من عدوّنا بمن شاء من خلْقه ولو كره لقال: لا تفعلوا.

قال: فجئنا وأناس من الشيعة ينتظرون مقدمنا ممَّن كنَّا قد أعلمناه بمخرَجنا وأطلعناه على ذات أنفسنا ممن كان على رأينا من إخواننا؛ وقد كان بلغ المختارَ مخرجنا، فشقّ ذلك عليه، وخشي أن نأتيَه بأمر يُخذّل الشيعة عنه؛ فكان قد أرادهم على أن ينهض بهم قبل قدومنا؛ فلم يتهيَّأ ذلك له؛ فكان المختار يقول: إن نُفيراً منكم ارتابوا وتحَيَّروا وخابوا؛ فإن هم أصابوا أقبلوا وأنابوا؛ وإن هم كبوا وهابوا، واعترضوا وانجابوا، فقد ثَبروا وخابوا؛ فلم يكن إلا شهراً وزيادة شي؛ حتى أقبل القوم على رواحلهم؛ حتى دخلوا على المختار قبل دخولهم إلى رحالهم، فقال لهم: ما وراءكم؟ فقد فُتِنْتُم وارتبتم.

فقالوا له: قد أمِرنا بنصرتك. فقال: الله أكبر! أنا أبو إسحاق، اجمعوا إليّ الشيعة، فجمع له منهم مَنْ كان منه قريباً فقال: يا معشرَ الشيعة؛ إنَّ نفراً منكم أحبّوا أن يعلموا مصداق ما جئت به، فرحلوا إلى إمام الهدى، والنجيب المرتضى ابن خير من طشى ومشى؛ حاشا النبي المجتبى؛ فسألوه عمَّا قدمت به عليكم؛ فنبَّأهم أني وزيره وظهيره، ورسوله وخليله؛ وأمركم باتباعي وطاعتي فيما دعوتكم إليه من قتال المحلِّين، والطلب بدماء أهل بيت نبيّكم المصطفيْن.

فقام عبد الرحمن بن شريح، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أمّا بعد يا معشر الشيعة؛ فإنا قد كنا أحببنا أن نستثبت لأنفسنا خاصة، ولجميع إخواننا عامة؛ فقدمنا على المهديّ بن عليّ، فسألناه عن حربنا هذه، وعمَّا دعانا إليه

المختار منها ، فأمرنا بمظاهرته ومؤازرته وإجابته إلى ما دعانا إليه ، فأقبلنا طيّبة أنفُسنا ، منشرحة صدورنا ، قد أذهب الله منها الشكّ والغِلّ والريب ، واستقامت لنا بصيرتنا في قتال عدوّنا ، فليبلِّغ ذلك شاهدُكم غائبكم ، واستعدّوا وتأهَّبوا ، ثمّ جلس وقمنا رجلاً فرجلا ، فتكلَّمنا بنحو من كلامه ، فاستجمعت له الشيعة وحدَبت عليه[1]. (٦/ ١٣ ـ ١٥).

قال أبو مخنف: فحدّثني نُمَير بن وَعْلة والمَشرِفيّ ، عن عامر الشَّعْبيّ ، قال: كنت أنا وأبي أوّلَ من أجاب المختار ، قال: فلما تهيّأ أمره ودنا خروجه ، قال له أحمر بن شُميط ويزيد بن أنس وعبد الله بن كامل وعبد الله بن شدّاد: إنّ أشرافَ أهل الكوفة مجتمعون على قتالك مع ابن مطيع ؛ فإن جامعَنا على أمرنا إبراهيمُ بن الأشتر رجوْنا بإذن الله القُوَّة على عدوّنا وألاّ يضرّنا خلافُ مَنْ خالفنا ، فإنه فتى بئيس ، وابن رجل شريف بعيد الصّيت؛ وله عشيرة ذات عزّ وعدد. قال لهم المختار: فالقَوْه فادعوه ، وأعلموه الذي أمِرنا به من الطَّلَب بدم الحسين وأهل بيته.

قال الشعبيّ: فخرجوا إليه وأنا فيهم ، فتكلَّم يزيد بن أنس ، فقال له: إنَّا قد أتيناك في أمر نعرضه عليك ، وندعوك إليه؛ فإن قبلته كان خيراً لك ، وإن تركته فقد أدّينا إليك فيه النصيحة ، ونحن نحبّ أن يكون عندك مستوراً.

فقال لهم إبراهيم بن الأشتر: وإنّ مثلي لا تُخاف غائلته ولا سعايتُه؛ ولا التقرّب إلى سلطانه باغتياب الناس ، إنما أولئك الصغارُ الأخطار الدّقاق همماً ، فقال له: إنَّما ندعوك إلى أمر قد أجمع عليه رأي الملأ من الشيعة؛ إلى كتاب الله وسنَّة نبيِّه ﷺ ، والطَّلب بدماء أهل البيت ، وقتال المحِلّين ، والدفع عن الضعفاء ، قال: ثم تكلم أحمر بن شميط ، فقال له: إني لك ناصح ، ولحظّك محبّ ، وإنّ أباك قد هلك وهو سيّد [الناس] وفيك منه إن رعيتَ حقّ الله خَلَفٌ؛ قد دعوناك إلى أمر إن أجبْتَنا إليه عادت لك منزلة أبيك في النَّاس ، وأحييت من ذلك أمراً قد مات؛ إنما يكفي مثلكَ اليسيرُ حتى تبلغ الغاية التي لا مذهب وراءها ، إنه قد بنى لك أوّلك مفتَخراً ، وأقبل القوم كلّهم عليه يدعونه

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

إلى أمرهم ويرغّبونه فيه ، فقال لهم إبراهيم بن الأشتر: فإني قد أجبتكم إلى ما دعوتموني إليه من الطلب بدم الحسين وأهل بيته ، على أن تولّوني الأمر ، فقالوا: أنت لذلك أهل؛ ولكن ليس إلى ذلك سبيل ، هذا المختار قد جاءنا من قِبَل المهديّ ، وهو الرسول والمأمور بالقتال ، وقد أمِرنا بطاعته ، فسكت عنهم ابن الأشتر ولم يجبْهم ، فانصرفنا من عنده إلى المختار فأخبرناه بما ردّ علينا؛ قال: فغبَر ثلاثاً؛ ثم إنّ المختار دعا بضعةَ عشر رجلاً من وجوه أصحابه ـ قال الشعبيّ: أنا وأبي فيهم ـ قال: فسار بنا ومضى أمامنا يقُدّ بنا بيوت الكوفة قدّاً لا ندري أين يريد؛ حتى وقف على باب إبراهيم بن الأشتر؛ فاستأذنّا عليه فأذن لنا ، وألقيت لنا وسائدُ؛ فجلسنا عليها وجلس المختار معه على فراشه؛ فقال المختار:

الحمد لله ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وصلّى الله على محمّد ، والسّلام عليه ، أمّا بعد ، فإنّ هذا كتاب إليك من المهديّ محمد بن أمير المؤمنين الوصيّ؛ وهو خير أهل الأرض اليوم ، وابن خير أهل الأرض كلّها قبل اليوم بعد أنبياء الله ورسله؛ وهو يسألك أن تنصرنا وتؤازرنا ، فإن فعلت اغتبطت ، وإن لم تفعل فهذا الكتاب حجّة عليك ، وسيغني الله المهديّ محمداً وأولياءه عنك.

قال الشعبيّ: وكان المختار قد دفع الكتاب إليّ حين خرج من منزله؛ فلما قضى كلامه قال لي: ادفع الكتاب إليه ، فدفعته إليه ، فدعا بالمصباح وفضّ خاتمه ، وقرأه فإذا هو:

بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد المهديّ إلى إبراهيم بن مالك الأشتر ، سلامٌ عليك ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو؛ أما بعد فإني قد بعثت إليكم بوزيري وأميني ونجِيِّي الذي ارتضيته لنفسي ، وقد أمرته بقتال عدوّي والطلب بدماء أهل بيتي؛ فانهضْ معه بنفسك وعشيرتك ومَنْ أطاعك؛ فإنك إن نصرتَني وأجبت دعوتي وساعدت وزيري كانت لك عندي بذلك فضيلة؛ ولك بذلك أعنَّة الخيل وكلّ جيش غازٍ ، وكلّ مصر ومنبر وثغر ظهرْتَ عليه فيما بين الكوفة وأقصى بلاد أهل الشام ، عليّ الوفاء بذلك على عهد الله؛ فإن فعلت ذلك نلتَ به عند الله أفضل الكرامة ، وإن أبيت هلكت هلاكاً لا تستقيله أبداً ، والسلام عليك.

فلما قضى إبراهيمُ قراءة الكتاب ، قال: لقد كتب إليّ ابنُ الحنفيَّة؛ وقد كتبتُ إليه قبل اليوم؛ فما كان يكتب إليّ إلا باسمه واسم أبيه ، قال له المختار: إنّ ذلك زمان وهذا زمان ، قال إبراهيم: فمَنْ يعلم أن هذا كتاب ابن الحنفيَّة إليّ؟ فقال له: يزيد بن أنس وأحمر بن شميط وعبد الله بن كامل وجماعتهم ـ قال الشعبيّ: إلاّ أنا وأبي ـ فقالوا: نشهد أنّ هذا كتاب محمد ابن عليّ إليك ، فتأخر إبراهيم عند ذلك عن صدر الفراش فأجلس المختار عليه ، فقال: ابسط يدك أبايعْك ، فبسط المختار يده فبايعه إبراهيم ، ودعا لنا بفاكهة ، فأصبنا منها؛ ودعا لنا بشراب من عسل فشربنا ثم نهضنا؛ وخرج معنا ابنُ الأشتر؛ فركب مع المختار حتى دخل رحله؛ فلما رجع إبراهيم منصرفاً أخذ بيدي ، فقال: انصرف بنا يا شعبيّ ، قال: فانصرفت معه ومضى بي حتى دخل بي رحله ، فقال: يا شعبيّ ، إني قد حفظت أنَّك لم تشهد أنت ولا أبوك؛ أفتَرى هؤلاء شهدوا على حقّ؟ قال: قلت له: قد شهدوا على ما رأيت وهم سادة القرّاء ومشيخة المصْر وفرسان العرب ، ولا أرى مثل هؤلاء يقولون إلا حقّاً ، قال: فقلت له هذه المقالة؛ وأنا والله لهم على شهادتهم متّهَمٌ؛ غير أني يعجبني الخروج وأنا أرى رأي القوم؛ وأحبّ تمام ذلك الأمر؛ فلم أطلعه على ما في نفسي من ذلك؛ فقال لي ابن الأشتر: اكتبْ لي أسماءهم فإني ليس كلَّهم أعرف. ودعا بصحيفة ودواة ، وكتب فيها:

بسم الله الرحمن الرحيم؛ هذا ما شهد عليه السائب بن مالك الأشعريّ ، ويزيد بن أنس الأسديّ وأحمر بن شميط الأحمسيّ ومالك بن عمرو النهديّ؛ حتى أتى على أسماء القوم؛ ثم كتب: شهدوا أن محمد بن عليّ كتب إلى إبراهيم بن الأشتر يأمره بمؤازرة المختار ومظاهرته على قتال المحِلّين ، والطلب بدماء أهل البيت ، وشهد على هؤلاء النَّفر الذين شهدوا على هذه الشهادة شَراحيل بن عبد ـ وهو أبو عامر الشعبيّ الفقيه ـ وعبد الرحمن بن عبد الله النَّخعيّ ، وعامر بن شَراحيل الشعبيّ ، فقلت له: ما تصنع بهذا رحمك الله؟ فقال: دعْه يكون ، قال: ودعا إبراهيم عشيرته وإخوانه ومَنْ أطاعه ، وأقبل يختلف إلى المختار[1]. (٦/ ١٥ ـ ١٨).

---

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

قال هشام بن محمد: قال أبو مخنف: حدثني يحيى بن أبي عيسى الأزديّ، قال: كان حُميد بن مسلم الأزدي صديقاً لإبراهيم بن الأشتر؛ وكان يختلف إليه؛ ويذهب به معه؛ وكان إبراهيم يروح في كلّ عشية عند المساء، فيأتي المختار، فيمكث عنده حتى تصوّب النجوم، ثم ينصرف؛ فمكثوا بذلك يدبّرون أمورهم؛ حتى اجتمع رأيهم على أن يخرجوا ليلة الخميس لأربع عشرة من ربيع الأول سنة ست وستين، ووطَّن على ذلك شيعتهم ومن أجابهم، فلما كان عند غروب الشمس، قام إبراهيم بن الأشتر؛ فأذّن؛ ثمّ إنه استقدم، فصلَّى بنا المغرب، ثم خرج بنا بعد المغرب حين قُلت: أخوك أو الذئبُ ـ وهو يريد المختار ـ فأقبلنا علينا السلاحُ، وقد أتى إياسُ بن مضارب عبدَ الله بن مطيع فقال: إنّ المختار خارج عليك إحدى الليلتين؛ قال: فخرج إياس في الشُّرَط، فبعث ابنه راشداً إلى الكُنَاسة، وأقبل يسير حولَ السوق في الشُّرَط.

ثم إنّ إياس بن مضارب دخل على ابن مطيع، فقال له: إني قد بعثت ابني إلى الكناسة، فلو بعثتَ في كل جبَّانة بالكوفة عظيمة رجلاً من أصحابك في جماعة من أهل الطاعة؛ هاب المريبُ الخروج عليك. قال: فبعث ابن مطيع عبدَ الرحمن بن سعيد بن قيس إلى جَبَّانة السَّبيع، وقال: اكفني قومك، لا أوتَينّ من قِبلك، وأحكِم أمر الجبَّانة التي وجّهتك إليها، لا يحدُثنّ بها حَدَث؛ فأولِيَك العجز والوهن، وبعث كعب بن أبي كعب الخثعميّ إلى جَبَّانة بشر، وبعث زحْر بن قيس إلى جبَّانة كِنْدة، وبعث شِمر بن ذي الجوشن إلى جبّانة سالم، وبعثَ عبد الرحمن بن مخنف بن سُليم إلى جبَّانة الصائديّين، وبعث يزيد بن الحارث بن رُؤيم أبا حَوْشب إلى جبّانة مراد، وأوصى كلَّ رجل أن يكفيه قومه، وألاّ يؤتَى من قبَله، وأن يحكم الوجه الذي وجّهه فيه؛ وبعث شَبَث بن رِبْعيّ إلى السَّبَخة، وقال: إذا سمعت صوت القوم فوجّه نحوهم، فكان هؤلاء قد خرجوا يوم الإثنين، فنزلوا هذه الجبابين، وخرج إبراهيم بن الأشتر من رَحله بعد المغرب يريد إتيان المختار؛ وقد بلغه أن الجبابين قد حُشيتْ رجالاً، وأن الشّرَط قد أحاطت بالسوق والقصر[1]. (٦/ ١٨ ـ ١٩).

---

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

قال أبو مخنف: فحدّثني يحيى بن أبي عيسىٰ ، عن حُميد بن مسلم ، قال: خرجت مع إبراهيم من منزله بعد المغرب ليلة الثلاثاء حتى مررنا بدار عمرو بن حُريث ، ونحن مع ابن الاشتر كتيبةٌ نحوٌ من مئة ، علينا الدروع ، قد كفرنا عليها بالأقبية ، ونحو متقلّدو السيوف؛ ليس معنا سلاحٌ إلا السيوف في عواتقنا ، والدّروع قد سترناها بأقبِيتنا؛ فلمّا مررنا بدار سعيد بن قيس فجُزْناها إلى دار أسامة ، قلنا: مُرَّ بنا على دار خالد بن عُرْفُطة ، ثم امض بنا إلى بَجِيلة ، فلنمرّ في دورهم حتى نخرج إلى دار المختار ـ وكان إبراهيم فتىً حدَثاً شجاعاً؛ فكان لا يكره أن يلقاهم ـ فقال: والله لآمرّنّ على دار عمرو بن حريث إلى جانب القصر وسط السوق ، ولأرعبنّ به عدوّنا ولأرينَّهم هوانهم علينا ، قال: فأخذنا على باب الفيل على دار ابن هبّار؛ ثم أخذ ذات اليمين على دار عمرو بن حريث؛ حتى إذا جاوزها ألفينا إياس بن مضارب في الشُّرَط مظهرين السلاح ، فقال لنا: مَنْ أنتم؟ ما أنتم؟ فقال له إبراهيم: أنا إبراهيم بن الأشتر ، فقال له ابن مضارب: ما هذا الجمع معك؟ وما تريد؟ والله إنّ أمرك لمريب! وقد بلغني أنك تمرّ كلّ عشية هاهنا ، وما أنا بتاركك حتى آتي بك الأمير فيرى فيك رأيه ، فقال إبراهيم: لا أباً لغيرك! خلّ سبيلَنا ، فقال: كلا والله لا أفعل ـ ومع إياس بن مضارب رجل من هَمْدان ، يقال له أبو قطن ، كان يكون مع إمرة الشّرْطة فهم يكرِمونه ويؤثرونه ، وكان لابن الأشتر صديقاً ـ فقال له ابن الأشتر: يا أبا قَطن ، ادنُ مني ـ ومع أبي قَطَن رمح له طويل ـ: فدنا منه أبو قَطَن ومعه الرمح؛ وهو يرى أن ابن الأشتر يطلب إليه أن يشفع له إلى ابن مضارب ليخلّيَ سبيله؛ فقال إبراهيم ـ وتناول الرّمح من يده: إنّ رمحَك هذا لطويل؛ فحمل به إبراهيم على ابن مضارب فطعنه في ثُغْرة نحره فصرعه ، وقال لرجل من قومه: انزل [عليه] ، فاحتز رأسه ، فنزل إليه فاحتزّ رأسه ، وتفرّق أصحابه ورجعوا إلى ابن مطيع ، فبعث ابن مطيع ابنَه راشدَ بن إياس مكان أبيه على الشّرْطة ، وبعث مكان راشد بن إياس إلى الكُنَاسة تلك الليلة سُوَيد بن عبد الرحمن المِنْقَرِي أبا القعقاع بن سُويد ، وأقبل إبراهيم بن الأشتر إلى المختار ليلةَ الأربعاء ، فدخل عليه فقال له إبراهيم: إنَّا اتّعدنا للخروج للقابلة ليلة الخميس ، وقد حدث أمرٌ لابدّ من الخروج الليلة ، قال المختار: ما هو؟ قال: عرض لي إياس بن مضارب في الطريق ليحبسني

بزعمه، فقتلته؛ وهذا رأسه مع أصحابي على الباب. فقال المختار: فبشّرك الله بخير! فهذا طير صالح، وهذا أوّل الفتح إن شاء الله، ثم قال المختار: قم يا سعيد بن منقذ، فأشعل في الهراديّ النيران ثم ارفعها للمسلمين، وقم أنت يا عبد الله بن شدّاد، فناد: «يا منصور أمتْ»؛ وقم أنت يا سفيان بن ليل، وأنت يا قدامة بن مالك، فناد: يا لثأرات الحسين! ثم قال المختار: عليّ بدرعي وسلاحي، فأتِيَ به؛ فأخذ يلبس سلاحه وَيقول:

قَدْ عَلِمَتْ بَيْضاءُ حَسناءُ الطَّلَلْ واضِحَة الخَدَّين عَجْزاءُ الكَفَلْ

أنّي غداةَ الرَّوْعِ مِقْدامٌ بَطَلْ

ثم إنّ إبراهيم قال للمختار: إنّ هؤلاء الرؤوس الَّذين وضعهم ابن مطيع في الجَبابِين يمنعون إخوانَنا أن يأتونا، ويضيِّقون عليهم؛ فلو أني خرجت بمن معي من أصحابي حتى آتيَ قومي؛ فيأتيني كلّ مَنْ قد بايعني من قومي، ثم سرت بهم في نواحي الكوفة، ودعوت بشعارنا؛ فخرج إليّ مَن أراد الخروج إلينا، ومن قدر على إتيانك من الناس؛ فمن أتاك حبستَه عندك إلى مَنْ معك ولم تفرّقهم، فإن عوجلت فأتيت كان معكَ من تمتنع به، وأنا لو قد فرغت من هذا الأمر عجلت إليك في الخيل والرجال. قال له إمّا لا فاعجل وإيّاك أن تسير إلى أميرهم تقاتله، ولا تقاتل أحداً وأنت تستطيع ألاّ تقاتل، واحفظ ما أوصيتك به إلاّ أن يبدأك أحد بقتال، فخرج إبراهيم بن الأشتر من عنده في الكتيبة الَّتي أقبل فيها؛ حتى أتى قومَه، واجتمع إليه جلّ مَنْ كان بايعه وأجابه، ثم إنَّه سار بهم في سِكِك الكوفة طويلاً من الليل؛ وهو في ذلك يتجنَّب السكك الَّتي فيها الأمراء، فجاء إلى الَّذين معهم الجماعات الَّذين وضع ابن مطيع في الجبابين وأفواه الطّرق العظام، حتَّى انتهى إلى مسجد السَّكون، وعجلت إليه خيلٌ من خيل زَحْر بن قيس الجُعفيّ ليس لهم قائد ولا عليهم أمير، فشدّ عليهم إبراهيمُ بن الأشتر وأصحابه، فكشفوهم حتَّى دخلوا جبَّانة كِندة، فقال إبراهيم: من صاحب الخيل في جبَّانة كندة؟ فشدّ إبراهيم وأصحابُه عليهم، وهو يقول: اللهمّ إنك تعلم أنا غضبنا لأهل بيت نبيّك وثُرنا لهم، فانصرنا عليهم، وتمّم لنا دعوتَنا؛ حتَّى انتهى إليهم هو وأصحابُه، خالطوهم وكَشفُوهم فقيل له: زَحْرُ بن قيس؛ فقال:

انصرفوا بنا عنهم ، فركب بعضُهم بعضاً كلَّما لقيَهم زقاق دخلَ منهم طائفةٌ ، فانصَرَفُوا يسيرون.

ثم خرج إبراهيم يسير حتَّى انتهى إلى جبَّانة أثَيْر ، فوقف فيها طويلاً ، ونادى أصحابه بشعارهم ، فبلغ سُوَيد بن عبد الرحمن المنقريّ مكانهم في جبَّانة أثَير ، فرجا أن يصيبَهم فيحظَى بذلك عند ابن مطيع ، فلم يشعر ابن الأشتر إلا وهم معه في الجبَّانة ، فلمَّا رأى ذلك ابن الأشتر قال لأصحابه: يا شُرطةَ الله ، انزِلوا فإنكم أولَى بالنَّصر من الله من هؤلاء الفسَّاق الَّذين خاضوا دماءَ أهلِ بيت رسول الله ﷺ، فنزلوا ، ثم شدّ عليهم إبراهيم ، فضربهم حتى أخرجهم من الصَّحراء ، وولَّوا منهزمين يركَب بعضهم بعضاً ، وهم يتلاوَمون ، فقال قائل منهم: إنّ هذا الأمر يراد: ما يلقوْن لنا جماعة إلاّ هزموهم! فلم يزل يَهزِمهم حتَّى أدخلَهم الكُناسةَ ، وقال أصحاب إبراهيم لإبراهيم: اتّبعهم واغتنِم ما قد دَخَلهم من الرّعب ، فقد علم الله إلى من ندعو وما نطلب ، وإلى من يدعون وما يطلبون! قال: لا ، ولكن سيروا بنا إلى صاحبنا حتَّى يؤمّن الله بنا وحشتَه ، ونكون من أمره على عِلمٍ ، ويعلم هو أيضاً ما كان من عَنائنا ، فيزداد هو وأصحابه قوّة وبصيرة إلى قواهم وبصيرتهم ، مع أني لا آمن أن يكون قد أتِيَ.

فأقبل إبراهيمُ في أصحابه حتَّى مرّ بمسجد الأشعث ، فوقفَ به ساعة ، ثم مضى حتَّى أتى دار المختار ، فوجد الأصوات عالية ، والقومَ يقتتلون ، وقد جاء شَبَث بن ربعي من قبَل السبخَة ، فعبّى له المختار يزيد بن أنس ، وجاء حجّار بن أبجر العجليّ ، فجعل المختار في وجهه أحمر بن شميط ، فالناس يقتتلون وجاء إبراهيم من قبل القصر ، فبلغ حجَّاراً وأصحابه أنّ إبراهيم قد جاءهم من ورائهم ، فتفرّقوا قبل أن يأتيَهم إبراهيم ، وذهبوا في الأزقَّة والسكك ، وجاء قيس بن طَهْفة في قريب من مئة رجل من بني نَهْد من أصحاب المختار ، فحمل على شَبث بن رِبعيّ وهو يقاتل يزيد بن أنس ، فخلَّى لهم الطريق حتَّى اجتمعوا جميعاً ، ثمّ إن شَبَث بن رِبعيّ ترك لهم السكَّة ، وأقبل حتَّى لقي ابن مطيع ، فقال: ابعث إلى أمراء الجَبَابِين فمرهم فليأتوك ، فاجمعْ إليك جميعَ الناس ، ثمّ انهد إلى هؤلاء القوم فقاتِلهم وابعث إليهم من تثق به فليكفك قتالهم ، فإنّ أمرَ القوم قد قَوي ، وقد خرج المختار وظهر ، واجتمع له أمرُه ، فلمَّا بلغ ذلك المختار من مشورة

شَبَث بن رِبْعِيّ على ابن مطيع خرج المختار في جماعة من أصحابه حتَّى نزل في ظهر دَيْر هند ممَّا يلي بُستان زائدة في السَّبخة.

قال: وخرج أبو عثمان النّهديّ فنادى في شاكر وهم مجتمعون في دورهم، يخافون أن يظهروا في الميدان لقُرْب كعب بن أبي كعب الخثعميّ منهم، وكان كعب في جبَّانة بشر، فلمَّا بلغه أن شاكراً تخرج جاء يسير حتى نزل بالميْدان، وأخذ عليهم بأفواه سِكَكهم وطُرُقِهم، قال: فلمَّا أتاهم أبو عثمان النَّهديّ في عصابة من أصحابه، نادى: يا لَثأرات الحسين! يا منصورَ أمِت! يا أيّها الحَيّ المهتدون، ألا إنّ أمير آل محمَّد ووزيرَهم قد خرج فنزل ديرَ هند، وبعثني إليكم داعياً ومبشراً، فاخرجوا إليه يرحمكم الله! قال: فخرجوا من الدّور، يتداعَوْن: يا لثَارات الحسين! ثم ضاربوا كعب بن أبي كعب، حتَّى خلَّى لهم الطريق، فأقبلوا إلى المختار حتَّى نزلوا معه في عسكره، وخرج عبد الله بن قراد الخثعميّ في جماعة من خثعم نحو المئتين حتَّى لحق بالمختار، فنزلوا معه في عسكره، وقد كان عرض له كعب بن أبي كعب فصافَّه، فلمَّا عرفهم ورأى أنَّهم قومُه خلَّى عنهم، ولم يقاتلْهم.

وخرجتْ شِبَام من آخر ليلتهم فاجتمعوا إلى جبَّانة مراد، فلمَّا بلغ ذلك عبد الرحمن بن سعيد بن قيسٍ بعث إليهم: إن كنتم تريدون اللّحاق بالمختار فلا تمرُّوا على جبَّانة السَّبيع، فلَحِقوا بالمختار، فتوافَى إلى المختار ثلاثة آلاف وثمانمئة من اثني عشر ألفاً كانوا بايعوه، فاستجمعوا له قبل انفجار الفجر، فأصبح قد فرغ من تعبيته[١]. (٦/ ١٩ ـ ٢٣).

قال أبو مخنف: فحدّثني الوالبيّ قال: خرجتُ أنا وحميد بن مسلم، والنعمان بن أبي الجَعْد إلى المختار ليلةَ خرج، فأتيناه في داره، وخرجْنا معه إلى معسكره؛ قال: فوالله ما انفَجَر الفجر حتى فرغ من تعبيته؛ فلمَّا أصبح استقدم فصلَّى بنا الغداةَ بغلَس، ثم قرأ «النازعات» و«عبس وتولَّى».

قال: فما سمعنا إماماً أمَّ قوماً أفصحَ لهجةً منه[٢]. (٦/ ٢٣).

---

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

(٢) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

قال أبو مخنف: حدّثني حَصيرة بن عبد الله ، أنّ ابنَ مطيع بعث إلى أهل الجبابين ، فأمرهم أن ينضمُّوا إلى المسجد ، وقال لراشد بن إياس بن مضارب: نادِ في الناس فليأتوا المسجد ، فنادى المنادي: ألا برئتْ الذّمّة من رجل لم يحضر المسجد الليلة! فتوافَى النّاس في المسجد ، فلمَّا اجتمعوا بعث ابن مطيع شَبَث بن رِبْعيّ في نحو من ثلاثة آلاف إلى المختار ، وبعث راشد بن إياس في أربعة آلاف من الشُّرَط[١]. (٦/ ٢٣).

قال أبو مخنف: فحدّثني أبُو الصَّلْت التيميّ عن أبي سعيد الصّيْقل.

قال: لما صلَّى المختار الغداةَ ثم انصرف سَمِعْنَا أصواتاً مرتفعة فيما بين بني سُلَيم وسكَّة البريد ، فقال المختار: مَنْ يعلم لنا علم هؤلاء ما هم؟ فقلت له: أنا أصلحك الله! فقال المختار: إمَّا لا فألق سلاحك وانطلق حتى تدخل فيهم كأنك نظّار ، ثم تأتيني بخبرهم ، قال: ففعلتُ ، فلمَّا دنوت منهم إذا مؤذنهم يقيم ، فجئت حتَّى دنوتُ منهم فإذا شَبَث بن رِبعيّ معه خيل عظيمة ، وعلى خيله شَيْبان بن حُرَيث الضبيّ ، وهو في الرجّالة معه منهم كثرة ، فلما أقام مؤذنهم تقدّم فصلَّى بأصحابه ، فقرأ ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ ، فقلت في نفسي: أما والله إني لأرجو أن يزلزل الله بكم ، وقرأ: ﴿وَٱلْعَـٰدِيَـٰتِ ضَبْحًا﴾ فقال أناس من أصحابه: لو كنت قرأت سورتين هما أطول من هَاتين شيئاً! فقال شَبَث: ترون الدّيْلم قد نزلت بساحتكم ، وأنتم تقولون: لو قرأت سورة «البقرة» و«آل عمران»! قال: وكانوا ثلاثة آلاف ، قال: فأقبلت سريعاً حتى أتيت المختارَ فأخبرته بخبر شَبَث وأصحابه ، وأتاه معي ساعة أتيته سِعْر بن أبي سعر الحنفيّ يركض من قِبَل مراد ، وكان ممَّن بايع المختار فلم يقدر على الخروج معه ليلة خرج مخافة الحرس ، فلمَّا أصبح أقبل على فرسه ، فمرّ بجبَّانة مراد؛ وفيها راشد بن إياس ، فقالوا: كما أنت! ومن أنْت؟ فراكضهم حتى جاء المختار فأخبره خبر راشد ، وأخبرته أنا خبر شَبث ، قال: فسَرّح إبراهيم بن الأشتر قبل راشد بن إياس في تسعمئة ـ ويقال ستمئة فارس وستمئة راجل ـ وبعث نعيم بن هبيرة أخا مَصْقلة بن هبيرة في ثلاثمئة فارس وستمئة راجل ، وقال لهما: امضيا حتى تلقيَا عدوّكما ، فإذا لقيتماهم

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

فانزلا في الرجال وعجلا الفَرَاغ وابدآهم بالإقدام ، ولا تستهدفا لهم؛ فإنهم أكثر منكم ، ولا ترجعا إليّ حتى تظهرا أو تُقتلا ، فتوجَّه إبراهيم إلى راشد ، وقدّم المختارُ يزيد بن أنس في موضع مسجد شَبَث في تسعمئة أمامه. وتوجَّه نعيم بن هبيرة قبَل شَبَث[1]. (٦/ ٢٣ ـ ٢٤).

قال أبو مخنف: قال أبو سعيد الصيقل: كنت أنا فيمن توجَّه مع نُعيم بن هبيرة إلى شَبَث ومعي سِعْر بن أبي سعر الحنفيّ ، فلما انتهينا إليه قاتلناه قتالاً شديداً ، فجعل نعيم بن هبيرة سعر بن أبي سِعْر الحنفيّ على الخيل ومشى هو في الرجال فقاتلهم حتى أشرقت الشمس وانبسطت ، فضربناهم حتى أدخلناهم البيوت؛ ثم إنّ شَبَث بن رِبعيّ ناداهم: يا حماة السوء! بئس فرسان الحقائق أنتم! أمِنْ عبيدكم تهربون! قال: فثابت إليه منهم جماعة فشدّ علينا وقد تفرّقنا فهزمَنا ، وصبر نعيم بن هبيرة فقتِل ، ونزل سعر فأسِر وأسِرت أنا وخليد مولى حسان بن محدوج ، فقال شبث لخليد ـ وكان وسيماً جسيماً: مَن أنت؟ فقال: خليد مولى حسان بن محدوج الذهلي ، فقال له شَبَث: يا بن المَتْكاء ، تركت بيع الصِّحناة بالكُناسة وكان جزاء من أعتقك أن تعدوَ عليه بسيفك تضرب رقابه! اضربوا عنقه ، فقُتِل ، ورأى سعراً الحنفيّ فعَرَفه ، فقال: أخو بني حنيفة؟ فقال له: نعم؛ فقال: وَيْحَك! ما أردتَ إلى اتّباع هذه السَّبئيَّة! قبح الله رأيك ، دعوا ذَا ، فقلتُ في نفسي: قَتَل المولَى وتَرَك العربيّ ، إن علم والله أني مولى قتلني ، فلمَّا عُرِضت عليه قال: من أنت؟ فقلت: من بني تيم الله؛ قال: أعربيّ أنت أو مولىً؟ فقلت: لا بل عربيّ ، أنا من آل زياد بن خَصفَة ، فقال: بخ بخ! ذكرتَ الشريفَ المعروف ، الحقْ بأهلك ، قال: فأقبلتُ حتَّى انتهيت إلى الحمراء ، وكانت لي في قتال القومِ بصيرة ، فجئت حتى انتهيت إلى المختار؛ وقلت في نفسي: والله لآتينّ أصحابي فلأواسينَّهم بنفسي ، فقبح الله العيشَ بعدَهم! قال: فأتيتُهم وقد سبقني إليهم سِعْر الحنفيّ ، وأقبلتْ إليه خيلُ شَبَث ، وجاءه قتْل نُعَيم بن هُبيرة ، فدخل من ذلك أصحابَ المختار أمرٌ كبير؛ قال: فدنوتُ من المختار ، فأخبرتُه بالذي كان من أمري ، فقال لي: اسكتْ ، فليس هذا بمكان الحديث ، وجاء شَبَث حتَّى أحاط بالمختار وبيزيد بن أنس وبعث ابن مطيع يزيدَ بن الحارث بن

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

رؤيم في ألفين من قبَل سكَّة لحّام جرير ، فوقَفوا في أفواه تلك السكك ، ووَلّى المختارُ يزيد بن أنس خيلَه ، وخرج هو في الرَّجالة[١] . (٦/ ٢٤ ـ ٢٦).

قال أبو مخنف: فحدّثني الحارث بن كعب الوالبيّ ، والبة الأزد ، قال: حملتْ علينا خيلُ شَبَث بن رِبْعيّ حملتين ، فما يزول منَّا رجل من مكانه ، فقال يزيد بن أنس لنا: يا معشر الشّيعة ، قد كنتم تُقتَلون وتُقطَّع أيديكم وأرجلكم ، وتسمَل أعينكم ، وتُرفَعون على جُذوع النخل في حُبّ أهل بيت نبيكم ، وأنتم مقيمون في بيوتكم وطاعة عدوّكم ، فما ظنُّكم بهؤلاء القوم إن ظهروا عليكم اليوم! إذاً والله لا يَدعون منكم عيناً تَطرف ، وليقتُلنَّكم صَبْراً ، ولترَوُنّ منهم في أولادكم وأزواجكم وأموالكم ما الموتُ خيرٌ منه ، والله لا يُنجيكم منهم إلا الصدق والصبر. والطعن الصائب في أعينهم ، والضرب الدَّراك على هامِهم ، فتيسَّروا للشَّدّةِ ، وتهيؤوا للحَمْلة ، فإذا حرّكت رايتي مرّتين فاحملوا ، قال الحارث: فتهيَّأنا وتيسَّرنا وجثَوْنا على الرُّكَب ، وانتظرنا أمره[٢] . (٦/ ٢٦).

قال أبو مخنف: وحدّثني فضيل بن خديج الكنديّ أنّ إبراهيم بن الأشتر كان حين توجَّه إلى راشد بن إياس ، مضى حتَّى لقيه في مراد ، فإذا معه أربعةُ آلاف ، فقال إبراهيم لأصحابه: لا يهولنَّكم كثرةُ هؤلاء ، فوالله لرُبّ رجل خيرُ من عشرة ، ولرُبّ فئة قَليلة قَدْ غَلَبَت فِئةً كثيرةً بإذْن الله واللهُ مع الصَّابرين ، ثم قال: يا خُزيمة بن نصر ، سرْ إليهم في الخيل ، ونزل هو يمشي في الرّجال ، ورايتُه مع مُزاحم بن طُفيل ، فأخذ إبراهيم يقول له: ازدَلِف برايتك ، امضِ بها قُدُماً قُدُماً ، واقتتل الناسُ ، فاشتدّ قتالهم ، وبصُر خزيمة بن نصر العبسيّ براشد بن إياس ، فحمل عليه فطعنه ، فقَتَله ، ثمّ نادى: قتلتُ راشداً وربِّ الكعبة ، وانهزم أصحابُ راشد ، واقبل إبراهيمُ بن الأشتر وخزيمة بن نصر ومن كان معهم بعد قتل راشد نحو المختار ، وبعث النعمانُ بن أبي الجعْد يبشّر المختار بالفتح عليه وبقتل راشد ، فلمَّا أن جاءهم البشير بذلك كبَّروا ، واشتدّت أنفسُهم ودخل أصحاب ابن مطيع الفَشَل ، وسرّح ابن مطيع حسَّان بن فائد بن بكير العبسيّ في جيش كثيف نحو من ألفين ، فاعترض إبراهيمَ بن الأشتر فُوَيقَ الحمراء ليردّه عمّن

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.
(٢) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

في السبخة من أصحاب ابن مطيع ، فقدّم إبراهيمُ خزيمة بن نصر إلى حسَّان بن فائد في الخيل ، ومشى إبراهيم نحوه في الرجال . فقال :

والله ما اطَّعنَّا برمح ، ولا اضطَربْنَا بسيف ، حتَّى انهزموا ، وتَخلَّف حسان بن فائد في أخرَيات الناس يَحمِيهم ، وحمل عليه خزيمة بن نصر ، فلمَّا رآه عرفه ، فقال له : يا حسَّان بن فائد ، أما والله لولا القرابة لعرفت أني سألتمس قتلَك بجهدي ، ولكن النّجاءَ ، فعثَر بحسَّانَ فرسُه فوقَع ، فقال : تعساً لك ، أبا عبد الله! وابتدره الناس فأحاطوا به ، فضارَبَهم ساعةً بسيفه ، فناداه خزيمة بن نصر ، قال : إنَّك آمن يا أبا عبد الله ، لا تقتل نفسَك ، وجاء حتَّى وقف عليه ونَهنَه الناسَ عنه ، ومرّ به إبراهيم ، فقال له خزيمة : هذا ابن عمِّي وقد آمنته؛ فقال له إبراهيم : أحسنتَ فأمر خزيمة بطلب فرسه حتى أتِيَ به فحمَلَه عليه ، وقال : الحق بأهلِك .

قال : وأقبل إبراهيم نحوَ المختار ، وشبَث محيط بالمختار ويزيد بن أنس ، فلمَّا رآه يزيد بن الحارث وهو على أفواه سِكَك الكوفة الَّتي تلي السَّبَخة ، وإبراهيم مقبل نحو شبَث ، أقبل نحوَه ليصدّه عن شَبَث وأصحابه ، فبعث إبراهيم طائفةً من أصحابه مع خزيمة بن نصر ، فقال : أغْنِ عنا يزيدَ بن الحارث ، وصَمَد هو في بقيَّة أصحابه نحو شَبَث بن رِبْعيّ[1] . (٦/ ٢٦ ـ ٢٧).

قال أبو مخنف : فحدّثني الحارث بن كعب أنَّ إبراهيم لمَّا أقبل نحونا رأيْنا شَبَثاً وأصحابَه ينكُصون وراءهم رُوَيداً رويداً ، فلمَّا دنا إبراهيمُ من شبث وأصحابه ، حمل عليهم ، وأمرنا يزيد بن أنس بالْحملة عليهم ، فحملنا عليهم ، فانكشفوا حتَّى انتهوا إلى أبياتِ الكوفة ، وحمل خزيمةُ بن نصر على يزيد بن الحارث بن رؤيم فهزمه ، وازدحموا على أفواه السِّكَك ، وقد كان يزيد بن الحارث وضع راميةً على أفواه السكك فوق البيوت ، وأقبل المختارُ في جماعة الناس إلى يزيد بن الحارث ، فلمَّا انتهى أصحابُ المختار إلى أفواه السكك رَمتْه تلك الرامية بالنّبل ، فصدّوهم عن دخول الكوفة من ذلك الوجه ، ورجع الناسُ

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك .

من السَّبَخة منهزمين إلى ابن مطيع وجاءه قتلُ راشد بن إياس ، فأسقِط في يده[١] . (٦/ ٢٧ ـ ٢٨) .

قال أبو مخنف: فحدّثني يحيى بن هانئ ، قال: قال عمرو بن الحجاج الزُّبيديّ لابن مطيع: أيُّها الرجل لا يُسْقَط في خَلَدك ، ولا تُلْقِ بيَدِك ، اخرُج إلى الناس فاندبهم إلى عدوّك فاغزهم ، فإنّ الناس كثير عددُهم ، وكلهم معك إلا هذه الطَّاغية الَّتي خرجتْ على الناس ، والله مخزيها ومُهلِكُها ، وأنا أوّل مُنتدَب ، فاندب معي طائفة ، ومع غيري طائفة ، قال: فخرج ابن مطيع ، فقام في الناس ، فحمِد الله وأثنَى عليه ثم قال: أيُّها الناس ، إنّ من أعجب العجَب عجزكم عن عُصْبة منكم قليل عَدَدُها خبيث دينها ، ضالّة مُضِلَّة ، اخرجوا إليهم فامنعوا منهم حريمَكم وقاتِلوهم عن مِصرِكم ، وامنعوا منهم فَيْئَكم ، وإلا والله ليشارِكَنَّكم في فَيْئكم من لا حقّ له فيه ، والله لقد بلَغني أنّ فيهم خمسمئة رجل من محرَّريكم عليهم أميرٌ منهم ، وإنَّما ذهاب عزّكم وسلطانكم وتغير دينكم حين يكثرون ، ثم نزل.

قال: ومنعهم يزيدُ بن الحارث أن يدخلوا الكوفة ، قال: ومضى المختار من السَّبَخة حتَّى ظهر على الجبَّانة ، ثمَّ ارتفع إلى البيوت؛ بيوت مُزينة وأحمس وبارق ، فنزل عند مسجدهم وبيوتهم ، وبيوتُهم شاذّةٌ منفردة من بيوت أهل الكوفة ، فاستقبلوه بالماء ، فسقى أصحابَه ، وأبى المختار أن يشرَب ، قال: فظنّ أصحابُه أنَّه صائم ، وقال أحمر بن هديج من هَمْدان لابن كامل: أترى الأميرَ صائماً؟ فقال له: نعم ، وهو صائم ، فقال له: فلو أنَّه كان في هذا اليوم مفطراً كان أقوى له؛ فقال له: إنَّه معصوم ، وهو أعلم بما يصنع؛ فقال له: صدقت ، أستغفر الله ، وقال المختار: نعم مكان المقاتل هذا ، فقال له: إبراهيم بن الأشتر: قد هزمهم الله وفَلَّهم ، وأدخل الرعب قلوبَهم ، وتنزل هاهنا! سِرْبنا؛ فوالله ما دون القصر أحد يمنع ، ولا يمتنع كبيرَ امتناع؛ فقال المختار: لِيقُم هاهنا كلّ شيخ ضعيف وذي علة ، وضعوا ما كان لكم من ثَقَل ومَتاع بهذا الموضع حتَّى تسيروا إلى عدوّنا ، ففعلوا ، فاستخلف المختار عليهم أبا عثمان النهديّ ، وقدّم

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك .

إبراهيم بن الأشتر أمامه ، وعبّى أصحابه على الحال الَّتي كانوا عليها في السَّبَخة .

قال: وبعث عبد الله بن مطيع عمرَو بن الحجَّاج في ألفيْ رجُل ، فخرج عليهم من سكَّة الثوريِّين ، فبعث المختار إلى إبراهيم أن أطوه ولا تقم عليه ، فطواه إبراهيم ، ودعا المختار يزيدَ بن أنس ، فأمره أن يصمد لعمرو بن الحجَّاج ، فمضى نحوه ، وذهب المختار في أثر إبراهيم ، فمضَوا جميعاً حتَّى إذا انتهى المختار إلى موضع مصلَّى خالد بن عبد الله وقَف ، وأمرَ إبراهيم أن يمضيَ على وجهه حتَّى يدخل الكوفة من قِبَل الكناسة ، فمضى ، فخرج إليه من سكَّة ابن محرز ، وأقبل شمر بن ذي الجَوْشن في ألفين ، فسرّح المختارُ إليه سعيدَ بن منقذ الْهَمدَانيّ فواقعه ، وبعث إلى إبراهيم أن اطوه ، وامض على وجهك ، فمضَى حتى انتهى إلى سكَّة شبث ، وإذا نوفل بن مساحق بن عبد الله بن مخرَمة ، في نحو من ألفين ـ أو قال: خمسة آلاف ، وهو الصحيح ـ وقد أمر ابن مطيع سويدَ بن عبد الرحمن فنادى في الناس: أن الحقوا بابن مساحق ، قال: واستخلف شَبَث بن رِبْعيّ على القَصْر ، وخرج ابن مطيع حتَّى وقف بالكُناسة[1] . (٦/ ٢٨ ـ ٢٩) .

قال أبو مخنف: حدّثني حَصِيرة بن عبد الله ، قال: إني لأنظر إلى ابن الأشتر حين أقبل في أصحابه ، حتَّى إذا دنا منهم قال لهم: انزلوا فنزلوا ، فقال: قرّبوا خيولَكم بعضَها إلى بعض ، ثم امشوا إليهم مصلِتين بالسيوف ، ولا يهولنَّكم أن يقال: جاءكم شَبَث بن ربعيّ وآل عتيبة بن النَّهاس وآل الأشعث وآل فلان وآل يزيد بن الحارث. . . قال: فسَمَّى بيُوتاتٍ من بيوتات أهل الكوفة ، ثم قال: إنّ هؤلاء لو قد وجدوا لهم حرّ السيوف قد انصفقوا عن ابن مطيع انصفاق المِعزى عن الذئب. قال حصيرة: فإني لأنظر إليه وإلى أصحابه حين قرّبوا خيولهم وحين أخذ ابن الأشتر أسفل قبائِهِ فرفعه فأدَخلَه في منطَقَة له حمراء من حواشي البُرود ، وقد شدّ بها على القباء ، وقد كفَّر بالقباء على الدرع ، ثم قال لأصحابه: شدّوا عليهم فدىً لكم عمي وخالي! قال: فوالله ما لبَّثهم أنْ هزَمهم؛ فركب بعضهم بعضاً على فم السِّكة وازدحموا ، وانتهى ابنُ الأشتر إلى ابن مساحق ، فأخذ

---

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك .

بلِجام دابَّته ، ورفع السيفَ عليه ، فقال له ابن مساحق: يا بن الأشتر ، أنشدك الله ، أتطلُبُني بثأر! هل بيني وبينك من إحنة! فخلّى ابن الأشتر سبيله ، وقال له: اذكُرْها؛ فكان بعد ذلك ابن مساحق يذكرها لابن الأشتر ، وأقبلوا يسيرون حتَّى دخلوا الكُناسة في آثار القوم حتَّى دخلوا السوق والمسجد ، وحصروا ابن مطيع ثلاثاً[١]. (٦/ ٢٩ ـ ٣٠).

قال أبو مخنف: وحدّثني النّضر بن صالح أنّ ابن مطيع مكث ثلاثاً يرْزُق أصحابه في القَصْر حيث حُصر الدقيق ، ومعه أشراف الناس ، إلاّ ما كان من عمرو بن حريث ، فإنه أتى دارَه ولم يُلزم نفسه الحصارَ ، ثمّ خرج حتى نزل البرّ ، وجاء المختار حتَّى نزل جانب السوق ، وولّى حصار القصر إبراهيم بن الأشتر ، ويزيد بن أنس ، وأحمر بن شُميط ، فكان ابن الأشتر ممَّا يلي المسجد وباب القصر ، ويزيدُ بن أنس ممَّا يلي بني حذيفة وسكّة دار الرّوميّين ، وأحمر بن شُميط ممَّا يلي دار عمارة ودار أبي موسى.

فلمَّا اشتدّ الحصار على ابن مطيع وأصحابه كلَّمه الأشراف ، فقام إليه شَبَث فقال: أصلح الله الأمير! انْظُر لنفسك ولمن معك ، فوالله ما عندَهم غَناء عنك ولا عن أنفسهم ، قال ابن مطيع: هاتوا ، أشيروا عليّ برأيكم؛ قال شَبَث: الرّأي أن تأخذ لنفسك من هذا الرجل أماناً ولنا ، وتخرج ولا تُهلِك نفسَك ومن معك ، قال ابن مطيع: والله إني لأكره أن آخذ منه أماناً والأمور مستقيمة لأمير المؤمنين بالحِجاز كله وبأرض البصرة؛ قال: فتخرج لا يشعر بك أحد حتى تنزل منزلاً بالكوفة عند من تَستنصِحه وتَثِق به ، ولا يعلم بمكانك حتَّى تخرج فتلحق بصاحبك؛ فقال لأسماء بن خارجة وعبد الرحمن بن مخنف وعبد الرحمن بن سعيد بن قيس وأشراف أهل الكوفة: ما تروْن في هذا الرأي الذي أشار به عليّ شَبَث؟ فقالوا: ما نرى الرأيَ إلا ما أشار به عليك ، قال: فرويداً حتى أمسِي[٢]. (٦/ ٣٠ ـ ٣١).

قال أبو مخنف: فحدّثني أبو المغلّس اللّيثيّ ، أنّ عبد الله بن عبد الله الليثيّ

---

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

(٢) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

أشرف على أصحاب المختار من القصر من العشيّ يشتمهم ، وينتحي له مالك بن عمرو أبو نمْران النهديّ بسهم فيمرّ بحلقه ، فقطع جلدةً من حلقه فمال فوقع ، قال: ثمّ إنَّه قام وبرأ بعدُ؛ وقال النَّهديّ حين أصابه: خذها مِن مالك ، من فاعل كذا[١]. (٦/ ٣١) .

قال أبو مخنف: وحدّثني النّضر بن صالح ، عن حسَّان بن فائد بن بكير ، قال: لمَّا أمْسَينا في القصر في اليوم الثالث ، دعانا ابن مطيع فذكر الله بما هو أهله ، وصلَّى على نبيِّه ﷺ ، وقال: أما بعد ، فقد علمت الَّذين صنعوا هذا منكم مَن هم ، وقد علمت أنَّما هم أراذِلكم وسفهاؤكم ، وطغامُكم وأخسَّاؤكُم ، ما عدا الرجل أو الرجلين ، وأنّ أشرافكم وأهل الفضل منكم لم يزالوا سامعين مطيعين مناصحين ، وأنا مبلغ ذلك صاحبي ، ومُعْلمه طاعتكم وجهادكم عدوَّه ، حتَّى كان الله الغالب على أمره ، وقد كان من رأيكم وما أشرتم به عليّ ما قد علمتم ، وقد رأيت أن أخرج الساعةَ ، فقال له شبَث: جزاك الله من أمير خيراً! فقد والله عففت عن أموالنا ، وأكرمت أشرافنا ، ونصحت لصاحبك ، وقضيت الذي عليك ، والله ما كنّا لنفارقَك أبداً إلاّ ونحن منك في إذن ، فقال: جزاكم الله خيراً ، أخذ امرؤٌ حيث أحبّ ، ثم خرج من نحو دروب الروميّين حتى أتى دار أبي موسى ، وخلّى القصر ، وفتح أصحابهُ البابَ ، فقالوا: يا بن الأشتر ، آمنون نحن؟ قال: أنتم آمنون؛ فخرجوا فبايعوا المختار[٢]. (٦/ ٣١ ـ ٣٢) .

قال أبو مخنف: فحدّثني موسى بن عامر العدويّ؛ من عديّ جهينة ـ وهو أبو الأشعر ـ أنّ المختار جاء حتى دخل القصر ، فبات به ، وأصبح أشرافُ الناس في المسجد وعلى باب القصر ، وخرج المختار فصعد المنبرَ ، فحَمِد الله وأثنى عليه ، فقال: الحمد لله الَّذي وعد وليَّهُ النصرَ ، وعدوَّه الخُسْرَ ، وجعله فيه إلى آخر الدهر وعْداً مفعولاً ، وقضاءً مقضيّاً ، وقد خاب من افترى ، أيها الناس ، إنَّه رُفعت لنا راية ، ومُدّت لنا غاية ، فقيل لنا في الراية: أن ارفعوها ولا تَضَعوها ، وفي الغاية: أن اجْروا إليها ولا تَعدوها ، فسمعْنا دعوةَ الداعي ، ومقالةَ الوَاعي؛ فكم من ناع وناعية لقتلى في الواعية! وبُعداً لمن طغى وأدبر ،

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك .

(٢) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك .

وعَصَى وكذّب وتولَّى. ألا فادخلوا أيها الناس فبايعوا بيعة هدى ، فلا والَّذي جعل السماءَ سَقْفاً مكفوفاً ، والأرضَ فجَاجاً سُبُلا ، ما بايعتم بعد بيعة عليّ بن أبي طالب وآل عليّ أهدَى منها.

ثمّ نزل فَدَخل ودخلنا عليه وأشراف الناس ، فبَسَط يدَه وابتدره الناس فبايعوه ، وجعل يقول: تبايعوني على كتاب الله وسنة نبيّه ، والطلب بدماء أهل البيت ، وجهاد المُحِلّين ، والدفع عن الضّعفاء ، وقتال مَنْ قاتلنا ، وسلم مَنْ سالمنا ، والوفاء ببيعتنا ، لا نقيلكم ولا نستقيلكم؛ فإذا قال الرجل: نعم ، بايَعَه ، قال: فكأني والله أنظر إلى المنذر بن حسّان بن ضِرار الضبيّ إذ أتاه حتَّى سلَّم عليه بالإمْرة ، ثمّ بايعه وانصرف عنه ، فلمَّا خرج من القصر استقبل سعيد بن منقذ الثوريّ في عصابة من الشِّيعة واقفاً عند المصطبة ، فلمَّا رأوه ومعه ابن حيَّان بن المنذر ، قال رجل من سفهائهم: هذا والله من رؤوس الجبَّارين ، فشَدُّوا عليه وعلى ابنه ، فقتلوهما ، فصاح بهم سعيدُ بن منقذ: لا تَعجَلوا ، لا تعجَلوا حتى ننظر ما رأيُ أميركم فيه ، قال: وبلغ المختارَ ذلك ، فكرهه حتى رُئي ذلك في وجهه ، وأقبل المختار يمنّي الناسَ ، ويستجرّ مودّتهم ومودّة الأشراف ، ويُحسن السيرة جُهدَه.

قال: وجاءه ابن كامل فقال للمختار: أعلمتَ أنّ ابن مطيع في دار أبي موسى؟ فلم يُجبه بشيء ، فأعادها عليه ثلاث مرات ، فلم يُجبه ، ثمّ أعادها فلم يُجِبه ، فظنّ ابن كامل أنّ ذلك لا يوافقه ، وكان ابن مطيع قبلُ للمختار صَدِيقاً ، فلمَّا أمسى بعث إلى ابن مطيع بمئة ألف درهم. فقال له: تجهَّزْ بهذه واخرج؛ فإني قد شعرت بمكانك ، وقد ظننتُ أنَّه لم يمنعْك من الخروج إلاّ أنَّه ليس في يديك ما يقوّيك على الخروج ، وأصاب المختار تسعةَ آلاف ألف في بيت مال الكوفة ، فأعطى أصحابه الَّذين قاتل بهم حين حصر ابن مطيع في القصر ـ وهم ثلاثة آلاف وثمانمئة رجل ـ كلّ رجل خمسمئة درهم ، خمسمئة درهم ، وأعطى ستَّة آلاف من أصحابه أتَوْه بعدما أحاط بالقصر ، فأقاموا معه تلك الليلة وتلك الثلاثة الأيَّام حتَّى دخل القصر مئتين مئتين ، واستقبل الناس بخير ، ومَنَّاهم العدل وحسنَ السيرة ، وأدنى الأشرافَ ، فكانوا جلساءَه وحُدّاثَه ، واستعمل على شُرْطتِه عبد الله بن كامل الشَّاكريّ ، وعلى حَرَسه كيسان أبا عَمْرة

مولى عُرَينة؛ فقام ذات يوم على رأسه، فرأى الأشراف يحدّثونه، ورآه قد أقبل بوجهه وحديثِه عليهم، فقال لأبي عَمْرة بعضُ أصحابه من الموالي: أما ترى أبا إسحاق قد أقبل على العرب ما ينظر إلينا! فدعاه المختار فقال له: ما يقول لك أولئك الَّذين رأيتهم يكلِّمونك؟ فقال له ـ وأسرّ إليه: شقّ عليهم أصلحك الله صَرْفَك وجهَك عنهم إلى العرب، فقال له: قُل لهم: لا يشقنّ ذلك عليكم، فأنتم مني وأنا منكم، ثمّ سكت طويلاً، ثم قرأ: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾. قال فحدّثني أبو الأشعر موسى بن عامر قال: ما هو إلاّ أن سمعها الموالي منه، فقال بعضهم لبعض: أبشروا كأنكم والله به قد قَتَلَهم[1]. (٦/ ٣٢ ـ ٣٣).

قال أبو مخنف: حدّثني حَصِيرة بن عبد الله الأزديّ وفُضَيل بن خَديج الكنديّ والنضر بن صالح العبسي، قالوا: أوّل رجل عقد له المختار رايةَ عبدَ الله بن الحارث أخو الأشتر، عقَد له على أرمينيّة، وبعث محمَّد بن عمير بن عُطارد على أذربيجان، وبعث عبد الرحمن بن سعيد بن قيس على المَوْصل، وبعث إسحاق بن مسعود على المدائن وأرض جُوخَى، وبعث قُدامة بن أبي عيسى بن ربيعة النصريّ، وهو حليف لثقيف على بِهْقُباذ الأعلى، وبعث محمَّد بن كعب بن قَرَظَةَ على بهقُباذ الأوسط، وبعث حبيب بن منقذ الثوريّ على بهقُباذ الأسفل، وبعث سعد بن حذيفة بن اليَمَان على حُلوان، وكان مع سعد بن حذيفة ألفَا فارس بحُلوان، قال: ورزقه ألف درهم في كلّ شهر، وأمره بقتال الأكراد، وبإقامة الطرق، وكتب إلى عمّاله على الجبال يأمرهم أن يحملوا أموال كُوَرهم إلى سعد بن حذيفة بحُلوان، وكان عبد الله بن الزبير قد بعث محمَّد بن الأشعث بن قيس على الموصل، وأمره بمكاتبة ابن مطيع وبالسمع له والطاعة، غير أنّ ابن مطيع لا يقدر على عزله إلا بأمر ابن الزبير، وكان قبل ذلك في إمارة عبد الله بن يزيدَ، وإبراهيم بن محمد منقطعاً بإمارة الموصل، لا يكاتِب أحداً دون ابنِ الزُّبير.

فلما قدم عليه عبد الرحمن بن سعيد بن قيس من قِبَل المختار أميراً تنحّى له عن الموصل، وأقبل حتى نزل تَكْريت، وأقام بها مع أناس من أشراف قومه

---

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

وغيرهم ، وهو معتزل ينظر ما يصنع الناس ، وإلى ما يصير أمرُهم ، ثم شخص إلى المختار فبايع له ، ودخل فيما دَخل فيه أهلُ بلده[١] . (٦/ ٣٣ ـ ٣٤) .

قال أبو مخنف: وحدّثني صلة بن زهير النَّهديُّ ، عن مسلم بن عبد الله الضّبابيّ ، قال: لمَّا ظهر المختار واستمكن ، ونفى ابن مطيع وبعثَ عمَّاله ، أقبل يجلس للناس غُدوةً وعشيَّة ، فيقضي بين الخصمين ، ثمّ قال: والله إنّ لي فيما أزاول وأحاول لشُغْلا عن القضاء بين الناس ، قال: فأجلس للناس شُريحاً ، وقَضَى بين الناس ، ثمّ إنَّه خافهم فتمارَض ، وكانوا يقولون: إنَّه عُثمانيّ ، وإنَّه ممَّن شهد على حُجْر بن عديّ ، وإنه لم يُبلغ عن هانئ بن عروة ما أرسلَه به ـ وقد كان عليّ بن أبي طالب عَزلَه عن القضاء ـ فلمّا أن سمع بذلك ورآهم يذمّونه ويُسنِدون إليه مِثلَ هذا القول تَمارَض وجعل المختارُ مكانه عبدَ الله بن عتبة بن مسعود ، ثمّ إنَّ عبد الله مرض ، فجعل مكانَه عبد الله بن مالك الطائيّ قاضياً .

قال مسلم بن عبد الله: وكان عبد الله بن همّام سمع أبا عمرةَ يذكر الشّيعة وينال من عثمان بن عفَّان ، فقنّعه بالسوط ، فلما ظهر المختار كان معتزلاً حتى استأمن له عبدُ الله بن شدّاد ، فجاء إلى المختار ذاتَ يوم فقال:

ألا انْتسأَتْ بالوُدِّ عنك وأدْبَرَتْ ... مُعالِنَةً بالهَجْر أُمُّ سَرِيعِ
وحَمَّلَها وَاشٍ سَعَى غير مُؤتَلٍ ... فأُبْتَ بِهمٍّ في الفؤاد جميع
فَخفِّضْ عليك الشأنَ لا يُرْدِك الهوى ... فليس انتقالُ خَلَّة بِبديع
وفي ليلة المختار ما يُذْهِلُ الفتى ... ويُلهِيهِ عن رؤد الشَّباب شَمُوع
دعا يالثاراتِ الحسين فأقبلتْ ... كتائبُ مِنْ هَمْدانَ بعد هَزِيع
ومن مذْحِج جاء الرئيسُ ابنُ مالك ... يقُودُ جُموعاً عُبِّيتْ بِجُمُوع
ومنْ أَسَدٍ وافَى يزيدُ لِنَصْرِهِ ... بكلِّ فتًى حامِي الذِّمار منيع
وجاءَ نُعَيْمٌ خيرُ شَيْبانَ كلّها ... بأمرٍ لدى الهَيجا أَحَدَّ جميع
وما ابن شميط إذ يُحَرِّضُ قومهُ ... هناك بِمَخذُولٍ ولا بمُضِيع
ولا قَيس نَهدٍ لا ولا ابنُ هَوازنٍ ... وكلٌّ أَخو إخْباتةٍ وخُشُوع
وسار أبو النُّعمانِ للهِ سَعيهُ ... إلى ابن إياسٍ مُصْحِراً لوقوعِ

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك .

بِخَيْـل عليهـا يـومَ هَيْجَـا دُرُوعُهـا وأُخـرى حُسُـوراً غيـرَ ذاتِ دُرُوع
فكَـرَّ الخُيـولُ كـرةً ثَقِفَتْهُـمُ وشَـدَّ بـأُولاَهـا علـى ٱبـن مُطيـع
فَـولَّـى بضـربٍ يَشْـدَخُ الهام وَقْعُـهُ وطعـنٍ غـداةَ السِّكَّتيـنِ وجيـع
فحُـوصِـرَ فـي دار الإمَـارة بـائيـاً بـذُلٍّ وإرغـامٍ لـه وخُضـوع
فمَـنَّ وزيـرُ ابـن الـوصـيّ عليهـمُ وكـان لهـمْ فـي النـاس خيـرَ شفيـع
وآبَ الهـدى حقـاً إلـى مُسْتَقَـرِّهِ بخيـرِ إيـابٍ آبَـهُ وَرُجُـوع
إلى الهاشميّ المهتدِي المهتدَى به فنحـنُ لـه مـن سـامـعٍ ومطيـع

قال: فلمَّا أنشدها المختارَ قال المختار لأصحابه: قد أثنَى عليكم كما تسمعون، وقد أحسن الثَّناءَ عليكم، فأحسِنوا له الجزاء، ثمّ قام المختار، فدخل وقال لأصحابه: لا تبرحوا حتَّى أخرج إليكم؛ قال: وقال عبد الله بن شدّاد الجُشَميّ: يا بن همّام: إنّ لك عندي فرساً ومُطْرَفاً، وقال قيس بن طَهْفة النَّهديّ ـ وكانت عنده الرّباب بنت الأشعث: فإنّ لك عندي فرساً ومُطْرفاً، واستحيا أن يعطيَه صاَحبُه شيئاً لا يعطي مثله، فقال ليزيد بن أنس: فما تعطيه؟ فقال يزيد: إن كان ثوابَ الله أراد بقوله فما عند الله خيرٌ له، وإنْ كان إنّما اعتَرَى بهذا القول أموالَنا، فوالله مافي أموالنا ما يسعُه؛ قد كانت بقيتْ من عطائي بقيّة فقوّيت بها إخواني؛ فقال أحمر بن شُمَيط مبادراً لهم قبل أن يكلّموه: يا بن همّام، إن كنتَ أردت بهذا القول وجهَ الله فاطلب ثوابَك من الله، وإن كنتَ إنَّما اعتريت به رِضَا الناسِ وطلبَ أموالهم، فاكْدِم الجَنْدل، فوالله ما مَنْ قال قولاً لغير الله وفي غير ذات الله بأهلٍ أن يُنحَل، ولا يوصَل؛ فقال له: عضضتَ بأير أبيك! فرفع يزيد بن أنس السوط وقال لابن همام: تقول هذا القولَ يا فاسق! وقال لابن شُمَيط: اضربه بالسيف، فرفع ابن شميط عليه السيف ووثب ووثب أصحابهما يتفلّتون على ابن همام، وأخذ بيده إبراهيم بن الأشتر فألقاه وراءه، وقال: أنا له جارٍ، لِمَ تأتون إليه ما أرى! فوالله إنَّه لواصل الولاية، راضٍ بما نحن عليه، حسَن الثناء، فإن أنتم لم تكافئوه بحسن ثنائه، فلا تشتموا عرضَه، ولا تَسفِكوا دَمَه، ووثبتْ مَذْحِج فحالت دونه، وقالوا: أجارَهُ ابن الأشتر، لا واللهِ لا يُوصَل إليه، قال: وسمع لَغَطهم المختار، فخرج إليهم، وأومأ بيده إليهم، أن اجلسوا، فجلسوا، فقال لهم: إذا قيل لكم خير فاقْبَلوه، وإن قدرتم على مكافأة فافعلوا،

وإن لم تقدروا على مكافأة فتنصَّلوا ، واتقوا لسانَ الشاعر ، فإنّ شرَّه حاضر ، وقولَه فاجر ، وسعيَه بائر ، وهو بكم غداً غادر ، فقالوا: أفلا نقتله؟ قال: إنَّا قد آمَنَّاه وأَجَرْناه ، وقد أجاره أخوكم إبراهيم بن الأشتر ، فجلس مع الناس.

قال: ثمّ إنّ إبراهيم قام فانصرف إلى منزله فأعطاه ألفاً وفرساً ومُطرَفاً فرجع بها وقال: لا والله ، لا جاورت هؤلاء أبداً ، وأقبلتْ هوازنُ وغضبتْ واجتمعتْ في المسجد غضباً لابن همّام ، فبعث إليهم المختار فسألهم أن يصفحوا عمّا اجتمعوا له ، ففعلوا ، وقال ابن همّام لابن الأشتر يمدحه:

أطْفأَ عَنّى نارَ كَلْبَين ألَّبا ... عليَّ الكلابَ ذو الفِعال ابنُ مالكِ
فتىً حين يَلقى الخيلَ يَفْرقُ بينها ... بطعن دِرَاكٍ أو بضرب مُواشِكِ
وقد غضِبَتْ لي مِنْ هوازنَ عُصبةٌ ... طوالُ الذُّرا فيها عراض المَبَارِك
إذا ابنُ شُمَيط أو يزيد تعرَّضا ... لها وقَعَا في مُسْتَحار المهالك
وثبْتُمْ علينا يا مواليَ طَيءٍ ... مع ابن شميط شَرِّ ماشٍ ورَاتِكِ
وأعظم ديَّارٍ على الله فِرْيةً ... وما مُفْتَرٍ طاغٍ كآخَرَ نَاسِكِ
فيا عجباً مِنْ أَحْمس ابنةِ أَحمَسٍ ... تَوَثَّبُ حوْلي بالقنا والنَّيَازِكِ
كأَنكُمُ في العِزِّ قيسٌ وخثعمٌ ... وهل أنتمُ إلاَّ لئَامُ عَوَارِكِ

وأقبل عبد الله بن شدّاد من الغد فجلس في المسجد يقول: علينا توثَّبُ بنو أسد وأحمس! والله لا نرضى بهذا أبداً ، فبلغ ذلك المختار ، فبعث إليه فدعاه ، ودعا بيزيد بن أنس وبابن شميط ، فحَمِد الله وأثنى عليه وقال: يا بن شدّاد ، إنّ الّذي فعلتَ نَزْغة من نَزَغات الشيطان ، فُتب إلى الله ، قال: قد تُبْت ، وقال: إنّ هذين أخواك ، فأقبِل إليهما ، واقبل منهما ، وهب لي هذا الأمر ، قال: فهو لك ، وكان ابن همّام قد قال قصيدةً أخرى في أمر المختار ، فقال:

أضحت سُلَيمى بعدَ طولِ عِتابِ ... وتَجَرُّمٍ ونَفاد غَرْبِ شَبابِ
قد أَزْمَعت بصَريمتي وتَجنّبي ... وتهوُّكٍ مُذْ ذاك في إعتابِ
لمّا رأيتُ القصر أُغلقَ بابُهُ ... وتوكّلت هَمْدانُ بالأَسباب
ورأَيتُ أصحابَ الدَّقيق كأَنَّهمْ ... حولَ البُيُوت ثعالبُ الأَسراب
ورأيتُ أبوابَ الأَزِقَّة حولَنَا ... دربَت بكلِّ هِرَاوة وذُباب

أيْقَنـتُ أنَّ خيـولَ شيعـةِ راشِـدٍ لـم يبْـق منهـا فَيْـشُ أَيْرِ ذُبـاب[١]

(٦/ ٣٤ ـ ٣٨)

* * *

ذكر الخبر عن أمر المختار مع قتَلة الحسين بالكوفة

قال أبو جعفر: وفي هذه السنة وثب المختارُ بمن كان بالكوفة من قَتَلة الحسين والمشايعين على قتله، فقَتل من قَدَر عليه منهم، وهرب من الكوفة بعضهم، فلم يقدر عليه.

* ذكر الخبر عن سبب وثوبه بهم وتسمية من قتل منهم ومَنْ هرب فلم يقدر عليه منهم:

وكان سبب ذلك ـ فيما ذكره هشام بن محمَّد، عن عوانة بن الحكم ـ أن مَرْوان بن الحكم لمَّا استوسقت له الشامُ بالطَّاعة، بعث جيشَين أحدهما إلى الحجاز عليه حُبَيش بن دُلجة القينيّ ـ وقد ذكرنا أمرَه وخبرَ مهلَكه قبلُ ـ والآخر منهما إلى العراق عليهم عبيد الله بن زياد ـ وقد ذكرنا ما كان من أمره وأمر التوّابين من الشيعة بعَين الوَردة ـ وكان مرْوان جعل لعبيد الله بن زياد إذ وجَّهه إلى العراق ما غلب عليه، وأمَرَه أن يَنهَب الكوفة إذا هو ظفر بأهلِها ثلاثاً.

قال عوانة: فمرّ بأرض الجزيرة فاحتبس بها وبها قيسُ عَيْلان على طاعة ابن الزبير، وقد كان مروانُ أصاب قيساً يوم مَرْج راهط وهم في الضحَّاك بن قيس مخالفين على مرْوان، وعلى ابنه عبد الملك من بعده، فلم يزل عبيد الله مشتغلاً بهم عن العراق نحواً من سنة، ثمّ إنَّه أقبل إلى الموصل، فكتب عبد الرحمن بن سعيد بن قيس عاملُ المختار على الموصل إلى المختار: أما بعد، فإني أخبرك أيها الأمير أنّ عبيد الله بن زياد قد دخل أرض الموصل، وقد وجَّه قِبَلي خيله ورجالَه، وأنى انحزْت إلى تكْريتَ حتَّى يأتيَني رأيُك وأمرُك، والسلام عليك.

فكتب إليه المختار: أمَّا بعد، فقد بلغني كتابُك، وفهمتُ كلَّ ما ذكرتَ فيه، فقد أصبتَ بانحيازك إلى تكريت، فلا تبرحنّ مكانك الّذي أنت به حتَّى يأتيَك

---

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

أمري إن شاء الله ، والسلام عليك[1] . (٦/ ٣٨ ـ ٣٩) .

قال هشام: عن أبي مخنف: حدّثني موسى بن عامر ، أنّ كتاب عبد الرحمن بن سعيد لمَّا ورد على المختار بعث إلى يزيد بن أنس فدعاه ، فقال له: يا يزيدَ بن أنس ، إنّ العالِم ليس كالجاهل ، وإنّ الحق ليس كالباطل ، وإني أخبرك خبر من لم يكذِب ولم يكذَّب ، ولم يُخالِف ولم يرتب ، وإنَّا المؤمنون الميامين ، الغالبون المساليم ، وإنَّك صاحب الخيل الَّتي تجرّ جِعابها ، وتضفر أذنابها ، حتَّى تُوردها منابتَ الزيتون ، غائرةً عيونُها ، لاحقةً بطونُها ، اخرُج إلى المَوصل حتَّى تنزلَ أدانيها ، فإني ممدّك بالرّجال بعد الرّجال ، فقال له يزيد بن أنس: سرِّحْ معي ثلاثةَ آلاف فارس أنتخبُهم وخَلّني والفرْج الَّذي توجَّهنا إليه ، فإن احتجتُ إلى الرّجال فسأكتب إليك؛ قال له المختار: فاخرج فانتخب على اسم الله مَنْ أحببت فخرج فانتخب ثلاثة آلافِ فارس ، فجعل على رُبْع المدينة النعمانَ بن عوف بن أبي جابر الأزديّ ، وعلى رُبْع تميم وهمْدان عاصم بن قيس بن حبيب الهمْدانيّ ، وعلى مَذْحج وأسَد ورقاء بن عازب الأسديّ ، وعلى رُبْع ربيعة وكندة سعْر بن أبي سِعْر الحنفيّ .

ثم إنَّه فصل من الكوفة ، فخرج وخرج معه المختار والناس يشَيعونه ، فلما بلغ دير أبي موسى ودّعه المختار وانصرف ، ثم قال له: إذا لقيتَ عدوّك فلا تُناظرهم ، وإذا أمكنتْك الفرصةُ فلا تؤخّرها ، وليكن خبرُك في كلّ يوم عندي ، وإن احتجت إلى مَدد فاكتب إليّ؛ مع أني مُمِدّك ولو لم تَستمدِد ، فإنَّه أشدّ لعَضُدك ، وأعزّ لجُنْدك ، وأرْعَب لعدوّك ، فقال له يزيد بن أنس: لا تمدّني إلا بدعائك ، فكفى به مَدداً ، وقال له الناس: صَحِبكَ اللهُ وأدّاك وأيّدك ، وودّعوه فقال لهم يزيد: سلوا الله ليَ الشهادة ، وايمُ الله لئن لقيتُهم ففاتني النصرُ لا تُفتْني الشهادة إن شاء الله ، فكتب المختار إلى عبد الرحمن بن سعيد بن قيس: أما بعد ، فخلّ بين يزيدَ وبين البلاد إن شاء الله ، والسلام عليك ، فخرج يزيد بن أنس بالناس حتَّى بات بسُورَا ثم غدا بهم سائراً حتى بات بهم بالمدائن؛ فشكا الناسُ إليه ما دخلهم من شدّة السير عليهم ، فأقام بها يوماً وليلة ، ثمّ إنَّه اعترض

(١) في إسنادها هشام بن محمد بن السائب الكلبي المتروك .

بهم أرض جُوخَى حتَّى خرج بهم في الراذانات ، حتَّى قطع بهم إلى أرض الموصل ، فنزلت ببنات تلي ، وبلغ مكانُه ومنزلُه الَّذي نزل به عبيدَ الله بن زياد ، فسأل عن عدّتهم ، فأخبرتْه عيونُه أنَّه خرج معه من الكوفة ثلاثةُ آلاف فارس ، فقال عبيد الله : فأنا أبعث إلى كلّ ألف ألفين ، ودعا ربيعة بن المخارق الغنويّ ، وعبد الله بن حمْلة الخثعميّ ، فبعثهما في ثلاثة آلاف ثلاثة آلاف ، وبعث ربيعة بن المخارق أوّلاً ، ثمّ مكث يوماً ، ثمّ بعث خلفه عبد الله بن حمْلة ، ثم كتب إليهما : أيّكما سَبَق فهو أمير على صاحبه ، وإن انتهيتما جميعاً فأكبركما سِنّا أميرٌ على صاحبه والجماعة ، قال : فسبق ربيعة بن المخارق فنزل بيزيد بن أنس وهو ببنات تلي ، فخرج إليه يزيد بن أنس وهو مريض مضنىً(١) . (٦/ ٣٩ _ ٤٠) .

قال أبو مخنف : فحدّثني أبو الصلت ، عن أبي سعيد الصَّيْقل ، قال : خرج علينا يزيد بن أنس وهو مريض على حمار يمشي معه الرجال يُمسِكونه عن يمينه وعن شماله ، بفخذيه وعضديه وجنبيه ، فجعل يقف على الأرباع :

رُبْع ربع ويقول : يا شرطة الله ، اصبروا تُؤجَرُوا ، وصابروا عدوّكم تَظفَروا ، وقاتِلوا أولياءَ الشيطان ، إنّ كَيْدَ الشيطانِ كان ضعيفاً ، إن هلكتُ فأميركم ورقاء بن عازب الأسديّ ، فإن هَلَك فأميرُكم عبد الله بن ضَمْرة العذريّ ، فإن هلك فأميرُكم سِعْر بن أبي سعر الحنفيّ ، قال : وأنا والله فيمن يمشي معه ويُمْسِك بعضده ويده ، وإني لأعرف في وجهه أنّ الموت قد نزل به ، قال : فجعل يزيدُ بن أنس عبد الله بن ضَمْرة العذريّ على ميمنته ، وسِعْر بن أبي سعر على ميسرته ، وجعل ورقاءَ بن عازب الأسديّ على الخيل ، ونزل هو فوُضع بين الرجال على السرير ، ثم قال لهم : ابرزوا لهم بالعرَاء ، وقدّموني في الرجال ، ثمّ إن شئتم فقاتلوا عن أميركم ، وإن شئتم ففرّوا عنه ، قال : فأخرجناه في ذي الحجَّة يومَ عرفة سنة ست وستين فأخذْنا نُمسك أحياناً بظَهْره فيقول : اصنعوا كذا ، اصنعوا كذا ، وافعلوا كذا ، فيأمر بأمره ، ثمّ لا يكون بأسرعَ من أن يغلبه الوجعُ فيُوضع هُنَيهة ويقتتل الناسُ ، وذلك عند شفق الصبح قبل شروق الشمس ، قال :

---

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك .

فحملتْ ميسرتهم على مَيمنتِنا ، فاشتدّ قتالُهم ، وتَحمِل ميسرتُنا على ميمنتهم فتهزمها ، ويَحمِل ورقاء بن عازب الأسديّ في الخيل فهزَمهم ، فلم يرتفع الضّحى حتَّى هزمناهم ، وحَويْنا عسكرهم[١] . (٦/ ٤٠ ـ ٤١) .

قال أبو مخنف: وحدّثني موسى بن عامر العدَويّ: انتهينا إلى ربيعة بن المخارق صاحبهم ، وقد انهزم عنه أصحابه وهو نازل ينادي: يا أولياء الحقّ ، ويا أهلَ السمع والطاعة ، إليّ أنا ابن المخارق ، قال موسى: فأمَّا أنا فكنتُ غلاماً حَدَثا ، فَهِبْته ووقفتُ ، ويَحمِل عليه عبدُ الله بن ورقاءَ الأسديّ ، وعبد الله بن ضَمْرة العذريّ ، فقَتَلاه[٢] . (٦/ ٤١) .

قال أبو مخنف: وحدّثني عمرو بن مالك أبو كبشة القينيّ؛ قال: كنت غلاماً حين راهقتُ مع أحد عمومتي في ذلك العسكر ، فلمَّا نزلنا بعسكر الكوفيّين عبَّأنا ربيعة بن المخارق فأحسنَ التعبئة ، وجعل على ميمنته ابنَ أخيه ، وعلى ميسرته عبدَ ربّه السلميّ ، وخرج هو في الخيل والرجال وقال: يا أهل الشام ، إنَّكم إنَّما تقاتلون العبيد الأبَّاقَ ، وقوماً قد تركوا الإسلام وخرجوا منه ، ليست لهم تقيَّة ، ولا ينطقون بالعربيَّة؛ قال: فوالله إن كنت لأحْسِب أنّ ذلك كذلك حتَّى قاتلناهم ، قال: فوالله ما هو إلاّ أن اقتتل الناس إذا رجلٌ من أهل العراق يعترض الناس بسيفه وهو يقول:

بَرِئتُ مِنْ دِينِ المحكِّمينا ... وذَاكَ فينا شَرُّ دينٍ دِينَا

ثمّ إنّ قتالنا وقتالَهم اشتدّ ساعةً من النهار ، ثمّ إنَّهم هزمونا حين ارتفع الضحى فقتلوا صاحبَنا ، وحَووْا عسكَرنا ، فخرجنا منهزمين حتَّى تلقَّانا عبدُ الله بن حمْلة على مسيرة ساعة من تلك القرية التي يقال لها بنات تلي ، فردَّنا ، فأقبلْنا معه حتَّى نزل بيزيد بن أنس ، فبتْنا متحارِسين حتَّى أصبحنا فصلَّينا الغداة ، ثمّ خرجنا على تعبئة حَسَنة ، فجعل على ميمنته الزبيرَ بن خُزَيمة ، من خثعم ، وعلى ميسرته ابن أقيصر القحافيُّ من خثعم ، وتقدّم في الخيل والرجال ، وذلك يوم الأضحى ، فاقتتلنا قتالاً شديداً ، ثمّ إنَّهم هزمونا هزيمةً

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك .
(٢) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك .

قبيحة ، وقتلونا قتالاً ذريعاً ، وحووْا عسكرنا ، وأقبلنا حتى انتهينا إلى عبيد الله بن زياد فحدثناه بما لَقِينا[١] . (٦/ ٤١ ـ ٤٢) .

قال أبو مخنف: وحدّثني موسى بن عامر قال: أقبل إلينا عبدُ الله بن حَمْلة الخثعمي ، فاستقبل فلَّ ربيعة بن المخارق الغنويّ فردَّهم ، ثمّ جاءَ حتَّى نزل ببنات تلي ، فلمَّا أصبح غادوا وغادينا ، فتطاردت الخيلان من أوّل النهار ، ثم انصرفوا وانصرفْنا ، حتَّى إذا صلَّينا الظهر خرجنا فاقتتلنا ، ثمّ هزمناهم ، قال: ونزل عبد الله بن حَمْلة فأخذ ينادي أصحابه: الكَرَّة بعد الفرّة ، يا أهل السمع والطاعة! فحمل عليه عبدُ الله بن قراد الخثعميّ فقتَله ، وحوَيْنا عسكرهم وما فيه ، وأتِيَ يزيد بن أنس بثلاثمئة أسير وهو في السوق ، فأخذ يومىءُ بيده أن اضربوا أعناقَهم ، فقُتِلوا من عند آخرهم.

وقال يزيد بن أنس: إنْ هلكتُ فأميركم ورقاء بن عازب الأسدي ، فما أمسَى حتَّى مات ، فصلَّى عليه ورقاءُ بن عازب ودفَنَه ، فلمَّا رأى ذلك أصحابُه أسقِط في أيديهم ، وكَسَر موتُه قلوبَ أصحابه ، وأخذوا في دفنه ، فقال لهم ورقاء: يا قوم ، ماذا ترون؟ إنَّه قد بلغني أنّ عبيد الله بن زياد قد أقبل إلينا في ثمانين ألفاً من أهل الشام ، فأخذوا يتسلَّلون ويرجعون ، ثم إنّ ورقاء دعا رؤوسَ الأرباع وفُرسانَ أصحابه فقال لهم: يا هؤلاء ، ماذا ترون فيما أخبرتُكم؟ إنَّما أنا رجل منكم ، ولست بأفضلكم رأياً ، فأشيروا عليّ ، فإنّ ابن زياد قد جاءكم في جُنْد أهل الشام الأعظم ، وبجلَّتهم وفُرسانهم وأشرافهم ، ولا أرى لنا ولكم بهم طاقةً على هذه الحال ، وقد هلك يزيدُ بن أنس أميرنا ، وتفرّقت عنَّا طائفة مِنَّا ، فلو انصرفنا اليومَ من تلقاء أنفسنا قبل أن نلقاهم ، وقبلَ أن نَبلُغهم ، فيعلَموا أنَّا إنَّما ردَّنا عنهم هلاكُ صاحبنا ، فلا يزالوا لنا هائبين لقَتْلنا منهم أميرهم! ولأنَّا إنَّما نعتلّ لانصرافنا بموت صاحبنا ، وإنَّا إن لقيناهم اليومَ كنَّا مخاطرين ، فإن هُزمنا اليوم لم تنفعْنا هزيمتُنا إيَّاهم من قبل اليوم. قالوا: فإنَّك نعمَّا رأيت ، انصرِفْ رحمك الله ، فانصرف فبلغ مُنصَرَفُهم ذلك المختارَ وأهلَ الكوفة ، فأرْجف الناسُ ، ولم يعلموا كيف كان الأمر أنّ يزيد بن أنس هَلَك ، وأنّ الناس هُزِموا ، فبعث إلى

---

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

المختار عاملُه على المدائن عيناً له من أنباط السواد فأخبره الخبر ، فدعا المختارُ إبراهيمَ بن الأشتر فعَقَد له على سبعة آلاف رجل ، ثم قال له : سرْ حتَّى إذا أنت لقيتَ جيشَ ابن أنس فارددْهم معك ، ثمّ مرّ حتَّى تلقى عدوّك فتُناجِزَهُم ، فخرج إبراهيم فوَضَع عسكَره بحمَّام أعْيَن[١] . (٦/ ٤٢ ـ ٤٣) .

قال أبو مخنف : فحدّثني أبو زهير النضر بن صالح ، قال : لمَّا مات يزيد بن أنس التقَى أشرافُ الناس بالكوفة فأرْجفوا بالمختار وقالوا : قتِل يزيد بن أنس ، ولم يصدّقوا أنَّه مات وأخذوا يقولون : واللهِ لقد تأمَّر علينا هذا الرجل بغير رضاً منَّا ولقد أدنى موالِيَنا ، فحمَلَهم على الدواب ، وأعطاهم وأطعَمَهم فيئنا ، ولقد عصتْنا عبيدُنا ، فحرِب بذلك أيتامنا وأراملنا ، فاتَّعدوا منزلَ شَبَث بن ربعيّ وقالوا : نجتمع في منزل شيخنا ـ وكان شبث جاهليّاً إسلاميّاً ـ فاجتمعوا فأتَوا منزلَه ، فصلَّى بأصحابه ، ثمّ تذاكروا هذا النحو من الحديث قال : ولم يكن فيما أحدث المختارُ عليهم شيء هو أعظمُ من أن جعل للموالي الفَيء نصيباً ـ فقال لهم شَبَث : دعوني حتى ألقاه ؛ فذهب فلقيه ، فلم يدعْ شيئاً ممَّا أنكره أصحابه إلاّ وقد ذاكَرَه إيَّاه ، فأخذ لا يذكر خصلةً إلاّ قال له المختار : أُرضِيهم في هذ الخَصلة ، وآتِي كلَّ شيء أحبّوا ؛ قال : فذكر المماليك ؛ قال : فأنا أردّ عليهم عبيدَهم ، فذكر له الموالي ، فقال : عمدتَ إلى موالينا ، وهم فيءٌ أفاءَه الله علينا وهذه البلاد جميعاً فأعتقْنا رقابَهم ، نأمُلُ الأجرَ في ذلك والثواب والشكر ، فلم تَرْض لهم بذلك حتَّى جعلتَهم شركاءَنا في فيئنا ، فقال لهم المختار : إنْ أنا تركتُ لكم مواليكم ، وجعلتُ فَيْئَكم فيكم ، أتقاتلون معي بني أميَّة وابنَ الزبير ، وتعطُون على الوفاء بذلك عهدَ الله وميثاقَه ، وما أطمئنّ إليه من الأيمان؟ فقال شبَث : ما أدري حتَّى أخرج إلى أصحابي فأذاكرَهم ذلك ، فخرج فلم يرجع إلى المختار . قال : وأجمعَ رأي أشرافِ أهل الكوفة على قتال المختار[٢] . (٦/ ٤٣ ـ ٤٤) .

قال أبو مخنف : فحدّثني قُدامةُ بن حوْشب ، قال : جاءَ شَبَث بن رِبْعيّ وشَمِر بن ذي الجَوْشن ومحمَّد بن الأشعث وعبد الرحمن بن سعيد بن قيس حتَّى دخلوا على كعب بن أبي كعب الخثعميّ ، فتكلَّم شَبَث ، فَحَمِد الله وأثنى عليه ،

---

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك .

(٢) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك .

ثمّ أخبره باجتماع رأيهم على قتال المختار ، وسأله أن يجيبهم إلى ذلك ، وقال فيما يَعُيب به المختار : إنَّه تأمَّر علينا بغير رِضاً منَّا ، وزعم أنّ ابنَ الحنفيَّة بعثه إلينا ، وقد علمْنا أنّ ابن الحنفيَّة لم يفعل ، وأطعم مواليَنا فيئنا ، وأخذ عبيدَنا ، فحرِب بهم يتامانا ، وأراملنا ، وأظهر هو وسَبَئيَّته البراءةَ من أسلافنا الصالحين ، قال : فرحّب بهم كعب بن أبي كعب ، وأجابهم إلى ما دَعَوْه إليه[1] . (٦/ ٤٤) .

قال أبو مخنف : حدّثني أبي يحيى بن سعيد أنّ أشراف أهل الكوفة قد كانوا دخلوا على عبد الرحمن بن مخنف ، فدعَوه إلى أن يجيبهم إلى قتال المختار ، فقال لهم : يا هؤلاء ، إنَّكم إن أبيتم إلاّ أن تخرجوا لم أخذُلكم ، وإن أنتم أطعتموني لم تخرجوا ، فقالوا لِمَ؟ قال : لأني أخاف أن تتفرّقوا وتختلفوا وتتخاذَلوا ، ومع الرجل والله شجعاؤكم ، وفرسانكم من أنفسكم؛ أليس معه فلان وفلان! ثمّ معه عبيدُكم ومواليكم ، وكلمةُ هؤلاء واحدةٌ ، وعبيدكم ومواليكم أشدّ حَنَقاً عليكم من عدوّكم ، فهو مقاتلكم بشجاعة العرب ، وعداوةِ العَجَم ، وإن انتظرتموه قليلاً كُفيتموه بقدوم أهلِ الشام ، أو بمجيء أهل البصرة ، فتكونوا قد كُفيتموه بغيركم ، ولم تَجعَلوا بأسَكم بينكم ، قالوا : نَنْشَدُك الله أنْ تخالفنا ، وأن تُفسد علينا رأينَا وما قد اجتمعتْ عليه جماعتُنا ، قال : فأنا رجلٌ منكم ، إذا شئتم فاخرجوا ، فسار بعضُهم إلى بعض وقالوا : انتظروا حتى يذهب عنه إبراهيم بن الأشتر؛ قال : فأمهلوا حتى إذا بلغ ابن الأشتر سابَاطَ ، وثَـبُوا بالمختار ، قال : فخرج عبدُ الرحمن بنُ سعيد بن قيس الهمدانيّ في همدانَ في جبَّانة السَّبيع ، وخرج زَحْر بن قيس الجُعْفي ، وإسحاق بن محمَّد بن الأشعث في جبَّانة كِنْدة[2] . (٦/ ٤٤ ـ ٤٥) .

قال هشام : فحدّثني سليمان بن محمَّد الحضرميّ ، قال : خرج إليهما جبير الحضرميّ فقال لهما : اخرُجا عن جَبّانتنا ، فإنَّا نكره أن نُعْرَى بشرّ؛ فقال له إسحاق بن محمَّد : وجبَّانتُكم هيَ؟ قال : نعم ، فانصرفوا عنه؛ وخرج كعب بن أبي كعب الخثعميّ في جبَّانة بِشْر ، وسار بشير بن جرير بن عبد الله إليهم في بَجِيلة ، وخرج عبد الرحمن بن مخنف في جبَّانة مخنف ، وسار إسحاق بن

---

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك .

(٢) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك .

محمد وزَحْر بن قيس إلى عبد الرّحمن بن سعيد بن قيس بجبَّانة السَّبيع ، وسارت بجيلةُ وخَثْعم إلى عبد الرحمن بن مخنف ، وهو بالأزْد ، وبلغ الَّذين في جبَّانة السَّبيع أنّ المختار قد عبَّأ لهم خيلاً ليسير إليهم فبعثوا الرسل يتلو بعضُها بعضاً إلى الأزْد وبَجِيلة وخثعم ، يسألونَهم بالله والرّحم لمّا عَجِلوا إليهم ، فساروا إليهم واجتمعوا جميعاً في جبَّانة البيع ، ولمَّا أن بلغ ذلك المختار سرَّه اجتماعهم في مكان واحد ، وخرج شمر بن ذي الجوشن حتَّى نزل بجبَّانة بني سَلول في قيس ، ونزل شَبَث بن ربعيّ وحسّان بن فائد العبسيّ وربيعة بن ثروانَ الضبيّ في مُضَر بالكُناسة ، ونزل حجَّار بن أبْحر ويزيد بن الحارث بن رؤيم في ربيعة فيما بين التَّمَّارين والسَّبَخة ، ونزل عمرو بن الحجَّاج الزّبيديّ في جبَّانة مُراد بمَنْ تبعه من مَذْحج ، فبعث إليه أهلُ اليمن: أن ائتنا ، فأبى أن يأتيَهم وقال لهم: جدّوا ، فكأني قد أتيتُكم ، قال: وبعث المختار رسولاً من يومه يقال له عمرو بن تَوْبة بالرَّكض إلى إبراهيم بن الأشتر وهو بسَابَاط ألاّ تضع كتابي من يدك حتَّى تُقِبل بجميع مَنْ مَعَك إليّ ، قال: وبعث إليهم المختار في ذلك اليوم: أخبروني ما تريدون؟ فإني صانع كلَّ ما أحببتم ، فقالوا: فإنَّا نريد أن تعتزِلَنا ، فإنَّك زعمتَ أنّ ابنَ الحنفيَّة بعثك ولم يَبْعَثك.

فأرسل إليهم المختارُ أن ابعثوا إليه من قبَلكم وفداً ، وأبعثُ إليه من قِبَلي وفداً ، ثمّ انظروا في ذلك حتَّى تَـتَـبَـيَّنُوه؛ وهو يريد أن يريثهم بهذه المقالة ليَقدَم عليه إبراهيمُ بن الأشتر ، وقد أمر أصحابه فكفّوا أيديهم ، وقد أخذ أهلُ الكوفة عليهم بأفواه السكك ، فليس شيء يصل إلى المختار ولا إلى أصحابه من الماء إلاّ القليل الوتْح ، يجيئهم إذا غفلوا عنه ، قال: وخرج عبدُ الله بن سَبيع في الميدان ، فقاتلته شاكر قتالاً شديداً ، فجاءه عُقْبة بن طارق الجُشَميّ فقاتل معه ساعةً حتى ردَّ عاديَتَهم عنه ، ثمّ أقبلا على حاميتهما يسيران حتَّى نزل عُقْبة بن طارق مع قيس في جبَّانة بني سَلول ، وجاء عبد الله بن سَبيع حتَّى نزل مع أهل اليمن في جبَّانة السَّبيع[1]. (٦/ ٤٥ ـ ٤٦).

قال أبو مخنف: حدّثني يونس بن أبي إسحاق ، أنّ شمر بن ذي الجوشن أتَى

---

(١) في إسنادها هشام بن محمد بن السائب الكلبي المتروك.

أهلَ اليمن فقال لهم: إن اجتمعتم في مكان نجعل فيه مجنّبتين ونقاتل من وجه واحد فأنا صاحبكم، وإلاّ فلا، والله لا أقاتل في مِثْل هذا المكان في سِكك ضيّقة، ونقاتَل من غير وجه، فانصرف إلى جماعة قومه في جبانة بني سَلول، قال: ولمَّا خرج رسولُ المختار إلى ابن الأشتر بلغه من يومه عشيَّةً، فنادى في الناس: أن ارجعوا إلى الكُوفة، فسار بقيَّة عشيَّته تلك، ثمّ نزل حين أمسى، فتعشّى أصحابه، وأراحوا الدوابَّ شيئاً كلا شيء، ثمّ نادى في الناس، فسار ليلتَه كلَّها، ثمّ صلَّى الغداة بسُورا، ثمّ سار من يومه فصلَّى العصر على باب الجسر من الغد، ثمّ إنَّه جاء حتى بات ليلَته في المسجد ومعه من أصحابه أهل القوّة والجلد، حتَّى إذا كان صبيحة اليوم الثالث من مُخَرجهم على المختار، خرج المختارُ إلى المنبر فصعده[١]. (٦/ ٤٦).

قال أبو مخنف: فحدّثني أبو جناب الكلبيّ أنّ شَبَث بن رِبْعيّ بعث إليه ابنه عبد المؤمن فقال: إنَّما نحن عشيرتُك وكفّ يمينك، لا والله لا نقاتلك، فثقْ بذلك مِنَّا، وكان رأيه قتاله، ولكنَّه كاده، ولمَّا أن اجتمع أهلُ اليمَن بجبَانة السَّبيع حضرتِ الصلاة، فكَرِه كلّ رأس من رؤوس أهلِ اليمن أن يتقدّمه صاحبُه، فقال لهم عبد الرحمن بن مخنف: هذا أوّل الاختلاف، قدّموا الرضا فيكم، فإنّ في عشيرتكم سيِّد قرّاء أهل المصر، فليصل بكم رفاعةُ بن شدّاد الفتيانيّ من بجِيلة، ففعلوا، فلم يزل يصلّي بهم حتَّى كانت الوقعة[٢]. (٦/ ٤٧).

قال أبو مخنف: وحدّثني وازع بن السريّ أنّ أنس بن عمرو الأزديّ انطلق فدخل في أهل اليمن، وسمعهم وهم يقولون: إنْ سار المختار إلى إخواننا من مضرَ سرْنا إليهم، وإن سار إلينا ساروا إلينا، فسمِعَها منهم رجل، وأقبل جواداً حتَّى صعد إلى المختار على المنبر، فأخبَره بمقالتهم، فقال: أمَّا هم فخُلَقَاء لو سرتُ إلى مضرَ أن يسيروا إليهم، وأمَّا أهل اليَمَن فأشهد لئن سرتُ إليهم لا تسير إليهم مضر، فكان بعد ذلك يدعو ذلك الرجلَ ويكرمه، ثم إنّ المختار نزل فعبّأ أصحابه في السوق ـ والسوق إذ ذاك ليس فيها هذا البناء ـ فقال لإبراهيم بن

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.
(٢) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

الأشتر: إلى أيّ الفريقين أحبّ إليك أن تسير؟ فقال: إلى أيّ الفريقين أحببت، فنظر المختار، وكان ذا رأي، فكره أن يسير إلى قومه فلا يبالغ في قتالهم - فقال: سِرْ إلى مضرَ بالكُناسة وعليهم شَبَث بن ربعيّ ومحمَّد بن عمير بن عطارد، وأنا أسير إلى أهل اليمن.

قال: ولم يزل المختار يُعرف بشدّة النفس، وقلَّة البُقْيَا على أهل اليمن، وغيرهم إذا ظفر، فسار إبراهيمُ بن الأشتر إلى الكُناسة، وسار المختار إلى جبَّانة السَّبيع، فوقف المختار عند دار عُمَر بن سعد بن أبي وقَّاص، وسرّح بين أيديه أحْمَر بن شُميط البجَليّ، ثمّ الأحمسيّ، وسرّح عبد الله بن كامل الشاكريّ، وقال لابن شميط: اِلزَم هذه السّكّة حتَّى تخرج إلى أهل جبَّانة السَّبيع من بين دُور قومك، وقال لعبد الله بن كامل: اِلزَم هذه السكَّة حتَّى تخرج على جبَّانة السَّبيع من دار آل الأخنس بن شَرِيق، ودعاهما فأسرّ إليهما أنّ شِباماً قد بعثتْ تُخبرني أنَّهم قد أتَوا القوم من ورائهم، فمَضَيا فسَلَكا الطريقين اللَّذين أمرهما بهما، وبلغ أهل اليمن مسيرُ هذين الرجلين إليهم، فاقتسموا تَيْنِك السكَّتَين، فأما السكَّة الَّتي في دبر مسجد أحْمَس فإنَّه وقف فيها عبدُ الرحمن بنُ سعيد بن قيس الهمْدانيّ وإسحاق بن الأشعث وزَحْر بن قيس، وأمَّا السكَّة الَّتي تلي الفُراتَ فإنَّه وقف فيها عبدُ الرحمن بن مخنف، وبشير بن جرير بن عبد الله، وكعب بن أبي كعب، ثم إن القوم اقتتلوا كأشدّ قتال اقْتَتَله قوم، ثمّ إنّ أصحابَ أحْمر بن شُمَيط انكشفوا وأصحاب عبد الله بن كامل أيضاً، فلم يُرَع المختارُ إلاّ وقد جاءه الفَلُّ قد أقبل؛ فقال: ما وراءكم؟ قالوا: هُزِمنا؛ قال: فما فعل أحمر بن شُمَيط؟ قالوا: تركناه قد نزل عند مسجد القصّاص - يَعنُون مسجدَ أبي داود في وادعة، وكان يعتاده رجالُ أهل ذلك الزمان يقصّون فيه، وقد نزل معه أناس من أصحابه - وقال أصحاب عبد الله: ما ندري ما فعل ابن كامل! فصاح بهم: أن انصرِفوا، ثمّ أقبل بهم حتَّى انتهى إلى دار أبي عبد الله الجُدَليّ، وبعث عبد الله بن قُراد الخثعميّ - وكان على أربعمئة رجل من أصحابه - فقال: سِرْ في أصحابك إلى ابن كامل، فإنْ يك هلك فأنت مكانه، فقاتِل القومَ بأصحابك وأصحابه، وإن تجده حيّاً صالحاً فسِرْ في مئة من أصحابك كلُّهم فارس، وادفع إليه بقيَّة أصحابك، ومرْ بالجدّ معه والمناصحة له، فإنّهم إنَّما يناصحونني، ومَن

ناصحني فليبشر ، ثمّ امضِ في المئة حتَّى تأتي أهل جبَّانة السَّبيع ممَّا يلي حمَّام قَطَن بن عبد الله ، فمضى فوجد ابن كامل واقفاً عند حمَّام عمرو بن حُريث معه أناس من أصحابه قد صبروا وهو يقاتل القومَ ، فدفع إليه ثلاثَمئة مِنْ أصحابه ثمّ مضى حتَّى نزل إلى جبَّانة السَّبيع .

ثم أخذ في تلك السّكك حتَّى انتهى إلى مسجد عبد القيس ، فوقف عنده ، وقال لأصحابه : ما ترون؟ قالوا : أمْرنا لأمرِكَ تَبع وكلّ من كان معه من حاشد من قومه وهم مئة؛ فقال لهم : والله إني لأحبّ أن يظهرَ المختار ، ووالله إني لكارهٌ أن يَهلِك أشرافُ عشيرتي اليوم ، ووالله لأن أموتَ أحبّ إليّ من أن يَحلّ بهم الهلاك على يديّ ، ولكن قِفوا قليلاً فإني قد سمعتُ شباماً يزعمون أنَّهم سيأتونهم من ورائهم ، فلعلّ شباماً تكون هي تفعل ذلك ، ونُعافَى نحن منه ، قال له أصحابه : فرأيَك ، فثبت كما هو عند مسجد عبد القيس ، وبعث المختارُ مالكَ بن عمرو النهديّ في مئتي رجل ـ وكان من أشدّ الناس بأساً ـ وبعث عبد الله بن شريك النهديّ في مئتي فارس إلى أحمرَ بن شميط ، وثبت مكانَه ، فانتهوا إليه وقد علاه القوم وكَثَروه ، فاقتتلوا عند ذلك كأشدّ القتال ، ومضى ابن الأشتر حتَّى لقي شَبَث بن رِبْعي ، وأناساً معه من مضر كثيراً ، وفيهم حسَّان بن فائد العبسيّ ، فقال لهم إبراهيم : وَيْحَكُم! انصرفوا ، فوالله ما أحبّ أن يصاب أحد من مُضَر على يديّ ، فلا تُهْلكوا أنفسكم ، فأبوْا ، فقاتلوه فهزمهم ، واحتُمل حسَّان بن فائد إلى أهله ، فمات حين أدخل إليهم ، وقد كان وهو على فراشه قبل موته أفاقَ إفاقةً فقال : أما والله ما كنت أحبّ أن أعيشَ من جراحتي هذه ، وما كنت أحبّ أن تكون منيَّتي إلاّ بطعنةِ رمح ، أو بضربةٍ بالسيف؛ فلم يتكلَّم بعدها كلمةً حتَّى مات ، وجاءت البشرى إلى المختار من قبَل إبراهيم بهزيمة مضَر ، فبعث المختار البشرَى من قِبَله إلى أحمر بن شُميط وإلى ابن كامل ، فالنَّاس على أحوالهم كلّ أهل سكَّة منهم قد أغْنتْ ما يليها .

قال : فاجتمعت شِبَام وقد رأسو عليهم أبا القلوص ، وقد أجمعوا واجتمعوا بأن يأتوا أهلَ اليمن من ورائهم ، فقال بعضهم لبعض : أما والله لو جعلتم جِدَّكُم هذا على من خالفكم من غيركم لكان أصْوَب ، فسيروا إلى مضرَ أو إلى ربيعة فقاتلوهم ـ وشيخُهم أبو القلوص ساكت لا يتكلَّم ـ فقالوا : يا أبا القلوص ،

ما رأيك؟ فقال: قال الله جلّ ثناؤه: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗ﴾ قوموا؛ فقاموا، فمشى بهم قيس رمحين أو ثلاثة ثم قال لهم: اجلسوا فجلسوا، ثمّ مشى بهم أنفس من ذلك شيئاً، ثم قعد بهم، ثم قال لهم: قوموا، ثمّ مشى بهم الثالثة أنفس من ذلك شيئاً، ثمّ قعد بهم، فقالوا له: يا أبا القَلوص، والله إنك عندنا لأشجع العرب، فما يَحمِلك على الّذي تصنع! قال: إنّ المجرّب ليس كمن لم يجرّب، إني أردت أن ترجع إليكم أفئدتكم، وأن توطّنوا على القتال أنفسّكم، وكرهتُ أن أقْحِمكم على القتال، وأنتم على حالِ دَهَش؛ قالوا: أنت أبصَر بما صنعت.

فلمّا خرجوا إلى جبَّانة السَّبيعِ استقبلهم على فم السكَّة الأعسر الشاكريّ، فحمل عليه الجُندعيّ وأبو الزبير بن كريب فصرعاه، ودخلا الجبَّانة، ودخل الناسُ الجبَّانة في آثارهم، وهم ينادُون: يا لثَأرات الحسين! فأجابهم أصحابُ ابن شميط يا لثَأرات الحسين! فسمعها يزيدُ بن عمير بن ذي مُرَّان من هَمْدانَ فقال: يا لثَأرات عثمان! فقال لهم رفاعة بن شدّاد: ما لنا ولِعثمان! لا أقاتِل مع قوم يبغون دمَ عثمان، فقال له أناس من قومه: جئتَ بنا وأطعناك، حتَّى إذا رأينا قومَنا تأخذهم السيوف قلت: انصرِفوا ودَعُوهم! فعَطَف عليهم وهو يقول:

أنـا ابنُ شـدَّادٍ عَلَى ديـنِ علِي ... لستُ لعثمـانَ بـنِ أَرْوَى بِوَلِي
لأصلِيـنَّ اليـوم فِيمَـن يصْطَلِـي ... بِحرِّ نـارِ الحَـرب غيـر مُؤتـلِ

فقاتَل حتى قُتل، وقتل يزيد بن عُمير بن ذي مُرَّان، وقُتل النعمان بن صُهبْان الجرميّ ثمّ الراسبيّ ـ وكان ناسكاً ـ ورفاعة بن شدّاد بن عَوْسجة الفِتيانيّ عند حمَّام المسَهْبذان الّذي بالسَّبخة ـ وكان ناسكاً ـ وقتِل الفرات ابن زَحْر بن قيس الجُعْفيّ، وارتثّ زَحْر بن قيس، وقتِل عبد الرحمن بن سعيد بن قيس، وقتل عمر بن مخنف، وقاتل عبدُ الرحمن بن مخنف حتَّى اُرتُثّ، وحملتْه الرّجال على أيديها وما يَشعر، وقاتل حولَه رجالٌ من الأزْد، فقال حُمَيد بن مسلم:

لأضْرِبَـنَّ عـن أبـي حكيـمِ ... مَفَـارِقِ الأَعْبُـد والصَّمِيـمِ

وقال سُراقة بن مِرْداس البارقيّ:

يـا نَـفْسُ إلاَّ تَـصْبِـري تُـلِيمـي ... لا تَـتَـولَّـي عـن أبـي حكيـمِ

واستُخرج من دور الوادعيِّين خمسمئة أسير ، فأُتي بهم المختار مكتَّفين ، فأخذ رجل من بني نَهْد وهو من رؤساء أصحاب المختار يقال له: عبد الله بن شريك ، لا يخلو بعربيّ إلا خلّى سبيله ، فرفعَ ذلك إلى المختار دِرْهم مولىً لبني نَهد ، فقال له المختار: اعرضوهم عليّ ، وانظروا كلّ من شهد منهم قتل الحسين فأعلموني به ، فأخذوا لا يُمَرّ عليه برجل قد شهد قتل الحسين إلا قيل له: هذا ممنَّ شهد قتله ، فيقدّمه فيضرب عنقه ، حتَّى قتل منهم قبل أن يخرج مئتين وثمانيةً وأربعين قتيلاً ، وأخذ أصحابه كلَّما رأوا رجلاً قد كان يؤذيهم أو يماريهم أو يضرّبهم خَلوْا به فقتَلُوه حتَّى قُتل ناس كثير منهم وما يشعر بهم المختار ، فأُخبر بذلك المختار بعدُ ، فدعَا بمَنْ بقيَ من الأسارى فأعتَقهم ، وأخذ عليهم المواثيقَ ألاّ يجامعِوا عليه عدوّاً ، ولا يبغوه ولا أصحابه غائلة ، إلاّ سُرَاقَة بن مرداس البارقيّ ، فإنَّه أمر به أن يُساقَ معه إلى المسجد ، قال: ونادى منادِي المختار: إنَّه من أغلق بابه فهو آمن ، إلا رجلاً شَرَك في دم آل محمَّد ﷺ[١]. (٦/ ٤٧ ـ ٥١).

قال أبو مخنف: حدّثني المجالد بن سعيد ، عن عامر الشعبيّ ، أن يزيد بن الحارث بن يزيد بن رؤيم وحجّار بن أبجر بعثا رسلاً لهما ، فقالا لهم: كونوا من أهل اليمن قريباً ، فإنْ رأيتموهم قد ظهروا فأيّكم سبق إلينا فليقل صَرَفان ، وإن كانوا هُزِموا فليقل جُمْزان ، فلما هُزِم أهل اليمن أتتْهم رسلهم ، فقال لهم أوّلُ من انتهى إليهم: جُمْزان ، فقام الرجلان فقالا لقومهما: انصرِفوا إلى بيوتكم ، فانصرَفوا ، وخرج عمرو بن الحجّاج الزُّبيديّ ـ وكان ممّن شهد قتل الحسين ـ فركب راحلتَه ، ثمّ ذهب عليها ، فأخذ طريقَ شَراف وواقصة ، فلم يُرَ حتَّى الساعة ، ولا يُدرَى أرضٌ بخسَته أم سماءٌ حصَبَتْهُ! وأمَّا فُرات بن زَحْر بن قيس فإنه لمَّا قتل بعثتْ عائشةُ بنت خليفة بن عبد الله الجُعفيَّة ـ وكانت امرأة الحسين بن عليّ ـ إلى المختار تسأله أن يأذن لها أن تواريَ جسده؛ ففعل؛ فدفنتْه.

وبعث المختار غلاماً له يدعى زِرْبياً في طلب شَمِر بن ذي الجَوْشَن.

---

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

قال أبو مخنف: فحدّثني يونس بن أبي إسحاق، عن مسلم بن عبد الله الضّبابيّ، قال: تَبعنا زرْبيٌّ غلامُ المختار، فَلحِقَنا وقد خرجْنا من الكوفة على خيول لنا ضُمَّر، فأقبل يتمطَّر به فرسُه، فلمَّا دنا منَّا قال لنا شمر: اركضوا وتباعدوا عنّي لعلّ العبد يطمع فيّ؛ قال: فركَضْنا، فأمعنَّا، وطمع العبد في شمِر، وأخذ شمر ما يستطرد له، حتَّى إذا انقطع من أصحابه حمل عليه شمِر فدقَّ ظهره، وأتى المختار فأخبر بذلك، فقال: بؤساً لزربيّ، أما لو يستشيرُني ما أمرْته أن يخرُج لأبي السابغة[1]. (٦/ ٥٢).

قال أبو مخنف: حدّثني أبو محمَّد الهَمْداني، عن مسلم بن عبد الله الضّبابيّ، قال: لمَّا خرج شمر بن ذي الجَوْشن وأنا معه حين هزمنا المختار، وقتل أهل اليمن بجبَّانة السَّبيع، ووجَّه غلامَه زربيَّاً في طلب شمر، وكان مَن قتل شمر إيَّاه ما كان، مضى شمر حتَّى ينزلَ ساتِيدَمَا، ثمّ مضى حتَّى ينزل إلى جانب قرية يقال لها الكلتانيَّة على شاطئ نهر، إلى جانب تلّ، ثمّ أرسل إلى تلك القرية فأخذ منها عِلْجاً فضربه، ثمّ قال: النّجاء بكتابي هذا إلى المصعَب بن الزبير وكتب عنوانه: للأمير المصعب بن الزبير من شمِر بن ذي الجوشن، قال: فمضَى العِلْج حتَّى يدخل قريةً فيها بيوت، وفيها أبو عَمْرة، وقد كان المختار بعثَه في تلك الأيَّام إلى تلك القرية لتكون مَسْلحة فيما بينه وبين أهل البصرة، فلقي ذلك العِلْج عِلْجا من تلك القرية، فأقبل يشكو إليه ما لقي من شمر، فإنَّه لقائم معه يكلّمه إذ مر به رجل من أصحاب أبي عمرة، فرأى الكتابَ مع العِلج، وعنوانه: لمصعب من شمر، فسألوا العلجَ عن مكانه الَّذي هو به، فأخبَرَهم فإذا ليس بينهم وبينه إلاّ ثلاثة فراسخ، قال: فأقبلوا يسيرون إليه[2]. (٦/ ٥٢ ـ ٥٣).

قال أبو مخنف: فحدّثني مسلم بن عبد الله، قال: وأنا والله مع شَمِر تِلك اللَّيلة، فقلنا: لو أنَّك ارتحلتَ بنا من هذا المكان فإنَّا نتخوّف به! فقال: أوَ كلّ هذا فَرَقا من الكذَّاب! والله لا أتحوّل منه ثلاثة أيّام، ملأ الله قلوبَكم رُعْباً! قال: وكان بذلك المكان الذي كنَّا فيه دبىً كثير، فوالله إني لَبيْن اليَقْظانِ والنائم، إذْ

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.
(٢) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

سمعتُ وَقْعَ حوافر الخيل ، فقلت في نفسي : هذا صوتُ الدَّبى ، ثمّ إني سمعته أشدّ من ذلك ، فانتبهتُ ومسحتُ عينيّ ، وقلت : لا والله ، ما هذا بالدَّبَى . قال : وذهبتُ لأقومَ ، فإذا أنا بهم قد أشرفوا علينا من التَّلّ فكبّروا ، ثم أحاطوا بأبياتنا ، وخرجْنا نشتدّ على أرجُلنا وتركنا خيلنا ، قال : فأمُرُّ على شمِر ، وإنَّه لمتَّزر ببُرد محقق ، ـ وكان أبرَصَ ـ فكأني أنظر إلى بياض كشحيه من فوق البُرْد ، فإنَّه لَيطاعنهم بالرمح ، قد أعجَلوه أن يلبس سلاحَه وثيابَه ، فمضينا وتركناه ، قال : فما هو إلاّ أن أمعنتُ ساعةً ، إذ سمعتُ : الله أكبر ، قتلَ الله الخبيث![١] (٦/ ٥٣).

قال أبو مخنف : حدّثني المشرقيّ ، عن عبد الرحمن بن عبيد أبي الكنود ، قال : أنا والله صاحب الكتاب الَّذي رأيته مع العِلْج ، وأتيتُ به أبا عَمرة وأنا قتلت شَمِراً؛ قال : قلت : هل سمعتَه يقول شيئاً ليلتئذ؟ قال : نعم ، خرج علينا فطاعَنَنا برمحه ساعةً ، ثمّ ألقى رمْحَه ، ثمّ دخل بيته فأخذ سيفَه ، ثمّ خرج علينا وهو يقول :

نَبَّهْتُـمُ لَيْـثَ عَـرِيـنٍ بَـاسِـلاَ   جَهْمـاً مُحيَّـاهُ يَـدُقُّ الكـاهِـلاَ
لـم يُـرَ يَـوْمـاً عَـنْ عَـدُوٍّ نـاكِـلاَ   إلاَّ كـذَا مُقَـاتِـلاً أو قـاتِـلاَ
يُبْـرِحُهُـمْ ضَـرْبـاً ويُـرْوِي العـامِـلاَ[٢]

(٦/ ٥٣ ـ ٥٤)

قال أبو مخنف : عن يونس بن أبي إسحاق : ولمَّا خرج المختار من جَبّانة السَّبيع ، وأقبل إلى القصر ، أخذ سُراقةُ بن مِرْداس يناديه بأعلى صوته :

امنـنْ علـيَّ اليَـوْمَ يـا خَيْـرَ مَعَـدّْ   وخَيْـرَ مَـنْ حَـلَّ بِشِحْـرٍ والجَنَـدْ
وخَيْـرَ مـن حَيَّـا ولبَّـى وسَجَـدْ

فبعث به المختار إلى السجن ، فحبسه ليلةً ، ثمّ أرسل إليه من الغد فأخرَجه ، فدعا سراقة ، فأقبَل إلى المختار وهو يقول :

ألا أبلـغْ أبَـا إسْحـاقَ أنّـا   نَـزَوْنـا نَـزوةً كـانـت علينـا

---

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.
(٢) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

خَرَجْنَا لا نَرَى الضعَفاءَ شيئاً وكان خُرُوجنا بَطَراً وحَيْنَا
نراهُمْ في مصافِّهِم قليلاً وهم مثلُ الدَّبى حين التَقَينا
بَرزْنا إذ رأينَاهُمْ فلما رأَينا القومَ قد برزُوا إلينا
لقِينَا منْهُمُ ضَرْباً طِلَحْفاً وطَعناً صائباً حتَّى انثنَيْنَا
نصِرْتَ على عَدُوِّك كُلَّ يومٍ بكلِّ كتِيبَةٍ تَنْعَى حُسَيْنَا
كنصْرِ مُحَمَّدٍ في يوم بَدْرٍ ويومِ الشِّعْبِ إذ لاقَى حُنَيْنَا
فأسْجِحْ إذْ ملكْتَ فلو مَلكنا لجُرْنا في الحكومة وٱعتَدَينا
تقَبَّلْ توبةً منّي فإنّي سأشكرُ إنْ جعلتَ النَّقْدَ دينا

قال: فلمَّا انتهى إلى المختار، قال له: أصلَحك الله أيها الأمير! سُراقةُ بن مِرداس يَحلف بالله الَّذي لا إله إلاّ هو لقد رأى الملائكةَ تُقاتِل على الخيول البُلْق بين السماء والأرض؛ فقال له المختار: فاصعد المنبرَ فأعلِم ذلك المسلمين؛ فصَعِد فأخبرَهم بذلك ثمّ نزل، فخلا به المختار، فقال: إني قد علمت أنَّك لم تر الملائكة، وإنَّما أردتَ ما قد عرفتُ ألا أقتلك، فاذهب عني حيث أحببت، لا تُفْسدِ عليّ أصحابي[1]. (٦/ ٥٤ ـ ٥٥).

قال أبو مخنف: فحدّثني الحجّاج بن عليّ البارقي عن سراقة بن مرداس، قال: ما كنت في أيمان حلفت بها قطّ أشدّ اجتهاداً ولا مبالغةً في الكذب منّي في أيماني هذه الَّتي حلفتُ لهم بها أني قد رأيت الملائكة معهم تُقاتل، فخلّوا سبيله، فهرب، فلحق بعبد الرحمن بن مخنف عند المصعب بن الزبير بالبصرة، وخرج أشرافُ أهل الكوفة والوجوه، فلَحِقوا بمصعب بن الزبير بالبصرة، وخرج سُراقة بن مرداس بن الكوفة وهو يقول:

ألاَ أبلِغْ أبَا إسحاق أنّي رأيتُ البُلْقَ دُهْماً مُصْمَتاتِ
كفَرْتُ بَوحْيِكمْ وجعلت نَذْراً عليَّ قِتالَكمْ حتَّى المَماتِ
أرى عَيْنَيَّ ما لم تُبْصِراهُ كلانا عالِمٌ بالتُّرَّهاتِ
إذا قالوا أقول لهم كَذَبْتُمْ وإن خرجوا لبِسْتُ لهم أَداتي

حدّثني أبو السائب سَلم بن جُنادة، قال: حدّثنا محمَّد بن برّاد، من ولد

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

أبي موسى الأشعريّ، عن شيخ: قال: لمَّا أُسِر سراقة البارقيّ، قال: وأنتم أسرتموني! ما أسَرَني إلاّ قوم على دوابّ بُلق، عليهم ثيابٌ بيض، قال: فقال المختار: أولئك الملائكة، فأطْلَقه فقال:

ألا أبلغ أبا إسحاقَ أَنَي رأَيتُ البُلْقَ دَهْماً مصمتاتِ
أُرِي عينيَّ ما لمْ تَرْأياه كلانَا عالمٌ بالتُّرَّهاتِ[1]

(٦/ ٥٥).

قال أبو مخنف: حدّثني عمير بن زياد أنّ عبد الرحمن بن سعيد بن قيس الهمْدانيّ قال يومَ جبَّانة السبيع: ويحكم! من هؤلاء الَّذينَ أتَوْنا من ورائنا؟ قيل له: شِبَام؛ فقال: يا عجبا! يقاتلني بقَوْمي من لا قومَ له[2]. (٦/ ٥٥).

قال أبو مخنف: وحدّثني أبو روق أنّ شُرحبيل بن ذي بُقلان من الناعطيِّين قُتِل يومئذ، وكان من بيوتات هَمْدان، فقال يومئذ قبل أن يُقتَل: يا لها قتلةً، ما أضلّ مقتولها! قِتال مع غير إمام، وقتالٌ على غير نيَّة، وتعجيلُ فراقِ الأحبَّة، ولو قتلناهم إذاً لم نسلم منهم، إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون! أما والله ما خرجْتُ إلا مواسياً لقومي بنفسي مخافَة أن يُضطهَدوا؛ وايم الله ما نجوْتُ من ذلك ولا أنجُوا، ولا أغَنْيت عنهم ولا أُغنُوا، قال: ويرميه رجل من الفائشيِّين من هَمْدانَ يقال له أحمر بن هديج بسهم فيقتله.

قال: واختصَم في عبد الرحمن بن سعيد بن قيس الهمدانيّ نفرٌ ثلاثة: سِعْر ابن أبي سعر الحنفيّ، وأبو الزبير الشِّباميّ: ورجل آخر؛ فقال سِعْر: طعنته طعنة، وقال أبو الزبير: لكن ضربتُه أنا عشرَ ضَرَبَات أو أكثر، وقال لي ابنه: يا أبا الزبير، أتقتل عبد الرحمن بن سعيد سيّد قومك! فقلت: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾، فقال المختار: كلّكم محسن، وانجلت الوَقعة عن سبعمئة وثمانين قتيلاً من قومه[3]. (٦/ ٥٦).

---

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.
(٢) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.
(٣) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

قال أبو مخنف: حدّثني النَّضر بن صالح أنَّ القتل إذ ذاك كان استَحرّ في أهل اليمن، وأن مُضَر أصيب منهم بالكُناسة بضعة عشر رجلاً، ثمّ مضوا حتَّى مرّوا بربيعة، فرجع حجَّار بن أبجر، ويزيد بن الحارث بن رؤيم وشدّاد بن المنذر - أخو حضين - وعكرمة بن ربعيّ، فانصرف جميع هؤلاء إلى رحالهم، وعطف عليهم في عكرمة فقاتلهم قتالاً شديداً، ثمّ انصرف عنهم وقد خرج، فجاء حتَّى دخل منزلَه، فقيل له: قد مرّت خيلٌ في ناحية الحيّ؛ فخرج فأراد أن يثب من حائط داره إلى دار أخرى إلى جانبه فلم يستطع حتَّى حمَلَه غلام له، وكانت وقعة جبَّانة السَّبيع يوم الأربعاء لستّ ليال بقِين من ذي الحجَّة سنة ستّ وستّين.

قال: وخرج أشرافُ الناس فلَحِقوا بالبَصرة، وتجرّد المختارُ لقتَلة الحسين فقال: مامن ديننا تركُ قوم قتلوا الحسينَ يمشون أحياء في الدّنيا آمنين؛ بئس ناصرُ آل محمَّد أنا إذاً في الدنيا! أنا إذاً الكذّاب كما سمَّوْني، فإني بالله أستعين عليهم، الحمد لله الَّذي جعلني سيفاً ضربهم به، ورمحاً طعَنَهم به، وطالب وترهم، والقائم بحقّهم، إنَّه كان حَقّاً على الله أن يَقتُل من قَتَلهم، وأن يذلّ من جهل حقَّهم، فسمّوهم لي ثمّ اتبِعوهم حتَّى تُفنوهُم[١]. (٦/ ٥٦ - ٥٧).

قال أبو مخنف: فحدّثني موسى بن عامر أنّ المختار قال لهم: اطلُبوا لي قَتَلَة الحسين، فإنَّه لا يَسُوغ ليَ الطعامَ والشرابُ حتَّى أطهّر الأرضَ منهم، وأنفي المُصِرّ منهم[٢]. (٦/ ٥٧).

قال أبو مخنف: وحدّثني مالك بن أعيَن الجُهنيّ أنّ عبد الله بن دباس، وهو الَّذي قَتَل محمَّد بن عمَّار بن ياسر الَّذي قال الشاعر:

قَتِيلُ ٱبنِ دَبَّاسٍ أَصابَ قَذَالَهُ

هو الَّذي دلّ المختار على نفر ممَّن قَتَل الحسينَ، منهم عبد الله بن أسيد بن النَّزّال الجُهَنيّ من حُرَقة، ومالك بن النُّسير البدّيّ، وحَمَل بن مالك المحاربيّ؛ فبعث إليهم المختار أبا نِمْران مالك بن عمرو النَّهديّ - وكان من رُؤساء أصحاب المختار - فأتاهم وهمْ بالقادسيَّة، فأخذهم فأقبل بهم حتَّى أدخلهم عليه عِشاء،

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.
(٢) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

فقال لهم المختار: يا أعداء اللهِ وأعداءَ كتابه وأعداءَ رسولِهِ وآلِ رسولِه، أين الحسينُ بنُ عليّ؟ أدّوا إليّ الحسينَ، قتلتم من أُمِرتُم بالصّلاة عليه في الصلاة، فقالوا: رحمك الله! بُعثنا ونحن كارهون، فامننْ علينا واستبقنا، قال المختار: فهلاّ مننتم على الحسين ابن بنت نبيِّكم واستبقيتموه وسَقَيْتموه! ثم قال المختار للبدِّيّ: أنت صاحبُ بُرنُسه؟

فقال له عبد الله بن كامل: نعم، هو هو؛ فقال المختار: اقطعوا يدَيْ هذا ورِجْلَيه، ودَعُوه فليضطرب حتَّى يموت، ففُعل ذلك به وتُرك، فلم يزل يَنزِف الدمَ حتَّى مات، وأمر بالآخرين فقُدّما، فقتل عبدُ الله بن كامل عبد الله الجهنيّ، وقتل سعرُ بن أبي سعر حَمَل بن مالك المحاربيّ[١]. (٦/ ٥٧ ـ ٥٨).

قال أبو مخنف: وحدّثني أبو الصّلت التَّيميّ، قال: حدّثني أبو سعيد الصَّيْقل أنّ المختار دُلّ على رجال من قَتَلة الحسين، دَلَّه عليهم سِعْر الحنفيّ؛ قال: فبعث المختارُ عبدَ الله بن كامل، فخرجنا معه حتَّى مرّ ببني ضُبيعة، فأخذ منهم رجلاً يقال له زياد بن مالك؛ قال: ثمّ مضى إلى عَنَزة فأخذ منهم رجلاً يقال له عِمْران بن خالد، قال: ثمّ بعثني في رجال معه يقال لهم الدّبابة إلى دار في الحمراء، فيها عبد الرحمن بن أبي خُشْكارة البَجَليّ وعبد الله بن قيس الخَوْلانيّ، فجئنا بهم حتى أدخلناهم عليه، فقال لهم: يا قتلة الصالحين، وقَتلة سيّد شباب أهل الجنَّة، ألا تَرْون الله قد أقاد منكم اليومَ! لقد جاءكم الوَرْس، بيوم نَحْس ـ وكانوا قد أصابوا من الوَرْس الَّذي كان مع الحسين ـ أخرجوهم إلى السوق فضرّبوا رقابَهم ففُعل ذلك بهم، فهؤلاء أربعة نفر[٢]. (٦/ ٥٨).

قال أبو مخنف: وحدّثني سليمان بن أبي راشد، عن حميد بن مسلم، قال: جاءنا السَّائب بن مالك الأشعريّ في خيل المختار، فخرجتْ نحوَ عبد القيس، وخرج عبد الله، وعبدُ الرحمن ابنا صَلْخب في أثَرى، وشُغلوا بالاحتباس عليهما عنّي، فنجوت وأخذوهما، ثمّ مضوا بهما حتى مرّوا على منزل رجل يقال له عبد الله بن وُهب بن عمرو بن عمّ أعشى هَمْدانَ من بني عبد، فأخذوه، فانتهوْا

---

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

(٢) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

بهم إلى المختار ، فأمر بهم فقُتِلوا في السوق ، فهؤلاء ثلاثة . فقال حُميَد بن مسلم في ذلك حيث نجا منهم :

أَلَمْ تَرَنِي على دهشٍ نَجَوتُ ولم أَكَدْ أَنجُو
رجاءُ اللهِ أَنْقذَنِي ولم أَكُ غيْرَهُ أَرْجو[1]

(٦/ ٥٨ ـ ٥٩).

قال أبو مخنف : حدّثني موسى بن عامر العدويّ من جُهينة ـ وقد عرف ذلك الحديث شهمُ بن عبد الرّحمن الجُهَنيّ ـ قال : بعث المختارُ عبدُ الله بن كامل إلى عثمانَ بن خالد بن أسيرَ الدُّهمانيّ من جُهَينة ، وإلى أبي أسماءَ بشْر بن سَوْط القابضيّ ـ وكانا ممَّن شَهِدا قتلَ الحسين ، وكانا اشتركا في دم عبد الرّحمن بن عَقِيل بن أبي طالب وفي سَلبه ـ فأحاط عبدُ الله بنُ كامل عند العصر بمسجد بني دُهمان ، ثم قال : عليّ مثل خطايا بني دُهمان منذ يوم خُلقوا إلى يوم يُبعَثون إن لم أوتَ بعثمانَ بن خالد بن أسير ، إن لم أضرب أعناقكم من عند آخركم ، فقلنا له : أمهلْنا نطلبه ، فخرجوا مع الخيل في طلبه ، فوجدوهما جالسَين في الجبَّانة ـ وكانا يريدان أن يخرجا إلى الجزيرة ـ فأتِيَ بهما عبدُ الله بن كامل ، فقال : الحمد لله الَّذي كفى المؤمنين القتالَ ، لو لم يجدوا هذا مع هذا عنَّانا إلى منزله في طلبه ، فالحمد لله الَّذي حيّنك حتَّى أمكَن منك ، فخرج بهما حتَّى إذا كان في موضع بئر الجعد ضربَ أعناقَهما ، ثمّ رجع فأخبر المختارَ خبرَهما ، فأمره أن يرجع إليهما فيحرقَهما بالنار ، وقال : لا يُدفنان حتَّى يُحرَقا ، فهذان رجلان ، فقال أعشى همْدان يرثي عثمانَ الجُهَنيّ :

يا عَيْن بكّي فَتَى الفِتيان عُثمانَا لا يَبْعدَنَّ الفَتَى من آلِ دُهْمانَا
واذْكرْ فتىً ماجِداً حُلواً شَمائلُهُ ما مِثْلُهُ فارسٌ في آلِ هَمْدَانَا

قال موسى بن عامر : وبعث معاذ بن هانئ بن عديَ الكنديّ ، ابن أخي حُجر ، وبعث أبا عمرة صاحب حَرَسه ، فساروا حتَّى أحاطوا بدار خَوْليّ بن يزيد الأصبحيّ وهو صاحبُ رأس الحسين الَّذي جاء به ، فاختبأ في مخرجه ، فأمر معاذٌ أبا عَمْرَةَ أن يطلبَه في الدار ، فخرجتْ امرأتهُ إليهم ، فقالوا لها : أين

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

زوجُكِ؟ فقالت: لا أدري أين هو ـ وأشارت بيدها إلى المخرج ، فدخلوا فوجدوه قد وضع على رأسه قَوْصَرَّةً ـ فأخرجوه ، وكان المختار يسير بالكوفة ، ثمّ إنَّه أقبل في أثر أصحابه وقد بعث أبو عَمرَة إليه رسولاً ، فاستقبل المختار الرسولَ عند دار بلال ، ومعه ابنُ كامل ، فأخبَرَه الخبر ، فأقبل المختار نحوَهم ، فاستقبل به ، فردّده حتَّى قتله إلى جانب أهله ، ثمّ دعا بنار فحرّقه [بها] ، ثم لم يبرح حتَّى عاد رماداً ، ثمّ انصرف عنه ، وكانت امرأته من حَضْرَمَوْت يقال لها العَيُوف بنت مالك بن نَهار بن عَقْرَب ، وكانت نصبتْ له العداوة حين جاء برأس الحسين[1]. (٦/ ٥٩ ـ ٦٠).

قال أبو مخنف: وحدّثني موسى بن عامر أبو الأشعر أنّ المختار قال ذات يوم وهو يحدّث جلساءَه: لأقتلنّ غداً رجلاً عظيمَ القَدَمين ، غائرَ العينين ، مشرفَ الحاجبين ، يسرّ مقتلُه المؤمنين والملائكةَ المقرّبين ، قال: وكان الهيثم بن الأسوَد النَّخعيّ عند المختار حين سمع هذه المقالة ، فوقع في نفسه أنّ الَّذي يريد عمر بن سعد بن أبي وقَّاص ، فلمَّا رجع إلى منزله دعا ابنه العُريان فقال: القَ ابنَ سعد الليلةَ فخَبّره بكذا وكذا ، وقل له: خذ حِذْرك ، فإنّه لا يريد غيرَك ، قال: فأتاه فاستخلاه ، ثمّ حدّثه الحديث ، فقال له عمر بن سعد: جزى الله أباك والإخاء خيراً! كيف يريد هذا بي بعد الَّذي أعطاني من العهود والمواثيق! وكان المختار أوّل ما ظهر أحسنَ شيء سيرةً وتألّفاً للناس ، وكان عبد الله بن جَعْدة بن هبيرة أكرمَ خَلْق الله على المختار لقرابته بعليّ ، فكلَّم عمرُ بنُ سعد عبد الله بن جعدة وقال له: إني لا آمَن هذا الرجل ـ يعني المختار ـ فخُذْ لي منه أماناً ، ففعل ، قال: فأنا رأيتُ أمانَه وقرأْتُه [وهو]:

بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا أمانٌ من المختار بن أبي عبيد لعمرَ بن سعد بن أبي وقَّاص ، إنَّك آمن بأمان الله على نفسك ، ومالِك وأهلِك وأهل بيتك وولدِك ، لا تؤاخذُ بحَدَث كانَ منك قديماً ما سمعتَ وأطعتَ ولزمتَ رَحْلك وأهلَك ومِصرَك ، فمن لقي عمرَ بن سعد من شُرْطة الله وشيعةِ آل محمَّد ومن غيرهم من الناس ، فلا يعرض له إلاّ بخير ، شهد السائبُ بن مالك وأحمرُ بن

---

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

شميط وعبدُ الله بن شدّاد وعبُد الله بن كامل ، وجعلَ المختارُ على نفسه عهدَ الله وميثاقَه ليَفِيَنَّ لعمرَ بن سعد بما أعطاه من الأمان ، إلاّ أن يُحدِث حَدَثاً ، وأشَهَد اللهَ على نفسه ، وكَفَى باللهِ شهيداً.

قال: فكان أبو جعفر محمَّد بن عليّ يقول: أمَّا أمانُ المختار لعمر بن سعد: إلاّ أن يُحدِث حَدَثاً ، فإنه كان يريد به إذا دخل الخلاء فأحْدث.

قال: فلمَّا جاءه العُريان بهذا خرج من تحت ليلته حتَّى أتى حمَّامه ، ثم قال في نفسه: أنزِل دارِي ، فرجع فعبر الرَّوْحاءَ ، ثمّ أتى دارَه غُدوَةً ، وقد أتى حمَّامَه ، فأخبر مولىً له بما كان من أمانه وبما أريد به ، فقال له مولاه: وأيّ حَدَث أعظمُ ممَّا صنعتَ! إنَّك تركت رَحلك وأهْلَك وأقبلتَ إلى هاهنا ، ارجع إلى رحلك ، لا تجعلنّ للرجل عليك سبيلاً ، فرجع إلى منزله ، وأتى المختارَ بانطلاقه ، فقال: كلاّ إنّ في عنقه سلسلةً ستردّه لو جهَد أن ينطلق ما استطاع ، قال: وأصبح المختارُ فبعث إليه أبا عمرةَ ، وأمَرَه أن يأتيه به ، فجاءه حتَّى دخل عليه فقال: أجِب الأميرَ ، فقام عمر: فعثر في جُبَّة له ، ويضربه أبو عَمْرة بسيفه ، فقتله ، وجاء برأسه في أسفل قَبائه حتَّى وضعَه بين يدَي المختار ، فقال المختار لابنه حفص بن عمرَ بن سعد وهو جالس عنده: أتعرف هذا الرّأس؟ فاسترجع وقال: نعم ، ولا خير في العيش بعدَه ، قال له المختار: صدقت ، فإنَّك لا تعيش بعده ، فأمر به فقُتِل ، وإذا رأسَه مع رأس أبيه ، ثمّ إنّ المختار قال: هذا بحُسَين وهذا بعليّ بن حسين ، ولا سَواء ، واللهِ لو قتلتُ به ثلاثة أرباع قريش ما وَفَوا أنمُلةً من أنامله؛ فقالت حُمَيدة بنت عمَر بن سعد تبكِي أباها:

لو كان غيرُ أخي قَسِيٍّ غرَّهُ   أو غيرُ ذي يَمَنٍ وغيرُ الأَعْجمِ
سَخَّى بنفسي ذاكَ شيْئاً فاعلمُوا   عنه وما البَطْرِيق مثلُ الألأمِ
أعطَى آبن سعدٍ في الصَّحيفة وابنَه   عهداً يلينُ له جَناحُ الأرقمِ

فلمَّا قتل المختارُ عمرَ بن سعد وابنه بعث برأسَيْهما مع مسافر بن سعيد بن نمْران الناعطي وظَبْيان بن عمارة التميميّ ، حتَّى قَدِمَا بهما على محمَّد بن الحنفيَّة ، وكتب إلى ابن الحنفيّة في ذلك بكتاب[1]. (٦/ ٦٠ ـ ٦٢).

---

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

قال أبو مخنف: وحدّثني موسى بن عامر ، قال: إنَّما كان هيَّج المختار على قتل عمرَ بن سعد أنّ يزيدَ بن شراحيلَ الأنصاريّ أتى محمَّد بن الحنفيَّة ، فسلَّم عليه ، فجرى الحديثُ إلى أن تذاكروا المختارَ وخروجَه وما يدعو إليه من الطلب بدماء أهل البيت ، فقال محمَّد بن الحنفيَّة: على أهون رسله يزعم أنَّه لنا شيعة ، وقتَلة الحسين جلساؤه على الكراسي يحدّثونه! قال: فوعاها الآخر منه ، فلما قدم الكوفة أتاه فسلَّم عليه ، فسأله المختار: هل لقيتَ المهديّ؟ فقال له: نعم ، فقال: ما قال لك وما ذاكَرَك؟ قال: فخبّره الخبر ، قال: فما لبَّث المختارُ عمرَ بن سعد وابنه أن قتَلهما ، ثمّ بعث برأسيهما إلى ابن الحنفيّة مع الرسولين اللّذَين سمَّينا ، وكتب معهما إلى ابن الحنفيَّة:

بسم الله الرَّحمن الرّحيم ، للمهدّي محمَّد بن عليّ من المختار بن أبي عُبَيد ، سلام عليك يا أيُّها المهديّ ، فإني أحمَد إليك الله الَّذي لا إله إلا هو ، أمَّا بعد: فإنَّ الله بَعثَني نِقمَةً على أعدائكم ، فهم بين قتيل وأسير ، وطريد وشريد ، فالحمد لله الَّذي قتل قاتليكم ونصر مؤازِرِيكم.

وقد بعثتُ إليك برأس عمرَ بن سعد وابنه ، وقد قتلنا من شَرَك في دم الحسين وأهل بيته ـ رحمةُ الله عليهم ـ كلّ من قَدَرْنا عليه ، ولن يُعجز الله من بقي ، ولست بمُنجم عنهم حتَّى لا يبلغني أنّ على أديم الأرضِ منهم أرمِيّاً.

فاكتب إليّ أيها المهديّ برأيك أتَّبعه وأكون عليه ، والسلام عليك أيها المهديّ ورحمة الله وبركاته.

ثمّ إنّ المختار بعث عبدَ الله بن كامل إلى حكيم بن طُفَيل الطائيّ السنْبِسيّ ـ وقد كان أصاب صلب العبَّاس بن عليّ ، ورَمَى حسيناً بسَهْم ، فكان يقول: تعلَّق سهمي بسِرْباله وما ضرّه ـ فأتاه عبدُ الله بنُ كامل ، فأخَذُه ثمّ أقبل به ، وذهب أهلُه فاستغاثُوا بعديّ بن حاتم ، فَلحِقهم في الطَّريق ، فكلَّم عبد الله بن كامل فيه ، فقال: ما إليّ من أمره شيء ، إنَّما ذلك إلى الأمير المختار. قال: فإني آتيه؛ قال: فائْتِهِ راشداً ، فمضى عديّ نحوَ المختار ، وكان المختار قد شفَّعه في نفر من قومه أصابهم يومَ جَبَّانة السَّبيع ، لم يكونوا نَطَقوا بشيء من أمر الحسين ولا أهل بيته ، فقالت الشيعة لابن كامل: إنَّا نخاف أن يشفِّع الأمير عديّ بن حاتم في هذا الخبيث ، وله من الذنب ما قد علمت ، فدعْنا نقتُله ، قال: شأنكم به ، فلما

انتهَوْا به إلى دار العَنزيِّين وهو مكتوف نَصَبوه غَرَضاً ، ثم قالوا له: سلبتَ ابن عليّ ثيابَه ، والله لنَسلبنّ ثيابَك وأنت حيّ تنظرُ! فنزعوا ثيَابَه ، ثمّ قالوا له: رَمَيْتَ حسيناً ، واتّخذته غَرَضاً لنَبْلك ، وقلت: تعلّق سهمي بسِرْباله ولم يضرّه ، وايمُ الله لنرمينَّك كما رميته بنبال ما تعلَّق بك منها أجزاك ، قال: فرَمَوه رشْقاً واحداً ، فوقعتْ به منهم نبالٌ كثيرة فخرّ ميّتاً[١]. (٦/ ٦٢ ـ ٦٣).

قال أبو مخنف: فحدّثني أبو الجارود عمّن رآه قتيلاً كأنَّه قُنفُذ لِمَا فيه من كثرة النَّبل: ودخل عديّ بن حاتم على المختار فأجلَسَه معه على مجلسه، فأخبره عديّ عمَّا جاء له ، فقال له المختار: أتستحلّ يا أبا طَريف أن تَطلُب فيّ قَتَلة الحسين! قال: إنه مكذوب عليه أصلحك الله! قال: إذاً ندَعه لك قال: فلم يكن بأسرع من أن دخل ابن كامل فقال له المختار: ما فَعَل الرجل؟ قال: قتلتْه الشيعة: قال: وما أعَجَلَك إلى قتله قبل أن تأتيني به وهو لا يسرّه أنَّه لم يقتله ـ وهذا عديّ قد جاء فيه ، وهو أهلٌ أن يُشفَّع ويؤتى ما سرّه! قال: غلبتْني واللهِ الشيعة ، قال له عديّ: كذبتَ يا عدوَّ الله ، ولكنْ ظننْتَ أنّ من هو خيرٌ منك سيشفّعني فيه ، فبادرتَني فقتلتَه ، ولم يكن خطر يدفعك عمَّا صنعت. قال: فاسحَنْفر إليه ابن كامل بالشَّتيمة ، فوضع المختار إصبَعَه على فيه ، يأمر ابن كامل بالسكوت والكفّ عن عديّ ، فقام عديّ راضياً عن المختار ساخطاً على ابن كامل ، يشكوه عند من لقي من قومه، وبعث المختار إلى قاتل عليّ بن الحسين عبدَ الله بن كامل، وهو رجلٌ من عبد القيس يقال له مُرّة بن مُنْقذ بن النعمان العبديّ وكان شجاعاً ، فأتاه ابنُ كامل فأحاط بداره ، فخرج إليهم وبِيَدِه الرّمح ، وهو على فرس جواد ، فطعن عبيد الله بن ناجية الشِّباميّ ، فصرَعه ولم يضرّه ، قال: ويضربه ابن كامل بالسيف فيتّقيه بيده اليسرى ، فأسرع فيها السيف ، وتمطَرت به الفرس ، فأفلت ولحق بمصعب ، وشُلَّت يده بعد ذلك ، قال: وبعث المختارُ أيضاً عبدَ الله الشاكريّ إلى رجل من جَنْب يقال له زيدُ بن رُقاد. كان يقول: لقد رميتُ فتىً منهم بسهم وإنَّه لواضِع كفَّه على جبهته يتَّقي النبلَ فأثبتُّ كفَّه في جبهته ، فما استطاع أن يزيل كفَّه عن جبهته[٢]. (٦/ ٦٣ ـ ٦٤).

---

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

(٢) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

قال أبو مخنف: فحدّثني أبو عبد الأعلى الزُّبيديّ أنّ ذلك الفتى عبد الله بن مسلم بن عَقيلٍ، وأنّه قال حيث أثبت كفّه في جبهته: اللّهمّ إنّهم استقلّونا واستذلّونا، اللّهمّ فاقتلهم كما قتَلونا، وأذلّهم كما استذلّونا، ثمّ إنّه رمى الغلامَ بسهم آخرَ فقتَله، فكان يقول: جئتُه ميّتاً فنزعتُ سهمي الّذي قتلتُه به من جَوْفه، فلم أزَل أُنضنِض السَّهم من جبهته حتّى نَزْعته، وبقيَ النَّصل في جبهته مُثبَتاً ما قدرتُ على نزعه.

قال: فلمّا أتى ابن كامل دارَه أحاط بها، واقتحم الرجالُ عليه فخرج مصلتاً بسيفه ـ وكان شجاعاً ـ فقال ابن كامل: لا تضربوه بسيف، ولا تَطعنَوه برمح، ولكن ارموه بالنبل، وارجموه بالحجارة، ففعلوا ذلك به، فسقط، فقال ابن كامل: إن كان به رَمَق فأخرِجوه؛ فأخرَجوه وبه رَمَق، فدعا بنار فحرّقه بها وهو حيّ لم تخرج رُوحهُ، وطلب المختار سنان بن أنس الّذي كان يدّعى قَتْلَ الحسين، فوَجده قد هَرَب إلى البَصرة. فهدّم داره، وطلب المختارُ عبد الله بن عُقْبة الغنَويّ فوجده قد هَرَب، ولحق بالجزيرة، فهدم داره، وكان ذلك الغَنَويّ قد قتل منهم غلاماً، وقتل رجل آخر من بني أسد يقال له: حَرْملة بن كاهل رجلاً من آل الحسين، ففيهما يقول ابن أبي عَقِب اللّيثيّ:

وعِنـــدَ غَنِـيٍّ قطـــرَةٌ مـن دِمـائنــا وفـي أَسَـدٍ أُخـرَى تُعَـدُّ وتُـذكَـرُ

وطلب رجلاً من خَثْعَم يقال له عبد الله بن عروة الخثعميّ ـ كان يقول: رميت فيهم باثني عشر سهماً ضَيْعَةً ـ ففاته ولَحِق بمصعب، فهَدّم دارَه، وطلب رجلاً من صُداء يقال له عَمْرو بن صُبَيح، وكان يقول: لقد طعنتُ بعضَهُم وجرحتُ فيهم وما قتلت منهمْ أحداً، فأتِيَ ليلاً وهو على سَطْحه وهو لا يشعر بعد ما هدأت العيون، وسيفُه تحت رأسه، فأخذوه أخْذاً، وأخذوا سيفَه، فقال: قبحك الله سيفاً، ما أقرَبك وأبعَدَك! فجيء به إلى المختار، فحَبَسه معه في القصر، فلمّا أن أصبح أذِنَ لأصحابه، وقيل: لِيدخلْ من شاء أن يَدخُل، ودخل الناس وجيء به مقيَّداً، فقال: أما واللهِ يا معشر الكَفَرة الفَجَرة أن لو بِيَدِي سيفي لَعلمتم أني بنصل السيف غير رَعِش ولا رِعْديد، ما يسرُّني إذ كانت منيّتي قَتْلاً أنّه قتلني من الخلق أحد غيركم. لقدَ علمتُ أنّكم شرار خلق الله، غيرَ أني وددتُ أنّ بيدي سيفاً أضرب به فيكم ساعة، ثمّ رفع يدَه فلطم عينَ ابن كامل وهو إلى

جنبه ، فضحك ابن كامل ، ثمّ أخذ بيده وأمسكها ، ثم قال: إنّه يزعم أنّه قد جرح في آل محمد وطعن ، فمُرْنا بأمرك فيه ، فقال المختار: عليّ بالرماح ، فأتِيَ بها ، فقال: اطعَنوه حتَّى يموت ، فطُعِن بالرماح حتَّى مات[١] . (٦/ ٦٤ ـ ٦٥) .

قال أبو مخنف: حدّثني هشام بن عبد الرّحمن وابنه الحكَم بن هشام أنّ أصحاب المختار مرّوا بدار بني أبي زُرعة بن مسعود ، فرَموهم من فوقها ، فأقبلوا حتَّى دخلوا الدارَ ، فقتلوا الهبياط بن عثمان بن أبي زُرعة الثقفيّ وعبد الرحمن بن عثمان بن أبي زرعة الثَّقَفيّ ، وأفلتَهم عبدُ المالك بن أبي زرعة بضربة في رأسه ، فجاء يشتدّ حتَّى دخل على المختار ، فأمر امرأتَه أمَّ ثابت ابنةِ سَمُرة بن جُندَب ، فداوتْ شجَّته ، ثمّ دعاه ، فقال: لا ذنب لي ، إنّكم رميتم القوم فأغضَبْتموهم ، وكان محمَّد بنُ الأشعث بن قيس في قرية الأشعث إلى جنب القادسيَّة ، فبعث المختار إليه حَوْشباً سادِنَ الكرسيّ في مئة ، فقال: انطلِق إليه فإنَّك تجده لاهياً ، متصيّداً ، أو قائماً متلبّداً ، أو خائفاً متلدّداً ، أو كامناً متغمّداً ، فإن قدرت عليه فأتِني برأسه ، فخرج حتَّى أتى قصرَه فأحاط به ، وخرج منه محمَّد بن الأشعث فلحق بمصعب ، وأقاموا على القصر وهم يَرَوْن أنَّه فيه ، ثم دخلوا فعَلِموا أنَّه قد فاتَهم ، فانصرفوا إلى المختار ، فبعث إلى داره فهدمها ، وبنى بلَبِنها وطِينِها دارَ حُجْر بن عديّ الكِنْديّ ، وكان زيادُ بن سُمَيَّة قد هَدَمها[٢] . (٦/ ٦٥ ـ ٦٦) .

ذكر الخبر عن البيعة للمختار بالبصرة

وقال هشام بن محمد عن أبي مخنف ، قال: حدّثني منيع بن العلاء السعديّ أنّ مسكين بن عامر بن أنَيف بن شُرَيح بن عمرو بن عدس كان فيمن قَاتَل المختار ، فلمَّا هزم الناس لحق بأذْربيجان بمحمَّد بن عمير بن عطارد ، وقال:

عجِبتْ دَخْتَنُوس لمّا رأتْني ... قد عَلاَني مِنَ المَشِيبِ خِمارُ
فأهلَّتْ بصوتِها وأرَنَّتْ ... لا تهالي قد شاب منّي العِذَارُ

---

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك .
(٢) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك .

إن تَرَيْنِي قد بانَ غَربُ شبابي ... وأَتَى دونَ مولدي أَعْصَارُ
فابنُ عامَيْن وابن خمسين عاماً ... أيّ دهر إلاَّ له أدهارُ!
ليت سيْفي لها وَجَوْبتَها لي ... يومَ قالت ألا كريم يَغارُ!
ليْتنَا قبلَ ذلك اليوم مِتْنَا ... أو فعلْنا ما تفعلُ الأحرارُ
فعلَ قوم تَقَاذف الخيرُ عنهمْ ... لم نُقاتلْ وقاتَلَ العَيْزَار
وتولَّيتُ عنهُمُ وأصيبوا ... ونَفَاني عنهمْ شَنَارٌ وعارُ
لَهْفَ نَفسِي علي شِهَابُ قُرَيْشٍ ... يومَ يُؤْتَى برأسه المختارُ!

وقال المتوكِّلُ الليثي:

قتلوا حُسَيناً ثم همْ ينعوْنَه ... إنَّ الزمانَ بأهله أطْوارُ
لا تَبْعَدنْ بالطَّفِّ قَتْلَى ضُيِّعَتْ ... وسقَى مسَاكِن هامِهَا الأَمطار
ما شُرْطَة الدّجّالِ تحتَ لوائِه ... بأَضَلَّ مِمَّنْ غرَّهُ المختارُ
أَبَني قَسي أَوثِقُوا دجَّالَكم ... يجْلَ الغُبارُ وأنتمُ أحرارُ
لو كان علمُ الغيب عند أخيكمُ ... لتَوطَّأَتْ لكُمُ به الأحبارُ
ولكان أمراً بيِّناً فيما مضَى ... تأْتي به الأَنباءُ والأخبارُ
إنِّي لأرجو أن يُكَذِّبَ وحْيَكمْ ... طعنٌ يَشُقُّ عصاكُمُ وحِصَارُ
ويجيئكم قومٌ كأنَّ سُيُوفَهُمْ ... بأكفِّهِمْ تحتَ العَجاجة نارُ
لا يَنْثَنونَ إذا هُمُ لاقَوْكُمُ ... إلاَّ وهَامُ كُمَاتِكم أَعشارُ[١]

(٦/ ٧٠ _ ٧١).

ذكر الخبر عن بعث المختار جيشه للمكر بابن الزّبير

قال أبو جعفر: وفي هذه السنة بعث المختارُ جيشاً إلى المدينة للمكْر بابن الزبير، وهو مُظهِر له أنَّه وجَّههم مَعُونَةً له لحرب الجيش الَّذي كان عبد الملك بن مروان وجَّهه إليه لحروبه، فنزلوا واديَ القُرى.

* ذكر الخبر عن السبب الداعي كان للمختار إلى توجيه ذلك الجيش وإلى ما صار أمرهم:

---

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

قال هشام بن محمَّد: قال أبو مخنف: حدّثني موسى بن عامر، قال: لمَّا أخرج المختارُ بن مطيع من الكوفة لَحق بالبَصرة، وكره أن يقدم ابن الزبير بمكَّة وهو مهزوم مفلول، فكان بالبَصْرة مقيماً حتَّى قدم عليه عمرُ بنُ عبد الرحمن بن هشام، فصارا جميعاً بالبصرة، وكان سبب قدوم عمرَ البصرة أنّ المختار ظهر بالكوفة واستجمع له الأمر وهو عند الشِّيعة إنَّما يدعو إلى ابن الحنفيَّة والطلب بدماء أهل البيت، أخذ يخادع ابنَ الزبير ويكتب إليه، فكتب إليه: أمَّا بعد، فقد عرفتَ مُناصَحتي إيَّاك وجَهدي على أهل عَداوَتِك، وما كنتَ أَعطيتني إذا أنا فعلتُ ذلك من نفسك فلمَّا وفَيتُ لك، وقضيتُ الَّذي كان لكَ عليّ، خِسْتَ بي، ولم تَف بما عاهَدتني عليه، ورأيت منّي ما قد رأيت، فإن تُرد مراجعتي أراجِعك، وإن تُرد مُناصَحتي أنصح لك. وهو يريد بذلك كفَّه عنه، حتَّى يَستجمِع له الأمر، وهو لا يُطْلع الشِّيعة على شيء من هذا الأمر، وإذا بلغهم شيء منه أراهم أنَّه أبعد الناس عن ذلك. قال: فأراد ابن الزبير أن يَعلم أسِلْم هو أم حرب! فدعا عمر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزوميّ، فقال له: تجهَّزْ إلى الكوفة فقد ولَّيناكَها، فقال: كيف وبها المختار! قال: إنَّه يزعم أنَّه سامع مطيع، قال: فتجَّهزَ بما بين الثلاثين الألف درْهم إلى الأربعين ألفاً، ثمّ خرج مقبلاً إلى الكوفة، قال: ويجيء عينُ المختار من مكَّة حتَّى أخبره الخبر، فقال له: بكم تجهّز؟ قال: بما بين الثلاثين ألفاً إلى الأربعين ألفاً. قال: فدعا المختارُ زائدةَ بن قدامة، وقال له: احمِل معك سبعين ألفَ درهم ضِعفَ ما أنفَق هذا في مسيره إلينا وتلقّه في المفَاوز، واخرج معك مسافر بن سعيد بن نمْران الناعطيّ في خمسمئة فارس دارعٍ رامح، عليهم البَيْض، ثمَّ قل له: خذ هذه النَّفقة فإنَّها ضعف نفقتك، فإنَّه قد بلغنا أنَّك تجهَّزتَ وتكلَّفت قدرَ ذلك، فكَرِهنا أن تغرم، فخذها وانصرف، فإن فعل وإلاّ فأره الخيل وقل له: إنّ وراء هؤلاء مثلهم مئة كتيبة. قال: فأخذ زائدة المال، وأخرج معه الخيل، وتلقَّاه بالمَفاوز، وعرض عليه المال، وأمَرَه بالانصراف، فقال له: إنّ أمير المؤمنين قد ولاّني الكوفة ولابدّ من إنفاذ أمره، فدعا زائدةُ بالخيل وقد أكمنها في جانب، فلمَّا رآها قد أقبلتْ قال: هذا الآن أعذَرُ لي وأجملُ بي، هاتِ المالَ، فقال له زائدة: أمَّا إنّه لم يبعث به إليك إلاّ لما بينك وبينه، فدفعه إليه فأخذه ثمّ مضى

راجعاً نحوَ البصرة ، فاجتمع بها هو وابنُ مطيع في إمارة الحارث بنِ عبد الله بن أبي ربيعة ، وذلك قبل وثوب المثنّى بن مخرِّبة العبديّ بالبَصرة[١]. (٦/ ٧١ ـ ٧٢) .

قال أبو مخنف: فحدّثني إسماعيل بن نُعيم أنّ المختار أخبِر أنّ أهل الشام قد أقبَلوا نحو العراق ، فعَرَف أنه به يُبْدَأ ، فخشى أنه يأتيَه أهلُ الشام من قبل المغرب ، ويأتيَه مصعب بن الزبير من قِبَل البَصرةَ ، فوادَعَ ابنَ الزبير وداراه وكايده؛ وكان عبدُ الملك بن مروانَ قد بعث عبد الملك بن الحارث بن الحكَم بن أبي العاص إلى وادي القرى ، والمختار لابن الزبير مكايِدٌ موادع ، فكتب المختار إلى ابن الزبير:

أما بعد ، فقد بلغني أنّ عبد الملك بن مروانَ قد بعث إليك جيشاً ، فإن أحببتَ أن أمدّك بمدَدَ أمددتُك. فكتب إليه عبدُ الله بنُ الزبير:

أما بعد ، فإن كنتَ على طاعتي فلستُ أكره أن تبعث الجيشَ إلى بلادي وتبايعَ لي الناس قِبلك ، فإذا أتتْني بيعتُك صدّقتُ مقالتَكَ ، وكففتُ جنودي عن بلادك ، وعَجِّل عليّ بِتسريح الجيش الّذي أنت باعثه ، ومُرهم فليسيروا إلى مَنْ بوادي القرى من جُنْد ابن مروان فليقاتلوهم ، والسلام.

فدعا المختارُ شُرحبيلَ بن وَرْس من هَمدان ، فسرّحه في ثلاثةِ آلاف أكثرهم الموالي ، ليس فيهم من العرب إلاّ سبعمئة رجل ، فقال له: سرْ حتَّى تدخلَ المدينة ، فإذا دخلتَها فاكتب إليّ بذلك حتَّى يأتيَك أمري؛ وهو يريد إذا دخلوا المدينة أن يبعث عليهم أميراً من قبَله ، ويأمرَ ابنَ ورس أن يمضيَ إلى مكّة حتَّى يحاصرَ ابنَ الزبير ويقاتلَه بمكَّة ، فخرج الآخر يسير قِبَل المدينة ، وخشي ابن الزبير أن يكون المختار إنما يكيده؛ فبعث من مكّة إلى المدينة عباس بن سَهْل بن سعد في ألفين ، وأمَرَه أن يستنفرَ الأعراب ، وقال له ابنُ الزبير: إنْ رأيتَ القومَ في طاعتي فاقبل منهم ، وإلاّ فكايِدْهم حتَّى تُهلِكهم ففعلوا ، وأقبَل عبَّاس بن سهل حتَّى لقي ابن ورس بالرقيم ، وقد عبَّى ابن ورس أصحابَه ، فجعل على ميمنته سَلمانَ بن حِميرَ الثَّوريّ من هَمْدان ، وعلى مَيْسرته عيَّاش بن جَعْدة

---

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

الجُدَليّ ، وكانت خيلُه كلها في الميمنة والميسرة ، فدنا فسلَّم عليه ، ونزل هو يمشي في الرّجّالة ، وجاء عباس في أصحابه وهم منقطعون على غير تعبية ، فيجد ابن ورس على الماء قد عبّى أصحابه تعبية القتال ، فدنا منهم فسلَّم عليهم ، ثم قال: اخلُ معي هاهنا ، فَخلاَ به ، فقال له: رحمك الله! ألستَ في طاعة ابن الزبير! فقال له ابن ورس: بلى ، قال: فسرْ بنا إلى عدوّه هذا الَّذي بوادي القرى ، فإنّ ابن الزبير حدّثني أنَّه إنَّما أشخصكم صاحبكم إليهم ، قال ابن ورس: ما أمِرت بطاعتك ، إنما أمِرت أن أسير حتى آتي المدينة ، فإذا نزلتها رأيت رأيي ، قال له عبَّاس بن سهل: فإن كنت في طاعة ابن الزبير فقد أمرني أن أسيرَ بك وبأصحابك إلى عدوّنا الَّذِين بوادي القرى ، فقال له ابن ورْس: ما أمِرتُ بطاعتك ، وما أنا بمتَّبعك دون أن أدخل المدينة ، ثمّ أكتب إلى صاحبي فيأمرني بأمره ، فلمَّا رأى عبَّاس بن سهل لَجاجَتَه عرف خلافَه ، فكَرِه أن يُعلمه أنَّه قد فطن له ، فقال: فرأيك أفضل ، اعِمْل بما بدا لك؛ فأمَّا أنا فإني سائر إلى وادي القرى ، ثم جاء عبَّاس بن سهل فنزل بالماء.

وبعث إلى ابنَ ورْس بجزائرَ كانت معه ، فأهداها له ، وبعث إليه بدقيق وغنم مسلَّخة ـ وكان ابن ورس وأصحابه قد هلكوا جوعاً ـ فبعث عبَّاس بن سهل إلى كلّ عشرة منهم شاة ، فذبحوها ، واشتغلوا بها ، واختلطوا على الماء. وترك القومُ تعبيتهم ، وأمِن بعضُهم بعضاً؛ فلمَّا رأى عبَّاس بن سهل ما هم فيه من الشغل جَمَع من أصحابه نحواً من ألفِ رجل من ذوي البأس والنَّجدة ثمّ أقبل نحو فسطاط شُرَحبيل بن وَرْس ، فلمَّا رآهم ابنُ وَرْس مُقْبلين إليه نادى في أصحابه ، فلم يَتوافَ إليه مئةُ رجل حتَّى انتهى إليه عبَّاس بن سهل وهو يقول: يا شُرْطةَ الله ، إليّ إليّ! قاتلوا المُحِلِّين ، أولياءَ الشيطان الرجيم ، فإنَّكم على الحقّ والهدى؛ قد غَدَروا وفجروا[1]. (٦/ ٧٢ ـ ٧٤).

قال أبو مخنف: فحدّثني أبو يوسف أنّ عبَّاساً انتهى إليهم ، وهو يقول:

أنَـا ابـن سهـل فـارسٌ غيـرُ وَكَـلْ ... أَرْوَعُ مِقْـدَام إذا الكبـشُ نكَـلْ
وأعْتَلـي رأسَ الطِّـرِمَّـاح البطَـلْ ... بـالسّيـف يـومَ الـرَّوْع حتَّـى يَنْخـزَلْ

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

قال: فوالله ما اقتتلنا إلاّ شيئاً ليس بشيء حتى قُتل ابن ورس في سبعين من أهل الحفاظ ، ورَفَع عبَّاسُ بن سهل رايةَ أمان لأصحاب ابن ورس ، فأتَوْها إلاّ نحواً من ثلاثمئة رجل انصرفوا مع سَلَمانَ بن حمير الهمدانيّ وعياش بن جَعْدة الجدليّ، فلمَّا وقعوا في يد عبَّاس بن سهلٍ أمر بهم فقُتِلوا إلا نحواً من مئتي رجل، كره ناس من النَّاس ممَّن دُفِعُوا إليهم قتلَهم ، فخلَّوا سبيلهم ، فرجعوا ، فمات أكثرُهم في الطريق ، فلمَّا بلغ المختار أمرُهُم ، ورجع مَنْ رجع منهم ، قام خطيباً فقال: ألا إنّ الفُجَّار الأشرار ، قَتَلوا الأبرار الأخيار ، ألا إنَّه كان أمراً مأتِيّاً ، وقضاءً مقضيّاً ، وكتب المختار إلى ابن الحنفيَّة مع صالح بن مسعود الخَثْعَمِيّ:

بسم الله الرحمن الرحيم ، أمَّا بعد ، فإني كنت بعثتُ إليك جنداً ليُذلّوا لك الأعداء ، وليحوزُوا لك البلاد ، فساروا إليك حتَّى إذا أظلُّوا على طَيبَة ، لقيهم جندُ المُلحِد ، فخدعوهم بالله ، وغرّوهم بعهد الله ، فلمَّا اطمأنّوا إليهم ، ووَثِقوا بذلك منهم ، وثبوا عليهم فقتلوهم ، فإن رأيتَ أن أبعثَ إلى أهل المدينة من قبَلي جيشاً كثيفاً، وتَبعثَ إليهم من قِبَلك رُسُلاً؛ حتَّى يعلم أهلُ المدينة أني في طاعتك، وإنما بعثت الجند إليهم عن أمرك ، فافعل ، فإنَّك ستجد عظمهم بحقّكم أعرَف ، وبكم أهل البيت أرأف منهم بآل الزبير الظّلمة الملحدين والسلام عليك.

فكتب إليه ابنُ الحنفيَّة: أمَّا بعد ، فإنّ كتابك لمَّا بلغني قرأتُه ، وفهمتُ تعظِيمَك لحقّي ، وما تنوي من سروري ، وإنّ أحبّ الأمور كلها إليّ ما أطيع اللهَ فيه ، فأطع الله ما استطعتَ فيما أعلنتَ وأسررت ، واعلم أني لو أردت لوجدتُ الناس إليّ سراعاً ، والأعوانَ لي كثيراً ، ولكني أعتزلهم ، وأصبر حتى يحكم الله لي وهو خير الحاكمين.

فأقبل صالح بنُ مسعود إلى ابن الحنفيَّة فودَّعه وسلَّم عليه ، وأعطاه الكتاب وقال له: قل للمختار فليتَّقِ الله ، وليكفُف عن الدّماء ، قال: فقلت له: أصلَحَك الله! أوَ لم تكتبْ بهذا إليه! قال له ابن الحنفيَّة: قد أمرتهُ بطاعة الله ، وطاعةُ الله تَجمَع الخيرَ كلَّه ، وتنهَى عن الشرّ كلّه ، فلمَّا قَدِم كتابُه على المختار أظهر للناس

أني قد أُمِرتُ بأمر يجمع البرّ واليسر ، ويَضرَح الكُفْر والغَدْر[١]. (٦/ ٧٤ ـ ٧٥).

ذكر الخبر عن قُدوم الخشبيّة مكة وموافاتهم الحجّ

قال أبو جعفر: وفي هذه السنة قدمت الخشبيّة مكة ، ووافوا الحج وأميرهم أبو عبد الله الجدليّ.

* ذكر الخبر عن سبب قدومهم مكة:

وكان السبب في ذلك ـ فيما ذكر هشام عن أبي مخنف وعلّي بن محمَّد ، عن مَسْلمة بن محارب ـ أنّ عبد الله بن الزبير حبس محمَّد بن الحنفيَّة ومَن معه من أهل بيته وسبعة عشرَ رجلاً من وجوه أهل الكوفة بزَمزمَ ، وكرِهوا البَيْعة لمن لم تجتمع عليه الأمَّة ، وهربوا إلى الحَرم ، وتوعَّدهم بالقَتْل والإحراق ، وأعطى اللهَ عهداً إن لم يبايعوا أن يُنفذ فيهم ما توعَّدهم به ، وضرب لهم في ذلك أجَلاً ، فأشار بعضُ من كان مع ابن الحنفيَّة عليه أن يبعث إلى المختار وإلى مَنْ بالكوفة رسولاً يعْلمهم حالَهم وحال من معهم ، وما توعَّدهم به ابن الزبيرُ ، فوجَّه ثلاثة نفر من أهل الكوفة حين نام الحرس على باب زمزم ، وكتب معهم إلى المختار وأهل الكوفةُ يُعلِمهم حالَه وحالَ من معه ، وما توعدهم به ابن الزبير من القتل والتحريق بالنار ، ويسألهم ألاّ يخذلوه كما خذلوا الحسين وأهل بَيته ، فقَدِموا على المختار ، فدَفَعوا إليه الكتَاب ، فنادى في الناس وقرأ عليهم الكتاب وقال: هذا كتاب مهدّيكم وصريحُ أهل بيت نبيِّكم وقد تركوا محظوراً عليهم كما يحظر على الغنم ينتظرون القتل والتحريق بالنار في آناء اللَّيل وتارات النهار ، ولستُ أبا إسحاق إن لم أنصرهم نصراً مؤزَّراً ، وإن لم أسرِّب إليهم الخيل في أثر الخيل ، كالسَّيل يتلوه السيل ، حتَّى يَحُلّ بابن الكاهليَّة الوَيْل.

ووجَّه أبا عبد الله الجدليّ في سبعين راكباً من أهل القوّة ، ووجَّه ظَبْيان ابن عمارة أخا بني تميم ومعه أربعمئة ، وأبا المعتمر في مئة ، وهانئ بن قيس في مئة ، وعُمَير بن طارق في أربعين ، ويونسَ بن عمرن في أربعين ، وكتب إلى محمد بن عليّ مع الطَّفَيل بن عامر ومحمَّد بن قيس بتوجيه الجنود إليه ، فخرج

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

الناسُ بعضُهم في أثر بعض ، وجاء أبو عبد الله حتَّى نزل ذاتَ عِرْق في سبعين راكباً ، ثمّ لحقه عمير بن طارق في أربعين راكباً ، ويونس بن عمران في أربعين راكباً ، فتمّوا خمسين ومئة ، فسار بهم حتَّى دخلوا المسجد الحرام ، ومعهم الكافركوبات ، وهم ينادُون: يا لَثأرات الحسين! حتَّى انتهَوا إلى زمزم ، وقد أعدّ ابنُ الزبير الحَطَب ليحْرقهم ، وكان قد بقي من الأجل يومان ، فطردوا الحَرَس ، وكسروا أعواد زمزم ، ودخلوا على ابن الحنفيَّة ، فقالوا له: خَلِّ بيننا وبين عدوّ الله ابن الزبير ، فقال لهم: إني لا أستحلّ القتال في حرم الله فقال ابن الزبير: أتحسبون أني مُخَلٍّ سبيلَهم دون أن يبايع ويبايعوا! فقال أبو عبد الله الجدَليّ: إي وَرَبِّ الرُّكْن والمقام ، وربِّ الحِلّ والحرام ، لتخلّينّ سبيلَه أو لنجالدنَّك بأسيافنا جِلاداً يرتاب منه المُبطِلون فقال ابن الزبير: والله ما هؤلاء إلاّ أكَلة رأس ، والله لو أذنت لأصحابي ما مضتْ ساعة حتَّى تُقطَف رؤوسهم؛ فقال له قيس بن مالك: أما والله إني لأرجو إن رمت ذلك أن يُوصَل إليك قبل أن ترى فينا ما تحبّ ، فكفّ ابن الحنفيَّة أصحابَه ، وحذّرهم الفتنة ، ثمّ قدم أبو المعتمر في مئة ، وهانئ بن قيس في مئة ، وظَبيان بن عُمارة في مئتين ، ومعه المال حتَّى دخلوا المسجد ، فكبَّروا: يا لَثأرات الحسين! فلمَّا رآهم ابن الزبير خافَهم ، فخرج محمّد بن الحنفيّة ومَن معه إلى شِعب عليّ وهم يسبّون ابنَ الزبير ، ويستأذِنون ابنَ الحنفيَّة فيه ، فيأبى عليهم ، فاجتمع مع محمَّد بن عليّ في الشعب أربعة آلاف رجل ، فقسم بينهم ذلك المال[١] . (٦/ ٧٥ ـ ٧٧).

ذكر الخبر عن حصار بني تميم بخراسان

قال أبو جعفر: وفي هذه السنة كان حصار عبد الله بن خازم مَنْ كان بخراسان من رجال بني تميم بسبب قتل من قتل منهم ابنه محمَّداً.

قال عليّ بن محمَّد: حدّثنا الحسن بن رُشيد الجُوزَجانيّ عن الطّفيْل بن مرداس العمّيّ ، قال: لمَّا تفرّقتْ بنو تميم بخرَاسان أيامَ ابن خازم ، أتى قصر فرتَنا عدّةٌ من فُرْسانهم ما بين السبعين إلى الثمانين؛ فولَّوا أمرهم عثمان بن

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك .

بشر بن المحتفز المُزنيّ ، ومع شُعْبة بن ظَهِير النهشليّ ، وورد بن الفلق العَنبريّ ، وزُهَير بن ذؤيب العدويّ ، وجَيْهان بن مَشْجَعة الضّبيّ ، والحجّاج بن ناشب العدَويّ ، ورقبة بنْ الحرّ في فرسان بني تميم ، قال : فأتاهم ابن خازم ، فحصرهم وخَنْدَق خَندَقاً حصيناً ، قال : وكانوا يخرجون إليه فيقاتلونه ، ثمّ يرجعون إلى القصر ، قال : فخرج ابن خازم يوماً على تعبية من خندقه في ستّة آلاف ، وخرج أهلُ القصر إليه ، فقال لهم عثمان بن بشر بن المحتفز : انصرفوا اليومَ عن ابن خازم ، فلا أظنّ لكم به طاقة ، فقال زهير بنُ ذؤيب العدويّ : امرأته طالقٌ إنْ رجع حتّى ينقض صفوفهم - وإلى جنبهم نَهْرٌ يدخله الماء في الشتاء ، ولم يكن يومئذ فيه ماء ، فاستبطنه زهير ، فسار فيه ، فلم يشعر به أصحابُ ابن خازم حتّى حمل عليهم ، فحطَّم أوَّلهم على آخرهم ، واستداروا وكرّ راجعاً ، واتَّبعوه على جنبَتيّ النَّهر يصيحون به : لا ينزل إليه أحد ، حتّى انتهى إلى الموضع الَّذِي انحدر فيه ، فخرَج فحمل عليهم ، فأفرَجوا له حتّى رجع ؛ قال : فقال ابنُ خازم لأصحابه : إذا طاعنتم زهيراً فاجعلوا في رماحكم كلاليب فأعلِقوها في أداته إنْ قدرتم عليه ، فخرج إليهم يوماً وفي رماحهم كلاَليب قد هيَّئوها له ، فطاعَنوه فأعلقوا في درعه أربعة أرماح ، فالتفَت إليهم ليَحمل عليهم ، فاضطربت أيديهم ، فخلّوا رماحَهم ، فجاء يجرّ أربعة أرماح حتّى دخل القصر ؛ قال : فأرسل ابن خازم غَزْوان بن جَزْء العدويّ إلى زهير فقال : قل له : أرأيتك إن آمنتك وأعطيتك مئةَ ألف ، وجعلتُ لك باسار طعمة تناصحني ؛ فقال زهير لغَزْوان : ويحك! كيف أناصح قوماً قتلوا الأشعثَ ابنَ ذؤيب! فأسقط بها غزوان عند موسى بن عبد الله بن خازم .

قال : فلمَّا طال عليهم الحصار أرسلوا إلى ابن خازم أن خَلِّنا نخرج فنتفرّق ، فقال : لا إلاّ أن تنزلوا على حُكْمي ؛ قالوا : فإنا ننزل على حُكْمك ، فقال لهم زهير : ثِكلَتْكم أمَهاتُكم! والله ليقتلنَّكم عن آخركم ، فإن طبتم بالموت أنفساً فموتوا كِراماً ، اخرجوا بنا جميعاً فإمَّا أن تموتوا جميعاً وإمَّا أن ينجوَ بعضكم ويهلكَ بعضكم ، وايم الله لئن شددتم عليهم شدّةً صادقة ليفُرِجُنّ لكم عن مثل طريق المِربَد ، فإن شئتم كنت أمامَكم ، وإن شئتم كنت خلفَكم ، قال : فأبَوا ، فقال : أما إني سأريكم ، ثمّ خرج هو ورقبَة بن الحرّ ومع رقبَة غلام له تركيّ

وشعبة بن ظَهير ، قال: فحَمَلوا على القوم حملَةً منكَرة ، فأفرجُوا لهم ، فمَضَوا؛ فأمَّا زهير فرجع إلى أصحابه حتَّى دخل القصر فقال لأصحابه: قد رأيتم فأطيعوني ، ومضى رَقبة وغلامه وشعبة ، قالوا: إنّ فينا من يَضعُف عن هذا ويطمع في الحياة ، قال: أبعدكم الله! أتَخلَّوْن عن أصحابكم! والله لا أكون أجزَعكم عند الموت ، قال: ففتحوا القصر ونزلوا ، فأرسل فقيَّدهم ، ثمّ حملوا إليه رجلا رجلاً ، فأراد أن يمنّ عليهم ، فأبى ابنُه موسى ، وقال: والله لئن عفوت عنهم لأتَّكئنّ على سيفي حتَّى يخرج من ظهري؛ فقال له عبد الله: أما والله إني لأعلم أنّ الغيّ فيما تأمرني به ، ثمّ قتلهم جميعاً إلاّ ثلاثة؛ قال: أحدهم الحجَّاج بن ناشب العدويّ ـ وكان رمى ابن خازم وهو محاصرهم فكسر ضرسَه ، فحلف لئن ظفر به ليقتلنَّه أو ليقطعنّ يده ، وكان حَدَثاً ، فكلَّمه فيه رجال من بني تميم كانوا معتزلين؛ من عَمرو بن حنظلة ، فقال رجل منهم: ابن عمّي وهو غلام حدث جاهل؛ هَبْه لي ، قال: فوهبه له ، وقال: النَّجاء! لا أرينَّك.

قال: وجيهان بن مشجعة الضَّبّي الَّذي ألقى نفسَه على ابنه محمَّد يوم قُتِل ، فقال ابن خازم: خلّوا عن هذا البَغْل الدارِج ، ورجل من بني سعد ، وهو الَّذِي قال يومَ لَحِقوا ابنَ خازم: انصرفوا عن فارسِ مضر. قال: وجاؤوا بزهير بن ذؤيب فأرادوا حملَه وهو مقيّد ، فأبَى وأقبلَ يَحجُل حتَّى جلس بين يديه ، فقام له ابن خازم: كيف شُكرك إنْ أطلقتُك وجعلتُ لكَ باسار طعمة؟ قال: لو لم تصنَع بي إلاّ حقِنَ دمي لشكرتُك ، فقام ابنه موسى فقال: تقتل الضبع وتترك الذّيخ! تقتل اللُبؤَة وتترك اللَّيث! قال: وَيْحك! نقتل مِثلَ زهير! مَن لقتال عدوّ المسلمين! مَن لنساء العرب! قال: والله لو شركتَ في دم أخي أنت لقتلتك؛ فقام رجل من بني سُلَيم إلى ابن خازم ، فقال: أذكّرك اللهَ في زهير! فقال له موسى: اتَّخذه فَحْلاً لبناتك ، فغضب ابن خازم ، فأمر بقتله ، فقال له زهير: إنّ لي حاجة. قال: وما هي؟ قال: تقتلني على حِدَة ، ولا تخلط دمي بدماء هؤلاء اللئام ، فقد نهيتُهم عمَّا صنعوا وأمرتهم أن يموتوا كراماً ، وأن يخرجوا عليكم مصلتين ، وايم الله أن لو فعلوا لذَعَروا بُنيَّك هذا ، وشغلوه بنفسه عن طلب الثأر بأخيه فأبوْا ، ولو فعلوا ما قتِل منهم رجل حتَّى يقتل رجالاً.

فأمر به فنُحِّي ناحية فقُتل.

قال مَسلمة بن محارب: فكان الأحنفُ بن قيس إذا ذكرهم قال: قبّح الله ابن خازم! قتل رجالاً من بني تميم بابنه، صبيّ وغْد أحمقَ لا يُساوِي عَلقاً، ولو قتل منهم رجلاً به لكان وفّى.

قال: وزعمت بنو عديّ أنهم لما أرادوا حمل زهير بن ذؤيب أبَى واعتمد على رُمْحه وجمع رجليه فوَثَب الخندق، فلمَّا بلغ الحَريشَ بن هلال قتلهم قال:

أَعَاذِلَ إنّي لم أُلِمْ في قِتَالِهِمْ ... وقد عضَّ سيفي كَبْشَهُمْ ثم صمّمَا
أعاذل ما ولَّيْتُ حتى تَبدَّدَتْ ... رجالٌ وحتَّى لم أجد مُتَقَدّمَا
أعاذل أفْنَاني السلاحُ ومن يُطِلْ ... مُقَارَعَةَ الأَبطالِ يرجعْ مكلّمَا
أعَيْنيَّ إن أنْزَفْتُما الدمعَ فاسكُبَا ... دماً لازماً لي دون أن تسكُبا الدّمَا
أَبَعْدَ زهيرٍ وابنِ بشرٍ تَتَابعا ... ووردٍ أُرَجّي في خُراسانَ مَغْنَما
أعاذلَ كم من يومِ حربٍ شهدتُه ... أَكُرُّ إذا ما فارسُ السَّوءِ أَحْجَمَا

يعني بقوله: «أبعْدَ زهير»، زهيرَ بن ذؤيب، وابن بشر، عثمان بن بشر المحتفز المازنيّ، وورد بن الفلق العنبريّ، قُتلوا يومئذ، وقتل سليمان بن المحتفز أخو بشر[١]. (٦/ ٧٧ ـ ٨٠).

شخوص إبراهيم بن الأشتر لحرب عبيد الله بن زياد

وفي هذه السنة شَخَص إبرهيمُ بن الأشتر متوجِّهاً إلى عبيد الله بن زياد لحربه، وذلك لثمانٍ بقين من ذي الحِجَّة.

قال هشام بن محمَّد: حدّثني أبو مخنف: قال: حدّثني النَّضر بن صالح ـ وكان قد أدرك ذلك ـ قال: حدّثني فُضَيل بن خَدِيج ـ وكان قد شهد ذلك ـ وغيرهما. قالوا: ما هو إلاّ أن فرغ المختار من أهل السَّبيع وأهل الكُناسة، فما نزل إبراهيم بن الأشتر إلاّ يومين حتَّى أشخصه إلى الوجه الذي كان وجَّهه له لقتال أهل الشام، فخرج يوم السبت لثمان بقين من ذي الحجَّة سنة ستٍّ وستين، وأخرج المختارُ معه من وجوه أصحابه وفُرسانهم وذوي البصائر منهم: مِمَّن قد

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

شهد الحرب وجرّبها ، وخرج معه قيس بن طَهْفة النَّهديّ على ربع أهل المدينة ، وأمَّر عبد الله بن حيَّة الأسديّ على ربع مَذْحِج وأسَد ، وبعث الأسوَد بن جراد الكِنْديّ على رُبْع كندة وربيعة.

وبعث حبيب بن منقذ الثَّوريّ من هَمْدانَ على ربع تميم وهَمْدان ، وخرج معه المختار يشيّعه حتّى إذا بلغ ديرَ عبد الرحمن بن أمّ الحَكَم ، إذا أصحاب المختار قد استقبلوه ، قد حملوا الكرسيّ على بغل أشهب كانوا يَحمِلونه عليه ، فوقفوا به على القنطرة ، وصاحب أمر الكرسيّ حَوْشب البرسميّ ، وهو يقول: يا ربّ عمِّرنا في طاعتك ، وانصرنا على الأعداء ، واذكرنا ولا تَنْسَنا واسترنا ، قال: وأصحابه يقولون: آمين آمين؛ قال فُضَيل: فأنا سمعتُ ابن نَوف الهَمْدانيّ يقول: قال المختار:

أمَا وَرَبِّ المُرْسَلاَتِ عُرْفَا لنقتُلَنَّ بعدَ صفٍّ صَفَّا
وبعد أَلفٍ قاسِطِين أَلفَا

قال: فلمَّا انتهى إليهم المختار وابنُ الأشتر ازدَحموا ازدحاماً شديداً على القنطرة ، ومضى المختار مع إبراهيمَ إلى قناطر رأس الجالوت ـ وهي إلى جنب دَيْر عبد الرحمن ـ فإذا أصحاب الكرسيّ قد وقفوا على قناطر رأسِ الجالوت يَستنصِرون ، فلمَّا صار المختار بين قنطرة دَيْرِ عبد الرحمن وقناطر رأس الجالوت وقف ، وذلك حين أراد أن ينصرف ، فقال لابن الأشتر: خذ عنّي ثلاثاً: خَفِ الله في سرّ أمرِك وعلانيته ، وعجّل السير ، وإذا لقيتَ عدوّك فناجزهم ساعةً تلقاهُم ، وإن لقيتَهم ليلاً فاستطعت ألاّ تُصبح حتَّى تناجِزَهم ، وإن لقيتَهم نهاراً فلا تنتظر بهم الليل حتَّى تحاكمهم إلى الله ، ثم قال: هل حفِظتَ ما أوصيتك بِهِ؟ قال: نعم ، قال: صحبك الله؛ ثم انصرف ، وكان موضع عسكر إبراهيم بموضع حمَّام أعيَنَ ، ومنه شخص بعسكره[١]. (٦/ ٨١ ـ ٨٢).

ذكر أمر الكرسيّ الذي كان المختار يستنصر به!

قال أبو مخنف: فحدّثني فُضيل بن خَدِيج قال: لمَّا انصرف المختار مضى

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

إبراهيم ومعه أصحابه حتَّى انتهى إلى أصحاب الكُرْسيّ وقد عَكَفوا حوله وهم رافعو أيديهم إلى السّماء يستنصِرون ، فقال إبراهيم: اللّهمّ لا تؤاخذنا بما فعل السُّفهاء ـ سنّةَ بني إسرائيل والَّذِي نفسي بيَده إذ عكفوا على عِجْلهم ـ فلمَّا جاز القنطرة إبراهيمُ وأصحابهُ انصرف أصحاب الكرسيّ[١]. (٦/ ٨٢).

* ذكر الخبر عن سبب كرسي المختار الذي يستنصر به هو وأصحابه:

قال أبو جعفر: وكان بدءُ سببه ما حدّثني به عبد الله بن أحمد بن شبّوَيْهِ ، قال: حدثني أبي ، قال: حدثني سليمان ، قال: حدّثني عبد الله بن المبارك ، عن إسحاقَ بن يحيى بن طلحة ، قال: حدّثني معبد بن خالد ، قال: حدّثني طُفَيل بن جَعْدة بن هُبيرة ، قال: أعدمتُ مرّةً من الورق ، فإني لكذلك إذْ خرجتُ يوماً فإذا زَيَّات جارٌ لي ، له كرسيّ قد ركبه وسخٌ شديد ، فخطر على بالي أن لو قلتُ للمختار في هذا! فرجعتُ فأرسلتُ إلى الزّيات: أرسلْ إليّ بالكرسيّ ، فأرسل إليّ به ، فأتيت المختار ، فقلت: إني كنت أكتُمُك شيئاً لم أستحلّ ذلك ، فقد بدا لي أن أذكره لك ، قال: وما هو؟ قلت: كرسيّ كان جعدة بن هُبيرة يجلس عليه كأنَّه يرى أن فيه أثَرة مِن عِلم ، قال: سبحان الله! فأخَّرتَ هذا إلى اليوم! ابعث به إليَّ ، قال: وقد غُسل وخرج عُود نُضَارٍ ، وقد تشرّب الزيت ، فخرج يَبِصّ ، فجيء به وقد غُشي ، فأمر له باثني عشر ألفاً ، ثم دعا: الصّلاة جامعة.

فحدّثني معبد بن خالد الجُدَليّ قال: انطُلِق بي وإسماعيلَ بن طلحة بن عُبيد الله وشَبَث بن ربعيّ والناس يجرون إلى المسجد ، فقال المختار: إنَّه لم يكن في الأمم الخالية أمرٌ إلا وهو كائن في هذه الأمَّة مثله ، وإنَّه كان في بني إسرائيل التابوت فيه بقيَّة ممَّا ترك آلُ موسى وآلُ هارون ، وإنّ هذا فينا مثل التابوت ، اكشِفوا عنه؛ فكشفوا عنه أثوابَه ، وقامت السبئيَّة فرفعوا أيديهم ، وكبروا ثلاثاً ، فقام شَبَث بن ربعيّ وقال: يا معشر مُضَر. لا تكفُرُنّ ! فنحّوه فذبّوه وصدّوه وأخْرجوه ، قال إسحاق: فوالله إني لأرجو أنَّها لشبث ، ثمّ لم يلبث أن قيل: هذا عبيد الله بن زياد قد نَزَل بأهل الشام باجُمَيْرا ، فخرج بالكرسيّ على بغل وقد غُشّي ، يُمسِكه عن يمينه سبعة وعن يساره سبعة ، فقتِل أهل الشام مقتلة لم

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

يقتلوا مثلها ، فزادهم ذلك فتنة ، فارتفعوا فيه حتَّى تعاطَوا الكفر ، فقلت : إنَّا لله! وندمتُ على ما صنعت. فتكلَّم الناس في ذلك ، فغُيِّب ، فلم أرَهُ بعدُ[1]. (٦/ ٨٢ ـ ٨٣).

حدّثني عبد الله ، قال : حدّثني أبي قال : قال أبو صالح : فقال في ذلك أعْشى هَمْدان كما حدّثني غيرُ عبد الله :

شَهِدتُ عليكمْ أنّكمْ سبَئِيَّةٌ ... وإنِّي بكم يا شُرْطَةَ الشِّرْكِ عارف
وأقْسِمُ ما كُرْسِيُّكم بسَكينةٍ ... وإن كان قد لُفَّتْ عليه اللّفائف
وأَن ليس كالتابوتِ فينَا وإِن سَعَتْ ... شِبَامٌ حواليْهِ ونَهْدٌ وخارفُ
وإني امرؤٌ أحبَبْتُ آلَ محمدٍ ... وتابَعْتُ وحْياً ضُمِّنَتْهُ المَصاحِفُ
وتابَعْتُ عبدَ الله لمّا تتابَعَت ... عليه قريشٌ : شُمْطها والغطارف

وقال المتوكِّل اللَّيثيّ :

أبْلِغْ أَبا إسحاقَ إنْ جِئتَه ... أنِّي بِكُرسيِّكمْ كافِرُ
تَنزوُ شِبَامٌ حولَ أعوادِهِ ... وتحمِلُ الوحْيَ له شاكرُ
محمرَّةً أعيُنُهمْ حولَهُ ... كأنَهُنّ الحمّص الحادرُ

(٦/ ٨٣ ـ ٨٤).

فأمَّا أبو مخنف : فإنَّه ذكر عن بعض شيوخه قصّةَ هذا الكرسيّ غير الَّذي ذكره عبد الله بن أحمد بالإسناد الَّذي حدِّثنا به عن طفيل بن جعدة ، والَّذي ذكر من ذلك ما حُدّثنا به ، عن هشام بن محمَّد عنه ، قال : حدّثنا هشام بن عبد الرحمن وابنه الحَكَم بن هشام ، أنّ المختار قال لآل جعدة بن هُبَيرة بن أبي وهب المخزوميّ ـ وكانت أمّ جعدة أمّ هانئ بنت أبي طالب أخت عليّ بن أبي طالب عليه السلام لأبيه وأمَّه : ائتوني بكرسيّ عليّ بن أبي طالب؛ فقالوا : لا والله ما هو عندنا ، وما ندري مِنْ أين نجيء به! قال : لا تكونُنّ حَمقى ، اذهبوا فأتوني به ، قال : فظنّ القوم عند ذلك أنّهم لا يأتون بكرسيّ ، فيقولون : هو هذا إلاّ قَبِلَه منهم ، فجاؤوا بكرسيّ فقالوا : هو هذا فقبِله ، قال : فخرجتْ شبامٌ وشاكر

(١) في إسناده إسحاق بن يحيى بن طلحة متروك الحديث منكر الحديث.

ورؤوس أصحاب المختار وقد عَصَّبُوه بالحرير والدِّيباج[١]. (٦/ ٨٤).

قال أبو مخنف ، عن موسى بن عامر أبي الأشعر الجُهَنيّ : إنّ الكرسيّ لمَّا بلغ ابن الزبير أمْرُه قال : أين بعضُ جَنادِبة الأزْد عنه!

قال أبو الأشعر : لمَّا جيء بالكرسيّ كان أوّل مَن سدَنَه موسى بن أبي موسى الأشعريّ ، وكان يأتي المختار أوّل ما جاء ويحفّ به ، لأنّ أمَّه أمّ كلثوم بنت الفضل بن العبَّاس بن عبد المطَّلب ، ثمّ إنَّه بعد ذلك عُتب عليه فاستحيا منه ، فدَفَعه إلى حَوْشب البُرْسُميّ ، فكان صاحبه حتَّى هلك المختار ، قال : وكان أحد عمومة الأعشى رجلاً يُكنى أبا أمامة يأتي مجلس أصحابه فيقول : قد وُضع لنا اليوم وحيٌ ما سَمِعَ الناسُ بمثله ، فيه نبأ ما يكونُ من شيء[٢]. (٦/ ٨٤ ـ ٨٥).

قال أبو مخنف : حدّثنا موسى بن عامر أنَّه إنَّما كان يصنع ذلك لهم عبد الله بن نوف ، ويقول : المختار أمرَني به ، ويتبرّأ المختار منه[٣]. (٦/ ٨٥).

ثم دخلت سنة سبع وستين
ذكر الخبر عما كان فيها من الأحداث

فممَّا كان فيها من ذلك مقتل عُبيد الله بن زياد ومن كان معه من أهل الشام.

* ذكر الخبر عن صفة مقتله.

ذكر هشام بن محمَّد عن أبي مخنف ، قال : حدّثني أبو الصّلت ، عن أبي سعيد الصَّيْقَل ، قال : مضينا مع إبراهيم بن الأشتر ، ونحن نريد عُبيدَ الله بن زياد ومَن معه من أهل الشام ، فخرجنا مُسْرعين لا ننْثني ، نريد أن نلقاه قبل أن يدخل أرضَ العراق ، قال : فسبقناه إلى تُخوم أرض العراق سَبْقاً بعيداً ، ووغلنا في أرض المَوْصل ، فتعجَّلنا إليه ، وأسرَعْنا السير ، فنلقاه بخَازَر إلى جنب قرية يقال لها باربيثا ، بينها وبين مدينة المَوْصِل خمسة فراسخ ، وقد كان ابن الأشتر جعل على مقدّمته الطفيل بن لقيط من وهبيل من النّخع (رجلاً من قومه) ، وكان

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

(٢) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

(٣) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

شجاعاً بئيساً فلمَّا أن دنا من ابن زياد ضمّ حميد بن حُريث إليه ، وأخذ ابن الأشتر لا يسير إلاّ على تعبية ، وضمّ أصحابه كلّهم إليه بخيله ورجاله ، فأخذ يسير بهم جميعاً لا يفرّقهم ، إلا أنَّه يبعث الطُّفيل بن لقيط في الطَّلائع حتَّى نزل تلك القرية .

قال : وجاء عبيد الله بن زياد حتَّى نزل قريباً منهم على شاطئ خازَر ، وأرسل عميرُ بن الحُباب السلميّ إلى ابن الأشتر : إني معك ، وأنا أريد الليلة لقاءك ، فأرسل إليه ابن الأشتر : أن القَنِي إذا شئت؛ وكانت قيس كلُّها بالجزيرة ، فهم أهلُ خلاف لمروان وآلِ مروان ، وجند مروان يومئذ كلبٌ وصاحبهم ابن بَحْدل ، فأتاه عُمَير ليلاً فبايَعه ، وأخبره أنَّه على ميسرة صاحبه ، وواعده أن ينهزم بالنَّاس ، وقال ابن الأشتر : ما رأيُك؟ أخندِق عليّ وأتلوّم يومين أو ثلاثة؟ قال عمير بن الحُباب : لا تفعل ، إنَّا لله! هل يريد القومُ إلاّ هذه! إنْ طاولوك وماطالوك فهو خير لهم ، هم كثيرٌ أضعافكم ، وليس يطيق القليلُ الكثير في المطاولة؛ ولكن ناجز القوم فإنَّهم قد مُلِئوا منكم رُعْباً ، فائْتِهم فإنَّهم إن شاموا أصحابك وقاتلوهم يوماً بعد يوم ، ومرّة بعد مرّة أنِسوا بهم ، واجترؤوا عليهم؛ قال إبراهيم : الآن علمتُ أنَّك لي مناصح ، صدقتَ ، الرأي ما رأيت ، أما إنّ صاحبي بهذا أوصاني ، وبهذا الرأي أمرَني ، قال عمير : فلا تعدونّ رأيه ، فإن الشيخ قد ضرّسته الحروب ، وقاسى منها ما لم نُقاس ، أصبح فناهِض الرجل .

ثمّ إن عميراً انصرف ، وأذكَى ابن الأشتر حَرَسه تلك اللَّيلة اللّيل كلَّه ، ولم يدخل عينه غمْض ، حتَّى إذا كان في السحر الأوّل عَبَّي أصحابه ، وكتَّب كتائبه ، وأمَّر أمراءَه ، فبعث سُفْيان بن يزيد بن المُغَفَّل الأزديّ على ميمنته ، وعليّ بن مالك الجُشميّ على ميسرته ، وهو أخو أبي الأحوص .

وبعث عبد الرحمن بن عبد الله ـ وهو أخو إبراهيم بن الأشتر لأمّه ـ على الخيل .

وكانت خيلُه قليلةً فضمَّها إليه ، وكانت في الميمنة والقلب ، وجعل على رجّالته الطُّفَيل بن لقيط ، وكانت رايتُهُ مع مزاحِم بن مالك ، قال : فلمَّا انفجر الفجر صلَّى بهم الغداة بغَلَس ، ثمّ خرج بهم فصفَّهم ، ووضع أمراء الأرباع في مواضعهم ، وألحق أميرَ الميمنة بالميمنة ، وأميرَ الميسرة بالميسرة ، وأمير

الرّجالة بالرّجّالة، وضمّ الخيل إليه، وعليها أخوه لأمّه عبد الرحمن بن عبد الله، فكانت وَسَطاً من الناس، ونزل إبراهيمُ يمشي وقال للناس: ازحَفوا فزَحَف الناسُ معه على رِسْلِهم رُوَيداً رُوَيداً حتَّى أشرف على تلّ عظيم مُشرِف على القوم، فجلس عليه، وإذا أولئك لم يتحرّك منهم أحد بعدُ ـ فسرّح عبدُ الله بن زهير السَّلوليّ وهو على فرس له يتأكّل تأكُّلاً، فقال: قرّبْ عليّ فرسك حتَّى تأتيني بخبر هؤلاء، فانطلق، فلم يلبث إلاّ يسيراً حتَّى جاء، فقال: قد خرج القومُ على دَهَش وفَشَل، لقيَني رجل منهم فما كان له هِجِّيرَي إلا يا شيعَةَ أبي تُرَاب، يا شيعةَ المختار الكذّاب! فقلت: ما بيننا وبينكم أجلُّ من الشَّتم، فقال لي: يا عدوَّ الله، إلامَ تدعوننا! أنتم تقاتلون مع غير إمام، فقلت له: بل يا لثأرات الحسين، ابن رسول الله! ادفعوا إلينا عُبيدَ الله بن زياد؛ فإنَّه قَتَل ابنَ رسولِ الله وسيِّد شباب أهل الجنَّة حتَّى نقتله ببعض موالينا الَّذين قتَلَهم مع الحسين، فإنَّا لا نراه لحسين نِدّاً فنَرْضى أن يكون منه قَوَداً، وإذا دفعتُموه إلينا فقتلناه ببعض موالينا الَّذين قتلهم جعلْنا بيننا وبينكم كتاب الله، أو أيَّ صالح من المسلمين شئتم حَكَماً، فقال لي: قد جرّبناكم مرّة أخرى في مِثل هذا ـ يعني الحكَمَيْن ـ فَغدَرتم، فقلت له: وما هو؟ فقال: قد جعلنا بيننا وبينكم حَكَمين فلم ترضَوْا بحُكْمهما؛ فقلت له: ما جئت بِحجَّة، إنَّما كان صلحنا على أنَّهما إذا اجتمعا على رجل تبعنا حكمهما، ورضينا به وبايعناه، فلم يجتمعا على واحد، وتفرّقا، فكِلاهما لم يوفِّقْه الله لخير ولم يسدّده، فقال: مَنْ أنت؟ فأخبرته؛ فقلت له: من أنت؟ فقال: عَدَسْ ـ لبَغْلته يزجرها ـ فقلت له: ما أنصفتَني، هذا أوّل غَدْرِك!

قال: ودعا ابن الأشتر بفرس له فركبه، ثمّ مرّ بأصحاب الرّايات كلّها، فكلَّما مرّ على راية وقف عليها، ثم قال: يا أنصار الدِّين، وشيعةَ الحق، وشرْطة الله، هذا عُبيد الله بن مَرْجانَة قاتل الحسين بن عليّ، ابن فاطمة بنت رسول الله، حالَ بينه وبين بناتِه ونسائه وشيعته وبين ماء الفرات أن يَشرَبوا منه، وهم ينظرون إليه، ومَنَعه أن يأتي ابن عمِّه فيصالحَه، ومَنَعه أن ينصرف إلى رَحْله وأهلِه، ومنعه الذّهابَ في الأرض العريضة حتَّى قتله وقتَل أهْلَ بيته؛ فوالله ما عَمِل فرعون بُنَجباء بني إسرائيل ما عَمِل ابن مَرْجانة بأهلِ بيتِ رسولِ الله ﷺ الَّذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً، قد جاءكم الله به، وجاءه بكم، فوالله إني لأرجو

ألاّ يكون الله جمع بينكم في هذا الموطن وبينه إلاّ ليشفيَ صدوركم بسفك دمه على أيديكم ، فقد علم الله أنّكم خرجتم غَضَباً لأهل بيت نبيِّكم. فسار فيما بين الميمنة والميسرة ، وسار في الناس كلّهم فرغَّبهم في الجهاد ، وحرّضهم على القتال ، ثمّ رجع حتَّى نزل رايته ، وزحف القوم إليه ، وقد جعل ابنُ زياد على ميمنته الحُصين بن نمير السَّكُونيّ، وعلى ميسرته عُمَير بن الحُباب السُّلَميّ ، وشُرَحبيل بن ذي الكَلاع على الخيل وهو يمشي في الرجال ، فلمَّا تدانَى الصفَّان حمل الحُصَين بن نُمير في ميمنة أهل الشام على ميسرة أهل الكوفة ، وعليها عليّ بن مالك الجُشَميّ؛ فثبت له هو بنفسه فقتِل ، ثمّ أخذ رايته قُرّةُ بن عليّ ، فقتل أيضاً في رجال من أهل الحفاظ قتلوا وانهزمت الميسرة، فأخذ رايته عليّ بن مالك الجُشَميّ عبدُ الله بن ورقاء بن جُنادة السَّلوليّ بن أخي حُبشي بن جُنادة صاحب رسول الله ﷺ ، فاستقبل أهل الميسرة حين انهزموا ، فقال: إليّ يا شُرطة الله؛ فأقبلَ إليه جُلُّهم ، فقال: هذا أميركم يقاتل ، سِيرُوا بنا إليه ، فأقبل حتَّى أتاه وإذا هو كاشفٌ عن رأسه يُنادِي: يا شُرطة الله ، إليّ أنا ابن الأشتر! إنّ خيرَ فُرّارِكم كُرّارُكم. ليس مُسيئاً من أعتَبَ ، فثابَ إليه أصحابه ، وأرسل إلى صاحب الميمنة: احمل على ميسرتهم ـ وهو يرجُو حينئذ أن ينهزم لهم عُمَير بن الحُباب كما زعم ، فحمل عليهم صاحبُ الميمنة ، وهو سُفْيان بن يزيد بن المغفَّل ، فثبت له عُمَير بن الحباب وقاتَلَه قتالاً شديداً ، فلمَّا رأى إبراهيم ذلك قال لأصحابه: أمُّوا هذا السواد الأعظم ، فوالله لو قد فَضَضناه لا نجفل من ترون منهم يمنةً ويَسْرة انجفالَ طير ذعرتها فطارت(١). (٦/ ٨٦ ـ ٨٩).

قال أبو مخنف: فحدّثني إبراهيمُ بن عبد الرحمن الأنصاريّ ، عن ورقاءَ بن عازب ، قال: مشيْنا إليهم حتَّى إذا دَنَوْنا منهم اطّعَنَّا بالرماح قليلاً ، ثم صرنا إلى السيوف والعَمَد ، فاضطربنا بها مليّـاً من النهار ، فوالله ما شَبَّهْتُ ما سمعتُ بيننا وبينهم من وقْع الحديد على الحديد إلا ميَاجِنَ قَصَّارِي دار الوليد بن عُقْبة بن أبي مُعَيط ، قال: فكان ذلك كذلك ، ثمّ إنّ الله هزَمَهم ، ومَنَحنا أكتافَهم(٢). (٦/ ٨٩).

---

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.
(٢) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

قال أبو مخنف: وحدّثني الحارث بن حَصِيرة ، عن أبي صادق أنّ إبراهيم بن الأشتر كان يقول لصاحب رايته: انغمس بِرايتك فيهم ، فيقول له: إنَّه ـ جُعلت فِداك ـ ليس لي مُتقَدَّم ، فيقول: بلى ، فإنّ أصحابك يقاتلون؛ وإنّ هؤلاء لا يَهْربون إن شاء الله؛ فإذا تقدّم صاحبُ رايته برايته شدَّ إبراهيمُ بسيفه فلا يضرب به رجلاً إلا صرعه ، وكرّد إبراهيم الرجال من بين يديه كأنَّهم الحُمْلان ، وإذا حمل برايته شدّ أصحابُه شدّةَ رجل واحد[1]. (٦/ ٨٩ ـ ٩٠).

قال أبو مخنف: حدّثني المشرقيّ أنّه كان مع عبيد الله بن زياد يومئذ حديدةٌ لا تُليق شيئاً مرّت به ، وأنه لمَّا هُزِم أصحابه حمل عُيَيْنَةُ بن أسماء أختَه هند بنت أسماءَ ـ وكانت امرأة عُبيدِ الله بن زياد ـ فذهب بها وأخذ يرتجز ويقول:

إنْ تَصْرِمي حِبالَنا فَرُبمَا أَرْدَيْتُ في الهَيْجَا الكَمِيَّ المُعلِما[2]

(٦/ ٩٠)

قال أبو مخنف: وحدّثني فُضَيلِ بن خَديج أنّ إبراهيم لمَّا شدّ على ابن زياد وأصحابه انهزموا بعد قتال شديد وقتلى كثيرة بين الفريقين ، وأنّ عُمير بن الحُباب لمَّا رأى أصحابَ إبراهيم قد هَزموا أصحابَ عبيد الله بعث إليه: أجيئك الآن؟ فقال: لا تأتينّي حتَّى تسكن فورةُ شرطة الله ، فإني أخاف عليك عادِيتَهم.

وقال ابن الأشتر: قتلت رجلاً وجدتُ منه رائحة المسك ، شَرّقتْ يداه وغرّبت رجلاه ، تحتَ راية منفردة ، على شاطئ نهر خازَرَ ، فالتمسوه فإذا هو عُبيد الله بن زياد قتيلاً ، ضربه فقدَّهُ بنصفين ، فذهبت رجلاه في المشرق ، ويداه في المغرب ، وحمل شريك بن جدير التَّغلبيّ على الحصين بن نُمَير السَّكونيّ وهو يَحسبه عُبيد الله بن زياد ، فاعتنق كلّ واحد منهما صاحبه ، ونادى التغلَبيّ: اقتلوني وابن الزانية؛ فقتِل ابن نُمير[3]. (٦/ ٩٠).

قال هشام: قال أبو مخنف: حدّثني فُضَيل بن خديج ، قال: قتِل شرحبيل بن ذي الكَلاع ، فادّعى قتلَه ثلاثة: سُفْيان بن يزيد بن المغفَّل الأزْديّ ، وورقاء بن

---

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.
(٢) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.
(٣) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

عازب الأسَديّ ، وعُبيد الله بن زُهَير السُّلَميُّ ، قال: ولمَّا هُزم أصحاب عبيد الله تبعهم أصحابُ إبراهيمَ بن الأشتر ، فكان مَنْ غرق أكثر مِمَّن قتل ، وأصابوا عسكرهم فيه من كلٍّ شيء ، وبلغ المختار وهو يقول لأصحابه: يأتيكم الفتح أحدَ اليومين إنْ شاء الله من قِبَل إبراهيم ابن الأشتر ، وأصحابه ، قد هزموا أصحاب عُبيد الله بن مَرْجانة ، قال: فخرج المختار من الكوفة ، واستخلف عليها السائبَ بنَ مالك الأشعريّ ، وخرج بالناس ، ونزل ساباطَ(١). (٦/ ٩١).

قال أبو مخنف: حدّثني المشرقيّ ، عن الشعبيّ ، قال: كنت أنا وأبي ممَّن خرج معه ، قال: فلمَّا جُزْنا ساباطَ قال للنَّاس: أبشروا فإنّ شُرْطة الله قد حسُّوهم بالسيوف يوماً إلى اللَّيل بنَصيبينَ أو قريباً من نصيبين ودُوَينَ منازلهم ، إلاّ أنّ جلَّهم محصور بنصيبين ، قال: ودخلْنا المدائن ، واجتمْعنا إليه ، فصعِد المنبَر ، فوالله إنَّه ليخطبنا ويأمرنا بالجدّ وحسْن الرأي والاجتهاد والثبات على الطاعة ، والطلب بدماء أهل البيت عليهم السلام ، إذ جاءتْه البشرى تَتْرَى يَتْبع بعضُها بعضاً بِقَتْل عبيد الله بن زياد وهزيمة أصحابه ، وأخذ عسكره ، وقتل أشراف أهل الشام ، فقال المختار: يا شُرطة الله ، ألم أبشِّركم بهذا قبل أن يكون! قالوا: بلى والله لقد قلت ذلك؛ قال: فيقول لي رجل من بعض جيراننا من الهَمْدانيِّين: أتؤمن الآن يا شعبيّ؟ قال: قلت بأيّ شيء أومن؟ أومن بأنّ المختار يعلَم الغيب! لا أومن بذلك أبداً ، قال: أوَلم يقل لنا: إنَّهم قد هُزِموا! فقلتُ له: إنَّما زعم لنا أنَّهم هُزِموا بنصيبينَ من أرض الجزيرة ، وإنَّما هو بخازَرَ من أرض الموصل ، فقال: والله لا تؤمن يا شعبيّ حتَّى تَرى العذاب الأليم ، فقلت له: مَن هذا الهَمْداني الَّذي يقول لك هذا؟ فقال: رجل لعمري كان شجاعاً ـ قتل مع المختار بعد ذلك يوم حَرُورَاء ـ يقال له: سَلْمان بن حمير من الثوريِّين من هَمْدان؛ قال: وانصرف المختار إلى الكوفة ، ومضى ابن الأشتر من عسكره إلى الموصل ، وبعث عمَّالَه عليها ، فبعث أخاه عبد الرحمن بن عبد الله على نصيبين ، وغلب على سِنْجارودَارَا ، وما والاها من أرض الجزيرة ، وخرج أهلُ الكوفة الَّذِين كان المختار قاتَلَهم فهزمهم ، فَلحقوا بِمُصعَب بن الزبير بالبصرة ، وكان فيمن قدم على مصعب شَبَث بن رِبْعيّ ، فقال سُراقةُ بن مِرْداس البارقيّ يمدح إبراهيمَ بن

---

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

الأشتر وأصحابه في قتل عُبيد الله بن زياد:

أَتَاكُمْ غلامٌ من عَرَانِينِ مذْحِجٍ جريٌّ على الأعداءِ غيرُ نكُولِ
فيَا بْنَ زِيَادٍ بؤ بأَعْظم مَالكٍ وذُقْ حَدّ ماضي الشَّفْرَتَيْن صَقِيلِ
ضَرَبْنَاك بالعَضْب الحُسَام بحِدَّةٍ إذَا ما أَبأْنَا قاتِلاً بِقَتِيل
جزى الله خيْراً شُرْطَة الله إنَّهُمْ شَفَوْا مِنْ عُبَيْد الله أَمْسِ غَلِيلي(١)

(٦/ ٩١ ـ ٩٢)

ذكر الخبر عن عزل القباع عن البصرة

وفي هذه السنة عزل عبدُ الله بن الزبير القُباعَ عن البصرة، وبعث عليها أخاه مصعبَ بن الزبير؛ فحدّثني عمرُ بن شَبَّة، قال: حدّثني عليّ بن محمَّد، قال: حدّثنا الشَّعبيّ، قال: حدّثني وافد بن أبي ياسر، قال: كان عمرو بن سرح مولَى الزبير يأتينا فيحدّثنا، قال: كنتُ والله في الرّهط الَّذين قَدِموا مع المصعب بن الزّبير من مكَّة إلى البَصْرة، قال: فقدم متلثِّماً حتَّى أناخ على باب المسجد، ثمّ دخل فصَعِد المنبر، فقال الناسُ: أمير أمير، قال: وجاء الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة ـ وهو أميرها قبله ـ فسفَر المصعب فعرفوه، وقالوا: مصعب بن الزبير! فقال: للحارث: اظهر اظهَرْ، فصعِد حتَّى جلس تحته من المنبر درجة؛ قال: ثمّ قام المصعب فحَمِد الله وأثنَى عليه، قال: فوالله ما أكثر الكلام، ثم قال: بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ـ وأشار بيده نحو الشام ـ ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ ـ وأشار بيده نحو الحجاز ـ ﴿وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ﴾ ـ وأشار بيده نحو الشام(٢). (٦/ ٩٣).

---

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

(٢) بين المدائني والشعبي انقطاع فالمدائني ولد بعد وفاة الشعبي بثلاثة عقود أو أقل بقليل، ولم نجد لوافد بن أبي ياسر ترجمة.

وفي متنه نكارة فلم يكن مصعب بهذه الدرجة من الجهل (حاشاه) حتى يجعل أمراء بني أمية (مروان وابنه عبد الملك بمنزلة فرعون وهامان).

حدثني عمر بن شَبَّة ، قال: حدّثني عليّ بن محمد ، عن عوانة ، قال: لما قدم مصعب البَصرة خَطَبَهم فقال: يا أهل البصرة ، بلغني أنّكم تلقِّبون أمراءكم ، وقد سمَّيْتُ نفسي الجَزّار. (٦/ ٩٣).

* * *

ذكر خبر قتل مصعب المختارَ بن أبي عبيد

وفي هذه السنة سارَ مصعبُ بن الزبير إلى المختارَ فقتَله.

* ذكر الخبر عن سبب مسير مصعب إليه والخبر عن مقتل المختار:

قال هشام بن محمَّد ، عن أبي مخنف: حدّثني حبيب بن بديل ، قال: لمَّا قدم شَبَث على مُصعب بن الزّبير البصرة وتحته بَغْلة له قد قطع ذَنَبها ، وقطَع طرف أذُنها وشقّ قَباءه ، وهو ينادي: يا غوثاه يا غوثاه! فأتِيَ مصعب ، فقيل له: إنّ بالباب رجلاً ينادي: يا غَوْثاه يا غَوْثاه! مشقوق القَباء ، مِنْ صفته كذاوكذا ، فقال لهم: نعم ، هذا شَبَث بن رِبْعيّ لم يكن ليفعَل هذا غيره ، فأدخِلوه ، فأدخل عليه ، وجاءه أشراف الناس من أهل الكوفة فدخلوا عليه ، فأخبروه بما اجتمعوا له ، وبما أصيبوا به ووثوب عبيدهم ومواليهم عليهم ، وشكَوْا إليه ، وسألوه النَّصْر لهم ، والمسيرَ إلى المختار معهم ، وقَدِم عليهم محمَّد بن الأشعث بن قيس ـ ولم يكن شَهِد وقعةَ الكوفة ، كان في قَصْرٍ له مِمَّا يلي القادسيَّة بطِيزَنَاباذ ـ فلمَّا بلغه هزيمةُ الناس تهيَّأ للشخوص ، وسأل عنه المختار ، فأخبر بمكانه ، فسّرح إليه عبد الله بن قراد الخثعميّ في مئة ، فلمَّا ساروا إليه ، وبلغه أن قد دنَوا منه ، خرج في البرّيَّة نحو المصعب حتَّى لحق به ، فلمَّا قدم على المصعب استحثَّه بالخروج ، وأدناه مصعب وأكرَمه لشَرَفه ، قال: وبعث المختار إلى دار محمّد بن الأشعث فهَدمها[1]. (٦/ ٩٣ ـ ٩٤).

قال أبو مخنف: فحدّثني أبو يوسف بن يزيد أنّ المصعب لما أراد المسيرَ إلى الكوفة حين أكثرَ الناسُ عليه ، قال لمحمد بن الأشعث: إني لا أسير حتَّى يأتيني المهلب بن أبي صُفْرة ، فكتب المصعب إلى المهلب ـ وهو عاملُه على فارس:

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

أن أقبِلْ إلينا لتشهدَ أمْرنا ، فإنا نريد المسيرَ إلى الكوفة ، فأبطأ عليه المهلّب وأصحابه ، واعتلّ بشيء من الخراج ، لكراهة الخروج ، فأمر مصعب محمد بن الأشعث في بعض ما يستحثه أن يأتيَ المهلب فيقبِلَ به ، وأعلَمَه أنه لا يشخص دون أن يأتي المهلب؛ فذهب محمد بن الأشعث بكتاب المصعب إلى المهلب ، فلما قرأه قال له: مثلك يا محمد يأتي بَريداً! أما وَجَدَ المصعبُ بريداً غيرَك! قال محمد: إني والله ما أنا ببريد أحد ، غير أنَّ نساءنا وأبناءنا وحَرَمنا غَلَبَنا عليهم عبدانُنا وموالينا ، فخرج المهلب ، وأقبل بجموع كثيرة وأموال عظيمة معه في جموع وهيئة ليس بها أحد من أهل البصرة ، ولمّا دخل المهلّب البصرة أتى باب المصعب ليدخل عليه وقد أذن للناس ، فحجَبه الحاجب وهو لا يعرفه ، فرفع المهلّب يده فكسر أنفَه ، فدخل إلى المُصعب وأنفُه يسيل دماً ، فقال له: ما لك؟ فقال: ضَرَبني رجل ما أعرفه ، ودخل المهلب فلما رآه الحاجب قال: هَو ذا ، قال له المصعب: عُدْ إلى مكانك ، وأمر المصعب الناسَ بالمعسكر عند الجسر الأكبر. ودعا عبد الرحمن بن مخنف فقال له: ائتِ الكوفةَ فأخرج إليّ جميعَ من قدرتَ عليه أن تُخرِجه ، وادعهم إلى بيعتي سرّاً ، وخَذل أصحَاب المختار ، فانسلّ من عنده حتى جلس في بيته مستتراً لا يظهر ، وخرج المصعب فقدّم أمامَه عبَّاد بن الحصين الحبَطيّ من بني تميم على مقدّمته ، وبعث عمر بن عُبيد الله بن مَعمر على ميمنته ، وبعث المهلب بن أبي صفرة على ميسَرته ، وجعل مالك بن مسمع على خمس بكر بن وائل ، ومالك بن المنذر على خمس عبد القيس ، والأحنف بن قيس على خمس تميم وزياد بن عمرو الأزديّ على خمس الأزْد ، وقيس بن الهيثم على خمس أهل العالية؛ وبلغ ذلك المختار ، فقام في أصحابه فحَمِد الله وأثنَى عليه ثم قال:

يا أهل الكوفة ، يا أهلَ الدّين ، وأعوانَ الحقّ ، وأنصارَ الضّعيف ، وشيعة الرّسول وآل الرسول ، إنّ فُرَّاركم الذين بَغَوا عليكم أتوا أشباهَهم من الفاسقين فاستغوُوهم عليكم ليصح الحق ، وينتعش الباطل ، ويقتل أولياء الله ، والله لو تهلكون ما عُبِدَ الله في الأرض إلاّ بالفرْي على الله واللعن لأهل بيت نبيّه ، انتدبوا مع أحمر بن شُمَيط فإنكم لو قد لقيتموهم لقد قتلتموهم إن شاء الله قَتْلَ عاد وإرَمٍ.

فخرج أحمرُ بن شُمَيط ، فعسكر بحَمّام أعين ، ودعا المختار رؤوس الأرباع

الذين كانوا مع ابن الأشتر ، فبعثهم مع أحمر بن شُميط ، كما كانوا مع ابن الأشتر ، فإنهم إنما فارقوا ابنَ الأشتر؛ لأنهم رأوه كالمتهاون بأمرِ المختار ، فانصرفوا عنه ، وبَعَثهم المختار مع ابن شُميط ، وبعث معه جيشاً كثيفاً.

فخرج ابن شميط ، فبعث على مقدّمته ابن كامل الشاكريّ ، وسار أحمر بن شميط حتى ورد المَذار ، وجاء المصعب حتى عسكر منه قريباً.

ثمّ إنّ كلّ واحد منهما عبّى جنده ، ثمّ تزاحَفا ، فجعل أحمد بن شُمَيط على ميمنته عَبدَ الله بن كامل الشاكرِيّ ، وعلى ميسرته عبَد الله بن وهب بن نَضْلة الجشميّ ، وعلى الخيل رزين عبد السلوليّ ، وعلى الرجّالة كثير بن إسماعيل الكِنْديّ ـ وكان يوم خازَرَ مع ابن الأشتر ـ وجعل كيسان أبا عَمْرةَ ـ وكان مولى لعُرَينة ـ على الموالي فجاء عبدُ الله بنُ وهب بن أنس الجُشَميّ إلى ابن شُمَيط وقد جعله على ميسرته فقال له: إنّ المواليَ والعَبيد آلُ خَوَر عند المصدوقة ، وإنّ معهم رجالاً كثيراً على الخيل ، وأنت تمشي ، فمُرْهم فلينزلوا معك ، فإنَّ لهم بك أسوةً ، فإني أتخوّف إن طُورِدوا ساعةً ، وطُوعِنوا وضُوربوا أن يطيروا على متونها ويُسلِموك وإنك إن أرجلتهم لم يجدُوا من الصبر بُدّاً ، وإنما كان هذا منه غِشّاً للموالي والعبيد ، لما كانوا لقوا منهم بالكوفة ، فأحبَّ إن كانت عليهم الدَّبْرَة أن يكونوا رجالاً لا ينجو منهم أحد ، ولم يتهمه ابنُ شميط ، وظنّ أنه إنما أراد بذلك نُصحَه ليصبروا ويقُاتِلوا ، فقال: يا معشر الموالي ، انزِلوا معي فقاتِلوا ، فنزَلوا معه ، ثم مَشَوْا بين يديه وبين يدَيْ رايته ، وجاء مصعب بن الزبير وقد جعل عَبّاد بن الحصين على الخيل ، فجاء عبّاد حتى دنا من ابن شميط وأصحابه فقال: إنّا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة رسوله ، وإلى بَيعة أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير؛ وقال الآخرون: إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة رسوله ، وإلى بيعة الأمير المختار ، وإلى أن نجعل هذا الأمرَ شُورَى في آل الرسول ، فمن زعم من الناس أنّ أحداً ينبغي له أن يتولّى عليهم برئنا منه وجاهدناه ، فانصرف عبّاد إلى المُصعب فأخبره ، فقال له: ارجع فاحمل عليهم ، فرجع فحمَلَ على ابن شميط وأصحابه فلم يزُل منهم أحدٌ ، ثمّ انصرف إلى موقفه وحمل المهلّب على ابن كامل ، فجال أصحابه بعضُهم في بعض ، فنزل ابن كامل ، ثمّ انصرف عنه المهلّب ، فقام مكانَه ، فوقفوا ساعةً ثم قال المهلب لأصحابه: كرُّوا كَرّةً

صادقة ، فإنّ القومَ قد أطمَعوكم ، وذلك بجَوْلتِهم التي جالوا ، فحمل عليهم حَمْلةً منكَرةً فولَّوا ، وصبر ابنُ كامل في رجال من هَمدانَ ، فأخذ المهلَّب يَسْمَع شِعارَ القوم: أنا الغلامُ الشاكرِيّ ، أنا الغلام الشِّبامي ، أنا الغلام الثَّورِيّ ، فما كان إلا ساعةً حتَّى هُزِموا ، وحمل عمرُ بن عبيد الله بن معمر على عبد الله بن أنس ، فقاتل ساعةً ثمّ انصرف ، وحملَ الناسُ جميعاً على ابن شُمَيط ، فقاتل حتَّى قُتِل ، وتنادوا: يا معشَر بَجِيلة وخَثْعَم ، الصَّبرَ الصبرَ! فناداهم المهلَّب: الفِرارَ الفِرارَ! اليوم أنجى لكم ، علامَ تَقتُلون أنفسَكم مع هذه العِبْدان ، أضَلّ الله سَعْيَكم ، ثمّ نظر إلى أصحابه فقال: والله ما أرى استِحرار القَتْل اليومَ إلاّ في قومي ، ومالَت الخيلُ على رَجَّالة بنِ شُمَيطِ ، فافترقتْ فانهزمتْ وأخذت الصَّحراء ، فبَعث المصعبُ عبَّاد بن الحُصَين على الخيل ، فقال: أيّما أسيرٍ أخذتَه فاضرِب عُنُقَه.

وسرّحَ محمَّد بن الأشعث في خيل عظيمة من خيل أهلِ الكوفة مِمَّن كان المختار طَرَدهُم ، فقال: دُونكم ثأْركم! فكانوا حيث انهزموا أشدَّ عليهمْ مِن أهل البَصْرة ، لا يُدركون منهزماً إلاّ قتَلوه ، ولا يأخذون أسيراً فيَعفُون عنه ، قال: فلم يَنْج من ذلك الجيش إلاّ طائفةٌ من أصحاب الخيل؛ وأما رجَّالتُهم فأبيدوا إلا قليلاً[١]. (٦/ ٩٤ ـ ٩٧).

قال أبو مخنف: حدّثني ابنُ عيّاش المَنْتُوف ، عن معاوية بن قُرّة المُزَنيّ ، قال: انتهيتُ إلى رجل منهم ، فأدخلتُ سنان الرمح في عينه ، فأخذتُ أخضخِض عينَه بسنان رُمْحي ، فقلتُ له: وفعلتَ به هذا؟! قال: نعم: إنَّهم كانوا أحَلَّ عندَنا دِماءً من الترْك والدَّيلم؛ وكان معاويةُ بنُ قرّة قاضياً لأهلِ البصْرة ، ففي ذلك يقول الأعشَى:

أَلاهــل آتــاكَ والأَنبــاءُ تُنْمَــى ... بمــا لاقــتْ بَجِيلــةُ بــالمَــذَارِ
أُتِيــحَ لهــم بهــا ضَــرْبٌ طِلَحْــفٌ ... وطعْــنٌ صــائــبٌ وجــهَ النهــارِ
كــأنَّ سَحــابَــةً صَعقَــتْ عليهــمْ ... فَعمَّتْهــمْ هُنــالِــكَ بــالــدَّمَــار
فبشِّــرْ شِيعَــةَ المختــارِ إمــا ... مَــرَرْتَ علــى الكُــويْفَــةِ بــالصَّغَــارِ

---

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

أَقَــرَّ العيــنَ صَــرْعــاهــمْ وفَــلٌّ لهــمْ جَــمٌّ يُقَتَّــلُ بــالصَّحَــارِ
ومــا إِنْ سَــرَّنــي إِهــلاكُ قــومــي وإِن كــانــوا وجــدِّكَ فــي خيــارِ
ولكنِّــي سُــرِرْتُ بمــا يُــلاَقِــي أَبــو إسحــاقَ مِــنْ خــزيٍ وعــارِ

وأقبل المصعبُ حتَّى قطعَ من تلقاءِ واسطَ القَصَب ، ولم تكُ واسط هذه بُنيتْ حينئذ بعد ، فأخذ في كَسْكَر ، ثمّ حَمَلَ الرجالَ وأثقالَهم وضُعفاءَ الناسِ في السفن ، فأخذوا في نَهر يقال له : نهر خُرشاذ ، ثمّ خرجوا من ذلك النهر إلى نهر يقال له قُوسان؛ ثمّ أخرَجهم من ذلك النَّهرِ إلى الفُرات[1] . (٦/ ٩٧ ـ ٩٨).

قال أبو مخنَف : وحدّثني فُضَيل بن خَدِيج الكنديّ ، أنّ أهلَ البصرة كانوا يخرُجون فيجُرّون سفنهم ويقولون :

عَــوَّدَنــا المصعــبُ جَــرَّ القَلْــسِ والــزُّنْبَــرِيَّــاتِ الطِّــوَالِ القُــعسِ

قال : فلمَّا بلغ مَن مع المختار من تلك الأعاجم ما لقيَ إخوانُهم مع ابن شُمَيط قالوا بالفارسيَّة : «ابنْ بَارْدُروغ كُفْت» ؛ يقولون : هذه المرّة كذب[2] . (٦/ ٩٨).

قال أبو مخنف : وحدّثني هشامُ بنُ عبدِ الرّحمن الثقفيّ ، عن عبدِ الرّحمن بن أبي عُمَير الثَّقفيّ ، قال : والله إني لجالسٌ عند المختار حين أتاه هزيمةُ القوم وما لَقوا ، قال : فأصغَى إليّ ، فقال : قتِلتْ والله العبيدُ قتلةً ما سمعتُ بمثلها قطّ ، ثم قال : وقُتِلَ ابْنُ شُمَيط وابنُ كامل وفلانٌ وفلانٌ ، فسمَّى رجالاً من العرب أصيبوا ، كان الرّجل منهم في الحرب خيراً من فِئام من الناس ، قال : فقلتُ له : فهذه والله مصيبةٌ ، فقال لي : ما من الموت بُدّ ، وما من ميتة أموتها أحبّ إليّ من مثل ميتة ابن شُمَيط ، حبَّذَا مَصارعُ الكرام! قال : فعلمتُ أنّ الرجل قد حدّث نفسَه إن لم يُصِبْ حاجتَه أن يُقاتِل حتَّى يموتَ .

ولما بلغ المختارَ أنَّهم قد أقبَلوا إليه في البَحْر ، وعلى الظهْر ، سار حتَّى نَزَل بهم السَّيْلَحِين ، ونظر إلى مُجْتَمَع الأنهار نهرِ الحِيرةَ ونهرِ السَّيلَحِين ونهرِ القادسيَّة ، ونهر يوسُف ، فسكَر الفُرات على مُجتمع الأنهار ، فذهب ماءُ الفرات كلّه في هذه الأنهار ، وبقيت سفنُ أهلِ البصرة في الطيّن ، فلمَّا رأوْا ذلك خرجوا

---

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك .
(٢) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك .

من السفن يَمْشون ، وأقبلتْ خيلُهم تَركض حتَّى أتَوْا ذلك السِّكْر ، فكَسَروهُ وصَمَدوا صمد الكُوفة ، فلمَّا رأى ذلك المختارُ أقبل إليهِم حتَّى نزل حَرُوراءَ ، وحالَ بينهمْ وبين الكوفة ، وقد كان حصّن قصرَه والمسجد ، وأدخلَ في قصرِه عُدّة الحِصار ، وجاء المصعبُ يسير إليه وهو بَحرُوراءَ وقد استعمل على الكُوفة عبدَ الله بن شَدّاد ، وخرج إليه المختارُ وقد جعل على مَيْمنته سُليم بن يزيد الكِنْديّ ، وجعل على مَيْسرتِه سعيدَ بن مُنْقذ الهَمْدانيّ ثمّ الثَّورِيّ ، وكان على شُرطتِه يومئذ عبد الله بن قُراد الخَثْعميّ ، وبَعَث على الخيل عمرَ بن عبد الله النَّهْدِيّ ، وعلى الرّجال مالكَ بن عمرو النَّهْديّ. وجعل مُصعبٌ على ميمنتِه المهلَّب بن أبي صُفْرة ، وعلى ميسرته عمرَ بنَ عُبَيد الله بن مَعْمَر التَّيْميّ ، وعلى الخيل عَبَّاد بن الحُصَين الحَبَطيّ ، وعلى الرّجال مقاتِل بن مِسمَع البَكْرِيّ ، ونزل هو يَمْشي مُتنكِّباً قَوْساً له.

قال: وجعل على أهلِ الكُوفة محمَّد بن الأشعث ، فجاء محمَّد حتَّى نَزَل بين المصعب والمختار مغرّباً مُيامِنا ، قال: فلمَّا رأى ذلك المختارُ بعث إلى كلّ خُمس من أخماس أهلِ البَصْرة رجلاً من أصحابه ، فبعث إلى بكرِ بن وائل سعيدَ بن مُنقذ صاحبَ مَيسرته ، وعليهمْ مالِك بنُ مِسمَع البَكْريّ ، وبعث إلى عبد القَيْس وعليهمْ مالكُ بنُ المنذر عبدَ الرحمن بنَ شُرَيح الشِّباميّ ، وكان على بيتِ ماله ، وبعث إلى أهل العالِيَة وعليهم قيسُ بنُ الهَيْثم السُّلميّ عبدَ الله بنَ جَعْدة القرشيّ ، ثم المخزوميّ ، وبعث إلى الأزْد وعليهم زيادُ بنُ عمرو العَتَكيّ مسافرَ بن سَعيد بن نِمْران الناعطيّ ، وبعث إلى بني تميم وعليهم الأحنَف بنُ قيس سُليمَ بن يزيد الكِنْديّ ، وكان صاحب مَيْمنته ، وبعث إلى محمَّد بن الأشعث السائبَ بن مالك الأشعريّ ، ووقف في بقيَّة أصحابه ، وتَزاحف الناسُ ودنَا بعضُهم من بعض ، ويَحمِل سعيدُ بن منقذ وعبدُ الرّحمن بنُ شُرَيح على بكر بن وائل ، وعبد القيس ، وهم في الميسرَة وعليهم عمرُ بنُ عُبيد الله بنِ مَعمَر؛ فقاتلهم ربيعةُ قتالاً شديداً ، وصبروا لهم ، وأخذ سعيدُ بنُ مُنقذٍ وعبدُ الرحمن بنُ شُرَيح لا يُقلعان ، إذا حمل واحدٌ فانصرف حمل الآخَر ، وربَّما حَمَلا جميعاً؛ قال: فبَعَث المُصَعب إلى المهلَّب: ما تنتظر أن تَحمِل على مَنْ بإزائك! ألا ترى ما يَلقَى هذا الخُمْسان منذ اليوم! احمِلْ بأصحابِك ، فقال: إي

لعَمْري ما كنتُ لأجْزُر الأزْد وتميماً خَشية أهل الكوفة حتَّى أرى فُرْصتي، قال: وبعث المختارُ إلى عبدِ الله بن جَعْدَة أن احمِلْ على مَنْ بإزائك، فَحَمل على أهل العالية فكَشفهم حتَّى انتَهوْا إلى المُصْعب، فجثَا المُصْعب على رُكبَتيه ـ ولم يكن فراراً ـ فرَمَى بأسهمه.

ونزل الناسُ عنده فقاتَلُوا ساعَةً، ثم تحاجَزوا. قال: وبَعثَ المصعب إلى المهلَّب وهو في خُمْسَين جامِّين كثيرَي العَدد والفُرْسان: لا أبالَك! مَا تنتظر أن تحمِل على القوم! فمَكَث غيرَ بعيد، ثمّ إنَّه قال لأصحابه: قد قاتل الناسُ منذ اليوم وأنتم وقوفٌ، وقد أحسنوا، وقد بقِيَ ما عليكم، احملوا واستَعينوا بالله واصبروا، فحمل على مَنْ يَليِهِ حملةً منكَرة، فحطموا أصحابَ المُختار حَطْمةً منكَرة، فكشَفوهم، وقال عبدُ الله بن عمر والنَّهديّ ـ وكان من أصحاب صِفِّينَ اللَّهمَّ إني على ما كنتُ عليه ليلةَ الخَميس بصِفِّين، اللَّهمّ إني أبرأ إليك من فِعل هؤلاء لأصحابه حين انهزموا، وأبرأ إليك من أنفُس هؤلاء ـ يَعني أصحابَ الْمُصْعَب ـ ثم جالَد بسَيْفه حتى قُتِل، وأتى مالك بن عمرو أبو نِمْران النَّهديّ وهو على الرّجالة بفَرَسه فرَكِبه، وانقصَف أصحابُ المختار انقصافةً شديدة كأنَّهم أجمَةٌ فيها حريقٌ، فقال مالك حين ركب: ما أصنعُ بالرُّكوب! والله لأنْ أقتَل هاهنا أحبّ إليّ مِنْ أن أقتل في بيتي، أين أهلُ البصائر؟ أين أهلُ الصّبر؟ فثابَ إليه نحوٌ من خمسين رجلاً، وذلك عند المساء، فكَرّ على أصحاب محمَّد بن الأشْعَث، فقُتل محمَّد بنُ الأشعث إلى جانبه هو وعامَّة أصحابه، فبعض الناس يقول: هوَ قتل محمَّد بن الأشعث، ووُجد أبو نِمْرَان قتيلاً إلى جانبه ـ وكندة تزعم أن عبد الملك بن أشاءة الكندي هو الذي قتله ـ فلمَّا مرّ المختار في أصحابه على محمَّد بن الأشعث قتيلاً قال: يا معشرَ الأنصار، كُرّوا على الثَّعالب الرّوّاغة، فحملوا عليهم، فَقُتِل؛ فَخَثْعمُ تَزعم أن عبدَ الله بن قُراد هو الَّذِي قَتَله[1]. (٦/ ٩٨ـ ١٠١).

قال أبو مخنف: وسمعتْ عوف بن عمرو الجشميّ يَزعُم أن مولىً لهم قتله فادّعى قتله أربعة نَفَر، كلّهم يَزعم أنه قتله، وانكَشَف أصحابُ سعيد بن مُنقِذ،

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

فقاتل في عصابة من قومه نحو من سبعين رجلاً فَقتِلوا ، وقاتل سليم بن يزيد الكنديّ في تسعين رجلاً من قومه ، وغيرهم ضاربَ حتّى قُتِل ، وقَاتَلَ المختارُ على فَمِ سِكة شَبَث ، ونزَل وهو يريد ألاّ يَبَرح ، فقاتَلَ عامَّةَ ليلته حتّى انصرف عنه القوم ، وقُتِل معه ليلتئذ رجالٌ من أصحابه من أهل الحفاظ ، منهم عاصُمُ بن عبد الله الأزديّ ، وعيّاش بن خازم الهَمْداني ، ثمّ الثَّوريّ ، وأحمرُ بن هديج الهَمْدانيّ ثمّ الفايشيّ[١]. (٦/ ١٠١).

قال أبو مخنف: حدّثنا أبو الزّبير أنّ هَمْدان تنادَوا ليلتئذ:

يا معشرَ همْدان ، سِيفُوهم فقاتِلوُهم أشدَّ القِتال؛ فلمَّا أن تفرّقوا عن المختار قال له أصحابهُ: أيها الأمير ، قد ذهب القومُ فانصرف إلى مَنزِلك إلى القَصْرِ ، فقال المختار: أما والله ما نزلتُ وأنا أريدُ أن آتي القَصْر ، فأما إذ انصرَفوا فاركبوا بنا على اسِم الله؛ فجاء حتَّى دخل القَصْر فقال الأعشى في قَتْل محمَّد بن الأشعث:

تَأَوَّبَ عَيْنَكَ عُوَّارُهَا ... وَعادَ لِنفسكَ تَذَكارُهَا
وإحدى لَيالِيكَ راجَعْتَها ... أَرِقْتَ ولَوَّمَ سُمَّارُها
وما ذَاقَتِ العينُ طَعْمَ الرُّقَا ... دِ حتَّى تبلَّجَ إسفارُها
وقامَ نُعَاةُ أبي قَاسِمٍ ... فأَسبل بالدمع تَحْدارُها
فحقَّ العيون على ابن الأشَجِّ ... ألاّ يُفَتَّرَ تَقطَارُها
وألاَّ تَزالَ تُبكِّي لَه ... وتَبتلُّ بالدّمع أشفارُها
عليك محمّدُ لمّا ثَوَيْـ ... ـتَ تَبكِي البلادُ وأشجارُها
وما يَذْكُرونك إلاَّ بَكَوْا ... إذا ذِمَّةٌ خانَها جارُها
وعاريةٍ من لَيالي الشِّتا ... ءِ لا يتمنَّحُ أيْسَارُها
ولا ينبحُ الكلبُ فيها العقو ... رَ إلا الهريرُ وتَخْتَارُها
ولا ينفعُ الثوبُ فيها الفتى ... ولا رَبَّةَ الخِدْر تَخدَارُها
فأنتَ مُحَمَّدُ في مِثْلِها ... مُهينُ الجزائرِ نَحَّارها
تَظَلّ جِفانُكَ مَوْضوعةً ... تَسِيلُ من الشَّحم أَصْبَارُها

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

وما في سقائك مُسْتنطَفٌ إذا الشَّوْلُ رَوح أغبارُها
فيا وَاهِبَ الوُصَفاءِ الصِّبَا ح إن شُبرَتْ تَمّ إشبارُها
ويا وَاهِبَ الجُرْد مِثْلَ القِدا ح قَدْ يُعجِبُ الصّفَّ شُوَّارها
ويا واهبَ البَكَرات الهجا نِ عُوذاً تَجاوَبُ أبكارُها
وكنتَ كدِجْلةَ إذْ تَرْتَمي فيُقذَفُ في البحر تيَّارُها
وكنتَ جليداً وذا مِرَّةٍ إذا يُبْتَغى منكَ إمرارُها
وكنتَ إذا بَلدةٌ أَصْفَقَتْ وآذَنَ بالحَرْب جَبَّارُها
بَعثْتَ عليها ذَواكي العُيو نِ حتَّى تَواصل أخبارُها
بإذنٍ مِن اللهِ والخيلُ قد أُعِدَّ لذلك مِضْمَارُها
وقد تُطعَمُ الخَيْلُ منك الوَجِيـ ـفَ حتَّى تُنبَّذ أمهارُها
وقد تَعلَمُ البازلُ العَيْسَجُو رُ أنَّك بالخَبْتِ حَسَّارُها
فيا أسَفَى يومَ لاقيتَهُمْ وخانتْ رجالَك فُرَّارُها
وأقبلتِ الخيلُ مَهزُومَةً عِشاراً تُضَرَّبُ أدبارُها
بشطِّ حَرُوراءَ واسْتَجْمَعَتْ عليكَ المَوالي وسَحَّارُها
فأخْطرتَ نفسَك من دُونهم فحاز الرَّزيئَةَ أخطارُها
فلا تَبْعَدنَّ أبا قاسمٍ فقد يَبلُغُ النفسَ مِقدارُها
وأَفنى الحوادثُ سَادَاتِنا ومَرُّ الليالي وتَكْرَارُها[١]
(٦/ ١٠١ ـ ١٠٣).

قال هشام: قال أبي: كان السائب أتى مع مُصعبِ بنِ الزّبير، فقتله وَرْقاء النَّخعيّ مِنْ وَهْبيل، فقال وَرْقاء:

مَنْ مُبلغٌ عنِّي عُبَيْداً بأنَّني عَلوتُ أخاه بالحُسام المهَنَّد
فإنْ كنتَ تبغِي العلمَ عنه فإنَّه صريعٌ لدَى الدَّيرين غيرُ مُوَسَّدِ
وعَمْداً علوتُ الرأسَ منه بصارمٍ فأثكلتُهُ سُفيانَ بعدَ محمّدِ
(٦/ ١٠٣).

قال هشام عن أبي مِخنَف، قال: حدّثني حَصِيرة بن عبد الله، أنّ هِنداً بنت

---

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

المتكلّفة الناعِطِيّة كان يَجْتَمع إليها كلّ غالٍ من الشيعة فيتحدّث في بَيْتها وفي بيت لَيْلى بنت قُمامَة المُزَنيَّة ، وكان أخوها رِفاعة بن قمامةَ من شيعة عليّ ، وكان مقتصداً ، فكانت لا تُحبُّه ، فكان أبو عبد الله الجُدَليّ ويزَيد بن شَراحِيل قد أخبرَا ابنَ الحنفيَّة خبرَ هاتَين المرأتين وغلوَّهما وخبر أبي الأحراس المراديّ والبُطَيْن الليثي وأبي الحارِث الكِنْدِيّ[١] . (٦/ ١٠٣) .

قال هشام عن أبي مِخنَف : قال : حدّثني يحيى بنُ أبي عيسى ، قال : فكان ابنَ الحنفيَّة قد كتب مع يزيدَ بن شراحيل إلى الشيعة بالكوفة يُحذِّرهم هؤلاء ، فكتب إليهم :

من محمَّد بن عليّ إلى مَن بالكوفة من شيعتنا ، أمَّا بعد ، فاخرُجوا إلى المجالس والمَساجد فاذكروا الله علانيةً وسِراً ولا تتّخذوا مِنْ دُون المؤمنين بِطَانَةً ، فإنْ خَشيتم على أنفسكم فاحذروا على دينكم الكذّابين ، وأكثِروا الصلاة والصّيام والدّعاء ، فإنَّه ليس أحدٌ من الخَلْق يَمْلك لأحد ضَرّاً ولا نَفْعاً إلاّ ما شاء الله ، وكلُّ نفس بما كَسَبَتْ رَهينةَ ، ولا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أخرى ، والله قائمٌ على كلّ نفس بما كسبَتْ؛ فاعمَلوا صالحاً ، وقدّموا لأنفسكم حَسناً ، ولا تكونوا من الغافلين ، والسلام عليكم[٢] . (٦/ ١٠٣ ـ ١٠٤) .

قال أبو مِخنَف : فحدّثني حَصيرة بنُ عبدِ الله ، أنّ عبد الله بن نَوْف خرج من بيت هند بنتِ المتكلّفة حين خرج الناسُ إلى حَرُوراءَ وهو يقول : يومُ الأربعاء ، ترفَّعت السماء ، ونَزَلَ القضاء ، بهزيمة الأعداء ، فاخرجوا على اسم الله إلى حَروراء ، فخرج ، فلمَّا التقى الناس للقتال ضُرِب على وجهه ضربةً ، ورجع الناسُ منهزِمين ، ولقيَه عبدُ الله بنُ شريك النَّهْديّ ، وقد سمع مقالتَه ، فقال له : ألم تزعمْ لنا يابن نَوْف أنّا سنهزِمهم! قال : أوَ ما قرأت في كتاب الله : ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ﴾! قال : فلمَّا أصبَح المصعَب أقبلَ يَسير بِمَن مَعَه من أهل البصرة وَمَنْ خرج إليه من أهل الكوفة ، فأخذ بهم نحو السَبَخة ، فمرّ بالمهلَّب ، فقال له المهلَّب : يا لَه فتحاً ما أهنأهُ لو لم يكن محمَّد بنُ الأشعث

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك .
(٢) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك .

قُتِل! قال: صدقتَ، فَرَحِم اللهُ محمّداً، ثمّ سار غير بعيد، ثم قال: يا مهلّب، قال: لبّيك أيها الأمير؛ قال: هل علمتَ أنّ عُبيدَ الله بنَ عليّ بن أبي طالب قد قُتِل! قال: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾، قال: المُصْعَب: أمَّا إنَّه كان ممَّن أحبّ أن يرى هذا الفَتْح، ثم لا نَجْعَل أنفسَنا أحقّ بشيء ممَّا نحن فيه منه، أتدري مَن قَتَله؟ قال: لا؛ قال: إنَّما قَتَله مَن يزعم أنَّه لأبيه شيعة، أما إنَّهم قد قَتَلوه وهم يَعرِفونه.

قال: ثم مضى حتَّى نزل السَّبخة فقَطَع عنهم الماء والمادّة، وبعث عبدَ الرّحمن بن محمد بن الأشعث فنَزَل الكُناسة، وبعث عبد الرحمن بنَ مِخنَف بن سليم إلى جَبَّانة السَّبيع، وقد كان قال لعبد الرحمن بن مِخنَف: ما كنت صنعتَ فيما كنتُ وكَّلتُك به؟ قال: أصلَحك الله! وجَدْت الناسَ صِنفَيْن؛ أمَّا مَن كان له فيك هَوىً فخرج إليك، وأمَّا مَن كان يرى رأيَ المُختار، فلم يكن لِيدَعه، ولا ليُؤثِر أحداً عليه، فلم أبرح بَيْتي حتى قدمتَ؛ قال: صدقت؛ وبعث عبَّاد بن الحُصَين إلى جَبَّانة كِنْدة، فكلّ هؤلاء كان يَقطَع عن المختارِ وأصحابِه الماءَ والمادّة.

وهم في قصر المُخْتار، وبعث زَحْر بنُ قَيْس إلى جَبَّانة مُراد، وبعث عُبيدَ الله بن الحرّ إلى جَبَّانة الصائديين[1]. (٦/ ١٠٤ ـ ١٠٥).

قال أبو مخنَف: وحدّثني فُضَيل بن خَديج، قال: لقد رأيتُ عبيدَ الله بن الحُرّ؛ وإنَّه ليطارِد أصحابَ خَيْل المختار، يُقاتِلهم في جَبَّانة الصائديَين ولرّبما رأيتُ خيلَهُم تَطْرُدُ خيلَه، وإنَّهُ لوراءَ خَيله يَحْمِيها حتَّى يَنتهي إلى دار عِكرِمة، ثمّ يَكُرّ راجعاً هو وخيلُه، فيَطرُدهم حتَّى يُلحقَهم بجبَّانة الصائديّين، ولربَّما رأيت خيلَ عُبيد الله قد أخذتْ السقّاء والسقّاءين فيُضرَبون، وإنَّما كانوا يأتونهم بالماء أنهم كانوا يعطونهم بالراوية الدينار والدينارين لما أصابَهم من الجَهْد، وكان المختار ربَّما خرج هو وأصحابُه فقاتلوا قِتالاً ضعيفاً، ولا نكاية لهم، وكانت لا تَخرج له خيلٌ إلاّ رُميتْ بالحِجارة من فوقِ البُيوت، ويُصَبّ عليهم الماءُ القَذِر.

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

واجترأ عليهم الناس ، فكانت معايشُهم أفضلها من نسائهم ، فكانت المرأةُ تخرج من منزِلها معها الطَّعام واللَّطَف والماء ، قد التحفتْ عليه ، فتخرُج كأنَّما تريد المسجدَ الأعظمَ للصّلاة ، وكأنّها تأتي أهلها وتزورُ ذاتَ قَرابة لها ، فإن دَنت من القَصر فُتِح لها ، فدخلت على زوجِها وحَميمِها بطعامِه وشرابِه ولَطَفه ، وإن ذلك بلغ المصعب وأصحابَه ، فقال له المهلَّب ـ وكان مجرّباً : اجعلْ عليهمُ دُرُوباً حتَّى تَمنَع من يأتيهم مِن أهلِيهم وأبنائهم ، وتَدَعهم في حِصْنهم حتى يموتوا فيه ، وكان القومُ إذا اشتدّ عليهم العَطَش في قصرهم استقَوْا من ماء البئر ، ثمّ أمر لهم المختارُ بعَسَل فصُبّ فيه ليُغيّر طعمَه فيشربوا منه ، فكان ذلك أيضاً ممَّا يُروِي أكثرهم ، ثمّ إنّ مصعباً أمر أصحابَه فاقتربوا من القَصْر ، فجاء عبّاد بن الحصين الحبطيّ حتى نزل عند مسجد جُهَيْنَة وكان ربَّما تقدّم حتَّى ينتهي إلى مسجدِ بني مخزوم ، وحتَّى يَرمي أصحابُه مَن أشرَف عليهم من أصحاب المختار من القَصْر ، وكان لا يَلقَى امرأةً قريباً من القصر إلاّ قال لها : مَن أنِت؟ ومن أين جئتِ؟ وما تريدين؟ فأخذَ في يوم ثلاثَ نسوة للشبَّاميِّين وشاكر أتَيْن أزواجهنّ في القَصْر ، فبعث بهنّ إلى مصعب ، وإنّ الطَّعام لمعهنّ .

فردّهنّ مصعب ولم يَعرِض لهنّ ، وبعث زَحْر بن قيس ، فنَزَل عند الحدّادين حيث تُكْرَى الدّوابّ ، وبعث عُبيد الله بن الحُرّ فكان موقِفُه عند دارِ بلال ، وبعث محمَّد بن عبدِ الرَّحمن بن سعيد بن قيس فكان موقِفه عند دار أبيه ، وبعث حَوْشَب بن يزيد فوَقَف عند زُقاقِ البَصْريين ، عند فم سكة بني جذَيمة بن مالك من بني أسَد بنِ خُزَيمة ، وجاء المهلَّب يسير حتَّى نزل جِهار سوج خُنيس ، وجاء عبدُ الرحمن بنُ مخنَف من قبَل دار السِّقاية ، وابتدر السوق أناسٌ من شَبابِ أهل الكُوفة وأهل البصرة ، أغمار ليس لهم عِلمٌ بالحرب ، فأخذوا يَصِيحون ـ وليس لهم أميرٌ : يا بن دَومة ، يا بن دَوْمَة! فأشرَف عليهم المختارُ فقال : أما والله لو أن الذي يعيّرني بدَوْمة كان من القَريتين عظيماً ما عَيَّرني بها ، وبَصُرَ بهم وبتفرُّقهم وهيئتهم وانتشارهم ، فطمع فيهم ، فقال لطائفة من أصحابه : اخرُجوا معي ، فخرج معه منهم نحوٌ من مئَتي رجل ، فكرّ عليهم ، فشدخ نحواً من مئة ، وهزمهم ، فركب بعضُهم بعضاً ، وأخذوا على دارِ فراتِ بن حيَّانَ العِجْليّ ، ثمّ إنّ رجلاً من بني ضَبَّة من أهل البَصْرة يقال له يحيى بن ضَمضَم ، كانت رِجلاه

تكادان تَخُطَّان الأرضَ إذا رَكِب من طُوله ، وكان أقتَل شيء للرجال وأهيَبَهُ عندهم إذا رأوه ، فأخذ يحمل على أصحاب المختار فلا يثبتُ له رجل صَمَد صَمدَه ، وبَصُرَ به المختار ، فحمَل عليه فَضرَبه ضربةً على جَبهته فأطار جَبهته وقحفَ رأسِه ، وخرَّ ميّتاً ، ثمّ إنّ تلك الأمراء وتلك الرؤوس أقبَلوا من كلّ جانب ، فلم تكن لأصحابه بهمْ طاقة ، فدخلوا القصر ، فكانوا فيه ، فاشتدّ عليهم الحصار فقال لهم المختار: ويْحكم! إنّ الحصارَ لا يَزِيدكم إلاّ ضَعْفاً ، انزلوا بنا فلْنقاتل حتَّى نُقتلَ كراماً إن نحن قُتِلنا ، والله ما أنا بآيس إن صدقتموهم أن يَنصركم اللهُ ، فضَعُفوا وعجِزوا ، فقال لهم المختار: أمّا أنا فوالله لا أعطِي بيَدي ولا أحكمَهم في نفسي ، ولمَّا رأى عبدُ الله بنُ جعدةَ بنُ هُبَيرة بن أبي وَهْب ما يريد المختار تَدلَّى من القصر بحبْل ، فَلِحق بأناس من إخوانه ، فاختبأ عندهم ، ثم إنّ المختار أزمَع بالخروج إلى القوم حين رأى من أصحابه الضعف ، ورأى ما بأصحابه من الفشل ، فأرسل إلى امرأته أمّ ثابت بنت سَمُرة بن جُندب الفَزاريّ ، فأرسلتْ إليه بطيب كثير ، فاغتسل وتحنّط ، ثمّ وضع ذلك الطيب على رأسِهِ ولِحيته ، ثمّ خرج في تسعة عشرَ رجلاً؛ فيهم السائب بن مالك الأشعريّ ـ وكان خليفتَه على الكوفة إذا خرج إلى المَدائن ـ وكانتْ تحتَه عَمْرةُ بنتُ أبي موسى الأشعريّ ، فولدت له غلاماً ، فسّماه محمَّداً ، فكان مع أبيه في القصر ، فلمَّا قُتل أبوه وأخِذ مَن في القصر وُجِد صبيّاً فتُرِك ، ولمَّا خرج المُختار من القصر قال للسَّائب: ماذا ترى؟ قال: الرّأيُ لك ، فماذا ترى؟ قال: أنا أرَى أم الله يرَى! قال: الله يرَى! قال: اللهُ يرَى ، قال: وَيْحَك! أحمق أنت! إنَّما أنا رجل من العَرَب رأيتُ ابن الزّبير انتزَى على الحِجاز ، ورأيتُ نَجْدَةَ انتزَى على اليمامة ، ومروانَ على الشام ، فلم أكن دونَ أحد من رِجال العرب ، فأخذتُ هذه البلادَ ، فكنتُ كأحدهم؛ إلاّ أني قد طلبتُ بثأر أهلِ بيتِ النبيّ ﷺ إذ نامتْ عنه العرب ، فقتلتُ من شرَك في دِمائِهم ، وبالغتُ في ذلك إلى يومي هذا ، فقاتِلْ على حَسبك إن لم تكن لك نيّة؛ فقال: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ ، وما كنت أصنع أن أقاتل على حَسَبي! فقال المختار عند ذلك يتمثَّل بقولِ غَيْلان بن سَلَمة بن مُعتِّب الثَّقَفِيّ:

ولو يَرَاني أَبو غَيْلاَنَ إذ حَسَرَتْ ... عنِّي الهموم بأمرٍ ما له طبَقُ
لقالَ رُهْباً ورُغْباً يُجْمَعان معاً ... غنْمُ الحياةِ وهَولُ النفس والشَّفَقُ
إما تُسِف على مَجْدٍ ومَكْرُمَةٍ ... أو إِسوة لك فِيمَن تُهلِكُ الوَرَقُ

فخرج في تسعةَ عشرَ رجلاً فقال لهم: أتؤمنوني وأخرُج إليكم؟ فقالوا: لا ، إلا على الحكم ، فقال: لا أحكّمكم في نفسي أبداً ، فضارب بسيفه حتى قُتِل ، وقد كان قال لأصحابه حين أبَوْا أن يُتابعوه على الخُروج معه:

إذا أنا خرجتُ إليهم فقُتِلتُ لم تَزْدادوا إلا ضَعْفاً وذُلاً ، فإنْ نزلتم على حكمهم وثَب أعداؤكم الذين قد وَتَرْتموهم ، فقال كل رجل منهم لبعضكم: هذا عندَه ثأرِي فيُقتل ، وبعضُكم يَنظُر إلى مَصارع بعض فيقولون: يا لَيْتنا أطَعْنا المختار وعَمِلنا برأيه! ولو أنكم خرجتم معي كنتم إن أخطأتُم الظفَر متّم كِراماً ، وإن هرب منكم هاربٌ فدخل في عشيرته اشتملتْ عليه عشيرتُه؛ أنتم غداً هذه الساعةَ أذلّ من على ظَهْر الأرض ، فكان كما قال.

قال: وزَعَم الناسُ أنّ المختار قُتِل عند موضع الزّيّاتِين اليومَ ، قتله رجلان من بني حَنِيفة أخَوان يُدعَى أحدُهما طَرَفةَ والآخر طرَّافاً؛ ابنا عبد الله بن دَجاجة من بني حَنِيفة ، ولَمّا كان من الغد من قتل المختار قال بُجَير بنُ عبد الله المُسْليّ: يا قوم ، قد كان صاحبكم أمسِ أشار عليكم بالرأي لو أطعتموه ، يا قوم ، إنكم إن نزلتمْ على حُكم القوم ذُبِحتم كما تُذبَح الغنمُ ، اخرُجوا بأسيافكم فقاتلوا حتى تموتوا كِراماً ، فعصَوْه وقالوا: لقد أمرنا بهذا من كان أطوع عندنا وأنصح لنا منك ، فعصيناه ، أفنحن نُطِيعك! فأمكن القوم من أنفسهم ، ونزلوا على الحُكْم ، فبعث إليهم مصعبٌ عبّاد بنَ الحُصَين الحَبَطيّ فكان هو يُخرِجهم مكتَّفين ، وأوصَى عبد الله بن شدّاد الجُشَميّ إلى عبّاد بن الحُصَين ، وطلب عبد الله بن قُراد عصاً أو حديدة أو شيئاً يقاتل به فلم يَجِده ، وذلك أنّ الندامة أدركتْه بعدما دخلوا عليه ، فأخذُوا سيفَه وأخرَجوه مكتوفاً ، فمرّ به عبدُ الرحمن وهو يقول:

مـا كنـتُ أخشَـى أن أُرَى أَسِيـرا ... إنَّ الـذيـن خـالَفُـوا الأَمِيـرَا
قـد رُغِّمـوا وتُبِّـرُوا تَتْبِيـرَا

فقال عبدُ الرّحمن بن محمد بن الأشعث: عليّ بذا ، قدّموه إليّ أضرِب عنقَه ، فقال له: أما إني على دين جَدّك الذي آمن ثمّ كفر؛ إنْ لم أكن ضربت أباك بسَيْفي حتى فاظَ ، فنزل ثم قال: أدنُوه مني ، فأدَنوْه منه ، فقتله ، فغضِب عبّاد ، فقال: قتلتَه ولم تُؤمَر بقَتله!

ومرّ بعبد الله بنِ شدّاد الجُشميّ وكان شريفاً ، فطلب عبدُ الرحمن إلى عبّاد أن يَحبِسه حتى يُكلّم فيه الأمير ، فأتى مُصعباً ، فقال: إني أحِبّ أن تَدفَع إليّ عبدَ الله بن شدّاد فأقتلَه ، فإنه من الثأر ، فأمر له به ، فلما جاءه أخذه فضرب عنقَه ، فكان عبّاد يقول: أما والله لو علمتُ أنك إنما تريد قتلَه لدفعتُه إلى غيرِك فقتله ، ولكني حسبتُ أنك تكلمه فيه فتخلّي سبيلَه. وأُتِيَ بابن عبد الله بنِ شدّاد ، وإذا اسمهُ شدّاد ، وهو رجلٌ محتلِم ، وقد اطّلَي بنُورة ، فقال: اكشفوا عنه هل أدرَك! فقالوا: لا ، إنما هو غلام ، فخلوا سبيلَه ، وكان الأسوَد بنُ سعيد قد طلب إلى مُصعَب أن يعرِض على أخيه الأمان ، فإنْ نَزَل تركَه له ، فأتاه فعرض عليه الأمان ، فأبى أن ينزل ، وقال: أموتُ مع أصحابي أحبّ إليّ من حياة معكم ، وكان يقال له قيس ، فأخرِج فقتِل فيمن قُتِل؛ وقال بُجير بن عبدِ الله المُسْلِيّ ـ ويقال: كان مولىً لهم حين أتِيَ به مصعب ومعه منهم ناسٌ كثير ـ فقال له المسلِيّ: الحمد لله الذي ابتلانا بالإسار ، وابتلاكَ بأن تعفو عنا ، وهما مَنزِلتان إحداهما رِضَا الله ، والأخرَى سخطه ، من عَفَا عَفَا اللهُ عنه. وزادَه عزّاً ، ومن عاقَبَ لم يأمَن القصاص ، يابنَ الزّبير ، نحن أهلُ قِبْلَتكم ، وعلى مِلّتكم ، ولسنا تُرْكاً ولا دَيْلماً ، فإن خالفْنا إخوانَنَا من أهلِ مِصرِنا فإما أن نكون أصبْنا وأخطؤوا ، وإما أن نكون أخطأنا وأصابوا فاقتتلْنا كما اقتتل أهل الشام بينهم ، فقد اختلفوا واقتتلوا ثمّ اجتمعوا ، وكما اقتتل أهلُ البَصْرة بينهم فقد اختلفوا واقْتَتلوا ثمّ اصطلَحوا واجتمعوا ، وقد ملكتم فأسجِحوا ، وقد قَدرْتم فاعْفُوا ، فما زال بهذا القَوْل ونحوه حتى رَقَّ لهم الناسُ ، ورَقَّ لهم مصعب ، وأراد أن يخلّيَ سبيلَهم ، فقام عبدُ الرحمن بنُ محمد بن الأشعث فقال: تُخلّى سبيلهم! اختَرنا يا بن الزبير أو اخترهم ، ووثب محمد بن عبد الرّحمن بن سعيد بن قَيْس الهَمْدانيّ فقال: قُتِل أبي وخَمسمئة من هَمْدان وأشراف العشيرة وأهل المصر ثم تُخلّى سبيلَهم ، ودماؤنا تَرقرَق في أجوافهم! اختَرْنا أو اخترْهم ، ووَثَب كلّ قوم وأهل بيت كان أصيبَ منهم رجل فقالوا نحواً من هذا القول.

فلما رأى مُصعبُ بنُ الزبير ذلك أمَرَ بقَتْلهم ، فنادَوه بأجمَعِهم: يا بن الزّبير ، لا تقتُلنا ، اجعَلْنا مقدّمتَك إلى أهل الشام غداً ، فوالله ما بك ولا بأصحابك عنّا غداً غِنيً إذا لقيتم عدوَّكم فإن قتِلنا لم نُقتل حتّى نرقّهم لكم ، وإن ظَفِرْنا بهم كان

ذلك لك ولمن معك ، فأبَى عليهم وتبع رضا العامة ، فقال بجير المسلِيّ : إن حاجتي إليك ألاّ أقتَل مع هؤلاء [القوم] إني أمرتُهم أن يخرجوا بأسيافهم فيقاتلوا حتى يموتوا كِراماً فعصوْني ، فقُدّم فقُتِل[١] . (٦/ ١٠٥ ـ ١١٠) .

قال أبو مخنف : وحدّثني أبي ، قال : حدّثني أبو رَوْق أنّ مسافرَ بنَ سعيد بن نِمْران قال لمُصعب بنِ الزبير : يا بن الزّبير ، ما تقولُ لله إذا قَدمت عليه وقد قتلتَ أمة من المُسلِمين صَبْراً! حكّموك في دمائهم ، فكان الحقّ في دمائهم ألاّ تقتل نفساً مُسلِمة بغير نفس مُسلِمة ، فإن كنا قتلْنا عِدّة رجال منكم فاقتلوا عِدَّةَ من قتلنا منكم ، وخلّوا سبيل بقيّتنا وفينا الآن رجالٌ كثير لم يشهدوا موطناً من حربنا وحَربكم يوماً واحداً ، كانوا في الجبال والسواد يَجْبون الخَراج ، ويؤمنون السبيل ، فلم يستمع له ، فقال : قبّح الله قوماً أمرتُهم أن يَخرُجوا ليلاً على حَرَس سكة من هذه السكك فنطردهم ، ثمّ نَلحق بعشائرنا ، فعَصوْني حتى حَمَلوني على أن أعطيت التي هي أنقص وأدنى وأوضع ، وأبوْا أن يموتوا إلاّ ميتة العبيد ، فأنا أسألُك ألاّ تَخلِط دمي بدِمائهم فقُدّم فقُتل ناحية .

ثمّ إنّ المُصعَب أمر بكَفّ المختار فقُطعت ثمّ سُمرت بمسِمار حديد إلى جنب المسجد ، فلم يزل على ذلك حتى قدم الحجّاج بن يوسفَ ، فنظر إليها فقال : ما هذه؟ قالوا : كَفّ المختار ، فأمرَ بَنْزعها ، وبعث مُصعَب عُماله على الجِبال والسواد، ثمّ إنه كتب إلى ابن الأشتر يدعوه إلى طاعته، ويقول له : إن أنتَ أجَبَتني ودخلتَ في طاعتي فلك الشام وأعِنّة الخيل ، وما غلبت عليه من أرضِ المغرب ما دام لآلِ الزّبير سُلطان ، وكتب عبد الملك بن مروان من الشام إليه يدعوه إلى طاعته ، ويقول : إن أنت أجَبْتَني ودخلتَ في طاعتي فلك العراق ، فدعا إبراهيمُ أصحابه فقال : ما تَرَون؟ فقال بعضُهم : تدخل في طاعة عبدِ الملك ، وقال بعضهم : تدخل مع ابن الزّبير في طاعته ، فقال ابن الأشتر : ذاك لو لم أكن أصبتُ عبيد الله بن زياد ولا رؤساء أهل الشام تبعتُ عبد الملك؛ مع أني لا أحبّ أن أختار على أهلِ مِصري مِصْراً ، ولا على عشيرتي عشيرة ، فكتب إلى مصعب ، فكتب إليه مصعبٌ أن أقبِل ، فأقبل إليه بالطاعة[٢] . (٦/ ١١٠ ـ ١١١) .

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

(٢) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

قال أبو مخنَف: حدّثني أبو جَنَاب الكلبيّ أنّ كتاب مُصْعب قدم على ابن الأشتر وفيه:

أما بعد، فإنّ الله قد قتل المختار الكذّاب وشيعتَه الذين دانُوا بالكفر، وكادُوا بالسّحر، وإنا ندعوك إلى كتاب الله وسنة نبيِّه، وإلى بَيْعة أمير المؤمنين، فإنْ أجبتَ إلى ذلك فأقبل إليّ، فإنّ لك أرض الجزيرة وأرض المغرب كلّها ما بقيت وبقيَ سلطانُ آل الزبير، لك بذلك عهدُ الله وميثاقُه وأشدّ ما أخذ الله على النبيِّين من عهد أو عقد؛ والسلام.

وكتب إليه عبدُ الملك بن مَرْوان:

أما بعد، فإنّ آل الزبير انتَزَوْا على أئمة الهدى، ونازعُوا الأمرَ أهلَه، وألحَدُوا في بيت الله الحَرام واللهُ مُمكِن منهم، وجاعل دائرةَ السوْء عليهم، وإني أدعوك إلى الله وإلى سُنة نبيّه، فإن قَبلتَ وأجبتَ فلك سلطانُ العراقِ ما بقيتَ وبقيتُ، عليّ بالوفاء بذلك عهدُ الله وميثاقُه.

قال: فدعا أصحابَه فأقرأهم الكتاب، واستشارهم في الرأي، فقائلٌ يقول عبد الملك؛ وقائل يقول: ابن الزبير؛ فقال لهم: ورأيي اتّباع أهلِ الشام، ولكن كيف لي بذلك، وليس قبيلة تسكُن الشام إلاّ وقد وَتَرْتُها، ولستُ بتارك عشيرتي وأهل مصري! فأقبل إلى مُصعَب، فلما بلغ مصعباً إقباله بعث المهلب إلى عمله، وهي السنة التي نزل فيها المهلب على الفُرات[١]. (٦/ ١١١ ـ ١١٢).

قال أبو مخنف: حدّثني أبو عَلْقمة الخَثعميّ أنّ المُصَعب بَعثَ إلى أمّ ثابت بنتِ سَمُرة بنِ جُنْدَب امرأةِ المُختار وإلى عَمْرة بنت النعمان بن بَشير الأنصاريّ ـ وهي امرأةُ المختار ـ فقال لهما: ما تقولان في المختار؟ فقالت أمّ ثابت: ما عسينا أن نقول! ما نقول فيه إلاّ ما تقولون فيه أنتم، فقالوا لها: اذهبي، وأما عَمرة فقالت: رحمة الله عليه، إنه كان عبداً من عِبادِ الله الصالحين، فرَفعها مصعب إلى السجن، وكتب فيها إلى عبد الله بن الزّبير إنها تزعم أنه نبيّ، فكتَب إليه أن أخْرِجْها فاقتُلها.

---

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

فأخْرَجها بين الحِيرة والكُوفة بعد العَتَمة ، فَضرَبها مَطَرٌ ثلاثَ ضرَبات بالسيف ـ ومطَرٌ تابعٌ لآل قَفَل من بني تَيْم الله بنِ ثَعْلبة ، كان يكون مع الشُّرَط ـ فقالت : يا أبتاه ، يا أهلاه ، يا عَشِيرتاه! فسمِع بها بعضُ الأنصار ، وهو أبان بنُ النعمان بن بشير ، فأتاه فلطمه وقال له : يا بن الزّانية ، قطعتَ نفسها قطع اللهُ يَمينَك! فَلزِمه حتى رفعه إلى مصعب ، فقال : إنّ أمي مسلمة ، وادّعى شهادة بني قَفَل ، فلم يشهَد له أحد؛ فقال مصعب : خلّوا سبيلَ الفتى فإنه رأى أمراً فظيعاً ، فقال عمرُ بن أبي ربيعة القُرَشيّ في قتل مصعب عَمْرَةَ بنتَ النعمان بن بشير :

إنَّ مِـن أعْجَـبِ العجـائـبِ عِنـدِي ... قَتْـلَ بَيْضَـاءَ حُـرَّةٍ عُطْبـولِ
قُتِلَـتْ هكـذا علـى غيـرِ جُـرْمٍ ... إنَّ للهِ دَرَّهـا مِـن قَتيـلِ
كُتِـبَ القَتْـلُ والقِتَـالُ علينـا ... وعلـى المحْصنَـاتِ جَرُّ الـذُّيـولِ[1]

(٦/ ١١٢).

قال أبو مخنف : حدثني محمد بنُ يوسفَ ، أنّ مصعباً لقِي عبدَ الله بن عمر فسلّم عليه ، وقال له : أنا ابنُ أخيك مصعب ، فقال له ابنُ عمر : نعم ، أنتَ القاتلُ سبعةَ آلاف من أهل القبلة في غَداة واحدة! عِشْ ما استطعتَ! فقال مصعب : إنهم كانوا كفرة سَحَرة؛ فقال ابنُ عمر : والله لو قتلت عدَّتهم غَنَماً من تُراثِ أبيك ، لكان ذلك سَرَفاً ، فقال سعيد بن عبدِ الرّحمن بن حسّان بن ثابت في ذلك :

أتى راكبٌ بالأمر ذي النبأ العجِبْ ... بقتل ٱبنَة النعمان ذِي الدِّين والحَسَبْ
بقتـلِ فَتَـاةٍ ذاتِ دلٍّ سَتِيـرَةٍ ... مُهَـذَّبـة الأخـلاق والخِيـم والنسَـبْ
مطهَّـرةٍ مِـن نَسْـل قـوم أكـارِمٍ ... من المُؤْثِرين الخير في سالفِ الحِقَب
خليـلُ النبـيِّ المصطفَـى ونَصِيـرُهُ ... وصاحبُه في الحَرْب والنّكْبِ والكُرَب
أتـانِـي بـأنَّ المُلْحِـدِيـن تَـوَافَقُـوا ... على قَتلِها لا جُنِّبُوا القتلَ والسَّلَبْ
فـلا هَنَـأَتْ آلَ الـزبيـر معيشـةٌ ... وذاقُوا لباسَ الذُّلِّ والخوفِ والحَرَبْ
كـأنَّهـمُ إذ أَبـرَزُوهـا وقُطِّعـتْ ... بـأسيـافِهـمْ فـازُوا بِمَملكـة العَـرَبْ
ألـم تَعَجـبِ الأَقـوامُ مِـن قَتـلِ حـرَّةٍ ... من المُحْصَنات الدّين محمودةِ الأَدبْ!

---

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

مـن الغـافـلاتِ المـؤمنـاتِ ، بَـرِيئَـةٍ من الذَّم والبُهْتان والشَّكّ والكذِبْ
علينـا كتـابُ القَتـلِ والبـأْسِ واجـبٌ وهُنَّ العفَافُ في الحِجَال وفي الحُجُب
علـــى دِيـــنِ أجـــدادٍ لهـــا وأُبـــوَّةٍ كِرام مَضَت لم تُخْزِ أَهلاً ولم تُرِبْ
مـــن الخفِـــرات لا خَـــرُوجٌ بَـــذِيَّـــةٌ مُـلائِمَـة تَبغِـي على جَـارِهَـا الجُنـبْ
ولا الجارِ ذي القُرْبَى ولم تَدْرِ ما الخنا ولم تزدَلِف يوماً بسُوءٍ ولم تجِبْ
عَجِبْـتُ لهـا إذ كُفِّنَـتْ وَهْـيَ حَيَّـةٌ ألا إنَّ هذا الخَطْبَ من أعجَبِ العجَب[1]

(٦/ ١١٢ ـ ١١٣).

قال أبو جعفر: واقتصّ الواقديّ من خبر المختار بن أبي عُبَيد بعض ما ذكرْنا ، فخالف فيه مَنْ ذكرنا خبره ، فزعم أنّ المختار إنما أظهَر الخلاف لابن الزّبير عند قُدوم مُصعَب البَصْرة ، وأنّ مُصعَباً لما سار إليه فبلغه مسيرُه إليه بعث إليه أحمرُ بن شُميط البَجَليّ ، وأمَرَه أن يواقِعَه بالمَذار ، وقال: إنّ الفتح بالمَذار؛ قال: وإنما قال ذلك المختار لأنه قيل: إن رجلاً من ثَقيفَ يُفْتَح عليه بالمَذار فتحٌ عظيمٌ ، فظنّ أنه هو ، وإنما كان ذلك للحجّاج بن يوسفَ في قتاله عبَد الرّحمن بن الأشعث ، وأمر مصعبٌ صاحبَ مقدّمته عَبّاد الحَبَطيّ أن يسير إلى جَمْع المُختار فتقدّم وتقدّم معه عُبيدُ الله بنُ عليّ بن أبي طالب ، ونزل مصعب ، نهر البصريِّين على شطّ الفرات ، وحَفَرَ هُنالك نهراً فسُمِّيَ نهر البصريِّين من أجل ذلك ، قال: وخرج المختارُ في عشرين ألفاً حتى وقف بإزائهم وزحف مصعبٌ ومَن معه ، فوافَوْه مع الليل على تعبية ، فأرسل إلى أصحابه حين أمسَى: لا يَبرحنّ أحدٌ منكم موقفَه حتى يسمع منادياً ينادي: يا محمّد ، فإذا سمعتموه فاحمِلوا ، فقال رجل من القوم من أصحاب المختار: هذا والله كذّاب على الله ، وانحاز ومَنْ معه إلى المصعب ، فأمهل المُختار حتى إذا طلع القمرُ أمَر منادِياً ، فنادى: يا محمد؛ ثمّ حَمَلوا على مُصعَب وأصحابه فهزَموهم. فأدخلوه عسكرَه ، فلم يزالوا يقاتلونهم حتى أصبحوا وأصبحَ المختارَ وليس عنده أحد ، وإذا أصحابُه قد وَغَلوا في أصحاب مصعب ، فانصرف المختارُ منهزماً حتى دخل قصر الكوفة ، فجاء أصحابُ المختار حين أصبحوا ، فوقَفوا مَلِيّاً ، فلم يروا المختار ، فقالوا: قد قُتِل ، فهَرب منهم مَن أطاقَ الهَرَب ، واختَفَوْا في دُور

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

الكوفة ، وتوجّه منهم نحوَ القصر ثمانية آلاف لم يَجِدوا مَنْ يقاتل بهم ، ووجدوا المختارَ في القَصْر ، فدخَلوا معه ، وكان أصحاب المختار ، قتلوا في تلك الليلة من أصحابِ مصعب بشراً كثيراً ، فيهم محمد بنُ الأشعث ، وأقبل مُصعبٌ حينَ أصبح حتى أحاط بالقصر ، فأقام مصعبٌ يُحاصِره أربعةَ أشهُر يَخرُج إليهم في كلّ يوم فيقاتلهم في سوق الكوفة من وجه واحد ، ولا يُقدَر عليه حتى قُتِل المختار ، فلما قُتِل المختار بعث من في القصر يَطلب الأمان ، فأبى مصعب حتى نزلوا على حُكْمه ، فلما نزلوا على حُكْمه قَتَل من العرب سبعمئة أو نحو ذلك ، وسائرُهم من العَجم؛ قال: فلما خرجوا أراد مُصعَب أن يَقتُل العجم ويتركَ العَرَب ، فكلمه من معه ، فقالوا: أيّ دِينٍ هذا؟ وكيف ترجو النصرَ وأنت تَقتلُ العَجَم وتَترُك العَرَب ودِينُهم واحد! فقدَّمهم فضرَبَ أعناقَهم[1]. (٦/ ١١٤ ـ ١١٦).

قال أبو جعفر: وحدّثني عمرُ بن شَبّة ، قال: حدّثنا عليّ بن محمد ، قال: لما قُتِل المختار شاور مصعبٌ أصحابَه في المحصورين الذين نزلوا على حكمه ، فقال عبدُ الرحمن بنُ محمد بن الأشعث ومحمد بن عبد الرحمن بن سعيد بن قيس وأشباهُهم ممّن وَترهم المُختار: اقتُلهم ، وضَجّت ضَبّةُ ، وقالوا: دَمُ مُنذِر بن حسان؛ فقال عبيد الله بن الحُرّ: أيّها الأمير ، ادفعْ كلَّ رجل في يديك إلى عشيرته تمنّ عليهم بهم ، فإنهم إن كانوا قتَلونا فقد قتَلناهم ، ولا غِنى بنا عنهم في ثغورنا ، وادفع عبيدَنا الذين في يديك إلى مواليهم فإنهم لأيتامنا وأرامِلنا وضُعفائنا ، يردّونهم إلى أعمالهم ، واقتل هؤلاء الموالي ، فإنهم قد بدا كفرُهم ، وعظُم كِبرُهم ، وقلّ شُكرُهم. فَضَحِك مُصعَب وقال للأحنف: ما تَرَى يا أبا بَحْر؟ قال: قد أرادني زيادٌ فعَصيْته ـ يعرِّض بهم ـ فأمرَ مصعب القوم جميعاً فقُتِلوا ، وكانوا ستة آلاف ، فقال عُقْبة الأسَديّ:

قَتلتمْ ستَّةَ الآلافِ صَبْراً ... معَ العَهْدِ الموثَّقِ مكتَفِينَا
جعلتمْ ذِمّةَ الحَبطِيّ جِسْراً ... ذَلولاً ظَهرُهُ لِلواطِئينَا
وما كانوا غَداةَ دُعُوا فغُرُّوا ... بَعْهدِهِمُ بأَوّلِ حائِنِينَا
وكنتُ أَمرتُهمْ لو طاوَعُوني ... بضَرْبٍ في الأَزِقّة مُصْلتِيَنا

(١) في إسنادها محمد بن عمر الواقدي الكذاب.

وقُتِل المختارُ ـ فيما قيل ـ وهو ابنُ سبع وستين سنة لأربع عشرةَ خَلَتْ من شهر رمضان في سنة سبع وستين.

فلما فَرَغ مصعب من أمر المختار وأصحابه، وصار إليه إبراهيم بنُ الأشتر وجّه المهلب بن أبي صُفْرة على المَوْصِل والجزيرة وأذَرْبيجان وأرْمِينيَةَ وأقام بالكوفة. (٦/ ١١٦).

خبر عزل عبد الله بن الزبير أخاه المصعب

وفي هذه السنة عزل عبدُ الله بن الزبير أخاه مصعبُ بن الزّبير عن البصرة، وبَعَث بابنه حمزةَ بن عبد الله إليها، فاختُلِف في سبب عزله إيّاه عنها، وكيف كان الأمر في ذلك.

فقال بعضُهم في ذلك ما حدّثني به عمر، قال: حدّثني عليّ بن محمد قال: لم يزل المُصْعب على البَصرة حتى سار منها إلى المختار، واستَخلف على البصرة عُبيد الله بن مَعمر. فقُتِل المختار، ثمّ وفد إلى عبد الله بنِ الزبير فعزله وحبسه عنده، واعتَذَر إليه من عَزْله، وقال: والله إني لأعلم أنّك أحرَى وأكفى من حَمزةَ، ولكني رأيتُ فيه رأي عثمانَ في عبد الله بنِ عامر حين عَزَل أبا موسى الأشعريّ وولاّه. (٦/ ١١٧).

حدّثني عمرُ، قال: حدّثني عليّ بن محمد، قال: قَدِم حمزةُ البَصرة والياً، وكان جواداً سَخِيّاً مخلاًّ، يجود أحياناً حتى لا يَدَع شيئاً يملِكه، ويمنع أحياناً ما لا يمنع مِثلُه، فظهرتْ منه بالبَصرة خِفّة، وضعف، فيقال: إنه ركب يوماً إلى فَيْض البَصْرة، فلما رآه قال: إنّ هذا الغدير إن رَفقُوا به ليكفينّهم صَيْفَهم، فلما كان بعد ذلك ركب إليه فوافقهُ جازراً، فقال: قد رأيت هذا ذاتَ يوم، وظننت أن لن يكفيَهم، فقال له الأحنف: إنّ هذا ماءٌ يأتينا ثمّ يَغيض عنّا، وشخص إلى الأهواز، فلما رأى جبَلَها قال: هذا قُعَيْقِعان ـ لموضع بمكة ـ فسُمِّي الجبلُ قُعَيْقعانِ، وبعث إلى مَرْدَانْشَاه فاستحثّه بالخراج، فأبطأ به، فقام إليه بسَيْفه فضربه فقتله، فقال الأحنف: ما أحدّ سيفَ الأمير! (٦/ ١١٧).

حدّثني عمرُ ، قال: حدّثني عليّ بنُ محمد ، قال: لما خَلّط حمزةُ بالبصرة وظهر منه ما ظهر ، وهَمَّ بعبد العزيز بن بِشْر أن يضربَه؛ كتب الأحنف إلى ابن الزبير بذلك ، وسأله أن يعيد مُصعباً ، قال: وحمزة الذي عقد لعبد الله بن عُمير الليثيّ على قتال النّجدية بالبَحْرين. (٦/ ١١٧).

حدّثني عمرُ ، قال: حدّثنا عليّ بن محمد ، قال: لما عزل ابن الزّبير حمزةَ احتَمَل مالاً كثيراً من مال البصرة ، فعَرَض له مالكُ بن مِسْمَع ، فقال: لا ندعك تَخرج بأعْطياتِنا ، فضمِن له عُبيدُ الله بنُ عُبيدِ بنِ مَعمرَ العطاءَ ، فكَفّ ، وشخص حمزةُ بالمال ، فترك أباه وأتى المدينة ، فأودَع ذلك المال رجالاً ، فذَهبوا به إلاّ يهودياً كان أودَعه فوَفَى له ، وعَلِم ابنُ الزّبير بما صنع ، فقال: أبعَده الله! أردتُ أن أباهيَ به بني مَرْوان فنـكَص. (٦/ ١١٨).

وأمّا هشام بنُ محمد فإنه ذكر عن أبي مخنف في أمر مُصعَب وعزلِ أخيه إيّاه عن البَصْرة ورَدِّه إياه إليها غَيرَ هذه القصَّة ، والذِي ذكر من ذلك عنه في سياق خبر حُدّثتُ به عنه ، عن أبي المُخارِقِ الرّاسبيّ ، أنّ مُصعَباً لما ظَهَر على الكُوفة أقامَ بها سنة معزولاً عن البصرة ، عزله عنها عبدُ الله ، وبعث ابنَه حمزَة ، فمَكَث بذلك سنة؛ ثمّ إنه وَفد على أخيه عبد الله بمكة ، فردّه على البَصْرة.

وقيل: إنّ مصعباً لما فرغ من أمرِ المُختار انصَرَف إلى البصرة وولّى الكوفةَ الحارث بنَ عبد الله بن أبي ربيعة ، قال: وقال محمد بنُ عمر: لما قتل مُصعبٌ المختارَ ملكَ الكوفة والبصرة[١]. (٦/ ١١٨).

وحَجّ بالناس في هذه السنة عبد لله بنُ الزّبير ، وكان عامِلَه على الكُوفة مصعبٌ ، وقد ذكرتُ اختلاف أهلِ السيَر في العامل على البصرة.

وكان على قضاء الكُوفة عبدُ الله بن عُتبةَ بن مسعود ، وعلى قَضاءِ البَصْرة هِشامُ بنُ هُبيرة ، وبالشام عبدُ الملك بن مَرْوان.

وكان على خُراسان عبد الله بنُ خازم السُّلميّ. (٦/ ١١٨).

---

(١) في إسنادها هشام بن محمد بن السائب الكلبي الكذاب المتروك.

ثم دخلت سنة ثمان وستين
ذكر الخبر عمّا كان فيها من الأُمور الجليلة

فمن ذلك ما كان من ردّ عبد الله أخاه مُصعَباً إلى العراق أميراً ، وقد ذكرْنا السبب في ردّ عبد الله أخاه مُصعباً إلى العراق أمِيراً بعد عزله إياه ، ولما ردّه عليها أميراً بعث مصعبٌ الحارثَ بنَ أبي ربيعة على الكُوفة أميراً ، وذلك أنه بدأ بالبصرة مَرجِعَه إلى العراق أميراً بعد العزل ، فصار إليها .

ذكر الخبر عن رجوع الأَزارقة من فارس إلى العراق

وفي هذه السنة كان مَرجِعُ الأزارقة من فارسَ إلى العِراقِ حتى صاروا إلى قرب الكوفة ، ودخلوا المَدائن .

* ذكر الخبر عن أمرِهم ومسيرهم ومَرجِعهم إلى العِراق :

ذكر هشامٌ ، عن أبي مخنَف ، قال : حدّثني أبو المخارق الراسبيّ ، أنّ مُصْعباً وجّه عمرَ بنَ عُبيد الله بن مَعمرَ على فارسَ أميراً ، وكانت الأزارِقةَ لحقت بفارسَ وكرمانَ ونواحي أصبْهَان بعدما أوقَع بهم المهلب بالأهْواز ، فلما شخص المهلَّبُ عن ذلك الوجه ووُجِّه إلى المَوْصل ونواحيها عاملاً عليها ، وعمر بن عبيد الله بن معمر على فارسَ . انحطّت الأزارقةُ مع الزّبير بن الماحوز على عُمَر بن عبيد الله بفارسَ ، فلقيَهم بسَابورَ .

فقاتلَهَم قتالاً شديداً ، ثم إنه ظَفر بهم ظَفراً بيّناً ، غيرَ أنه لم يكن بينهم كثير قَتْلَى ، وذهبوا كأنهم على حاميَة ، وقد تركوا على ذلك المَعرَكة[١] . (٦/ ١١٩) .

قال أبو مخَنف : فحدّثني شيخٌ للحيِّ بالبَصْرِة ، قال : إني لأسمعُ قراءةَ كتاب عمرَ بن عبيد الله :

بسم الله الرّحمن الرّحيم ، أما بعد : فإني أخبرُ الأميرَ أصلَحه الله أني لقيتُ الأزارقة التي مَرَقَتْ من الدّين واتبعتْ أهواءها بغيرِ هُدىً من الله ، فقاتلتُهم

---

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك .

بالمسلمين ساعةً من النهار أشدَّ القتال ، ثمّ إنّ الله ضرب وُجوهَهم وأدبارَهم ، ومنحنا أكتافَهم ، فقتل اللهُ منهم مَن خابَ وخَسِر ، وكلٌّ إلى خُسْران ، فكتبتُ إلى الأمير كتابي هذا وأنا على ظَهْر فَرَسي في طلب القوم ، أرجُو أن يَجُذَّهم الله إن شاء الله ، والسلام.

ثم إنّه تَبِعهم ومضَوا من فورهم ذلك حتَّى نزلوا إِصْطَخْرَ ، فسار إليهم حتَّى لقيَهم على قنطرة طَمَستانَ ، فقاتلهم قتالاً شديداً ، وقُتل ابنُه.

ثمّ إنه ظَفِر بهم ، فقَطعوا قنطرةً طَمَسْتانَ ، وارتفعوا إلى نحو من أصبهان وكرْمان ، فأقاموا بها حتَّى اجْتَبروا وقَوِوْا ، واستعدّوا وكَثُروا ، ثمّ أقبَلوا حتّى مرّوا بفارسَ وبها عمرُ بنُ عُبيد الله بن مَعمر ، فقطعُوا أرضَه من غير الوَجْه الَّذي كان فيه أخذوا على سابور ، ثمّ خرجوا على أرَّجانَ ، فلمَّا رأى عمرُ بن عُبيد الله أنْ قد قطعت الخوراج أرضَه متوجِّهة إلى البَصْرة خشيَ ألاّ يحتمِلها له مُصعَب بنُ الزبير ، فشمَّر في آثارهم مُسرِعاً حتى أتى أرَّجان ، فوجدهم حين خرجوا منها متوجهين قِبَل الأهواز ، وبلَغ مُصعباً إقبالُهم ، فخَرج فعسكر بالناس بالجِسر الأكبر ، وقال: والله ما أدري ما الَّذِي أغنَى عنّي أنْ وضعتُ عمرَ بن عُبيد الله بفارسَ ، وجعلتُ معهُ جُنداً أجرِي عليهم أرزاقَهم في كلّ شهر ، وأوَفِّيهم أعطياتِهم في كل سنة ، وآمُرُ لهم منِ المَعاوِن في كلّ سنة بمثلِ الأعْطيات ، تَقطَع أرضَه الخوارج إليّ! وقد قطعتُ علَّته فأمددتُه بالرّجال وقوّيتُهم والله لو قاتَلهم ثم فرّ كان أعذَرَ له عندي ، وإن كان الفارّ غيرَ مقبولِ العذر ، ولا كريم الفعل.

وأقبلت الخوارجُ وعليهم الزبيرُ بن الماحُوز حتَّى نزلوا الأهواز ، فأتْتهم عيونهم أن عمر بن عُبيد الله في أثرهم ، وأنّ مصَعب بن الزّبير قد خرج من البصْرة إليهم ، فقام فيهم الزُّبيرُ فحَمِد الله وأثنَى عليه ثمّ قال: أمَّا بعد ، فإنّ من سوء الرأي والحيرة وقُوعُكم فيما بين هاتَيْن الشَّوْكَتين ، انْهضوا بنا إلى عدُوّنا نَلقَهم من وجه واحد ، فسار بهم حتَّى قطع بهم أرضَ جُوخَى ، ثمّ أخذ على النَّهْرَوانات ، ثمّ لزم شاطئَ دِجْلة حتى خرج على المدائن ، وبها كرْدَم بنُ مَرثَد بن نجبَة الفَزَارِيّ ، فشنّوا الغارَة على أهلِ المَدائن ، يُقتّلون الوِلدان والنساءَ والرّجال ، ويبقُرون الحَبالى ، وهرب كردم ، فأقبلوا إلى ساباطَ فوضَعوا أسيافَهم في النّاس ، فقتَلوا أمّ ولد لربيعة بن ماجد ، وقتلوا بُنانة ابنة أبي يزيد بن عاصم

الأزديّ ، وكانت قد قرأت القرآن ، وكانت من أجملِ النَّاس ، فلمَّا غشوها بالسيوف قالت: ويْحَكُم! هل سمعتم بأنّ الرجال كانوا يُقتّلون النساء! ويْحَكم! تَقتلون من لا يبسط إليكم يداً ، ولا يريدُ بكم ضَرّاً ، ولا يَملِك لنفسِه نَفعاً! أتقتلون من يُنشَّأ في الحِلْية وهو في الخِصام غيرُ مُبين! فقال بعضُهم: اقتلُوها.

وقال رجل منهم: لو أنكم تركتموها! فقال بعضهُم: أعَجَبك جمالها يا عدوّ الله! قد كفرت وافتَتَنْت ، فانصرف الآخرُ عنهم وتركَهم ، فظننَّا أنَّه فارَقَهم ، وحملوا عليها فقتلوها ، فقالت رَيْطةُ بنتُ يزيدُ: سبحان الله! أترَوْن اللهَ يَرضى بما تَصْنَعون! تَقتُلون النساء والصّبيان ومَن لم يُذنب إليكم ذَنْباً! ثمّ انصرفتْ وحملوا عليها وبين يديها الرُّواع بنتُ إياس بن شُرَيح الهَمْدانيّ ، وهي ابنة أخيها لأمّها ، فحَمَلوا عليها فَضَرَبُوَها على رأسِها بالسيف ، ويصيب ذُبابُ السيفِ رأسَ الرّوَاعِ فسقطتا جميعاً إلى الأرض ، وقاتلهم إياسُ بن شُرَيح ساعةً ، ثمّ صُرِع فوَقع بينَ القتلى ، فنزَعوا عنه وهم يرَون أنَّهم قد قَتَلوه ، وصُرِع منهم رجل من بَكر بن وائل يقال له: رَزِين بن المتوكِّل.

فلمَّا انصرَفوا عنهم لم يَمت غيرُ بُنانة بنت أبي يزيد ، وأمّ ولد ربيعة بن ناجد ، وأفاقَ سائرُهم ، فسقَى بعضُهم بعضاً من الماء ، وعصبوا جراحاتِهم ثم استأجرُوا دوابّ ، ثمّ أقبلوا نحوَ الكوفة[1]. (٦/ ١١٩ ـ ١٢١).

قال أبو مخْنَف: فحدّثتْني الرّواع ابنةُ إياس ، قالت: ما رأيتُ رجلاً قطّ كان أجبن من رجل كان معنا وكانت معه ابنتُه ، فلمَّا غُشِينا ألقَاها إلينا وهرب عنها وعنّا ولا رأينا رجلاً قطُّ كانَ أكرم من رجل كان معنا ، ما نعرِفه ولا يَعرِفنا ، لمَّا غُشِينا قاتَل دونَنا حتَّى صُرِع بيننا ، وهو رُزين بنُ المتوكّل البَكْريّ ، وكان بعد ذلك يزورُنا ويُواصِلنا ، ثمّ إنَّه هلك في إمارة الحَجَّاج ، فكانت وَرَثَـته الأعرابُ ، وكان من العِباد الصالحين[2]. (٦/ ١٢١ ـ ١٢٢).

قال هشام بنُ محمَّد ـ وذكره عن أبي مخنَف ـ قال: حدّثني أبي ، عن عمِّه أنّ مُصعَب بن الزّبير كان بعث أبا بكر بن مِخنَف على إسْتان العال ، فلمَّا قَدِم

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

(٢) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

الحارثُ بن أبي ربيعة أقصاه، ثم أقرّه بعد ذلك على عَمله السَّنة الثانية، فلمَّا قَدِمت الخوارجُ المدائِنَ سرَّحوا إليه عصابةً منهم، عليها صالحُ بنُ مِخراق، فلقِيَه بالكرخ فقاتَله ساعةً، ثم تَنازَلوا فنَزل أبو بكر ونَزلت الخَوارج، فقُتل أبو بكر ويَسار مولاه وعبدُ الرّحمن بنُ أبي جِعال، ورجل من قومه، وانْهَزم سائرُ أصحابه، فقال سُرَاقَةُ بنُ مِرْداس البارقيّ في بطنٍ مِنَ الأزْد:

ألا يا لقَومي للهُمومِ الطَّوارِق ... وللحَدَث الجائي بإحدَى الصَّفائِق
ومَقْتَل غِطْريفٍ كريمٍ نِجارُهُ ... من المُقْدِمينِ الذّائدِين الأصادِقِ
أَتاني دُوَيْن الخَيْف قتلُ ٱبن مِخنَفٍ ... وقد غوّرَتْ أُولى النُّجوم الخَوافِقِ
فقُلتُ: تَلَقَّاكَ الإلهُ برحمةٍ ... وصلَّى عليكَ اللهُ ربُّ المَشارِقِ
لحا الله قوماً عَرَّدُوا عنكَ بُكرةً ... ولم يَصبرُوا للّامِعاتِ البَوارقِ
تولَّوْا فأَجْلَوا بالضُّحَى عن زَعِيمِنا ... وسَيِّدِنا في المأزِقِ المُتَضايق
فأَنت مَتى ما جِئتَنا في بُيوتنَا ... سمِعْتَ عَويلاً مِنْ عَوانٍ وعَاتِقِ
يُبَكِّينَ محمودَ الضَّريبة ماجداً ... صبوراً لدى الهَيجاءِ عندَ الحقائق
لقد أصبَحتْ نفسِي لذاكَ حَزينةً ... وشابتْ لِمَا حمّلتُ منه مفارقي[(١)]

(٦/ ١٢٢ ـ ١٢٣)

قال أبو مِخنفَ: فحدّثني حَذْرة بن عبدِ الله الأزْديّ، والنَّضر بنُ صالح العَبْسيّ، وفضيل بن خَديج، كلهم أخبرنيه أن الحارث بن أبي ربيعة [الملقب بالقُباع] أتاه أهلُ الكوفة، فصاحوا إليه وقالوا له: اخرُج فإنّ هذا عدوّ لنا قد أظَلّ علينا ليست له تقيَّة، فخرج وهو يكدّ كدّاً حتَّى نزل النُّخيلة فأقَامَ بها أيَّاماً، فَوَثب إليه إبراهيمُ بنُ الأشتر، فحَمِد الله وأثنَى عليه ثمّ قال: أمَّا بعد، فإنَّه سار إلينا عدوّ ليست له تقيَّة يَقتل الرجل والمرأة والمولود، ويُخِيف السَّبيل، ويُخرّب البلادَ، فانْهض بنا إليه، فَأْمُر بالرّحيل، فخرَج فنزل دَير عبدِ الرحمن، فأقام فيه حتَّى دخل إليه شَبَث بن رِبْعيّ، فكلَّمه بنحو ممَّا كلّمه به ابنُ الأشتر، فارتحل ولم يكدّ، فلمَّا رأى الناسُ بُطْء سَيْره رَجزوا به فقالوا:

سَار بنا القُباعُ سَيْراً نُكْرَا ... يَسِيرُ يوماً ويُقِيمُ شَهْرَا

---

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

فأشخصوه من ذلك المكان ، فكلَّما نزل بهم منزلاً أقامَ بهم حتَّى يضجَّ الناسُ به من ذلك ، وَيصيحوا به حولَ فُسْطاطه ، فلم يَبلُغ الصَّراةَ إلا في بِضعةَ عشرَ يوماً ، فأتى الصّراةَ وقد انتهى إليها طَلائعُ العَدُوّ وأوائلُ الخُيول ، فلما أتتْهم العيونُ بأنَّه قد أتاهم جماعةُ أهلِ المِصر قَطَعوا الجِسْر بينهم وبينَ النَّاس ، وأخذ الناسُ يَرتَجزون :

إنّ القُبَـــاعَ ســـارَ سَيْـــراً مَلْسَـــا بيـنَ دَبِيـرَى ودَبَـاهَـــا خَمْسَـــا[1]

(٦/ ١٢٣)

قال أبو مخنف : وحدّثني يونسُ بن أبي إسحاق ، عن أبيه أنّ رجلاً من السَّبيع كان به لَمَم ، وكان بقرية يقال لها جَوْبَر عند الخرّارة ، وكان يُدعَى سِمَاكَ بنَ يزيد ، فأتت الخوارجُ قريتَهُ فأخَذوه وأخذُوا ابنتَه ، فقدّموا ابنتَه فقتلُوها ، وزعم لي أبو الرّبيع السَّلوليّ أنّ اسم ابنته أمّ يزيد ، وأنَّها كانت تقول لهم : يا أهلَ الإسلام ، إن أبي مُصاب فلا تَقتُلوه ، وأمَّا أنا فإنَّما أنا جارية ، والله ما أتيتُ فاحشةً قطّ ، ولا آذيتُ جارة لي قطّ ، ولا تطلَّعتُ ولا تشرّفْتُ قط ، فقدَّموها ليقتلوها ، فأخذتْ تُنادي : ما ذَنْبي ما ذَنْبي! ثم سقطتْ مَغشيّاً عليها أو مَيتَة ثم قطَّعوها بأسيافهم ، قال أبو الرّبيع : حدّثتْني بهذا الحديث ظِئرٌ لها نصْرَانيَّةٌ من أهل الخَوَرْنَق كانت معها حين قُتلتْ[2] . (٦/ ١٢٣ ـ ١٢٤).

قال أبو مخنف : حدّثني يونسُ بنُ أبي إسحاق ، عن أبيه ، أنّ الأزارقة جاءت بِسِماك بن يزيد معهم حتَّى أشرَفوا على الصَّراة ، قال : فاستقبل عسكرَنا ، فرأى جماعة الناس وكثرتهم ، فأخَذ ينادِينا ويَرفَع صوتَه : اعبرُوا إليهم فإنَّهم فَلٌّ خبيث ، فضربوا عند ذلك عُنقَه وصَلبوه ونحن نَنظُر إليه ، قال : فلمَّا كان الليلُ عبرتُ إليه وأنا رجل من الحيّ . فأنزَلْناه فدَفَنَّاه[3] . (٦/ ١٢٤).

قال أبو مخنف : حدّثني أبي أنّ إبراهيمَ بنَ الأشتر قال للحارث بن أبي ربيعة : اندب معي الناسَ حتَّى أعبر إلى هؤلاء الأكلُب ، فأجيئَك برؤوسِهم الساعَة ؛ فقال

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.
(٢) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.
(٣) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

شَبَث بن رِبْعيّ وأسماءُ بنُ خارجة ويزيدُ بن الحارث ومحمَّد بن الحارث ومحمَّد بن عُمَير: أصلحَ الله الأمير! دَعْهم فليذْهبوا، لا تَبدأهم؛ قال: وكأنَّهم حَسَدوا إبراهيمَ بنَ الأشتر[1]. (٦/ ١٢٤).

قال أبو مِخنَف: وحدّثني حَصِيرةُ بن عبدِ الله وأبو زهير العَبْسيّ أنّ الأزارقةَ لما انتهوا إلى جِسْر الصّراة فرأوْا أنّ جماعة أهلِ المِصر قد خرجوا إليهم، قطعوا الجِسرَ واغْتَنم ذلك الحارث، فتحبّس، ثم إنَّه جلس للناس فَحَمِد الله وأثنَى عليه، ثمّ قال: أمَّا بعد، فإنّ أوّل القِتال الرِّميًا بالنّبل، ثمّ إشراع الرّماح، ثمّ الطعن بها شَزْراً؛ ثمّ السَّلّة آخر ذلك كلّه.

قال: فقام إليه رجل فقال: قد أحسَن الأمير أصلَحه الله الصّفة، ولكنْ حتّام نَصْنع هذا وهذا البحر بيننا وبين عدوّنا! مُرْ بهذا الجِسْر فليُعَدْ كما كان، ثم اعبُرْ بنا إليهم، فإنّ الله سيريك فيهم ما تُحبّه، فأمر بالجسر فأعيدَ، ثم عبر الناسُ إليهم فطاروا حتَّى انتَهوْا إلى المَدائن، وجاء المسلمون حتَّى انتهوا إلى المدائن، وجاءت خيل لهم فطاردت خيلاً للمسلمين طَرْداً ضَعِيفاً عند الجِسْر، ثمّ إنَّهم خرجوا منها فأتبعهم الحارثُ بنُ أبي رَبيعةَ عبدَ الرحمن بنَ مِخنَف في ستَّة آلاف ليُخرجهم من أرض الكوفة، فإذا وَقعوا في أرضِ البصرة خَلاّهم فأتبعهم حتَّى إذا خَرَجوا من أرضِ الكوفة ووقعوا إلى أصبهان انصرف عنهم ولم يقاتلهم، ولم يكن بينه وبينهم قِتال، ومضوا حتَّى نزلوا بعَتَّاب بن وَرْقَاء بِحَيّ، فأقاموا عليه وحاصروه، فخرج إليهم فقاتلهم فلم يُطِقهم، وشَدّوا على أصحابه حتَّى دخلوا المدينة، وكانت أصبهان يومئذ طُعْمةً لإسماعيل بن طَلحة من مُصعَب بن الزبير، فبعث عليها عتَّاباً، فصَبَر لهم عتَّاب، وأخَذ يخرج إليهم في كلّ يوم فيُقاتِلهم على باب المدينة، ويَرْمُون من السور بالنَّبْل والنشّاب والحِجَارة، وكان مع عتّاب رجل من حَضْرموت يقال له أبو هُرَيرة بنُ شريح، فكان يَخرُج مع عتَّاب، وكان شجاعاً، فكان يَحمِل عليهم ويقول:

كيف ترَوْن يا كِلاَبَ النَّارِ ... شَدَّ أبي هُرَيْرَةَ الهَرَّارِ
يهِرُّكم باللَّيلِ والنهارِ ... يا بن أبي الماحوزِ والأَشْرارِ
كيف تُرَى جَيَّ على المِضْمارِ!

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

فلمَّا طال ذلك على الخوارج من قوله كَمن له رجل من الخَوارج يظنون أنَّه عبَيدة بن هلال ، فخرج ذات يوم فصنع كما كان يصنع ، ويقول كما كان يقول: إذ حَمَل عليه عبَيدة بنُ هلال فضَرَبه بالسيف ضربةً على حبل عاتِقه فصرعه ، وحَمَل أصحابُه عليه فاحتملوه فأدخَلوه وداوَوْه ، وأخذَت الأزارقةُ بعد ذلك تُناديهم يقولون: يا أعداءَ الله ، ما فَعَل أبو هُرَيرة الهرّار؟ فينادونهم: يا أعداء الله ، والله ما عليه من بأس ، ولم يلبَث أبو هُريرة أن بَرِئَ ، ثمّ خرج عليهم بعدُ ، فأخذوا يقولون: يا عدوَّ الله ، أما والله لقد رجونا أن نكون قد أَزْرْناكَ أمَّك؛ فقال لهم: يا فسَّاق ، ما ذكركم أميّ! فأخذوا يقولون: إنه ليغضب لأمّه وهو آتيها عاجلاً ، فقال له أصحابُه: وَيْحك! إنَّما يَعنُون النَّارَ ، فَفطِن فقال: يا أعداء الله ، ما أعقَّكم بأمّكم حين تنتفون منها! إنَّما تلك أمكم ، وإليها مَصيرُكم.

ثمّ إنّ الخوارجَ أقامت عليهم أشهراً حتى هلك كُراعُهم ، ونفِدَت أطعمتُهم ، واشتدّ عليهم الحِصار ، وأصابهم الجَهْد الشديد ، فدعاهم عتَّاب بنُ ورقاء فحَمِد الله وأثنى عليه ثمّ قال: أمَّا بعد أيَّها الناس ، فإنه قد أصابكم من الجُهَد ما قد تَرَون ، فوالله إن بقي إلا أن يموتَ أحدُكم على فِراشه فيجيءَ أخوه فيَدِفنه إن استطاع؛ وبالحَري أن يَضعُف عن ذلك ، ثمّ يموت هو فلا يجد من يَدفنه ، ولا يصلّي عليه ، فاتَّقوا الله ، فوالله ما أنتم بالقليلِ الَّذين تهُون شوكتُهم على عدوّهم ، وإنّ فيكم لَفُرسانُ أهلِ المِصْر ، وإنَّكم لصُلَحاءُ ، من أنتم منه! اخرجوا بنا إلى هؤلاء القوم وبكم حيَاة وقُوَّة قبلَ ألاّ يستطيع رجلٌ منكم أن يمشي إلى عدوّه من الجَهْد ، وقبلَ ألاّ يستطيعَ رجلٌ أن يمتنع من امرأة لو جاءتْه ، فقَاتلَ رجل عن نفسه وصبر وصدق ، فوالله إني لأرجو إنْ صَدقتموه أن يُظفركم الله بهم ، وأن يُظهِركم عليهم ، فناداه الناسُ من كل جانب: وُفِّقتَ وأصبتَ ، اخرُج بنا إليهم ، فجمع إليه الناس من الليل ، فأمرَ لهم بعَشاء كثير ، فعَشِيَ الناسُ عنده؛ ثم إنَّه خرج بهم حين أصبح على راياتهم ، فصبَّحهم في عسكرهم وهم آمِنون من أن يُؤتوا في عسكرهم ، فشَدّوا عليهم في جانبه ، فضارَبوهم فأخلوا عن وجه العسكر حتَّى انتهوا إلى الزّبير بن الماحوز ، فنزل في عِصابة من أصحابه فقاتَل حتى قُتِلَ ، وانحازت الأزارقةُ إلى قَطَريّ ، فبايعوه ، وجاء عَتَّاب حتَّى دخل مدينتَه ، وقد أصاب من عسكرهم ما شاء ، وجاء قَطريّ في أثره كأنه يريد أن

يقاتله ، فجاء حتى نزل في عسكر الزّبير بن الماحُوز ، فتزعم الخوارجُ أنّ عيْناً لقَطَريّ جاءه فقال: سمعتُ عتَّاباً يقول: إنّ هؤلاء القومَ إنْ رَكِبوا بَناتِ شحَّاج ، وقادُوا بَناتِ صهَّال ، ونزلوا اليوم أرضاً وغداً أخرى ، فبالحَرِيّ أن يبقوا؛ فلمَّا بلغ ذلك قَطَرِيّاً خرج فذهب وخلاّهم[1]. (٦/ ١٢٤ ـ ١٢٧).

قال أبو مخنَف: قال أبو زهير العبْسيّ وكان معهم: خرجْنا إلى قَطريّ من الغد مُشاةً مُصلتين بالسيوف؛ قال: فارتحلوا والله فكان آخر العهد بهم ، قال: ثمّ ذهب قطَريّ حتَّى أتى ناحيةً كِرْمان فأقام بها حتَّى اجتمعت إليه جموعٌ كثيرة ، وأكل الأرض واجتبى المال وقوي ، ثم أقبَل حتَّى أخذ في أرض أصبهان ، ثم إنَّه خرج من شِعْب ناشِط إلى أيذَج ، فأقام بأرضِ الأهواز والحارث بن أبي ربيعة عامل المُصَعب بن الزبير على البصرة ، فكتب إلى مصعب يُخبره أنّ الخوارجَ قد تحدّرتْ إلى الأهْواز ، وأنَّه ليس لهم إلا المهلّب ، فبعث إلى المهلَّب وهو على المَوْصِل والجزيرة ، فأمرَه بقتال الخوارج والمَسير إليهم ، وبعث إلى عمَله إبراهيمَ بنَ الأشتر ، وجاء المهلَّب حتى قَدِم البصرة ، وانتَخَب الناس ، وسار بمن أحَبّ ، ثمّ توجَّه نحو الخَوارج ، وأقبَلوا إليه حتَّى التقَوا بسُولاَفَ ، فاقتتلوا بها ثمانيةَ أشهُر أشدّ قِتال رآه الناس ، لا يُنقع بعضهم لبعض من الطَّعن والضَّرب ما يَصُدّ بعضهم عن بعض[2]. (٦/ ١٢٧).

قال أبو جعفر: وفي هذه السَّنة كان القَحْطُ الشديدُ بالشام حتَّى لم يَقدِروا من شِدّته على الغَزْو.

وفيها عَسكر عبدُ الملك بنُ مروانَ ببُطنانِ حَبِيب من أرضِ قنَّسْرِين ، فمُطِروا بها ، فَكَثُر الوحل فسمَّوْها بُطْنان الطّين ، وشَتَا بها عبدُ الملك ، ثمّ انصرفَ منها إلى دِمشقَ.

وفيها قتل عبيد الله بن الحرّ. (٦/ ١٢٧).

---

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

(٢) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

ذكر الخبر عن مقتل عبد الله بن الحرّ

* ذكر الخبر عن مقتله والسبب الذي جرّ ذلك عليه:

رَوَى أحمدُ بنُ زهير، عن عليّ بن محمَّد، عن عليّ بن مجاهد، أنّ عُبيدَ الله بن الحُرّ كان رجلاً من خِيار قومِه صَلاحاً وفضلاً، وصلاةً واجتهاداً، فلمَّا قُتل عثمانُ وهاجَ الهَيْجُ بين عليّ ومعاوية، قال: أما إن الله ليعلم أني أحبّ عثمانَ، ولأنصُرنَّه ميّتاً، فخرج إلى الشام، فكان مع معاوية، وخرج مالكُ بنُ مِسمَع إلى معاوية على مثل ذلك الرأي في العثمانيّة، فأقام عُبيدُ الله عندَ معاوية، وشَهِد معه صِفّين، ولم يزل معه حتَّى قُتل عليّ عليه السلام، فلمّا قُتِل عليّ قَدِم الكوفةَ فأتى إخوانَه ومن قد خَفّ في الفتْنة، فقال لهم: يا هؤلاء، ما أرَى أحداً ينفَعه اعتزالُه، كنَّا بالشام، فكان من أمر معاوية كَيْتَ وكَيْت، فقال له القوم: وكان من أمر عليّ كَيْت وكَيْت، فقال: يا هؤلاء، إنْ تُمكِننا الأشياء فاخلعوا عُذرَكم، واملِكوا أمرَكم؛ قالوا: سنلتقِي، فكانوا يلتقون على ذلك.

فلما مات معاوية هاج ذلك الهَيْج في فتنة ابن الزبير، قال: ما أرى قريشاً تنصِف، أين أبناءُ الحَرائر! فأتاه خَلِيعُ كلّ قبيلة، فكان معه سبعمئة فارس، فقالوا: مُرنا بأمرِك، فلمَّا هَرَب عبيدُ الله بنُ زياد ومات يَزيدُ بنُ معاوية، قال عُبيدُ الله بن الحرّ لِفتْيانه: قد بيَّن الصّبْحُ لِذي عَيْنَيْن، فإذا شئتم! فخرج إلى المَدائن فلم يَدع مالاً قُدِّم من الجَبَل للسّلطان إلاّ أخذه، فأخَذ منه عِطاءَه وأعطية أصحابِه، ثم قال: إنّ لكم شركاءَ بالكوفة في هذا المال قد استوجَبُوه، ولكن تعجّلوا عطاءَ قابلٍ سَلَفاً، ثم كتب لصاحِبِ المال براءةً بما قبض من المال، ثمّ جعل يتقصَّى الكُوَر على مِثل ذلك، قال: قلت: فهل كان يتناول أموال الناس والتّجار؟ قال لي: إنّك لغيرُ عالِم بأبي الأشْرس، والله ما كان في الأرض عَرَبيٌّ أغْيَر عَنْ حُرَّة ولا أكفَّ عن قبيح وعن شَراب منه، ولكن إنَّما وضعه عند الناس شِعْرُه، وهو من أشعر الفِتيان، فلم يَزَل على ذلك من الأمر حتَّى ظهر المُختار، وبَلَغه ما يَصنَع بالسَّواد، فأمر بامرأته أمّ سَلَمة الجُعفِيّة فحُبست، وقال: والله لأقتُلنَّه أو لأقتلنّ أصحابه، فلمَّا بلغ ذلك عُبيدَ الله بنَ الحُرّ أقبلَ في فِتْيانه حتَّى دخل الكوفة لَيْلاً، فكَسَرَ بابَ السجن، وأخرَج امرأته وكلَّ امرأة ورجلٍ كان

فيه ، فبعث إليه المختار من يقاتله ، فقاتلهم حتَّى خرج من المِصْر ، فقال حينَ أخرج امرأته من السجن :

أَلَم تَعْلَمي يا أمَّ تَوبَةَ أَنَّني ... أنَا الْفَارِسُ الحَامِي حَقَائِقَ مَذْحِجِ
وأنّي صَبَحتُ السِّجْنَ في سوْرة الضُّحَى ... بكلِّ فَتىً حامي الذِّمار مُدَجَّجِ
فما إنْ بَرِحْنَ السجن حتى بدا لنا ... جَبِينٌ كقَرْنِ الشمس غَيْرُ مُشَنَّجِ
وخدٌّ أَسِيل عن فَتَاةٍ حَيِيَّةٍ ... إلَينا سقاها كل دانٍ مُثَجِّجِ
فما العيش إلا أن أَزُورَكِ آمِناً ... كعادتِنا من قبْل حَرْبي ومُخْرَجي
وما أَنْتِ إلا همَّةُ النفس والهوى ... علَيْكِ السلامُ من خليط مُسَحِّجِ
وما زلتُ محْبوساً لحبسكِ وَاجِماً ... وإنِّي بما تَلْقَيْن من بَعْدِه شَجِ
فبالله هَلْ أَبْصَرْتِ مِثليَ فارِساً ... وقد وَلجُوا في السجن من كُلِّ موْلِجِ!
ومثلي يُحامي دون مِثلِكِ إنَّني ... أَشُدُّ إذا ما غَمْرَة لم تفرَّجِ
أضارِبهم بالسيف عَنْكِ لتَرجِعي ... إلى الأَمن والعيش الرفيعِ المُخَرفَجِ
إذا ما أَحاطوا بي كررتُ عليْهمُ ... كَكَرِّ أبي شِبْلين في الخِيس مُحْرَجِ
دعوتُ إليّ الشَّاكريَّ ابنَ كامل ... فوَلَّى حَثِيثاً رَكْضُهُ لم يُعَرِّجِ
وإن هتَفُوا باسمي عَطَفْتُ عَلَيْهِمُ ... خُيُولَ كِرَامِ الضرب أكثرُهَا الوَجِي
فلا غَرْوَ إلاّ قولَ سَلْمَى ظَعينَتي : ... أما أَنْتَ يا بن الحُرِّ بالمُتَحرِّجِ
دَعِ القَوْمَ لا تَقْتُلهُم وانجُ سالماً ... وشَمِّرْ هَداكَ اللهُ بالخَيل فاخْرُجِ
وإني لأرجُو يا بنة الخَير أَن أُرَى ... على خير أَحْوَال المُؤَمّلِ فارتجي
ألا حبَّذَا قولي لأَحْمَر طَيِّءٍ ... ولا بن خُبَيْب قد دنا الصبْح فادلج
وقولي لهذا سِرْ وقولي لذا ارتحِلْ ... وقولي لذا من بعد ذلك أَسرِج

وجعل يعبث بعُمّالِ المختار وأصحابِه ، ووَثبتْ هَمْدان مع المختار فأحرقوا دارَه ، وانتهبوا ضيْعته بالجُبّة والبُداة ، فلما بلغه ذلك سار إلى مَاه إلى ضِياع عبدِ الرحمن بن سعيد بن قيس ، فأنهبها وأنهب ما كان لهمْدانَ بها ، ثمّ أقبل إلى السَّواد فلم يدع مالاً لهَمْدانيّ إلا أَخذَه ، ففي ذلك يقول :

وما تَركَ الكذّابُ مِنْ جُلِّ مالِنَا ... ولا الزرقُ من همَدَانَ غيرَ شريدِ
أفي الحَق أن يَنْهبْ ضياعِيَ شاكرٌ ... وتأْمنَ عندي ضَيْعَة ابنِ سَعيد!
أَلم تَعْلَمي يا أُمَّ توبَةَ أَنَّني ... على حدثان الدهر غَيْرُ بَليدِ

أَشُدُّ حيازيمي لكلّ كريهَةٍ وإني على ما ناب جدُّ جَليدِ
فإن لم أُصَبِّحْ شاكراً بكتيبَةٍ فعالجتُ بالكفَّين غُلَّ حَديدِ
هُمُ هدموا داري وقادوا حليلتي إلى سِجْنِهِمْ والمسلمون شهُودي
وهم أَعجلوها أن تَشُدَّ خمارَها فيا عَجباً هلِ الزمان مقيدي!
فما أنا بابن الحُرّ إن لم أرُعْهُمُ بِخَيلٍ تعادى بالكماةِ أُسُودِ
وما جَبُنَتْ خيلي ولكن حَملتُها على جَحْفلٍ ذي عُدةٍ وعَديدِ

وهي طويلة.

قال: وكان يأتي المَدائنَ فيمرّ بعمَّال جُوخَى فيأخذ ما معهم من الأمْوال، ثمّ يميل إلى الجَبَل، فلم يَزَل على ذلك حتَّى قُتِلَ المختار، فلما قُتِل المختار قال الناس لمصعب في ولايته الثانية: إن ابن الحُرّ شاقّ ابن زياد والمختار، ولا نأمَنهُ أن يثب بالسواد كما كان يفعل، فحبسه مُصعَب فقال ابن الحُرّ:

من مُبلغُ الفِتْيَانِ أنَّ أخاهُمُ أَتى دونَهُ بابٌ شَديدٌ وحاجبُهْ
بمنْزلة ما كان يرْضى بمثلِهَا إذا قام عنَّته كبولٌ تجَاوبُهْ
على الساق فوق الكعب أَسْوَدُ صامتٌ شديدٌ يُداني خَطْوَهُ ويُقَارِبُهْ
وما كان ذا من عُظم جُرْمٍ جَنيْتُهُ ولكن سَعى الساعي بما هُوَ كاذِبُهْ
وقد كان في الأرض العرِيضَةِ مسلكٌ وأيُّ امرئٍ ضاقَتْ عليه مذاهِبُهُ!
وفي الدهر والأيّام للمْرءِ عِبْرَةٌ وفيما مضى إن ناب يَوْماً نوائبُهْ

فكلَّم عُبيدُ الله قوماً من مَذحجَ أن يأتوا مُصعباً في أمرِه، وأرسل إلى وجوههم، فقال: ائتوا مصعباً فكلّموه في أمري ذاته، فإنَّه حبَسَني على غير جُرْم، سعى بي قومٌ كذبةٌ وخَوّفُوه ما لم أكن لأفعله، وما لم يكن من شأني، وأرسل إلى فتيان من مَذْحج وقال: البَسوا السلاح، وخُذُوا عدّة القتال، فقد أرسلتُ قوماً إلى مُصعب يكلمونه في أمري، فأقِيموا بالباب، فإن خرج القومُ وقد شفّعهم فلا تَعرِضوا لأحد، ولْيَكُنْ سلاحُكم مكفَّراً بالثياب، فجاء قوم من مَذحِج فدخلوا على مُصعب فكلموه، فشفّعهم، فأطلَقه، وكان ابنُ الحُرّ قال لأصحابه: إن خرجوا ولم يشفّعهم فكابروا السجن فإني أعينكم من دَاخل، فلما خرج ابنُ الحُرّ قال لهم: أظهِروا السلاَح، فأظهَروه، ومضى لم يَعرِض له أحد، فأتَى منزلَه، وندم مصعب على إخراجِهِ، فأظهر ابنُ الحُرّ الخلاف، وأتاه الناسُ

يهنّئونه ، فقال : هذا الأمر لا يصلح إلا لمثل خُلفائكم الماضين ، وما نَرَى لهم فينا نِدّاً ولا شبيهاً فنُلقِي إليه أزمَّتنا ، ونمحّضه نصيحتنا ، فإن كان إنّما هو مَنْ عزَّ بزّ فعَلامَ نَعقد لهم في أعناقنا بَيعةً ، وليسوا بأشجَعَ منّا لقاءً ، ولا أعظم منّا غناء! وقد عَهد إلينا رسول الله ﷺ : ألاّ طاعةَ لمخلوق في معصيةِ الخالق ، وما رأيْنَا بعدَ الأربعة الماضين إماماً صالحاً ، ولا وزيراً تقيّاً ، كلهم عاصٍ مخالِف ، قويّ الدنيا ، ضعيفُ الآخرة ، فعلام تُستحَلّ حرمتنا ، ونحن أصحاب النَّخيلة والقادسيَّة وجَلولاء ونِهاوَند! نَلقَى الأسنَّة بنُحورنا والسيوفَ بِجباهِنا ، ثم لا يعرف لنا حقّنا وفضلنا؛ فقاتلوا عن حرِيمكم ، فأيّ الأمرِ ما كان فلَكُم فيه الفضل ، وإني قد قلبت ظهر المِجَنّ ، وأظهرتُ لهم العداوة ، ولا قوّة إلاّ بالله ، وحاربهم فأغار فأرسل إليه مصعبٌ سيفَ بن هانئ المُراديّ ، فقال له : إنّ مصعباً يُعطِيك خراج بادوريا على أن تُبايع وتدخل في طاعته؛ قال : أوَليسَ لي خَراجُ بادوريا وغيرها! لست قابلاً شيئاً ، ولا آمَنُهم على شيء ، ولكني أراك يا فتى ـ وسيفٌ يومئذ حدَثٌ ـ حَدثاً ، فهل لك أن تَتْبَعني وأموّلك! فأبى عليه ، فقال ابن الحُرّ حين خرج من الحَبْس :

لا كُــوفَــةٌ أُمِّــي ولا بَصْــرَةٌ أبــي ... ولا أنـا يَثْنِيني عـن الـرحْلَـة الكَسَـلْ

ـ قال أبو الحسن : يُروَى هذا البيتَ لسُحَيْم بن وثيل الرَّياحيّ ـ

فـلا تحْسَبَنّي ابـنَ الـزُّبَيْـرِ كَنـاعِـسٍ ... إذا حَـلَّ أغْفَـى أو يقـال لَـهُ ٱرتحِـلْ
فإِنْ لم أُزِرْك الخَيلَ تَردِي عوابِساً ... بفُـرْسـانِهـا لا أُدْعَ بـالحـازِمِ البَطَـلْ
وإن لم تَرَ الغارَاتِ مِنْ كُل جانبٍ ... عليـك فَتَنْـدَمْ عـاجـلاً أَيُّهـا الـرَّجـلْ
فـلا وضعَـتْ عنـدي حصَـانٌ قنَـاعهَـا ... ولا عِشْـتُ إلاّ بـالأَمـانِـيِّ والعِلَـلْ

وهي طويلة .

فبعث إليه مُصعَب الأبردَ بن قرة الرياحيّ في نفر ، فَقاتله فهزَمَه ابنُ الحُرّ ، وضَرَبه ضربةً على وجهه ، فبعث إليه مصعبٌ حُرَيْثَ بنَ زَيْد ـ أو يزيدَ ـ فبارَزَه ، فقَتَله عُبيدُ الله بنُ الحرّ ، فبعث إليه مصعب الحجّاج بن جارية الخثعميّ ومُسلِم بن عمرو ، فَلَقياه بنهر صرْصر ، فقاتَلهم فهَزمَهم ، فأرسل إليه مصعب قوماً يدعونه إلى أن يؤمّنه ويصِله ، ويولّيه أيّ بلد شاء ، فَلَم يَقبَل ، وأتى نَرْسَى ففرّ دِهْقَانُها ظيزجشْنَس بمالِ الفَلُّوجة ، فتَبعه ابنُ الحُرّ حتَّى مرّ بعَين التمر وعليها

بِسْطام بنُ مَصْقَلة بن هُبيرة الشَّيباني ، فتعوّذ بهم الدّهقان ، فخرجوا إليه فقاتَلُوه ـ وكانت خيلُ بِسطام خَمْسين ومئة فارس ـ فقال يونس بن هاعان الهَمْداني من خَيْوان ، ودعاه ابنُ الحرّ إلى المبارزة: شَرُّ دهر آخره ، ما كنتُ أحسَبُني أعيش حتى يدعوَني إنسانٌ إلى المُبارَزة! فبارَزَه فضَرَبَه ابنُ الحُرّضربةً أثْخَنتْه ، ثمّ اعتَنَقا فَخَرَّا جميعاً عن فرسيْهما ، وأخذ ابنُ الحُرّ عِمامةَ يونسَ وكتَّفه بها ثمّ ركب ، ووافاهم الحجَّاج بن حارثة الخَثْعَميّ ، فحَمَل عليه الحجَّاج فأسره أيضاً عُبيد الله ، وبارز بِسطام بن مصقلة المجشِّرَ؛ فاضطربا حتّى كرِه كلُّ واحد منهما صاحبَه ، وعلاه بِسطام ، فلمَّا رأى ذلك ابن الحُرّ حَمَل على بِسْطام واعتنقه بسطامٌ ، فَسَقَطا إلى الأرض ، وسقَط ابنُ الحرّ على صدرِ بِسطام فأسره ، وأسر يومئذ ناساً كثيراً ، فكان الرجل يقول: أنا صاحبُك يومَ كذا ، ويقول الآخر: أنا نازلٌ فيكم ويَمُتّ كلّ واحد منهم بما يرى أنَّه يَنفعه ، فيخلّي سبيله ، وبعثَ فوارسَ من أصحابه عليهم دَلْهَمٌ المُرادِيّ يَطلُبون الدّهقان ، فأصابوه ، فأخذوا المالَ قبلَ القتال ، فقال ابنُ الحُرّ:

لَـوْ أنَّ لـي مِثْـلَ جَـريـرٍ أَرْبَعَـهْ صبحْتُ بَيت المـالِ حتـى أجْمَعَـهْ
ولـم يهُلنـي مُصْعَـبٌ ومَـن معَـهْ نعْـمَ الفَتَـى ذلكُـمُ ٱبـن مَشْجَعَـهْ

ثم إن عُبيدَ الله أتى تَكْرِيتَ ، فهربَ عاملُ المهلَّب عن تكريتَ ، فأقام عُبيد الله يجبى الخراج ، فوجّه إليه مصعبٌ الأبردَ بن قرّة الرّياحيّ والجَوْن بن كَعْب الهَمْدانيّ في ألف ، وأمدّهُما المهلَّب بيزيد بن المغفَّل في خمسمئة ، فقال رجلٌ من جُعْفيّ لعبيد الله: قد أتاكَ عددٌ كثير ، فلا تُقاتِلْهم ، فقال:

يَخـوِّفُنـي بـالقتْـل قـومِـي وإنَّمـا أمُـوتُ إذا جـاءَ الكتـابُ المـؤَجَّـلُ
لعـلَّ القنـا تُـدْنـى بـأَطـرافِهـا الغِنَـى فنحْيَـا كِـرَامـاً أو نكُـرُّ فنقْتَـلُ

فقال للمجشِّر ودَفَع إليه رايتَه ، وقدّم معه دَلهَماً المراديّ ، فقاتَلهم يومين وهو في ثلاثمئة ، فخرج جَرير بنُ كريب ، وقُتِل عَمرو بن جُندَب الأزديّ وفُرسان كثير من فُرْسانه ، وتحاجَزوا عندَ المساء ، وخرج عُبيدُ الله من تَكريتَ فقال لأصحابه: إني سائرٌ بكم إلى عبد الملك بن مَرْوان ، فتهيَّؤوا ، وقال: إني أخاف أن أفارقَ الحياةَ ولم أذعرْ مُصْعباً وأصحابه ، فارجعوا بنا إلى الكوفة ، قال: فسار إلى كسْكَر فَنفَى عامِلها ، وأخذ بيت مالِها ، ثمّ أتى الكوفة فنزل لحّام جرير ،

فبعث إليه مُصعبٌ عمرَ بن عُبيد الله بن معمر ، فقاتلَه ، فخرَج إلى ديْر الأعور ، فبعث إليه مُصْعَبٌ حجّار بن أبجر ، فانهزم حجّار ، فَشَتمه مصعبٌ وردّه ، وضمَ إليه الجوْن بن كعب الهَمْدانيّ وعمر بن عُبيد الله بن مَعمر ، فقاتلوه بأجمعهم ، وكثرت الجراحات في أصحاب ابن الحُرّ وعُقِرتْ خُيولهم ، وجُرح المجشِّر ، وكان معه لواءُ ابن الحُرّ ، فدَفَعه إلى أحْمَر طيّئ ، فانهَزَم حجّار بن أبجر ثم كرّ ، فاقتتلوا قِتالاً شديداً حتَّى أمسَوْا ، فقال ابنُ الحُرّ :

لـو أنَّ لـي مِثـلَ الفتـى المُجَشِّـرِ ثـلاثـةً بَيّتُّهُـمْ لا أَمتَـرِي
سـاعَـدنـي لَيْلَـةَ دَيْـرِ الأعـوَرِ بـالطَّعـن والضَّـربِ وعنـدَ المعبَـرِ
لطـاحَ فيهـا عُمَـرُ بـنُ مَعمَـر

وخرج ابنُ الحُرّ من الكوفة ، فكتب مصعبٌ إلى يزيدَ بن الحارث بن رُؤيم الشَّيْبانيّ ـ وهو بالمَدائن ـ يأمره بقتال ابن الحُرّ ، فقدّم ابنه حَوْشباً فلقِيَه بباجِسْرى ، فهزمَه عُبيدُ الله وقُتِل فيهم ، وأقبل ابنُ الحُرّ فدخل المدائن ، فتَحصّنوا ، فخرج عبيدُ الله فوجَّه إليه الجون بن كَعْب الهَمْدانيّ وبِشْر بن عبد الله الأسديّ ، فنزل الجون حَوْلايَا ، وقَدم بِشر إلى تامَرَّا فلقِيَ ابنَ الحُرّ ، فقَتله ابنُ الحُرّ ، وهزم أصحابه ، ثمّ لقي الجون بن كعب بَحْولايا ، فخرَج إليه عبدُ الرحمن بنُ عبد الله ، فحَمل عليه ابنُ الحُرّ فطعنَه فقتَله وهزم أصحابَه ، وتَبِعهم ، فخرج إليه بشير بنُ عبد الرّحمن بن بشير العِجْليّ ، فالتَقوا بُسورَا فاقتتَلوا قتالاً شديداً ، فانحاز بشير عنه ، فرجع إلى عمله ، وقال : قد هزمتُ ابنَ الحُرّ ، فبلغ قولُه مُصعباً ، فقال : هذا من الذين يُحبّون أن يُحمَدُوا بما لم يَفْعلوا ، وأقام عُبيد الله في السَّواد يُغيرُ ويجبي الخراج ، فقال ابنُ الحُرّ في ذلك :

سلُوا ٱبن رُؤَيم عن جِلاَدِي وموْقِفِي بـإيـوانِ كسـرى لا أُولِّيهـمُ ظَهْـري
أَكُــرُّ عليهــمْ مُعْلِمــاً وتَــرَاهــم كمِعْزىً تحَنَّى خَشيةَ الذئب بالصَّخْرِ
وبَيَّتُهُم في حِصْنِ كِسرَى بنِ هُرْمُزٍ بِمشْحــوذةٍ بِيــضٍ وخَطِّيّــةٍ سُمْــرِ
فـأجـزيتُهُـم طعنـاً وضـربـاً تـراهُـمُ يَلـوذُون منـا مَـوْهِنـاً بـذرَا القَصْـرِ
يَلُــوذون مِنّــي رَهبــةً ومخــافــةً لــواذاً كمـا لاذ الحمـائـمُ مـن صَقْـرِ

ثم إنّ عُبيدَ الله بن الحُرّ ـ فيما ذكر ـ لحق بعبد المَلِك بن مَرْوان ، فلمَّا صار إليه وجَّهه في عشرة نفر نحوَ الكُوفة ، وأمره بالمسير نحوَها حتَّى تلحقه الجنودُ ،

فسار بهم ، فلمَّا بلغ الأنْبار وجَّه إلى الكوفة من يُخبِر أصحابَه بقدومه ، ويسَألهم أن يخرجوا إليه ، فبلغ ذلك القيسيَّة ، فأتَوا الحارث بن عَبد الله بن أبي ربيعة عامل ابن الزّبير على الكُوفة ، فسألوه أن يبعث معهم جيشاً ، فوجَّه معهم ، فلمَّا لقُوا عُبيد الله قاتَلَهم ساعة ، ثم غَرقَت فرسُه ، ورَكب معبراً فَوَثب عليه رجلٌ من الأنْباط فأخذ بعَضُدَيه وضرَبَه الباقون بالمرَادِيّ ، وصاحوا : إنّ هذا طلبةُ أمير المؤمنين ، فاعْتَنقا فغَرقا ، ثمّ استخرَجوه فجَزّوا رأسَه ، فبَعَثوا به إلى الكُوفة ثمّ إلى البَصْرة . (٦/ ١٢٨ ـ ١٣٥).

قال أبو جعفر : وقد قيل في مقتله غيرُ ذلك من القول؛ قيل : كان سببُ مَقتلَ عُبيد الله بن الحُرّ أنَّه كان يغشَى بالكوفة مُصعَباً ، فرآه يُقدّم عليه أهلَ البصرة ، فكتب إلى عبد الله بن الزّبير ـ فيما ذُكر ـ قصيدةً يعاتب بها مُصعَباً ويخوّفُه مَسيرَه إلى عبدِ الملك بن مَروان ، يقول فيها :

أبْلِغْ أميرَ المؤمنينَ رِسالةً ... فلَسْتُ على رأيٍ قبيحٍ أواربُهْ
أَفي الحقّ أن أُجْفَى ويَجعَل مُصْعَبٌ ... وَزِيرَيْهِ من قد كنتُ فيه أَحارِبُهْ!
فكيفَ وقد أَبليتُكُم حقَّ بَيْعتي ... وحقِّيَ يُلوَى عندكُم وأطالِبُهْ
وأبليتُكُمْ مالاً يُضَيَّعُ مِثلُهُ ... وآسيْتُكم والأَمرُ صَعْبٌ مَراتبُهْ
فلمّا ٱستنار الملكُ وٱنقادتِ العِدَا ... وأُدْرِكَ من مال العراقِ رغائبُهْ
جَفا مُصعَبٌ عنّي ولو كان غيرَهُ ... لأصبَحَ فيما بيننا لا أُعاتِبُهْ
لقد رابَني من مُصعب أنَّ مُصْعَباً ... أرَى كُلَّ ذِي غِشٍّ لنا هو صاحبُهْ
وما أنا إنْ حَلأّتمُوني بوارِدٍ ... على كَدْرٍ قد غُصّ بالصَّفْو شارِبُهْ
وما لامرئٍ إلاَّ الَّذي الله سائقٌ ... إليه وما قد خَطَّ في الزَّبْر كاتِبُهْ
إذا قمتُ عند الباب أدْخِلَ مُسْلم ... ويمنعُني أن أَدخُلَ البابَ حاجبُهْ

وهي طويلة .

وقال لمُصعَب وهو في حَبْسه ، وكان قد حُبس معه عطيَّة بن عمَرو البَكْريّ ، فخرج عطيَّة ، فقال عُبيد الله :

أقولُ له صبراً عَطِيُّ فإنَّما ... هو السجن حتى يَجعلَ اللهُ مَخرجا
أرَى الدّهرَ لي يوْمين يوماً مطرّداً ... شَرِيداً ويوماً في المُلوك مُتَوجَا
أتَطْعَنُ في دِيني غَداةَ أَتيتُكمْ ... وللدّين تُدْني الباهليَّ وحَشْرَجا!

أَلَمْ تر أنَّ الملكَ قد شِينَ وَجهُهُ ... ونَبْعُ بلادِ الله قد صارَ عَوْسَجا!

وهي طويلة.

وقال أيضاً يُعاتب مُصعَباً في ذلك، ويذكُر له تقريبَه سُويد بن مَنْجوف، وكان سُوَيد خفيفَ اللحية:

بأيّ بلاءٍ أم بأَيةِ نعمة ... تقدَّمَ قَبْلي مُسلمٌ والمهلَّبُ

ويُدَعى ابن منْجوف إمامي كأنّه ... خصيٌّ أتى للماءِ والعَيْر يَسْرُبُ

وشيخُ تَميمٍ كالثَّغَامةِ رأْسُهُ ... وعَيْلان عنّا خائفٌ مُترَقّبُ

جَعلتُ قُصور الأَزْدِ ما بينَ منبِجٍ ... إلى الغافِ من وادِي عُمانَ تصوّبُ

بلادٌ نَفَى عنها العدوَّ سُيوفنا ... وصُفرةٌ عنها نازحُ الدّار أَجْنبُ

وقال قصيدةً يهجو فيها قيس عَيْلان، يقول فيها:

أنا ٱبنُ بني قَيْس فإنْ كنتَ سائلاً ... بقيسٍ تَجِدْهُمْ ذروَةً في القبائلِ

ألم تَر قيساً قيس عَيلان بَرقَعَتْ ... لِحاهَا وباعتْ نَبْلَها بالمَغازِلِ!

وما زِلتُ أرجو الأَزدَ حتّى رأيتُها ... تُقَصِّرُ عن بُنْيانِها المتطاوِلِ

فكتب زُفَر بنُ الحارث إلى مُصعَب: قد كَفَيتك قتَال ابن الزّرقاء وابن الحُرّ يهجو قيساً. ثمّ إنّ نفراً من بني سُلَيم أخذوا ابنَ الحُرّ فأسَروه، فقال: إني إنّما قلت:

ألم تر قيْساً قيس عَيلان أقبلَتْ ... إلينا وسارتْ بالقَنا والقنابِلِ

فقتله رجلٌ منهم يقال له عَيَّاش فقال زُفَر بن الحارث:

لما رأَيتُ الناسَ أَولاد عَلَّةٍ ... وأغرق فينا نَزْعةً كُلُّ قائلِ

تكلَّمَ عنَّا مَشْيُنا بسيُوفِنا ... إلى الموتِ وٱستِنْشاط حَبْل المَراكِلِ

فلو يَسأَلُ ٱبنُ الحرّ أُخبِرَ أَنَّها ... يمانيَة لا تُشتَرى بالمغَازِلِ

وأُخْبِرَ أَنّا ذَاتُ عِلمٍ سُيوفُنا ... بأَعَناقِ ما بينَ الطُّلَى والكواهِلِ

وقال عبدُ الله بنُ هَمَّام:

تَرنَّمْتَ يا بنَ الحُرِّ وحدَكَ خالياً ... بقولِ ٱمرئً نَشوانَ أَو قولِ ساقِطِ

أتذكُرُ قوماً أوجَعَتْك رِماحُهُمْ ... وذَبّوا عَنِ الأحسابِ عندَ المآقِطِ

وتَبكي لِما لاَقَت ربيعةُ منهمُ ... وما أنتَ في أحسابِ بكرٍ بواسطِ!

فهــلاَّ بِجُعْفــيٍّ طَلبْــتَ دُخُــولَهــا ورهْطك دُنْيا في السّنين الفَوارِط!
تَــركنــاهُــمُ يــومَ الثَّــرىِّ أذلَّــةً يلــوذُون مــن أَسيــافِنــا بــالعَــرَافِطِ
وخــالَطكــم يــوم النُّخَيْــل بجَمْعِــه عُمَيــرٌ فمــا استَبْشــرتُــم بــالمُخــالِـطِ.
ويــوم شــراحيــلٍ جَــدعْنــا أنــوفَكُــمْ وليــس علينــا يــومَ ذاكَ بقــاســط
ضَـرَبنـا بحـدِّ السَّيْـف مفـرِق رأسِـه وكــان حــديثــاً عهْــدهُ بــالمَــواشِــط
فــإن رغمــتْ مــن ذاك آنُــفُ مَــذحِــجٍ فرغماً وسخْطاً للأُنوف السَّواخِطِ
(٦/ ١٣٥ ـ ١٣٨)

قال أبو جعفر: وفي هذه السَّنة وافَت عَرَفات أربعةُ ألويَة، قال محمَّد بن عُمر: حدّثني شُرَحبيل بن أبي عَوْن، عن أبيه، قال: وقفتْ في سنة ثمان وستين بعَرَفات أربعةُ ألوية: ابنُ الحنفيَّة في أصحابه في لواء قام عند جبل المُشاة، وابنُ الزّبير في لواء، فقام مَقامَ الإمام اليومَ، ثمّ تقدّم ابنُ الحنفيَّة بأصحابه، حتَّى وقفوا حذاء ابن الزبير، ونجدةُ الحَروريّ خَلفَهما، ولواءُ بني أميَّة عن يسارهما، فكان أوّل لواء انفضّ لواءُ محمَّد بن الحنفيَّة، ثم تَبعه نَجدة، ثمّ لواء بني أميَّة، ثمّ لواءُ ابن الزّبير، واتَّبعه الناس.

قال محمد: حدّثني ابن نافع، عن أبيه، قال: كان ابنُ عمرَ لم يدفع تلك العشيَّة إلا بَدْفعة ابنِ الزّبير، فلمَّا أبطأ ابنُ الزّبير وقد مضى ابنُ الحنفيَّة ونجدةُ وبنو أميَّة ـ قال ابن عمر: ينتظر ابنُ الزبير أمر الجاهلية ـ ثمّ دفَع، فدَفع ابنُ الزّبير على أثره[١]. (٦/ ١٣٨).

قال محمَّد: حدّثني هشامُ بنُ عُمارة، عن سعيد بن محمَّد بن جُبَير، عن أبيه، قال: خفتُ الفتنَة، فمشيت إليهم جميعاً، فجئت محمَّدَ بن عليّ في الشِّعْب، فقلتُ: يا أبا القاسم، اتَّق الله فإنا في مَشعَر حَرام، وبلد حرام، والناس وفدُ الله إلى هذا البيت، فلا تُفسد عليهم حَجَّهم؛ فقال: واللهِ ما أريد ذلك، وما أحول بين أحد وبين هذا البيت، ولا يُؤتَى أحدٌ من الحاجّ من قبَلي، ولكني رجلٌ أدفَع عن نفسي من ابن الزبير؛ وما يروم منّي، وما أطلب هذا الأمر إلا ألاّ يختلف عليّ فيه اثنان! ولكن ائتِ ابنَ الزبير فكلّمه، وعليك بنَجْدة، قال

(١) في إسنادها محمد بن عمر الواقدي الكذاب.

محمَّد: فجئتُ ابن الزبير فكلَّمته بنحو ما كلَّمتُ به ابن الحنفيَّة، فقال: أنا رجل قد اجتمع عليّ الناسُ وبايَعوني، وهؤلاء أهلُ خلاف، فقلت: أرَى خيراً لك الكَفَّ؛ قال: أفعَل، ثمّ جئتُ نَجدةَ الحَروريّ فأجدُه في أصحابه، وأجدُ عكرمةَ غلامَ ابنَ عبَّاس عندَه، فقلت له: استأذِن لي على صاحبك؛ قال: فدخل، فلم يَنشَب أن أذِن لي، فدخلتُ فعظّمتُ عليه، وكلّمته كما كلَّمت الرّجلين، فقال: أمَّا أن ابتدئ أحداً بقتال، فلا، ولكنْ من بدأ بقتال قاتلتُه؛ قلتُ: فإني رأيتُ الرّجلين لا يُريدان قتالَك، ثمّ جئتُ شيعةَ بني أميَّة فكلَّمتهم بنحو ما كلَّمت به القوم، فقالوا: نحن على ألا نُقاتلَ أحداً إلا أن يقاتلَنا، فلم أرَ في تلك الألوية قوماً أسكَنَ ولا أسلَمَ دفعةً من ابن الحنفيَّة[١]. (٦/ ١٣٨ ـ ١٣٩).

ثم دخلت سنة تسع وستين

ذكر خبر قتل عبد الملك سعيد بن عمرو

رجع الحديث إلى حديثِ هشام عن عوانة، قال: ولمَّا غلب عمرو على دِمَشق طلب عبدَ الرحمن بن أمّ الحَكَم فلم يُصِبه، فأمر بداره فهُدِمت واجتمع الناسُ، وصعِدَ المنبرَ فحَمِد الله وأثنَى عليه، ثم قال:

أيها الناس، إنَّه لم يقُم أحد من قريش قبلي على هذا المِنبرَ إلا زعم أنّ له جنةً وناراً، يُدخِل الجنَّة من أطاعه، والنارَ من عصاه، وإني أخبِركم أنّ الجنة والنارَ بيَدِ الله، وأنَّه ليس إليّ من ذلك شيءٌ. غيرَ أن لكم عليّ حُسنَ المؤاساة والعطيَّة. ونزل.

وأصبحَ عبد الملك، ففقد عمرو بن سعيد، فسأل عنه، فأخبِر خبَره، فرجع عبدُ الملك إلى دِمشَق، فإذا عمرو قد جلل دِمشَق المُسوحَ فقاتَله بها أيَّاماً، وكان عمرو بنُ سعيد إذا أخرجَ حميد بن حُرَيث الكلبيّ على الخَيْل أخرَج إليه عبدَّ الملك سُفْيانَ بن الأبردِ الكَلْبيّ، وإذا أخرج عمرو بن سعيد زهيرَ بن الأبرد الكلبيّ أخرجَ إليه عبد الملك حسَّانَ بن مالك بن بَحْدل الكلبيّ[٢]. (٦/ ١٤١).

---

(١) في إسنادها محمد بن عمر الواقدي الكذاب.

(٢) في إسنادها هشام بن محمد بن السائب الكلبي الكذاب.

قال هشام حدّثني عوانة ، أنّ الخيلين تواقَفتا ذاتَ يوم ، وكان مع عمرو بن سعيد رجلٌ من كَلْب يقال له رَجاء بن سرَاج ، فقال رجاء : يا عبدَ الرّحمن بنَ سليم ، أبرُز ـ وكان عبدُ الرحمن مع عبدِ الملك ـ فقال عبدُ الرحمن : قد أنْصف القَارَة من رامَاها ، وبَرز له ، فاطّعَنا وانقَطَع ركابُ عبدِ الرحمن ، فنَجا منه ابنُ سراج ، فقال عبدُ الرحمن : واللهِ لولا انقطاع الرّكاب لرميت بما في بطنِك من تبْن ، وما اصطلح عمرو ، وعبدُ الملك أبداً ، فلمّا طال قِتالُهم جاءَ نساءُ كَلْب وصِبْيانُهم فبَكَيْن وقُلْن لسُفيانَ بن الأبرد ولابن بَحْدل الكلبيّ : عَلام تَقتُلون أنفسَكم لسلطانِ قُريش! فَحلَف كلّ واحد منهما ألاّ يرجع حتَّى يرجع صاحبُه ، فلمّا أجمعوا على الرّجوع نظروا فوَجَدوا سُفيان أكبرَ من حُريث ، فطلبوا إلى حُرَيث ، فرجع ، ثمّ إنّ عبدَ الملك وعمراً اصطَلحا ، وكَتبا بينهما كتاباً ، وآمنَه عبدُ الملك وذلك عشيّة الخميس[1] . (٦/ ١٤١).

قال هِشام : فحدّثني عَوانة أنّ عمرو بنَ سعيد خرج في الخَيْل متقلّداً قوساً سوداء ، فأقْبَل حتَّى أوطأ فرسه أطناب سُرادِق عبدِ الملك ، فانقطعتْ الأطنابُ وسقط السرادق ، ونزل عمروٌ فجلس وعبدُ الملك مُغضَب ، فقال لعمرو : يا أبا أميّة ، كأنّك تشبَّهُ بتقلُّدك هذه القوسَ بهذا الحيّ من قيس! قال : لا ، ولكني أتشبَّه بمن هو خيرٌ منهم؛ العاص بن أميّة .

ثمّ قام مغضباً والخيلُ معه حتى دخل دمَشق ، ودخل عبدُ الملك دمِشَق يومَ الخميسِ ، فبعث إلى عمرو أن أعطِ الناس أرزاقَهم فأرسل إليه عمرو : إنّ هذا لك ليسَ ببلَد ، فاشخص عنه ، فلمّا كان يوم الإثنين وذلك بعد دخولِ عبدِ الملك دِمَشق بأربع بعَث إلى عمرو أن ائتِني ـ وهو عند امرأتِه الكلبية ، وقد كان عبدُ الملك دعا كُريب بن أبرهة بنَ الصَّبَاح الحميريّ فاستشاره في أمر عمرو بن سعيد ، فقال له : في هذا هلكت حِمْيرٌ ، لا أرَى لك ذلك ، لا ناقتي في ذَا ولا جملي ـ فلمّا أتى رسولُ عبدِ الملك عمراً يدعوه صادف الرسولُ عبدَ الله بن يزيد بن معاوية عند عمرو ، فقال عبد الله لعمرو بن سعيد : يا أبا أميّة ، والله لأنت أحبُّ إليّ من سَمْعي وبصري ، وقد أرى هذا الرّجل قد بعث إليك أن تأتيَه ،

(١) في إسنادها هشام بن محمد الكلبي الكذاب .

وأنا أرى لك ألاّ تفعل ، فقال له عمرو: ولم؟ قال: لأنّ تُبيع ابن امرأةِ كَعْب الأحبار قال: إنّ عظيماً من عظماءِ ولدِ إسماعيل يَرجع فيُغلق أبواب دِمشق ، ثمّ يَخرج منها ، فلا يلبث أن يُقتل؛ فقال له عمرو: واللهِ لو كنت نائماً ما تخوَّفت أن ينبّهني ابنُ الزّرقاء ، ولا كان ليجترئ على ذلك مني ، مع أنّ عثمانَ بنَ عفّان أتاني البارحة في المنام فألبسني قميصه ـ وكان عبدُ الله بنُ يزيدَ زوج أم موسى بنت عمرو بن سعيد ـ فقال عمرو للرسول: أبلغه السلام ، وقل له: أنا رائح إليك العشيَّةَ إن شاء الله. فلمَّا كان العشيّ لبس عمروٌ دِرْعاً حَصينَة بين قباء قُوهيّ وقميص قوهيّ وتقلّد سيفَه وعندَه امرأتهُ الكلْبيّة ، وحُميد بن حُرَيث بن بَحْدل الكلبيّ ، فلمَّا نهض متوجّهاً ، عثر بالبساط ، فقال له حميد: أما والله لئن أطعْتني لم تأتِه ، وقالت له امرأتهُ تلك المَقالةَ ، فلم يلتفتْ إلى قولهم ، ومضى في مئة رجل من مَواليه ، وقد بعث عبدُ الملك إلى بني مَرْوان فاجتَمَعوا عندَه ، فلمَّا بلغ عبد الملك أنَّه بالباب أمر أن يُحبَس من كان معه ، وأذن له فدخل ، ولم تزل أصحابُه يُحْبَسون عند كلّ باب حتى دخل عمرٌو قاعة الدّار ، وما معه إلاّ وصيف له ، فرَمى عمروٌ ببصره نحوَ عبد الملك ، فإذا حوله بنو مروان ، وفيهم حسَّان بنُ مالك بن بَحْدل الكلبيّ وقبيصة بن ذُؤيب الخُزاعي ، فلما رأى جماعتَهم ، أحسَّ بالشرّ؛ فالتفت إلى وصيفهِ فقال: انطلِق ويْحَك إلى يَحيى بنِ سعيد ، فقل له يأتيني. فقال له الوصيف ولم يَفهَم ما قال له: لبّيك! فقال له: اغْرُب عنّي في حرقِ الله ونارِه. وقال عبدُ الملك لحسَّان وقبيصة إذا شئتما فقُومَا فالتَقِيا وعمراً في الدار ، فقال عبدُ الملك لهما كالمازح ليطمئنّ عمرو بن سعيد: أيّكما أطولُ؟ فقال حسَّان: قَبيصةُ يا أمير المؤمنين أطولُ مني بالإمرة ، وكان قبيصةُ على الخاتم ، ثمّ التفت عمرو إلى وصِيفه فقال: انطلِقْ إلى يحيى فمُرْه أن يأتيَني ، فقال له: لبَّيك ، ولم يفهم عنه ، فقال له عمرو: اغْرُب عني ، فلمَّا خرج حسَّان وقبيصة أمَر بالأبواب فغلِّقتْ ، ودخل عمرو فرحّب به عبدُ الملك ، وقال: هاهنا يا أبا أميَّة ، يَرحمك الله! فأجلسَه معه على السَّرير ، وجعل يحدّثه طويلاً ، ثم قال: يا غلام ، خذ السّيف عنه ، فقال عمرو: إنَّا لله يا أميرَ المؤمنين! فقال عبدُ الملك: أَو تطْمع أن تَجلِس معي متقلّداً سيفَك! فأخذ السيف عنه ، ثمّ تحدَّثَا ما شاء الله ، ثمّ قال له عبدُ الملك: يا أبا أميَّة؛ قال: لبَّيْك يا أمير المؤمنين؛ فقال: إنَّك حيث خلعتَني آليتُ بيمين إنْ أنا ملأتُ عيني منك وأنا مالِكٌ

لك أن أجمعَك في جامعة ، فقال له بنو مَرْوان: ثمّ تُطلِقه يا أمير المؤمنين؟ قال: ثمّ أطلِقه ، وما عسيتُ أن أصنَع بأبي أميَّة! فقال بنو مَرْوان: أبِرّ قَسم أميرِ المؤمنين ، فقال عمرو: قد أبرّ الله قسمك يا أمير المؤمنين ، فأخرج من تحت فراشِه جامعةً فطرحها إليه ، ثمّ قال: يا غلام ، قم فاجمعْه فيها؛ فقام الغلام فجَمعَه فيها ، فقال عمرو: أذكّرك الله يا أميرَ المؤمنين أن تُخرِجني فيها على رؤوس الناس! فقال عبدُ الملك: أمَكرْاً أبا أميَّة عند الموت! لا ها الله إذاً! ما كنّا لنُخرجَك في جامعة على رؤوس الناس ، ولمَا نخرجها منك إلا صُعداً.

ثمّ اجتبذه اجتباذةً أصاب فمَه السريرُ فكَسَر ثَنِيَّته ، فقال عمرو: أذكِّرك الله يا أمير المؤمنين أن يدعوك إلى كسر عَظم منّي أن تركب ما هو أعظم من ذلك ، فقال له عبدُ الملك: والله لو أعلم أنك تُبْقي عليّ إن أبقِيَ عليك وتصلح قريش لأطلقتُك ، ولكن ما اجتمع رجلان قطّ في بَلدة على مثلِ ما نحن عليه إلاّ أخرج أحدُهما صاحبه ، فلمَّا رأى عمرو أنّ ثنيَّته قد اندقَّت وعرف الَّذي يريد عبد الملك ، قال: أغدْراً يا بن الزّرقاء!

وقيل: إنّ عبد الملك لمَّا جَذب عمراً فسقطتْ ثَنيَّته جعل عَمروٌ يمسّها ، فقال عبدُ الملك له: أرى ثنيَّتَك قد وقعتْ منك موقِعاً لا تطيب نفسُك بعدَها ، فأمر به فضُربَ عنقه[١]. (٦/ ١٤١ ـ ١٤٤).

رجع الحديث إلى حديثِ عَوانة ، وأذّن المؤذّنُ العصرَ ، فخرج عبدُ الملك يصلِّي بالناس ، وأمر عبدَ العزيز بن مروان أن يقتله ، فقام إليه عبدُ العزيز بالسَّيف ، فقال له عمرو: أذكِّركُ اللهَ والرّحِمَ أن تليَ أنتَ قَتْلي ، وليتولّ ذلك مَنْ هو أبْعَد رحِماً منك! فألقى عبد العزيز السيفَ وجلس ، وصلى عبدُ الملك صلاةً خفيفة ، ودخل ، وغُلّقت الأبواب ورأى الناسُ عبدَ الملك حيث خرج وليس عمروٌ معه ، فذَكروا ذلك ليحيى بن سعيد فأقبَل في النَّاس حتَّى حَلَّ بباب عبد الملك ومعه ألفُ عبد لعمرو ، وأناس بعدُ من أصحابه كثير ، فجعل من كان معه يصيحون: أسمِعْنا صوْتَك يا أبا أميَّة! وأقبل مع يحيى بن سعيد حُمَيد بن حُرَيث وزُهَير بن الأبْرد فكسروا بابَ المقصورة ، وضربوا النَّاسَ بالسيوف ،

(١) في إسنادها هشام بن محمد بن السائب الكلبي الكذاب.

وضرب عبدٌ لعَمْرو بن سعيد يقال له مصْقَلة الوليدَ بن عبد الملك ضربةً على رأسه ، واحتمَله إبراهيمُ بنُ عربيّ صاحبُ الديوان فأدخله بيت القراطيس ، ودخل عبدُ الملك حين صلَّى فوجد عمراً حيّاً ، فقال لعبد العزيز: ما منعك من أن تَقتُله! قال: مَنَعني أنَّه ناشدني الله والرّحِمَ فرقَقْتُ له ، فقال له عبدُ الملك: أخزَى الله أمَّكَ البَوّالة على عَقِبيْها ، فإنَّك لم تُشبه غيرَها ـ وأمّ عبد الملك عائشةُ بنتُ معاوية بن المغيرة بن أبي العاص بن أميَّة ، وكانت أمّ عبد العزيز ليلى ، وذلك قول ابن الرُّقَيّات:

ذاك ابـنُ لَيلَـى عبـدُ العـزيـزِ ببـا بِلْيـون تَغـدُو جِفَـانُـهُ رُذُمَـا

ثم إنّ عبد الملك قال: يا غلام ، ائتِني بالحَرْبة فأتاه بالحَرْبة فهزّها ، ثمّ طعنه بها فلم تَجُز ، ثمّ ثَنَّى فلم تَجُز ، فضرب بيَده إلى عَضُد عمرو ، فوَجَد مسّ الدِّرْع ، فضحك ، ثمّ قال: ودارِعٌ أيضاً يا أبا أميَّة! إن كنت لمعدّاً! يا غلام ، ائتني بالصَّمصامة ، فأتاه بسَيفه ، ثمّ أمر بعَمْرو فصُرِع ، وجَلَس على صدرِه فذَبَحه وهو يقول:

يا عمرو إن لا تَدعْ شَتْمِي ومَنْقَصتي أَضرِبْك حيثُ تقولُ الهَامةُ اسقُونِي

وانتَفَض عبدُ الملك رِعْدةً ـ وكذلك الرجلُ زعموا يُصيبُه إذا قَتَلَ ذا قَرابة له ـ فحُمل عبُد الملك عن صدرِه فُوضع على سريره ، فقال: ما رأيتُ مِثلَ هذا قطّ ، قَتَله صاحبُ دُنْيا ولا طالبُ آخرة ، ودخل يحيى بنُ سعيد ومن معه على بني مرْوان الدارَ فجرّحوهم ومن كان معهم من مواليهم ، فقاتَلَوا يحيى وأصحابَه ، وجاء عبدُ الرحمن بنُ أمّ الحَكَم الثَّقَفي فدَفَع إليه الرأس ، فألقاه إلى النَّاس ، وقام عبدُ العزيز بنُ مَروان فأخَذَ المال في البدور ، فجعل يُلقِيها إلى الناس ، فلمَّا نظر الناسُ إلى الأموال ، ورأوا الرأسَ انتَهبُوا الأموالَ وتفرّقوا ، وقد قيل: إنّ عبدَ الملك بن مروانَ لمَّا خرج إلى الصّلاة أمر غلامَه أبا الزُّعَيْزعَةِ بقتلِ عمرو ، فقتَله وألقَى رأسَه إلى النَّاس وإلى أصحابه. (١/ ١٤٤ ـ ١٤٥).

قال هشام: قال عَوانةُ: فحدّثتُ أنّ عبد الملك أمرَ بتلك الأموال التي طُرحتْ إلى الناس فجُبيَتْ حتَّى عادت كلّها إلى بيت المال ، ورُمِي يحيى بنُ سعيد يومئذ في رأسه بصخرة ، وأمر عبدُ الملك بسريرِه فأبرز إلى المسجد ، وخرج فجلس عليه ، وفُقِد الوليد بن عبد الملك فجعل يقول: ويْحَكم! أين الوليد! وأبيهمْ لئن

كانوا قتلوه لقد أدْرَكوا ثأرَهم ، فأتاه إبراهيمُ بن عربيّ الكِنانيّ فقال: هذا الوليد عندي ، قد أصابتْه جِراحة ، وليس عليه بأس ، فأتِيَ عبدُ الملك بيحيى بن سعيد ، فأمر به أن يُقتل فقام إليه عبدُ العزيز ، فقال: جَعلَني الله فِداك يا أميرَ المؤمنين! أتُراك قاتلاً بني أميَّة في يوم واحد! فأمر بيحيى فحُبِس ، ثم أتى بعَنبسَة بن سعيد ، فأمر به أن يقتَل ، فقام إليه عبد العزيز فقال: أذكّرك الله يا أميرَ المؤمنين في استئصال بني أمَّية وهلاكِها! فأمر بعنبسة فحبس ، ثمّ أتِيَ بعامر بن الأسود الكلبيّ فضرب رأسَه عبدُ الملك بقَضِيب خَيْزُران كان معه ، ثم قال: أتقاتلني مع عمرو وتكون معه عليّ! قال: نعم ، لأنّ عَمراً أكرَمني وأهنتَني ، وأدناني وأقصيتني ، وقرّبني وأبعدْتني ، وأحسن إليَّ وأسأتَ إليّ ، فكنتُ معه عليك ، فأمر به عبدُ الملك أن يُقتَل ، فقام عبدُ العزيز فقال: أذكركَ الله يا أمير المؤمنين في خالي! فوهَبه له ، وأمر ببني سعيد فحُبسوا ومكث يحيى في الحَبْس شهراً أو أكثر ، ثمّ إنّ عبد الملك صَعِد المنبر ، فحمِد الله وأثنَى عليه ، ثم استشار الناس في قتله ، فقام بعضُ خطباء الناس فقال: يا أميرَ المؤمنين ، هل تلد الحيَّةُ إلاّ حيَّة! نرى والله أن تَقتُله فإنَّه منافق عدوّ ، ثمّ قام عبدُ الله بن مَسعَدةَ الفزاريّ ، فقال: يا أميرَ المؤمنين ، إنّ يحيى ابنُ عمِّك ، وقرابتُه ما قد علِمت ، وقد صنعوا ما صنعوا ، وصنعتَ بهم ما قد صنعتَ ، ولست لهم بآمِن ، ولا أرَى لك قتلهم ، ولكن سيِّرهم إلى عدوّك ، فإن هم قُتِلوا كنتَ قد كُفيت أمرهم بيَدِ غيرك ، وإن هم سَلِموا ورجعوا رأيتَ فيهم رأيك.

فأخذ برأيه ، وأخرَج آل سعيد فألحقَهم بمُصعَب بن الزبير ، فلمَّا قدِموا عليه دخل يحيى بنُ سعيد ، فقال له ابن الزبير: انفلتَّ وانحصّ الذَّنَب ، فقال: والله إن الذنَب لَبِهُلْبِه ، ثمّ إنّ عبد الملك بعث إلى امرأةِ عمرو الكلبيَّة: ابعثي إليّ بالصّلح الَّذي كنتُ كتبته لعمرو ، فقالت لرسوله: ارجع إليه فأعلِمْه أني قد لففتُ ذلك الصلحَ معه في أكفانِه ليُخاصِمك به عند ربِّه ، وكان عمرو بن سعيد وعبدُ الملك يلتقيان في النَّسب إلى أميَّة ، وكانت أمّ عمرو أمّ البنين ابنةُ الحَكَم بنِ أبي العاص عمَّةَ عبد الملك[1]. (٦/ ١٤٥ ـ ١٤٧).

---

(١) في إسنادها هشام بن محمد الكلبي الكذاب.

قال هشام: فحدّثنا عَوانة أنّ الّذي كان بين عبد الملك وعمرو كانَ شرّاً قديماً، وكان ابنَا سعيد أمُّهما أمّ البنين، وكان عبدُ الملك ومعاويةُ ابني مَرْوان، فكانوا وهم غِلْمان لا يزالون يأتون أمَّ مَرْوان بن الحَكم الكنانيَّة يتحدّثون عندها، فكان ينطلق مع عبدِ الملك ومعاوية غلام لهم أسوَد، وكانت أمّ مروانَ إذا أتَوْها هيَّأتْ لهم طعاماً، ثمّ تأتيهم به فتضع بين يديْ كلّ رجل صَحفةً على حدَة، وكانت لا تزال تؤرّش بين معاويةَ بن مروان، ومحمَّد بن سعيد، وبين عبد الملك وعمرو بن سعيد، فيَقتتِلون ويتصارمون الحين، لا يكلِّم بعضُهم بعضاً، وكانت تقول: إن لم يكن عند هذين عقل فعند هذين، فكان ذلك دأبها كلَّما أتَوْها حتَّى أثبتت الشَّحْناء في صدورهم.

وذكر أنّ عبدَ الله بن يزيد القَسْريّ أبا خالد كان مع يحيى بن سعيد حيث دخل المسجد فكسر بابَ المقصورة، فقاتل بني مَرْوان، فلمَّا قتِل عمرو وأخرج رأسه إلى النَّاس رَكب عبدُ الله وأخوه خالد فَلحِقوا بالعراق، فأقام مع وُلد سعيد وهم مع مُصعَب حتَّى اجتمعت الجماعة على عبد الملك، وقد كانت عين عبد الله بن يزيد فُقِئت يوم المَرْج، وكان مع ابن الزبير يُقاتِل بني أميَّة، وإنه دخل على عبد الملك بعد الجماعة، فقال: كيف أنتم آلَ يزيدَ؟ فقال عبد الله: حُرباء حُرباء، فقال عبد الملك: ذلك بما قدّمتْ أيديكم، وما اللهُ بظلاَّم للعَبِيد[١]. (٦/ ١٤٧).

قال هِشام بن عوانة: إنّ وُلد عمرو بن سعيد دَخَلوا على عبد الملك بعد الجماعة وهم أربعة: أميَّة، وسعيد، وإسماعيل، ومحمَّد، فلمَّا نظر إليهم عبدُ الملك قال لهم: إنَّكم أهل بَيْت لم تزالوا تَرَوْن لكم على جميع قومِكم فَضْلاً لم يَجعَلْه الله لكم، وإنّ الّذي كان بيني وبين أبيكم لم يكن حديثاً، بل كان قديماً في أنفسُ أوّلِيكم على أوّلينا في الجاهليَّة.

فأقطع بأميَّة بن عمرو ـ وكان أكبرهم ـ فلم يقدر أن يتكلَّم، وكان أنبلَهم وأعقلَهم، فقام سعيدُ بن عمرو وكان الأوسطَ فقال: يا أميرَ المؤمنين، ما تَنعى علينا أمراً كان في الجاهليَّة، وقد جاء الله بالإسلام فَهدم ذلك، فوعَدنا جنَّة،

(١) في إسنادها هشام بن محمد الكلبي الكذاب.

وحذَّرنا ناراً! وأمَّا الذي كان بينك وبين عمرو فإنّ عَمراً ابن عمك ، وأنت أعلَم وما صنعت ، وقد وَصَل عمرو إلى الله وكفَى بالله حسيباً ، ولَعَمري لئن أخذتَنا بما كان بينك وبينَه لبطن الأرض خيرٌ لنا من ظَهرها ، فرقّ لهم عبدُ الملك رقَّةً شديدة ، وقال: إنّ أباكم خيَّرني بين أن يقتُلني أو أقتلَه ، فاخترتُ قتلَه على قتلي ، وأمَّا أنتم فما أرغبني فيكم ، وأوصلني لقرابتكم ، وأرعاني لحقِّكم! فأحسن جائزتَهم ، ووصَلهم وقرّبهم.

وذكر أنّ خالد بن يزيدَ بنَ معاوية قال لعبد الملك ذات يوم: عجبٌ منك مِن عمرو بن سعيد ، كيف أصبت غِرّته فقتلَته! فقال عبد الملك:

دَانَيْتُـــه مِنِّـــي لِيَسكـــنَ رُوعُـــه ... فـأَصُـولَ صَـولـةَ حـازِمٍ مسْتَمكـنِ

غَضَبــاً ومحمِيـــةً لـــدِينـــي إِنَّـــه ... ليــسَ المُسِـيءُ سبيلُـه كـالمُحسِـنِ

قال عَوانة: لقيَ رجلٌ سعيدَ بن عمرو بن سعيد بمكَّة ، فقال له: وربّ هذه البَنِيَّةَ ، ما كان في القومَ مثل أبيك، ولكنهَّ نازع القوم مافي أيديهم فعَطِب[1]. (٦/ ١٤٧ ـ ١٤٨).

وكان الواقديّ يقول: إنَّما كان في سنة تسع وستِّين بين عبد الملك بن مروانَ وعمرو بن سعيد الحصار ، وذلك أنّ عمرو بن سعيد تَحصّن بدمَشق فرجع عبدُ الملك إليه من بُطنان حَبيب ، فحاصَرَه فيها؛ وأمَّا قتلُه إيَّاه فإنَّه كان في سنة سبعين[2]. (٦/ ١٤٨).

وفي هذه السَّنة حكَّم محكِّم من الخوارج بالخَيْف من مِنىً فقُتِل عند الجمرة ، ذَكر محمَّد بنُ عمرَ أن يحيى بن سعيد بن دينار حدّثه عن أبيه ، قال: رأيته عند الجمرة سَلّ سيفه ، وكانوا جماعةً فأمسَك اللهُ بأيديهم ، وبَدر هو من بينهم ، فحكم ، فمال الناسُ عليه فقتَلوه[3]. (٦/ ١٤٨ ـ ١٤٩).

---

(١) في إسنادها هشام بن محمد الكلبي الكذاب.
(٢) في إسنادها الواقدي الكذاب.
(٣) في إسنادها محمد بن عمر الواقدي الكذاب.

ثم دخلت سنة سبعين
ذكر ما كان فيها من الأحداث

وفيها شخص ـ فيما ذَكر محمّدُ بن عمرَ ـ مصعبُ بن الزبير إلى مكَّة فقدمها بأموال عظيمة ، فقسمها في قومه وغيرهم ، وقدم بدوابَّ كثيرة وظَهْر وأثقال ، فأرسل إلى عبد الله بن صَفْوان وجُبَير بن شَيْبة ، وعبد الله بن مطيع مالاً كثيراً ، ونحر بُدْناً كثيرة[1]. (٦/ ١٥٠).

ثم دخلت سنة إحدى وسبعين
ذكر ما كان فيها من الأحداث

وكان عبد الملك ـ فيما قيل ـ لا يزال يقرب من مصعب ، حتّى يبلغ بطنان حَبيب ، ويخرج مصعب إلى بَاجُمَيرَا ، ثم تهجُم الشتاء فيرجع كلّ واحد منهما إلى موضعه ، ثم يعودان؛ فقال عديّ بن زيد بن عديّ بن الرّقاعِ العامليّ:

لعمْري لقدْ أصحرَتْ خَيلُنا ... بأكْناف دِجْلة للمُصعَبِ
إذا ما مُنافق أهل العِرَا ... قِ عُوتب ثُمّتَ لم يُعْتَبِ
دَلَفْنا إليه بذي تُدْرأٍ ... قليل التَّفقُّدِ للغُيَّبِ
يهِزُّون كلَّ طويل القَنا ... ة مُلْتَئِم النَّصْلِ والثَّعْلَبِ
كأنَّ وعَاهُمْ إذا ما غَدوْا ... ضجيجُ قَطا بلدٍ مُخصبِ
فقدَّمنا واضحٌ وجْهُهُ ... كريم الضّرائب والمنْصِبِ
أُعِينَ بِنَا ونُصِرْنَا بِهِ ... ومن يَنْصُر اللهُ لم يُغلَبِ

(٦/ ١٥١)

قال أبو زيد: قال أبو الحسن: فحدّثني شيخٌ من بني عرين ، عن السكن بن قتَادة ، قال: اقتتلوا أربعةً وعشرين يوماً ، وأصيبتْ عين مالك ، فضجر من الحرب ، ومشت السفراء ، بينهم يوسف بنُ عبد الله بن عثمان بن أبي العاص ، فصالحه ، على أن يُخرج خالداً وهو آمن ، فأخرج خالداً من البصرة ، وخاف ألا

(١) في إسنادها الواقدي الكذاب.

يجيز المُصعبُ أمانَ عُبيد الله ، فَلحق مالك بثأج ، فقال الفرَزْدق يَذكر مالكاً ولُحوقَ التميميَّة به وبخالد:

عجِبْتُ لأقوامٍ تميمٌ أَبُوهُمُ ... وهُمْ في بني سعدٍ عِظامُ المَبارِكِ
وكانوا أعزَّ الناسِ قبل مَسيرِهِمْ ... إلى الأزْد مُصْفَرّاً لِحاها ومالِكِ
فما ظَنُّكم بابن الحَوارِيِّ مُصْعَبٍ ... إذا افترّ عن أنيابه غيرَ ضاحِكِ
ونحنُ نفَيْنا مالكاً عن بِلادِهِ ... ونحن فَقَأْنا عَيْنَهُ بالنَّيازِكِ

(٦/ ١٥٣ ـ ١٥٤).

قال أبو زيد: فزعم المدائنيّ وغيرهُ من رُواة أهل البَصْرة أنّه أرسَل إليهم فأتِيَ بهم ، فأقبل على عُبيد الله بن أبي بَكرة ، فقال: يا بنَ مَسْروح ، إنَّما أنت ابنُ كَلْبة تعاوَرُها الكلاب ، فجاءت بأحمر وأسوَد وأصفرَ من كلّ كلب بما يُشبهه ، وإنّما كان أبوك عبداً نَزل إلى رسول الله ﷺ من حصن الطائف ، ثم أقمْتم البيِّنة تدّعون أن أبا سُفْيانَ زنى بأمِّكم ، أما والله لئن بقيتُ لألحقنّكم بنَسبكم ، ثمّ دعا بحُمْران فقال: يابن اليَهوديّة ، إنَّما أنت علْج نَبطيّ سُبيت من عَيْن التَّمر.

ثمّ قال للحَكَم بن المنذر بن الجارود: يا بنَ الخَبيث ، أتَدري مَن أنت ومن الجارودُ! إنَّما كان الجارودُ علْجاً بجزيرة ابن كاوَان فارسيّاً ، فقطع إلى ساحل البحر ، فانتمى إلى عبد القيس ، ولا والله ما أعرف حَيّاً أكثرَ اشتمالاً على سَوْءة منهم ، ثمّ أنكَح أختَه المُكَعْبر الفارسيّ فلم يُصب شرَفاً قطّ أعظم منه ، فهؤلاء ولدُها يا بن قُباذ ، ثمّ أتِيَ بعبد الله بن فضالة الزّهرانيّ فقال: ألستَ من أهل هَجَر ، ثمّ من أهل سَماهيج! أما والله لأرُدّنّك إلى نَسَبك ، ثمّ أتي بعليّ بن أصمع ، فقال: أعَبْد لبني تميم مرّةً وعَزْيٌ من باهلة! ثمّ أتِيَ بعبد العزيز بن بشْر بن حَنَّاط فقال: يا بن المشتور ، ألم يسرق عمُّك عنزاً في عهد عمرَ؛ فأمر به فسيِّر ليقطعه! أما والله ما أعنتَ إلا من يَنكح أختَك ـ وكانت أختُه تحت مقاتل بن مِسمَع ـ ثم أتِيَ بأبي حاضر الأسدّي فقال: يا بن الإصْطَخريّة ، ما أنتَ والأشراف! وإنما أنت من أهل قطَر دَعِيٌّ في بني أسَد ، ليس لك فيهم قريب ولا نسب ، ثم أتِيَ بزياد بن عمرو فقال: يا بن الكَرْمانيّ ، إنَّما أنت عِلْج من أهل كَرْمان قطعت إلى فارسَ فصرتَ مَلّاحاً ، ما لكَ وللحَرْب! لأنْتَ بَجرّ القَلْس أحذَقُ ، ثمّ أتِيَ بعبد الله بن عثمانَ بن أبي العاص فقال: أعَلَيّ تكَشِّر وأنت علْج

من أهل هَجَر ، لحق أبوك بالطَّائف وهم يضمّون من تأشَّب إليهم يتعزَّزون به! أما والله لأردنَّك إلى أصلك ، ثم أتِيَ بشَيْخ بن النُّعْمان فقال: يا بن الخبيث ، إنَّما أنت علْج من أهل زَنْدَوَرْد ، هَرَبت أمك وقُتل أبوك ، فتزوّج أختَه رجلٌ من بني يشكر ، فجاءت بغلامين ، فألحقنَاك بنسبَهما ، ثم ضربهم مئةً مئةً ، وحلَّق رؤوسهم ولحاهم ، وهدمَ دُورهم ، وصَهرَهم في الشَّمس ثلاثاً ، وحملهم على طلاق نسائهم ، وجمَّر أولادَهم في البُعوث ، وطاف بهم في أقطار البصرة ، وأحلفهم ألاّ يَنكحوا الحَرائر ، وبعث مُصعبٌ خداشَ بن يزيدَ الأسَديّ في طلب من هَرَب من أصحاب خالد ، فأدرَك سُرّة بن مَحْكانَ فأخذه ، فقال مُرّةُ:

بنـي أَسَـدٍ إن تَقْتلـونـي تُحـاربُـوا ... تميمـاً إذا الحـرب العَـوَانُ اشمَعَلَّـتِ
بنـي أَسـد هَـلْ فيكُـم مـن هَـوَادَةٍ ... فَتعْفُـونَ إنْ كـانـتْ بـيَ النَّعـلُ زَلَّـتِ
فـلا تَحْسـبِ الأَعْـداءُ إذ غبـتُ عَنْهُـمُ ... وأُوريـتُ مَعْنـاً أنَّ حـربـيَ كلَّـت
تَمشَّـى خِـدَاشٌ فـي الأَسِكَّـة آمِنـاً ... وقـد نَهَلَـتْ مِنِّـي الـرِّمـاحُ وعَلَّـتِ

فقرّبه خداش فقتله ـ وكان خِداش على شُرْطة مُصعب يومئذ ـ وأمر مصعب سنانَ بن ذهل أحد بني عمرو بن مَرْثَد بدار مالك بن مسمَع فهدَمها. وأخذ مُصعب ما كان في دار مالك ، فكان فيما أخذ جارية ولدتْ له عمرَ بن مُصعَب ، قال: وأقام مُصعَب بالبصرة حتى شخص إلى الكوفة ، ثم لم يزل بالكوفة حتى خرج لحرب عبد الملك ، ونزل عبدُ الملك مسكَن ، وكتب عبدُ الملك إلى المَرْوانيَّة من أهل العراق ، فأجابَه كلُّهم وشرطُوا عليه ولاية أصبهان ، فأنعَم بها لهم كلّهم ، منهم حَجَّار بنُ أبجرَ ، والغَضْبان بن القَبعْثَرَى ، وعتاب بن ورقاء ، وقطن بن عبد الله الحارثي ، ومحمد بن عبد الرحمن بن سعيد بن قيس ، وزَحْر بن قيس ، ومحمَّد بنُ عُمير ، وعلى مقدّمته محمَّد بن مروان ، وعلى ميمنته عبدُ الله بنُ يزيدَ بن معاوية ، وعلى ميسرته خالدُ بن يزيدَ ، وسار إليه مصعب وقد خذَله أهلُ الكوفة.

قال عروة بن المغيرة بن شُعبة: فخرج يسيرُ متَّكئاً على مَعرَفة دابَّته ، ثمَّ تَصفَّح الناس يميناً وشمالاً فوقعت عينُه عليّ ، فقال: يا عُرْوة ، إليّ ، فدنوتُ منه ، فقال: أخبرني عن الحسين بن عليّ ، كيف صَنَع بإبائه النزول على حُكم ابن زياد وعَزمه على الحرب؟ فقال:

إنَّ الأُلَى بالطَّف من آل هاشِمٍ   تأسَّوْا فسَنُّوا للكرام التأسِّيَا

قال: فعلمتُ أنه لا يَرِيمُ حتَّى يُقتَل ، وكان عبدُ الملك ـ فيما ذكر محمَّد بنُ عمر عن عبد الله بن محمَّد بن عبدالله بن أبي قرّة ، عن إسحاقَ بن عبد الله بن أبي فَرْوة ، عن رَجاء بن حَيْوَة ـ قال: لمَّا قتَل عمرو بن سعيد وضع السيف فقتل من خالفه ، فلمَّا أجمع بالمسير إلى مُصعب وقد صفت له الشام وأهلها خطَب الناسَ وأمرهم بالتهُّيؤ إلى مصعب ، فاختلف عليه رؤساء أهل الشام من غير خلاف لما يريده ، ولكنهم أحَبُّوا أن يقيمَ ويقدّم الجيوش ، فإن ظفروا فذاك ، وإن لم يظفروا أمدَّهم بالجيوش خشيةً على الناس إن أصِيب في لقائه مصعباً لم يكن وراءه ملك ، فقالوا: يا أميرَ المؤمنين ، لو أقمتَ مكانَك وبعثتَ على هؤلاء الجيوش رجلاً من أهل بيتك ، ثمّ سرّحتَه إلى مصعب! فقال عبدُ الملك: إنَّه لا يقوم بهذا الأمر إلاّ قرشيّ له رأي ، ولعلِّي أبعث من له شجاعة ولا رأي له ، وإني أجد في نفسي أني بصيرٌ بالحرب ، شجاعٌ بالسَّيف إنْ ألجِئتُ إلى ذلك ، ومصعب في بيت شجاعة ، أبوه أشجع قريش ، وهو شجاع ولا علم له بالحرب ، يُحبّ الخفض ، ومعه من يُخالفه ، ومعي من ينصح لي ، فسار عبد الملك حتَّى نزل مَسْكِن ، وسار مصعب إلى باجُمَيْرَا ، وكتب عبدُ الملك إلى شيعته من أهل العراق ، فأقبل إبراهيم بنُ الأشتر بكتاب عبد الملك مختوماً لم يقرأه ، فدفعه إلى مصعب ، فقال: ما فيه؟ فقال: ما قرأته ، فقرأه مصعب فإذا هو يدعوه إلى نفسه ، ويجعل له ولاية العراق ، فقال لمصعب: إنَّه والله ما كان من أحد آيس منه مني ، ولقد كتب إلى أصحابك كلّهم بمثل الّذي كتب إليّ ، فأطعْني فيهم فاضربْ أعناقهم ، قال: إذاً لا تُناصِحُنا عشائرُهم.

قال: فأوقرْهم حديداً وابعث بهم إلى أبيض كسرَى فأحبسْهم هنالك.

ووكِّل بهم من إن غُلِبْتَ ضرب أعناقهم ، وإن غَلبت مَننتَ بهم على عشائرهم ، فقال: يا أبا النعمان ، إني لَفي شغل عن ذلك ، يرحَم اللهُ أبا بَحْر ، إنْ كان ليَحذّرني غدرَ أهل العراق ، كأنّه كان يَنظُر إلى ما نحن فيه! (٦/ ١٥٤ ـ ١٥٧).

وقال الهيثم بنُ عَدِيّ: حدّثنا عبدُ الله بنُ عَيّاش ، عن أبيه ، قال: إنّا لوُقُوفٌ مع عبد الملك بن مروان وهو يُحارب مصعباً إذْ دنا زِياد بن عمرو ، فقال: يا أمير

المؤمنين ، إنّ إسماعيلَ بن طَلْحة كان لي جارَ صدق ، فَلَّما أرادَني مُصَعب بسوء إلا دَفَعهُ عني ، فإن رأيتَ أن تؤمّنَه على جرمه قال: هو آمن. فمضى زياد ـ وكان ضخماً على ضَخم ـ حتَّى صار بين الصفَّين ، فصاح: أين أبو البخْتَري إسماعيلُ بن طَلْحة؟ فخرج إليه ، فقال: إني أريد أن أذكر لك شيئاً ، فَدنا حتَّى اختلفت أعناقُ دوابِّهما ـ وكان الناس ينتَطقون بالحَواشي المحشوّة ـ فوَضَع زياد يده في منطقَة إسماعيلَ ، ثمّ اقتلَعه عن سَرْجه ـ وكان نَحيفاً ـ فقال: أنشدك الله يا أبا المغيرة ، إنّ هذا ليس بالوفاء لمصعب ، فقال: هذا أحبّ إليّ من أن أراك غَداً مقتولاً.

ولمَّا أبى مصعب قبول الأمان نادى محمَّد بنُ مروان عيسى بن مصعب وقال له: يا بن أخي ، لا تقتل نفسك ، لك الأمان ، فقال له مُصعب: قد آمَنَك عَمُّك فامض إليه ، قال: لا تتحدّث نساءُ قريش أني أسْلَمتك للقتل؛ قال: فتقدّم بين يديَّ أحتَسِبْك ، فقاتل بين يديه حتَّى قتل ، وأثخِن مصعب بالرّمْي ، ونظر إليه زائدة بن قدامةَ فشَدّ عليه فطعنه ، وقال: يا لثأرات المختار! فصرعه ، ونزل إليه عُبيد الله بنُ زياد بنِ ظَبْيانَ ، فاحتزّ رأسَه ، وقال: إنَّه قَتَل أخي النابئ بن زياد ، فأتِيَ به عبد الملك بن مروان فأثابَه ألف دينار ، فأبَى أن يأخذها. وقال: إني لم أقتله على طاعتك ، إنما قتلتُه على وِتْرٍ صنَعه بي ، ولا آخذُ في حَمْل رأس مالاً ، فتركه عند عبد الملك. (٦/ ١٥٩).

وكان الوِتْر الذي ذكَرَه عُبيدُ الله بن زياد بن ظبيان أنه قتل عليه مصعباً أنّ مصعباً كان وَلي في بعضِ ولايته شرطه مطرّف بن سيدان الباهليّ ثم أحد بني جَأوة.

فحدّثني عمرُ بنُ شَبَّة ، قال: حدّثني أبو الحسن المَدائنيّ ومَخلدَ بنُ يحيى بن حاضر ، أنّ مطرّفاً أتِيَ بالنابئ بن زياد بن ظَبْيان ورجل من بني نُمَير قد قطعا الطريق ، فقتل النابئ ، وضرب النميريّ بالسياط فترَكه ، فجمع له عبيدُ الله بنُ زياد بن ظَبيان جَمْعاً بعد أن عزله مُصعب عن البصرة وولاّه الأهواز ، فخرج يريده ، فالتقَيَا فَتوافَقا وبينهما نهر ، فعبر مطرف إليه النَّهرَ ، وعاجَله ابنُ ظَبْيانَ فطعَنه فقتَله ، فبعث مصعبٌ مكرم بن مطرّف في طَلَب ابن ظبْيانَ ، فسار حتَّى بلغ عسكرَ مُكرَم ، فنُسِب إليه ، ولم يلق ابنَ ظَبْيان ، ولحق ابن ظَبْيان بعبد الملك

لمَّا قُتِل أخوه ، فقال البَعيثُ اليَشْكُرىّ بعد قتْل مُصعَب يَذكرُ ذلك :

ولمـا رأينـا الأَمـر نكْسـاً صُـدُورُهُ وهـمّ الهَـوادِي أن تكُـنَّ تـوالِيـا
صَبَـرْنـا لأمـر الله حتَّـى يُقيمـهُ ولـم نَـرْضَ إلاَّ مِـنْ أُمَيَّـةَ واليـا
ونحْـنُ قَتَلنـا مُصْعَباً وٱبـنَ مُصْعـبٍ أخَـا أَسَـدٍ والنَّخَعِـيَّ اليمـانِيَـا
ومـرّتْ عُقَـابُ المـوتِ مِنَّـا بمسِلـمٍ فـأهْـوَتْ لـه نـابـاً فـأصبَـحَ ثَـاويَـا
سقَيْنـا ابـن سيـدانٍ بكـأْسٍ رويَّـةٍ كَفَتَنْـا ، وخيـرُ الأَمـر مـا كـان كـافيـا

(٦/ ١٥٩ ـ ١٦٠)

حدّثني أبو زيد ، قال: حدّثني عليّ بنُ محمد ، قال: مَرّ ابنُ ظَبْيَان بابنة مطرِّف بالبصرة ، فقيل لها: هذا قاتلُ أبيك ، فقالت: في سبيل الله أبي ، فقال ابنُ ظَبْيان:

فـلا فـي سبيـلِ الله لاقَـى حِمَـامَـهُ أَبُـوكِ ولكـنْ فـي سبيـلِ الـدَّرَاهِـم

فلمَّا قُتل مُصعب دعا عبدُ الملك بنُ مروان أهلَ العراق إلى البيعة ، فبايَعوه ، وكان مُصعَب قُتل على نهر يقال له الدّجَيْل عند دَيْر الجاثَلِيق فلمَّا قُتل أمَرَ به عبدُ الملك وبابنه عيسى فدُفِنا. (٦/ ١٦٠).

ذكر الواقديّ عن عثمان بن محمَّد ، عن أبي بكر بن عُمَر ، عن عروة قال: قال عبدُ الملك حين قُتِل مُصَعب: وارُوهُ فقد والله كانت الحُرْمة بيننا وبينَه قديمةً ، ولكن هذا المُلْك عقيم. (٦/ ١٦٠ ـ ١٦١).

قـال أبـو زيـد: وحـدّثني أبـو نعيـم ، قـال: حـدّثنـي عبـدُ الله بـنُ الـزّبيـر أبو أبي أحمَد ، عن عبد الله بن شريك العامريّ ، قال: إني لَواقفٌ إلى جنب مصعب بن الزّبير فأخرجتُ له كتاباً من قَبائي ، فقلتُ له: هذا كتابُ عبد الملك ، فقال: ما شئتَ ، قال: ثم جاء رجلٌ من أهل الشام فدخل عسكره ، فأخرجَ جارية فصاحت: واذُلاّه! فنظر إليها مُصعَب ، ثمّ أعرَض عنها.

قال: وأتِيَ عبدُ الملك برأس مُصعب ، فنظر إليه فقال: متى تَغذو قريشٌ مِثلَك! وكانا يتحدّثان إلى حُبَّى ، وهما بالمدينة ، فقيل لها: قُتِل مصعب ، فقالتْ: تَعِس قاتِلُه! قيل: قتله عبدُ الملك بنُ مروان ، قالت: بأبي القاتلُ والمقتول!

قال: وحَجّ عبدُ الملك بعدَ ذلك، فدخلتْ عليه حُبَّى، فقالت: أقتلتَ أخاك مُصعَباً؟ فقال:

مــن يــذُقِ الحــرْبَ يَجِــد طَعْمَهــا ... مُــــرّاً وتَتْـــرُكـــهُ بجعجـــاعِ

وقال ابن قيس الرُّقيَّات:

لقـد أَوْرَثَ المِصـريْـنِ خِـزْيـاً وذِلـةً ... قتيــلٌ بــدَيْــر الجــاثَلِيــقِ مُقيــمُ
فمــا نصحــتْ لله بكــرُ بــنُ وائــلٍ ... ولا صَبــرتْ عنــدَ اللِّقــاءِ تميــمُ
ولــو كــان بكْــرِيّــاً تَعَطَّــفَ حَــوْلَــهُ ... كتــائــبُ يَغلِــي حَمْيُهــا ويَــدُومُ
ولكنَّــه ضــاعَ الــذمــامُ ولــم يكــن ... بهــا مُضَــرِيٌّ يَــوْمَ ذاكَ كــرِيــم
جَــزى الله كُــوفيّــاً هنــاك مــلامَــةً ... وبَصْــرِيَّهــم إنَّ المُليــمَ مُلِيــم
وإنَّ بنــي العَــلاَّتِ أخلَــوْا ظُهــورَنــا ... ونحــن صــرِيــح بيْنَهُــمْ وصميــمُ
فــإن نَفْــنَ لا يَبْقَــوْا ولا يــكُ بعْــدَنــا ... لِــذِى حُــرْمَــةٍ فــي المسلميــن حَــريــمُ

(٦/ ١٦١ ـ ١٦٢)

ذكر الخبر عن دخول عبد الملك بن مروان الكوفة

ولمَّا أتى عبدُ الملك الكوفةَ ـ فيما ذكر ـ نزل النُّخَيلة، ثمّ دعا النَّاس إلى البيعة، فجاءت قُضاعةُ، فرأى قِلَّة، فقال: يا معشر قُضاعة، كيف سَلِمتم من مُضَرَ مع قِلَّتكم! فقال: عبدُ الله بنُ يَعلى النَّهديّ: نحن أعزّ منهم وأمنَع، قال: بِمَن؟ قال: بمن معك منَّا يا أميرَ المؤمنين.

ثمّ جاءت مَذْحج وهَمْدان فقال: ما أرى لأحد مع هؤلاء بالكوفة شيئاً، ثمّ جاءت جُعفِيٌّ، فلمَّا نظر إليهم عبدُ الملك قال: يا معشر جعفيّ، اشتَملْتم على ابن أختكم، وواريتموه؟ يعني يحيَى بنَ سعيد بن العاص ـ قالوا: نعم، قال: فهاتوه؛ قالوا: وهو آمنٌ؟ قال: وتشترطون أيضاً! فقال رجل منهم: إنا والله ما نشترط جَهْلاً بحقِّك، ولكنَّا تتسحَّب عليه تَسَحُّب الولد على والِده، فقال: أما والله لَنعِمَ الحيّ أنتم؛ إن كنتم لَفُرساناً في الجاهليّة والإسلام، هو آمِن، فجاؤوا به وكان يُكنى أبا أيوب، فلمَّا نظر إليه عبدُ الملك قال أبا قبيح، بأيّ وجهٍ تَنظرُ إلى ربِّك وقد خلعْتني! قال: بالوجه الَّذي خلقه، فبايع ثمّ ولى فنظر عبدُ الملك في قَفاه فقال: لله دَرّه! أيَّ ابن زَوْمَلَة هو! يعني غَريبة. (٦/ ١٦٢ ـ ١٦٣).

ثم جاءتْ كِنْدة فنظر إلى عبد الله بن إسحاقَ بن الأشعث ، فأوصَى به بِشراً أخاه ، وقال: اجعَلْه في صَحابتِك ، وأقبَل داودُ بنُ قَحْذَم في مئتين من بَكر بن وائل ، عليهم الأقْبية الداوودّية ، وبه سُمِّيَتْ ، فجلس مع عبد الملك على سريره ، فأقبل عليه عبدُ الملك ، ثمّ نهض ونهضوا معه ، فأتبعهم عبدُ الملك بصره ، فقال: هؤلاء الفُسَّاق ، والله لولا أنّ صاحبهم جاءني ما أعطاني أحدٌ منهم طاعة.

ثمّ إنَّه ولَّى ـ فيما قيل ـ قَطَنَ بنَ عبد الله الحارثيّ الكوفةَ أربعين يوماً ثمّ عزله ، وولَّى بِشْرَ بن مَرْوان وصَعِد مِنبرَ الكُوفة فخَطَب فقال:

إنَّ عبدَ الله بنَ الزبير لو كان خليفةً كما يزعم لخرج فآسى بنفسه ، ولم يغرزْ ذَنبَه في الحرَم ، ثم قال: إني قد استعملتُ عليكم بِشرَ بنَ مروان ، وأمَرْته بالإحسان إلى أهل الطاعة ، والشدّة على أهل المعصية ، فاسمعوا له وأطيعوا.

واستعمل محمَّد بن عُمَير على هَمذان ، ويزيدَ بنَ رُؤَيم على الرَّيّ ، وفَرّق العُمَّالَ ، ولم يفِ لأحد شرَط عليه ولايةَ أصبهَان؛ ثم قال: عليّ هؤلاء الفُسَّاق الَّذين أنْغَلُوا الشام ، وأفسدوا العراق ، فقيل: قد أجارهم رؤساءُ عشائِرهم ، فقال: وهل يجير عليّ أحد! وكان عبدُ الله بن يزيد بن أسد لجأ إلى عليّ بن عبد الله بن عبَّاس ، ولجأ إليه أيضاً يحيى بن مَعْيُوف الهمدانيّ ، ولجأ الهذَيل بنُ زُفرَ بن الحارث وعمرو بن زيد الحَكَميّ إلى خالد بن يزيدَ بن معاوية ، فآمَنهم عبدُ الملك ، فَظهروا. (٦/ ١٦٤).

قال أبو جعفر: وفي هذه السنة تنازَع الرّياسة بالبصرة عُبيدُ الله بن أبي بكرة وحُمران بن أبان ، فحدّثني عمرُ بنُ شبَّة قال: حدّثني عليّ بنُ محمَّد قال: لمّا قُتِل المُصعَب وثب حُمرانُ بن أبان وعُبيد الله بنُ أبي بَكْرة فتنازَعا في ولاية البَصرة ، فقال ابن أبي بكرة: أنا أعظم غناءً منك ، أنا كنت أنْفِق على أصحاب خالد يوم الجُفْرة ، فقيل لحُمران: إنّك لا تقوَى على ابن أبي بَكْرة ، فاستَعِنْ بعبد الله بن الأهتم ، فإنَّه إن أعانك لم يقْو عليك ابنُ أبي بَكْرة ، ففعل ، وغلب حُمْران على البَصْرة وابن الأهتمِ على شُرطها.

وكان لحُمْرَان منزلةٌ عند بني أميَّة؛ حدثني أبو زيد قال: حدّثني أبو عاصم

النَّبيل قال: أخبرني رجلٌ قال: قَدِم شيخٌ أعرابيّ فرأي حُمرانَ فقال: من هذا؟ فقالوا: حُمْران؛ فقال: لقد رأيتُ هذا وقد مال رِداؤه عن عاتقِهِ فابتدره مروان وسعيدُ بن العاص أيّهما يسوّيه، قال أبو زيد: قال أبو عاصم: فحَدَّثتُ بذلك رجلاً من وَلَد عبد الله بن عامر، فقال: حدّثني أبي أنّ حُمْران مَدَّ رجلَه فابتدر معاوية وعبد الله بنَ عامر أيّهما يَغمِزها. (٦/ ١٦٥).

خطبة عبد الله بن الزبير بعد مقتل مصعب

وذكر أبو زيد عن أبي غَسَّان محمَّد بن يحيى، قال: حدثني مصعب بنُ عثمانَ، قال: لمَّا انتهى إلى عبد الله بن الزبير قتلُ مُصعب قام في الناس فقال:

الحمد لله الَّذي له الخلق والأمر، يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، ويُعِزُّ من يشاء ويُذلّ من يشاء، ألا وإنَّه لم يُذْلل اللهُ من كان الحقّ معه وإن كان فرداً، ولم يُعزِزْ من كان وليّه الشَّيطان وحِزْبُه وإن كان معه الأنام طُرّاً، ألا وإنَّه قد أتانا من العراق خبرٌ أحزننا وأفْرَحَنا، أتانا قتل مصعب رحمةُ الله عليه، فأما الَّذي أفرَحَنا فعلْمُنا أنّ قتلَه له شهادة، وأمَّا الذي أحزَننا فإنّ لفراق الحميم لوعة يَجِدها حميمُه عند المصيبة، ثم يَرْعَوِي مِنْ بَعدِها ذو الرأي إلى جميل الصبر وكريمِ العَزَاء، ولئن أصِبت بمصعب لقد أصبت بالزبير قبلَه، وما أنا من عثمانَ بخِلْوِ مصيبة، وما مصعب إلاّ عبدٌ من عَبيد الله وعَونٌ من أعواني، ألا إنّ أهل العراق أهل الغَدْر والنفاق، أسلَموه وباعُوه بأقلّ الثمن، فإنْ يُقتلْ فإنَّا والله ما نموت على مَضاجِعنا كما تموت بنو أبي العاص، والله ما قُتِل منهم رجلٌ في زَحْف في الجاهليَّة ولا الإسلام، وما نموت إلاّ قَعْصاً بالرّماح، وموتاً تحت ظِلال السيوف، ألا إنَّما الدنيا عاريّة من المَلِك الأعلى الَّذي لا يزول سلطانُه، ولا يَبِيدُ مُلكُه، فإن تُقبل لا آخذها أخذ الأشر البطر، وإنُ تُدْبر لا أبْك عليها بكاءَ الحَرِق المَهين؛ أقول قولي هذا وأستغفرُ اللهُ لي ولكم[1]. (٦/ ١٦٦).

وذكر أنّ عبدَ الملك لمَّا قتل مصعباً ودخل الكوفة أمرَ بطعام كثير فصُنِع وأمر به إلى الخَوَرْنَق، وأذِن إذناً عامّاً، فدخل الناسُ فأخذوا مجالسهم، فدخل

(١) في إسناده مصعب بن عثمان مجهول وفي متنه نكارة.

عمرو بن حُرَيْث المخزوميّ فقال: إليّ وعلى سريري، فأجلسَه معه، ثم قال: أيّ الطعام أكلتَ أحبّ إليك وأشهى عندك؟ قال: عَناق حَمراء قد أجيد تمليحُها؛ وأحكِم نضجها، قال: ما صنعت شيئاً، فأين أنتَ من عُمْروس راضع قد أجيدَ سَمطُه، وأحكِم نُضجُه، اختلجت إليك رجْلهُ، فأتْبعتَها يدَه، غُذِي بشَرِيجَيْنِ من لبن وسمن، ثمّ جاءت الموائد فأكلوا، فقال عبدُ الملك بنُ مروان: ما ألذّ عيشنا لو أنّ شيئاً يدوم! ولكنَّا كما قال الأول:

وكلّ جديدٍ يا أُمَيمَ إلى بِلىً وكلُّ امرئً يَوْماً يصيرُ إلى كانْ

فلما فرغ من الطعام طاف عبدُ الملك في القصر يقول لعَمرو بن حُرَيث: لِمَنْ هذا البيت؟ ومَنْ بَنَى هذا البيت؟ وعمرو يُخبِره، فقال عبدُ الملك:

وكلُّ جديدٍ يا أُمَيمَ إلى بِلىً وكلُّ امرئً يوماً يصيرُ إلى كانْ

ثمّ أتى مجلسَه فاستَلقى؛ وقال:

اعْمل على مَهَلٍ فإنّك ميّتٌ واكدَحْ لنَفْسِك أيّها الإنسانْ
فكأنَّ ما قد كان لم يكُ إذ مضى وكأنَّ ما هو كائنٌ قد كانْ

وفي هذه السنة افْتَتح عبدُ الملك ـ في قول الواقديّ ـ قَيْسارِيّة (٦/ ١٦٧).

ثم دخلت سنة اثنتين وسبعين

ذكر الخبر عمّا كان فيها من الأحداث الجليلة

قال أبو جعفر: فمن ذلك ما كان من أمر الخوارج وأمر المهلّب بن أبي صفرة وعبد العزيز بن عبد الله بن خالد بن أسِيد.

ذكَر هشامُ بنُ محمَّد، عن أبي مِخنَف أنّ حَصِيرة بن عبد الله وأبا زُهير العبسيّ حدّثاه أنّ الأزارقة والمهلَّب بعدما اقتتلوا بسُولافَ ثمانيةَ أشهر أشدَّ القتال، أتاهم أنّ مصعب بن الزّبير قد قُتِل، فبلغ ذلك الخوارجَ قبل أن يبلغ المهلَّب وأصحابه، فناداهم الخوارجُ: ألا تُخبِروننا ما قولكم في مُصعَب؟ قالوا: إمام هُدىً؛ قالوا: فهو وليّكم في الدنيا والآخرة؟ قالوا: نعم، قالوا: وأنتم أولياءه أحياءً وأمواتاً؟ قالوا: ونحن أولياؤه أحياءً وأمواتاً؛ قالوا: فما قولُكم في عبد الملك بن مروان؟ قالوا: ذلك ابنُ اللَّعين، نحن إلى الله منه بُراء، هو عندنا أحلُّ دماً منكم، قالوا:

فأنتم منه بُراء في الدّنيا والآخرة؟ قالوا: نعم كبراءتِنا منكم؛ قالوا: وأنتم له أعداءٌ أحياءً وأمواتاً؟ قالوا: نعم نحن له أعداء كعداوتِنا لكم ، قالوا: فإنّ إمامَكم مُصعباً قد قتله عبدُ الملك بنُ مروان ، ونراكم ستَجعلون غداً عبد الملك إمامكم ، وأنتم الآن تتبرّؤون منه ، وتلعَنون أباه! قالوا: كذبتم يا أعداء الله ، فلما كان من الغد تبيّن لهم قتلُ مصعَب ، فبايع المهلب الناس لعبد الملك بن مروان فأتتهم الخوارجُ فقالوا: ما تقولون في مصعَب؟ قالوا: يا أعداء الله؛ لا نخبركم ما قولنا فيه ، وكرهوا أن يكذِّبوا أنفسَهم عندهم ، قالوا: فقد أخبرتمونا أمسِ أنه وليّكم في الدنيا والآخرة وأنكم أولياءه أحياءً وأمواتاً ، فأخبرونا ما قولكم في عبد الملك؟ قالوا: ذاك إمامنا وخليفتُنا ـ ولم يجدوا إذ بايعوه بُدّاً من أن يقولوا هذا القول ـ قالت لهم الأزارقة: يا أعداء الله. أنتم أمسِ تتبرّؤون منه في الدّنيا والآخرة ، وتزعمون أنكم له أعداء أحياءً وأمواتاً ، وهو اليوم إمامكم وخليفتُكم ، وقد قتل إمامَكم الذي كنتم تولّونه! فأيهما المحِقّ ، وأيهما المهتدِي ، وأيهما الضالّ! قالوا لهم: يا أعداء الله ، رضينا بذاك إذ كان وليّ أمورنا ، ونرضى بهذا كما رضينا بذاك ، قالوا: لا والله ولكنّكم إخوان الشياطين ، وأولياء الظالمين ، وعَبيدُ الدنيا! وبَعث عبدُ الملك بنُ مروان بشرَ بن مروان على الكوفة ، وخالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد على البَصرة ، فلما قدم خالد أثبت المهلب على خَراج الأهواز ومَعُونتها ، وبعث عامر بن مِسْمع على سَابُور ، ومُقاتِل بن مسمع على أرْدشِيرْ خُرَّه ، ومِسمَع بن مالك بن مِسمَع على فَسَا ودرابْجِرْد ، والمغيرة بن المهلب على إصطخر.

ثمّ إنه بعث إلى مُقاتِل فَبعثَه على جيش ، وألحَقَه بناحية عبد العزيز فخرج يطلب الأزارقة ، فانحطّوا عليه من قِبلَ كَرْمان حتى أتَوْا دَرَابْجِرد ، فسار نحوَهم ، وبعث قَطَريٌّ مع صالح بن مخْراق تسعمئة فارس ، فأقبَل يسيرُ بهم حتى استقبَل عبدَ العزيز وهو يسير بالناس ليلاً ، يجرون على غير تعبية ، فهزم الناس ، ونزَل مُقاتِل بن مِسمَع فقاتل حتى قُتِل ، وانهزم عبدُ العزيز بنُ عبد الله ، وأخِذت امرأتُه ابنة المنذر بن الجارود ، فأقيمت فيمن يزيد ، فبلغت مئةَ ألف ـ وكانت جميلةً ـ فغار رجلٌ من قومها كان من رؤوس الخوارج يقال له: أبو الحديد الشَّنِّيّ ، فقال: تنحّوا هكذا ، ما أرَى هذه المُشركة إلا قد فتنتْكم ، فضرب

عنقَها ، ثمّ زعموا أنه لَحِق بالبَصْرة ، فرآه آلُ منذر فقالوا : واللهِ ما ندري أنحْمَدُك أم نذُمّك! فكان يقول : ما فعلتُه إلاّ غيْرة وحمِيّة ، وجاء عبدُ العزيز حتى انتهى إلى رامَهُرْمُز ، وأتى المهلّب فأخبر به ، فبعث إليه شيخاً من أشْياخ قومه كان أحدَ فُرْسانه ، فقال : ائته فإن كان منهزماً فعَزّه وأخبره أنه لم يَفعَل شيئاً لم يَفعَله الناسُ قبَله ، وأخبره أنّ الجنود تأتيه عادلاً ، ثم يُعزّه الله ويَنصُره ، فأتاه ذلك الرجل ، فوجدوه نازلاً في نحو من ثلاثين رجلاً كئيباً حزيناً ، فسلم عليه الأزْديّ ، وأخبره أنه رسول المهلّب ، وبلّغه ما أمَره به ، وعرض عليه أن يذكر له ما كانت له من حاجة ، ثمّ انصرف إلى المهلب فأخبره الخبر ، فقال له المهلب : الحق الآنَ بخالد بالبصرة فأخبِرْه الخبر ، فقال : أنا آتيه أخبرُه أنّ أخاه هُزِم! والله لا آتيه ، فقال المهلّب : لا والله لا يأتيه غيرُك ، أنتَ الذي عاينتَه ورأيته ، وأنت كنتَ رسولي إليه ، قال : هو إذاً بِهديك يا مهلّب أن ذهبَ إليه العامَ ، ثمّ خرج ، قال المهلّب : أما أنت والله فإنك لي آمن . أمّا والله لو أنك مع غيري ، ثمّ أرسلك على رجليك خرجت تشتد! قال له وأقبَل عليه : كأنك إنما تمنّ علينا بحِلْمك! فنحن والله نُكافئكَ بل نزيد؛ أما تعلَم أنا نُعرّضِ أنفسنا للقتل دُونَك ، ونحميك من عدوّك! ولو كنا والله مع من يَجهَل علينا ، ويَبعثنا في حاجاته على أرْجُلِنا ، ثمّ احتاج إلى قتالنا ونُصْرتنا جعلناه بينَنا وبين عدوّنا ، ووقينا به أنفسنا ، قال له المهلّب : صدقتَ صدقتَ . ثمّ دعا فتىً من الأزْد كان معه فسرَّحه إلى خالد يخبِره خبر أخيه ، فأتاه الفتى الأزديّ وحوله الناسُ وعليه جُبّةٌ خضراء ومُطرَفٌ أخضَر ، فسلم عليه ، فردّ عليه ، فقال : ما جاءَ بك؟ قال : أصلحك الله! أرسلني إليك المهلب لأخبرَك خبرَ ما عاينتُه ، قال : وما عاينتَ؟ قال : رأيتُ عبدَ العزيز برامَهُرمُز مهزوماً ، قال : كذبت ، قال : لا ، والله ما كذبتُ ، وما قلتُ لك إلا الحقّ ، فإن كنتُ كاذباً فاضربْ عُنقي ، وإن كنتُ صادقاً فأعطِني أصلحك الله جُبتَك ومُطرفَك ، قال : وَيْحَك! ما أيسَر ما سألت ، ولقد رضيت مع الخطر العظيم إن كنت كاذباً بالخطر الصَّغير إن كنت صادقاً ، فحَبَسه وأمر بالإحسان إليه حتى تبيّنتْ له هزيمةُ القوم ، فكَتَب إلى عبد الملك :

أما بعد ، فإني أخبر أميرَ المؤمنين أكرمه الله أني بعثتُ عبدَ العزيز بنَ عبد الله في طلب الخوارج ، وأنّهم لقُوه بفارِسَ ، فاقتَتَلوا قتالاً شديداً ، فانهزم

عبدُ العزيز لما انْهَزَم عنه الناس ، وقتِل مقاتل بنُ مِسمَح ، وقدم الفَلّ إلى الأهْواز ، أحببتُ أن أعلِم أميرَ المؤمنين ذلك ليأتيَني رأيُه وأمرهُ أنزل عندَه إن شاء الله ، والسلام عليك ورحمة الله .

فكَتَب إليه :

أما بعد ، فقد قَدِم رسولُك في كتابِك ، تُعلِمني فيه بَعْثَتك أخاك على قتال الخوارج ، وبهزيمة مَنْ هُزم ، وقَتْل من قُتِل ، وسألتُ رسولك عن مكان المهلّب ، فحدّثني أنه عاملٌ لك على الأهواز ، فقَبح الله رأيك حين تَبْعث أخاك أعرابيّاً من أهل مكّة على القتال ، وتدَع المهلب إلى جنبك يَجبي الخَراج ، وهو المَيْمونُ النقيبةِ ، الحَسَن السياسة ، البصير بالحَرْب ، المُقاسي لها ، ابنها وابنُ أبنائها! انظر أن تنهض بالناس حتى تستقبلهم بالأهواز ومن وراء الأهواز ، وقد بَعثتُ إلى بِشْر أن يُمدّك بجَيْش من أهل الكوفة ، فإذا أنت لقيتَ عدوَّك فلا تَعمَل فيهم برأي حتى تُحضره المهلّب ، وتستشيره فيه إن شاء الله ، والسلامُ عليكَ ورحمة الله .

فشَقَّ عليه أنّه فَيَّل رأيَه في بِعْثةِ أخيه وتَرْكِ المهلب ، وفي أنه لم يَرضَ رأيَه خالصاً حتى قال : أحضرْه المهلّبَ واستشرْه فيه .

وكَتَب عبدُ الملك إلى بِشْر بن مَرْوان :

أما بعد ، فإني قد كتبتُ إلى خالد بن عبد الله آمُرُه بالنّهوض إلى الخوارج ، فسرِّحْ إليه خمسة آلاف رجل ، وابعث عليهم رجلاً من قِبَلك ترضاه ، فإذا قَضَوْا غزاتَهم تلك صرفْتَهم إلى الرّيّ فقاتَلُوا عدوَّهم ، وكانوا في مَسالِحهم ، وجَبَوْا فيئَهم حتى تأتي أيام عَقَبهم فتُعقبهم وتبعث آخرين مكانَهم .

فقطع على أهل الكوفة خمسة آلاف ، وبعث عليهم عبدَ الرحمن بَن محمد بن الأشعث ، وقال : إذا قضيتَ غزاتَك هذه فانصرفْ إلى الرَّيّ . وكتب له عليها عهْداً ، وخرج خالدٌ بأهل البصرة حتى قَدِم الأهواز ، وجاء عبد الرحمن بنُ محمَّد ببعث أهل الكوفة حتَّى وافاهم بالأهواز ، وجاءت الأزارقة حتَّى دنَوْا من مدينة الأهواز ومن مُعسكَر القوم ، وقال المهلَّب لخالد بن عبد الله : إني أرَى هاهنا سُفُناً كثيرة ، فضُمَّها إليك ، فوالله ما أظُنّ القومَ إلاّ مُحرِقيها ، فما لبث إلاّ

ساعةً حتَّى ارتفعتْ خيلٌ من خيلهم إليها فحرّقَتْها ، وبعث خالد بن عبد الله على مَيمنَته المهلَّبَ ، وعلى ميْسَرته داود بن قَحذَم من بني قيس بن ثعلبة ، ومرّ المهلَّب على عبد الرحمن بن محمَّد ولم يُخنِدِق ، فقال: يابن أخي ، ما يَمنعك من الخَنْدق! فقال: واللهِ لهم أهوَنُ عليّ من ضَرْطة الجَمَل ، قال: فلا يَهُونوا عليك يابن أخي ، فإنَّهم سِباعُ العَرَب ، لا أبرح أو تَضرِب عليك خندقاً؛ ففعل.

وبلغ الخوارجَ قول عبد الرحمن بن محمَّد لهم: «أهوَنُ عليَّ مِن ضَرْطة الجمل» ، فقال شاعرُهم:

يـا طـالِـبَ الحـقِّ لا تُستَهْـو بـالأَمَـلِ ... فإنَّ من دون ما تَهوى مَدى الأجلِ
وٱعمَـل لـربِّـك وٱسـأَلـه مثـوبَتَـهُ ... فـإنَّ تَقْـواه فـٱعلـمْ أفضـلُ العمـلِ
واغْزُ المخانِيثَ في الماذِيِّ مُعْلِمَة ... كيمـا تُصبِّـح غـدْواً ضَـرْطَـةَ الجمـلِ

فأقاموا نحواً من عشرين ليلةً ، ثمّ إن خالداً زَحَف إليهم بالناس ، فرأوا أمْراً هالهم من عدَدَ الناس وعُدّتِهم ، فأخذوا ينحازون ، واجترأ عليهم الناس ، فكَرّت عليهم الخيل ، وزحف إليهم فانصرفوا كأنَّهم على حامِية وهم مولُّون لا يروْن لهم طاقة بقتال جماعة الناس ، وأتبعهم خالدُ بنُ عبد الله داودَ بن قحذَم في جيش من أهل البصرة ، وانصرف خالد إلى البصرة ، وانصرف عبدُ الرحمن بنُ محمَّد إلى الرَّيّ وأقام المهلَّب بالأهواز ، فكتب خالدُ بنُ عبدِ الله إلى عبد الملك:

أمَّا بعد: فإني أخْبر أميرَ المؤمنين أصلحه الله أني خرجتُ إلى الأزارقة الَّذين مرقوا من الدِّين ، وخرجوا من وِلاية المسلمين ، فالتقيْنا بمدينة الأهْواز فتناهضْنا فاقتتلنا كأشدّ قتال كان في الناس ، ثمّ إنّ الله أنزَل نصرَه على المؤمنين والمسلمين ، وضربَ الله وجوه أعدائه ، فاتبعهم المسلمون يقتّلونهم ، ولا يَمنعون ولا يمتنعون ، وأفاءَ الله مافي عسكرهم على المسلمين ، ثمّ أتبعتُهم داودَ بن قَحْذَم ، واللهُ إن شاءَ مهلِكهم ومستأصِلهم؛ والسلام عليك.

فلمَّا قَدم هذا الكتاب على عبد الملك كتب عبدُ الملك إلى بِشْر بن مرْوان:

أما بعد: فابعث من قِبَلك رجلاً شجاعاً بصيراً بالحرب في أربعة آلاف فارس ، فلْيَسيروا إلى فارس في طلب المارقة ، فإنّ خالداً كتب إليّ يخبِرني أنَّه قد بعث في طلبهم داود بن قَحْذَم ، فمرْ صاحبك الَّذي تَبعث ألا يُخالف داودَ بن قَحْذَم إذا ما التَقَيا ، فإنّ اختلافَ القوم بينهم عَوْن لعدوُهم عليهم ، والسلامُ عليك.

فبعث بشر بنُ مروان عَتّاب بنَ ورقاء في أربعة آلاف فارِس من أهل الكوفة ، فخرجوا حتَّى التقَوا هم وداودُ بنَ قَحْذم بأرض فارسَ ، ثمّ اتَّبعوا القوم يطلبونهم حتَّى نَفقتْ خيولُ عامَّتهم ، وأصابَهم الجَهْد والجوع ، ورَجَع عامَّةُ ذَيْنِك الجَيْشَين مُشاةً إلى الأهواز ، فقال ابن قيسِ الرّقيَّات ـ من بني مخزوم ـ في هزيمة عبد العزيز وفرارِه عن امرأته :

عبدَ العزيز فَضحْتَ جَيْشَك كلَّهمْ ... وتركتَهم صرعى بكلِّ سبيل
من بين ذي عَطَشٍ يجودُ بنفسِه ... ومُلَحَّبٍ بين الرِّجال قَتِيل
هلاَّ صبْرتَ مع الشهيد مقاتلاً ... إذ رُحْت منتكث القُوَى بأَصيل
وتركت جيْشَك لا أمير عليهمُ ... فارجع بِعارٍ في الحياةِ طَويل
ونَسيتَ عِرسك إذ تُقَادُ سَبِيَّةً ... تُبكي العيونَ برنَّةٍ وعَوِيلِ[١]

(٦/ ١٦٨ ـ ١٧٣)

خروج أبي فُدَيك الخارجيّ وغلبته على البحرين

وفي هذه السنة كان خروج أبي فُدَيك الخارجيّ ، وهو من بني قَيْسِ بن ثعلبة ، فغلب على البحرين ، وقتل نجدةَ بن عامر الحنَفيّ ، فاجتمع على خالد بن عبدِ الله نُزول قَطريّ الأهواز وأمرُ أبي فُديك ، فبعث أخاه أميَّة بن عبد الله على جُند كثيف إلى أبي فُديك ، فهزمه أبو فُدَيك ، وأخذ جاريةً له فاتّخذها لنفسه ، وسار أميَّةُ على فرس له حتَّى دخل البَصْرة في ثلاثة أيّام ، فكتب خالدٌ إلى عبد الملك بحالِه وحال الأزارقة. (٦/ ١٧٤).

خبر توجيه عبد الملك الحجَّاج لقتال ابن الزبير[٢]

وفي هذه السنة وجَّه عبدُ الملك الحجَّاجَ بن يوسفَ إلى مكة لقتال عبد الله بن

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.
(٢) إبتداءاً من هذه الرواية في الصفحة (٥٣٤) أي (٦/ ١٧٤) في تأريخ الطبري وانتهاءاً ببداية الصفحة (٥٤٣) أي (٦/ ١٩٣) من تأريخ الطبري كلها روايات أخرجها الطبري من طريق الواقدي وهو متروك عند أئمة الحديث. سوى رواية واحدة (٦/ ١٩٦) وهو من طريق مجاهيل (أبو الحسن عن رجاله) والله أعلم.

الزّبير ، وكان السبب في توجيهه الحَجَّاجَ إليه دونَ غيره ـ فيما ذُكر ـ أن عبدَ الملك لمّا أراد الرّجوع إلى الشام ، قام إليه الحجَّاج بنُ يوسفَ فقال: يا أمير المؤمنين ، إني رأيتُ في منامي أني أخذتُ عبدَ الله بن يوسفَ فقال: يا أميرَ المؤمنين ، إني رأيتُ في منامي أني أخذتُ عبدَ الله بن الزبير فسلَخْته ، فابْعثْني إليه ، وولّني قتالَه ، فبعثه في جيش كثيف من أهل الشام ، فسار حتّى قَدِم مكّة ، وقد كتب إليهم عبدُ الملك بالأمان إنْ دخلوا في طاعتِه.

فحدّثني الحارثُ؛ قال: حدّثني محمَّد بن سَعْد ، قال: أخبَرَنا محمَّد بن عمرَ ، قال: حدّثنا مُصعَب بنُ ثابت ، عن أبي الأسودَ ، عن عبَّاد بن عبدِ الله بن الزبير ، قال: بعث عبدُ الملك بنُ مروان حين قُتِل مُصعَب بن الزبير الحجَّاجَ بنَ يوسف إلى ابن الزّبير بمكَّة. فخرج في ألفين من جُندِ أهل الشام في جُمادى من سنة اثنتين وسبعين ، فلم يَعرِض للمدينة، وسلَك طريقَ العراق ، فنزل بالطّائف ، فكان يَبْعَث البُعوثَ إلى عَرَفة في الخيل ، ويبعث ابن الزّبير بَعْثاً فيقتتِلون هنالك ، فكلّ ذلك تُهزَم خيل ابنِ الزّبير وتَرجع خيلُ الحجَّاج بالظَّفر ، ثمّ كتب الحجَّاج إلى عبدِ الملك يستأذنه في حصار ابن الزبير ودخولِ الحَرَم عليه ، ويُخبِره أن شوكَتَه قد كَلَّت ، وتفَرَّق عنه عامَّة أصحابه ، ويَسأله أن يمِدّه برجال ، فجاءَه كتابُ عبدِ الملك ، وكتب عبدُ الملك إلى طارِق بن عَمْرو يأمره بأن يَلحق بمن معه من الجُنْد بالحَّجاج ، فسار في خمسة آلاف من أصحابه حتَّى لحق بالحَجَّاج ، وكان قُدومُ الحَجَّاجِ الطائفَ في شعبان سنة اثنتين وسبعين ، فلمَّا دخل ذو القعدة رَحَل الحجَّاج من الطائف حتّى نزل بئرَ مَيْمون وحصرَ ابن الزّبير.

حجّ الحجَّاجُ بالناس في هذه السنة ، وابن الزبير محصور ، وكان قدومُ طارق مكَّة لهلالِ ذي الحِجَّة ، ولم يَطُف بالبَيْت ، ولم يصل إليه وهو مُحرِم ، وكان يَلبَس السلاح ، ولا يَقرَب النساء ولا الطيب إلى أن قُتل عبدُ الله بن الزبير ، ونَحَر ابنُ الزّبير بُدْناً بمكّة يوم النحر ، ولم يحجَّ ذلك العامَ ولا أصحابه لأنَّهم لم يَقِفوا بعَرَفة. (٦/ ١٧٤ ـ ١٧٥).

قال محمَّد بنُ عمر: حدثني سعيد بنُ مسلم بن بابك ، عن أبيه ، قال: حجَجتُ في سنة اثنتين وسبعين فَقدِمْنا مكَّة ، فدخَلناها من أعلاها ، فنجدُ أصحابَ الحَّجاج وطارق فيما بين الحَجون إلى بئرِ مَيْمون ، فطفْنا بالبيت وبالصَّفا

والمَرْوة ، ثمّ حجّ بالناس الحجّاجُ ، فرأيتُه واقفاً بالهَضَبات من عَرَفة على فرس ، وعليه الدِّرع والمِغفرَ ، ثم صَدَر فرأيتهُ عَدَل إلى بئر ميمون ، ولم يَطُفْ بالبيت وأصحابه متسلّحون ، ورأيتُ الطَّعام عندهم كثيراً ، ورأيت العير تأتي من الشام تحمل الطَّعام ؛ الكعْك والسَّويق والدَّقيق ؛ فرأيتُ أصحابَه مخاصيبَ ، ولقد ابْتعْنا من بعضهم كعكاً بدرْهم ، فكفانا إلى أن بَلغنا الجُحْفة وإنَّا لثلاثة نفر . (٦/ ١٧٥) .

قال محمَّد بن عمر : حدّثني مصعب بنُ ثابت ، عن نافع مَولى بني أسَد ، قال : ـ وكان عالماً بفتنة ابنِ الزّبير ـ قال : حُصر ابنُ الزبير ليلةَ هلالِ ذي القعدة سنة اثنتين وسبعين . (٦/ ١٧٥) .

أمر عبد الله بن خازم السلمي مع عبد الملك

وقال بعضهم : بَعث عبدُ الملك إلى ابن خازم سِنانَ بن مكمّل الغَنويّ ، وكتب إليه : إنّ خُراسان طُعْمة لك ، فقال له ابن خازم : إنما بَعثك أبو الذِّبّان لأنك من غَنِيّ ، وقد عَلم أني لا أقتُل رجلاً من قيس ، ولكن كُلْ كِتابَه .

قال : وكتب عبدُ الملك إلى بكير بن وشاح أحد بني عَوْف بن سعد ـ وكان خليفة ابن خازم على مَرْو ـ بعهده على خراسان ووعده ومنَّاه ، فخلع بكيرُ بن وشاح عبدَ الله بن الزبير ، ودعا إلى عبد الملك بن مروان ، فأجابه أهل مَرْوَ ، وبلغ ابنَ خازم فخاف أن يأتيَه بُكيَر بأهل مَرْوَ ، فيجتمع عليه أهلُ مَرْو وأهل أَبرَشَهْر ، فترك بَحِيراً ، وأقبل إلى مرْو يريد أن يأتيَ ابنه بالتِّرمِذ ، فأتبعه بحير ، فلحقه بقرية يقال لها بالفارسية : «شاهميغد» ، بينها وبين مَرو ثمانية فرَاسخ .

قال : فقاتله ابن خازم ، فقال مولىً لبني ليث : كنت قَريباً من معترك القوم في منزل ، فلما طَلعت الشمسُ تهايجَ العسكران ، فجعلتُ أسمعُ وقْعَ السيوف ، فلمَّا ارتَفَع النهارُ خفيَت الأصواتُ ، فقلتُ : هذا لارتفاع النَّهار ، فلمَّا صلَّيت الظهر ـ أو قبلَ الظهر ـ خرجتُ ، فتلَقَّاني رجلٌ من بني تميم ، فقلتُ : ما الخبر؟ قال : قتلتُ عدوَّ الله ابن خازم وهاهو ذا ، وإذا هو محمول على بغل ، وقد شدّوا في مَذاكِيره حَبْلاً وحجراً وعدلوه به على البَغْل .

قال : وكان الَّذي قتله وكيعُ بن عُمَيْرة القُرَيعيّ وهو ابن الدَّوْرَقِيَّة ، اعتَور عليه بحير بن وَرْقاء وعمَّار بنُ عبد العزيز الجُشميّ ووكيع ، فطعَنوه فصَرَعوه ، فقعد

وكيع على صدره فقتَله ، فقال بعضُ الوُلاة لوَكيع : كيف قتلتَ ابنَ خازم؟ قال : غلبتُه بفَضْلِ القَنا ، فلمَّا صُرع قعدتُ على صدره ، فحاول القيام فلم يَقدِر عليه ، وقلتُ : يا لَثارات دُوَيلة! ودُويْلَةُ أخٌ لوَكيع لأمّه ، قُتِل قبل ذلك في غير تلك الأيَّام.

قال وكيع : فتنخَّم في وجهي وقال : لعنك الله! تقتل كبش مضَر. بأخيك ، علْج لا يساوي كفّاً من نوىً ـ أو قال : مِن تراب ـ فما رأيت أحداً أكثر ريقاً منه على تلك الحال عند الموت.

قال : فذَكَر ابنُ هُبيرة يوماً هذا الحديثَ فقال : هذه واللهِ البَسالة.

قال : وبعث بَحِير ساعةَ قُتل ابن خازم رجلاً من بني غُدانة إلى عبد الملك بن مَرْوان يُخبره بقتل ابن خازم ، ولم يَبعث بالرأس ، وأقبل بُكَير بنُ وشاح في أهل مَرو فوافاهم حين قتل ابن خازم ، فأراد أخذ رأس ابن خازم ، فمنعَه بحِيرٌ ، فضربه بكير بعمود ، وأخذ الرأس وقيَّد بحيراً وحبسه ، وبعث بكير بالرأس إلى عبد الملك ، وكتب إليه يُخبره أنَّه هو الذي قتله ، فلمَّا قُدِم بالرأس على عبد الملك دعا الغُدانيّ رسولَ بَحير وقال : ما هذا؟ قال : لا أدري ، وما فارقتُ القومَ حتَّى قُتِل ، فقال رجل من بني سُليم :

أَلَيْلَتَنا بنيسابُورَ رُدِّي ... عليَّ الصبحَ وَيْحكِ أو أَنيري
كواكبُها زَواحِفُ لا غِبَاتٌ ... كأَنَّ سماءَها بيدي مُدِيرِ
تَلومُ على الحوادثِ أُمُّ زيدٍ ... وهل لكِ في الحوادثِ من نكيرِ!
جَهلن كَرامتي وصَددنَ عَنِّي ... إلى أجل من الدّنيا قصير
فلو شهدَ الفوارسُ من سُلَيْم ... غداةَ يُطاف بالأَسَدِ العَقيرِ
لنازَلَ حولَهُ قومٌ كرامٌ ... فعزَّ الوِترُ في طلب الوُتورِ
فقد بَقِيتْ كلابٌ نابِحاتٌ ... ومافي الأَرضِ بعدَكَ من زَئيرِ

فولى الحجّ بالناس في هذه السنة الحجَّاج بن يوسف.

وكان العامل على المدينة طارقٌ مولى عثمان من قِبَل عبد الملك ، وعلى الكوفة بِشْر بنُ مروان ، وعلى قضائها عُبيد الله بن عبد الله بن عُتبةَ بن مسعود. وعلى البصرة خالدُ بنُ عبد الله بن خالد بن أسيد ، وعلى قضائها هشام بنُ هُبيرة ، وعلى خُراسان في قول بعضهم عبدُ الله بنُ خازم السُلَميّ ، وفي قولِ

بعض: بكير بن وشاح ، وزعم مَن قال: كان على خُراسانَ في سنة اثنتين وسبعين عبدُ الله بنُ خازم أنّ عبد الله بن خازم إنَّما قتل بعدما قتل عبد الله بن الزبير ، وأنّ عبد الملك إنَّما كتب إلى عبد الله بن خازم يدعوه إلى الدخول في طاعته على أن يُطْعِمه خراسان عشرَ سنين بعدما قتل عبدُ الله بنُ الزُّبير ، وبعث برأسه إليه ، وأنّ عبد الله بن خازم حَلف لمَّا ورد عليه رأسُ عبد الله بن الزبير ألاَّ يُعطيه طاعةً أبداً ، وأنَّه دعا بطست فغَسل رأسَ ابن الزبير ، وحَنَّطه وكفَّنه ، وصلَّى عليه ، وبعث به إلى أهل عبد الله بن الزبير بالمدينة ، وأطعم الرسول الكتاب ، وقال: لولا أنَّك رسولٌ لضربتُ عنقك ، وقال بعضهم: قطع يَديه ورجلَيه وضرَبَ عنقَه. (٦/ ١٧٦ ـ ١٧٨) .

ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين

ذكر الكائن الذي كان فيها من الأمور الجليلة

خبر مقتل عبد الله بن الزبير

فمن ذلك مقتَل عبد الله بن الزبير.

* ذكر الخبر عن صفة ذلك:

حدّثني الحارث ، قال: حدّثنا محمد بنُ سعد ، قال: أخبرنا محمّد بنُ عمر. قال: حدّثني إسحاق بنُ يحيى ، عن عُبيد الله بن القبطيَّة ، قال: كانت الحرب بين ابن الزّبير والحجَّاج ببطن مكَّة ستَّة أشهر وسبعَ عشرةَ ليْلة.

قال محمَّد بن عمر: وحدّثني مصعب بنُ ثابت ، عن نافع مولى بني أسد ـ وكان عالماً بفتنة ابن الزبير ـ قال: حُصِر ابن الزّبير ليلَة هلالِ ذي القعدة سنة اثنتين وسبعين وقتل لسبع عشرة ليلةً خلتْ من جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين ، وكان حصرَ الحجَّاج لابن الزبير ثمانية أشهر وسبعَ عشرة ليلة. (٦/ ١٨٧) .

حدّثنا الحارث ، قال: حدّثنا محمَّد بنُ سعد ، قال: أخبرَنا محمَّد بن عمر: قال: حدّثني إسحاقُ بنُ يحيى ، عن يوسفَ بن ماهَك ، قال: رأيتُ المَنجنيقَ يُرمَى به ، فرعدت السماء وبرقت ، وعلا صوتُ الرّعد والبرق على الحجارة ،

فاشتمل عليها ، فأعظم ذلك أهلُ الشام ، فأمسَكوا بأيديهم ، فرفع الحجَّاج بِرْكة قَبائه فغرَزَها في مِنطَقته ، ورفع حجر المَنجنيق فوضعه فيه ، ثم قال: ارمُوا ، ورمى معهم ، قال: ثمّ أصبحوا ، فجاءت صاعقة تتبعها أخرى ، فقتلتْ من أصحابه اثنى عشرَ رجلاً ، فانكسر أهلُ الشام ، فقال الحجَّاج: يا أهل الشام ، لا تُنكروا هذا فإني ابن تهامة ، هذه صواعقُ تِهامة ، هذا الفتح قد حضر فأبشِروا ، إنّ القوم يُصيبُهم مثل ما أصابكم ، فصعقت من الغد ، فأصيب من أصحاب ابن الزبير عِدّة؛ فقال الحجَّاج: ألا تَرَوْن أنَّهم يصابون وأنتم على الطَّاعة ، وهم على خلاف الطاعة! فلم تزل الحربُ بينَ ابن الزبير والحجَّاج حتَّى كان قُبيلَ مَقتله وقد تفرّق عنه أصحابه ، وخرج عامَّة أهلِ مكة إلى الحجَّاج في الأمان. (٦/ ١٨٧ ـ ١٨٨).

حدّثني الحارث ، قال: حدّثنا ابنُ سعد ، قال: أخبرنا محمَّد بنُ عمر ، قال: حدّثني إسحاق بن عبد الله ، عن المنذر بن جَهْم الأسَديّ ، قال: رأيتُ ابنَ الزبير يوم قُتِل وقد تفرّق عنه أصحابُه وخذله من معه خذلاناً شديداً ، وجعلوا يخرجون إلى الحجَّاج حتَّى خرج إليه نحوٌ من عشرةِ آلاف.

وذكِر أنَّه كان ممَّن فارقه وخرج إلى الحجَّاج ابناه حَمزة وخُبَيب ، فأخذا منه لأنفسهما أماناً ، فدخل على أمّه أسماء ـ كما ذكر محمَّد بنُ عمرَ عن أبي الزّناد ، عن مَخرَمة بن سليمان الوالبيّ ، قال: دخل ابنُ الزبير على أمّه حين رأى من الناس ما رأى من خِذْلانهم ، فقال: يا أُمَّة! خذَلني الناسُ حتَّى ولدي وأهلي ، فلم يَبق معي إلا اليسير ممَّن ليس عنده من الدّفع أكثر من صبر ساعة ، والقوم يعطونني ما أردت من الدنيا ، فما رأيُك؟ فقالت: أنت والله يا بُنيَّ أعلم بنفسك ، إن كنتَ تعلم أنَّك على حقّ وإليه تدعو فامضِ له ، فقد قُتل عليه أصحابك ، ولا تُمكّن من رقبتك يتلعَّب بها غِلمانُ أميَّة ، وإن كنتَ إنَّما أردتَ الدّنيا فبئس العبدُ أنتَ! أهلكتَ نفسَك. وأهلكت من قُتِل معك ، وإن قلتَ: كنتُ على حق فلمَّا وَهَن أصحابي ضعُفتُ ، فهذا ليس فعل الأحرار ولا أهل الدّين ، وكم خلودُكَ في الدنيا! القتلُ أحسن. فدنا ابن الزبير فقبَّل رأسها وقال: هذا واللهِ رأيي ، والذي قمتُ به داعياً إلى يومي هذا ما ركَنْت إلى الدنيا ، ولا أحببتُ الحياةَ فيها ، وما دعاني إلى الخروج إلاّ الغضب لله أن تُستحَلّ حُرَمه ، ولكنّي

أحببتُ أن أعلم رأيك ، فزدْتِني ، بصيرةً مع بصيرتي . فانظري يا أمَّة فإني مقتول من يومي هذا ، فلا يشتدَّ حُزْنك ، وسَلِّمي الأمر لله ، فإنّ ابنَكِ لم يتعمَّد إتيان منكر ، ولا عَملاً بفاحشة ، ولم يَجُرْ في حكم الله ، ولم يغدر في أمان ، ولم يتعمّد ظُلم مسلم ولا معاهد ، ولم يبلغني ظلم من عُمَّالي فرضيتُ به بل أنكرتُه ، ولم يكن شيءٌ آثَرَ عندي من رِضَا رَبي ، اللهمّ إني لا أقول هذا تزكية منّي لنفسي ، أنت أعلمُ بي ، ولكن أقولُه تعزية لأمّي لتسلوَ عنِّي ، فقالت أمه : إني لأرجو من الله أن يكون عزائي فيك حَسناً إن تقدّمتَني ، وإن تقدّمْتُك ففي نفسي اخرج حتَّى أنظر إلى ما يصير أمرك . قال : جزاكِ الله يا أمَّة خيراً ، فلا تَدعي الدّعاء لي قبلُ وبعدُ ، فقالت : لا أدَعه أبداً ، فمن قُتِل على باطل فقد قُتِلتَ على حقّ ، ثم قالت : اللَّهم ارحمْ طول ذلك القيام في اللَّيل الطويل ، وذلك النَّحيب والظَمأ في هَواجِرِ المدينة ومكَّة ، وبرَّه بأبيه وبي ، اللَّهمّ قد سلَّمته لأمرك فيه ، ورضيتُ بما قضيتَ ، فأثِبْني في عبد الله ثوابَ الصابرين الشاكرين .

قال مصعب بنُ ثابت : فما مكثتْ بعدَه إلا عشراً ، ويقال : خمسة أيَّام . (٦/ ١٨٨ ـ ١٨٩) .

قال محمد بنُ عمر : حدّثني موسى بنُ يعقوب بن عبد الله ، عن عمّه قال : دخل ابنُ الزبير على أمه وعليه الدّرع والمِغفَر ، فوقف فسلَّم ، ثمّ دنا فتناول يدها فقبَّلها ، فقالت : هذا وداع فلا تبعدَ ، قال ابن الزبير : جئت مودِّعاً ، إني لأرى هذا آخر يوم من الدنيا يمرّ بي ، واعلمي يا أمَّة أني إن قُتِلت فإنَّما أنا لحم لا يضرّني ما صُنع بي ، قالت : صدقتَ يا بُنيَّ ، أتمِم على بصيرتك ، ولا تُمكِّن ابن أبي عَقِيل منك ، وادنُ مني أوَدّعْك ، فدنا منها فقبَّلها وعانَقَها ، وقالت حيث مَسَّت الدّرْع : ما هذا صنيعُ من يريد ما تريد! قال : ما لبستُ هذا الدّرع إلا لأشدّ منك ، قالت العجوز : فإنَّه لا يشدّ منّي ، فنزَعها ثمّ أدرج كمَّيْه ، وشدّ أسفَل قميصه ، وجُبَّة خزّ تحت القميص فأدخل أسفلَها في المنطقة ، وأمّه تقول : البَس ثيابَك مشمَّرةً . ثمّ انصرف ابن الزبير وهو يقول :

إنّــي إذا أَعْــرِف يــومــي أصبِـرْ   إذ بَعْضُهــم يَعــرِفُ ثــم يُنكِــرْ

فسمعت العجوزُ قولَه ، فقالت : تَصبَّر والله إنْ شاء الله ، أبوك أبو بكر والزّبير ، وأمّك صفيَّة بنتُ عبد المطّلب . (٦/ ١٨٩ ـ ١٩٠) .

حدّثني الحارث ، قال: حدّثني ابنُ سعد ، قال: أخبرني محمَّد بن عمر ، قال: أخبرنا ثورُ بنُ يزيدَ عن شيخ من أهل حِمْصَ شهد وقعة ابن الزبير ، مع أهل الشام ، قال: رأيتهُ يوم الثُّلاثاء وإنَّا لنطلع عليه أهل حمص خمسمئة خمسمئة من باب لنا نَدخلُه؛ لا يدخله غيرُنا ، فيخرج إلينا وحدَه في أثرنا ، ونحن منهزِمون منه ، فما أنسىَ أرجوزةً له:

إنِّــي إذا أَعْــرِفُ يــومِــي أصبِــر وإنَّمــا يَعْــرِف يَــوْمَيْــهِ الحُــرّ

إذْ بعضُهـــمْ يَعـــرِف ثـــم يُنكِـــرْ

فأقول: أنتَ والله الحرّ الشريف ، فلقد رأيتُه يقف في الأبْطح ما يدنو منه أحدٌ حتَّى ظننَّا أنَّه لا يقتَل. (٦/ ١٩٠).

حدّثني الحارث ، قال: حدّثنا ابنُ سعد ، قال: أخبرنا محمَّد بنُ عمر ، قال: حدّثنا مصعب بن ثابت؛ عن نافعِ مولى بني أسد ، قال: رأيتُ الأبوابَ قد شُحِنت من أهل الشام يوم الثلاثاء ، وأسلَم أصحابُ ابن الزّبير المحارس ، وكثرهم القومُ فأقاموا على كلّ باب رجالاً وقائداً وأهل بلد ، فكان لأهل حمص الباب الَّذي يواجه بابَ الكعبة ، ولأهل دمشقَ باب بني شَيْبة ، ولأهل الأرْدن باب الصّفا ، ولأهل فِلَسطين باب بني جُمَحْ ، ولأهل قِنَّسْرين باب بني سَهْم ، وكان الحجَّاج وطارق بن عمرو جميعاً في ناحية الأبطح إلى المروة ، فمرّة يَحمِل ابنُ الزبير في هذه الناحية ، ومرة في هذه الناحية ، فلكأنَّه أسدٌ في أجَمة ما يُقدِم عليه الرّجال ، فيعدو في أثَر القوم وهم على الباب حتَّى يُخرِجَهم وهو يرتجز:

إنّــي إذا أعْــرِف يــومِــي أَصبِــرْ وإنَّمــا يَعــرف يــومَيْــه الحُــرُّ

ثم يصيح: يا أبا صفوان ، ويلْ أمِّه فتحاً لو كان له رجال!

لـــو كـــانَ قِـــرْنـــي واحِـــداً كفَيْتُـــهْ

قال ابن صفوان: إي والله وألف. (٦/ ١٩٠ ـ ١٩١).

حدّثني الحارث ، قال: حدّثنا ابنُ سعد ، قال: أخبرنا محمّد بن عمرَ ، قال: فحدَّثني ابنُ أبي الزّناد وأبو بكر بنُ عبد الله بنِ مصعب ، عن أبي المنذر ، وحدّثنا نافع مولى بني أسد ، قالا: لمَّا كان يوم الثلاثاء صبيحةَ سبع عشرة من جُمادَى الأولى سنة ثلاث وسبعين ، وقد أخذ الحجَّاجُ على ابن الزبير بالأبواب ،

بات ابنُ الزبير يصلِّي عامَّة اللَّيل ، ثمّ احتبَى بحمائلِ سيفه فأغفى ، ثمّ انتبه بالفجر فقال: أذِّن يا سعد ، فأذَّن عند المقام ، وتوضَّأ ابنُ الزبير ، وركع ركعتي الفجر ، ثم تقدَّم ، وأقام المؤذّن فصلَّى بأصحابه ، فقرأ: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ﴾ حرْفاً حرفاً ، ثمّ سلّم ، فقام فحَمِد الله وأثنى عليه ثم قال:

اكشفوا وجوهَكم حتَّى أنظر ، وعليهم المغَافر والعمائم ، فكشفوا وجوهَهم فقال: يا آل الزبير ، لو طِبْتم لي نَفْساً عن أنفسكم كنَّا أهلَ بيت من العرب اصطُلِمْنا في الله لم تصبْنا زبَّاءُ بتَّة ، أمَّا بعد يا آل الزبير ، فلا يرُعْكم وقعُ السيوف ، فإني لم أحضر موطناً قطّ إلا ارتثثْتُ فيه من القتل ، وما أجدُ من أدواء جراحها أشد ممَّا أجد من ألمِ وقعها ، صونوا سيوفَكم كما تصونون وجوهَكم ، لا أعلم امرأً كسر سيفَه ، واستَبقى نفسَه ، فإنّ الرجلَ إذا ذهب سلاحُه فهو كالمرأة أعزل ، غُضوا أبصاركم عن البارقة ، وليَشْغَلْ كلّ امرئ قِرْنَه ، ولا يُلهينَّكم السؤالُ عنّي ، ولا تقولُنّ: أين عبدُ الله بنُ الزبير؟ ألا من كان سائلاً عنّي فإني في الرَّعيل الأولّ.

أبِـي لابـن سَلْمَـى أنَّـهُ غيـرُ خـالِـدٍ مُـلاقـي المنـايـا أيَّ صَـرْفٍ تيمَّمَـا
فلَسْـــتُ بمُبتـــاعِ الحَيـــاة بسُبَّـــةٍ ولا مُرْتَقٍ من خَشْيَةِ الموتِ سُلَّمَا

احملوا على بركة الله.

ثمّ حمل عليهم حتَّى بلغ بهم الحَجُون ، فرُمِي بآجُرّة فأصابته في وجهِهِ فأرعِش لها ، ودمي وجهُه ، فلمَّا وجد سخونةَ الدَّم يسيل على وجهه ولحيته قال:

فلسْنَا على الأعقاب تَدْمَى كُلُومُنا ولكـنْ علـى أقـدامِنَـا تَقْطُـرُ الـدّمـا

وتغاوَوْا عليه.

قالا: وصاحب مولاة لنا مجنونة: واأميرَ المؤمنيناه! قالا: وقد رأتْه حيث هوى ، فأشارتْ لهم إليه ، فقتل وإنّ عليه ثيابَ خَزّ ، وجاء الخبر إلى الحجَّاج ، فسجد وسار حتَّى وقف عليه وطارق بنُ عمرو ، فقال طارق: ما وَلَدت النساءُ أذكَرَ من هذا؛ فقال الحجَّاج: تمدح من يُخالف طاعةَ أمير المؤمنين! قال: نعم ، هو أعذَر لنا ، ولولا هذا ما كان لنا عُذر ، إنَّا مُحاصِروه ، وهو في غير خندَق ولا حصن ولا مَنَعة منذ سبعة أشهر ينتصف منَّا ، بل يفضل علينا في كلّ ما التقينا نحن وهو؛ فبلغ كلامُهما عبدُ الملك ، فصوّب طارقاً. (٦/ ١٩١ ـ ١٩٢).

حدّثنا عمر ، قال: حدّثنا أبو الحسن عن رجاله ، قال: كأني أنظر إلى الزبير ، وقد قتل غلاماً أسوَد ، ضَرَبه فعرقَبه ، وهو يمرّ في حملتِه عليه ويقول: صَبْراً يا بن خام ، ففي مثلِ هذه المواطن تَصْبر الكرام! (٦/ ١٩٢).

حدّثني الحارث ، قال: حدّثنا ابن سعد ، قال: أخبَرَنا محمَّد بن عمر ، قال: حدثني عبد الجبار بنُ عُمَارة عن عبد الله بن أبي بكر بن محمَّد بن عمرو بن حزْم، قال: بعث الحجَّاجُ برأس ابنِ الزّبير ورأسِ عبدِ الله بن صفْوان ورأس عُمارة بن عمرو بن حزم إلى المدينة فنصبتْ بها، ثم ذُهِب بها إلى عبد الملك بن مروان، ثمّ دخل الحجَّاج مكَة، فبايع مَن بها من قريش لعبد الملك بن مروان. (٦/ ١٩٢-١٩٣)[١].

قال أبو جعفر: وفي هذه السنة ولَّى عبدُ الملك طارقاً مولى عثمان المدينة فوليَها خمسةَ أشهر.

وفي هذه السنة تُوفّيَ بِشرُ بن مروانَ في قول الواقديّ ، وأمَّا غيرُه ، فإنَّه قال: كانت وفاته في سنة أربع وسبعين.

وفيها أيضاً وَجَّه ـ فيما ذُكر ـ عبد الملك بن مروان عمر بن عبيد الله بن معمرَ لقتال أبي فُدَيك ، وأمره أن ينْدب معه من أحبّ من أهل المِصْرين ، فقدِم الكوفة فندب أهلها ، فانتدب معه عشرةُ آلاف ، ثم قَدِم البَصْرة فندب أهلها ، فانتدب معه عشرةُ آلاف ، فأخرج لهم أرزاقَهم وأعطياتِهم ، فأعطُوها ، ثمّ سار بهم عمرُ بن عُبيد الله ، فجَعل أهلَ الكوفة على الميمنة وعليهم محمَّد بن موسى بن طلحة ، وجَعل أهلَ البصرة على الميسرة وعليهم ابن أخيه عمر بن موسى بن عُبيد الله ، وجعل خيلَه في القلب ، حتَّى انتهَوا إلى البحرَيْن ، فصفّ عمر بن عبيد الله أصحابه ، وقَدِم الرّجَّالة في أيديهم الرّماح قد ألْزَموها الأرض ، واستتروا بالبراذع ، فَحَمل أبو فُدَيك وأصحابُه حملة رجل واحد ، فكَشفوا ميسرة عُمر بن عبيد الله حتى ذهبوا في الأرض إلا المغيرةَ بن المهلَّب ، ومَعْن بن المغيرة ومُجاعة بن عبد الرحمن وفُرسان الناس فإنَّهم مالوا إلى صَفّ أهل الكوفة وهم ثابتون، وارتُثّ عمرُ بن موسى بن عبيد الله، فهو في القتلى قد أثخِن جراحةً.

(١) إنتهت هنا الأخبار التي أوردها الطبري في وصفه للأحداث من بداية توجيه الحجاج لقتال أمير المؤمنين عبد الله ابن الزبير وانتهاءاً باستشهاده رضي الله عنه وجلها من طريق الواقدي وهو متروك.

فلمَّا رأى أهل البصرة أهلَ الكوفة لم ينهزموا؛ تذمَّمُوا ورجعوا وقاتلوا وما عليهم أمير حتى مَرّوا بعمر بن موسى بنُ عبيد الله جريحاً فحملوه حتَّى أدخلوه عسكرَ الخوارج وفيه تبْن كثير فأحرقوه ، ومالت عليهم الرّيح ، وحمل أهلُ الكوفة وأهلُ البصرة حتَّى استباحوا عسكرَهم وقتلوا أبا فُدَيك ، وحصَروهم في المُشَقَّر ، فنزلوا على الحكم ، فقتَل عمر بن عُبيد الله منهم ـ فيما ذُكِر ـ نحواً من ستَّةِ آلاف ، وأسَر ثمانمئة ، وأصابوا جارية أميّة بن عبد الله حُبْلَى من أبي فدَيك ، وانصَرفَوا إلى البَصْرة. (٦/ ١٩٣)[١].

ثم دخلت سنة أربع وسبعين

ذكر ما كان فيها من الأحداث الجليلة

واستخفّ فيها بأصحاب رسول الله ﷺ ، فختَم في أعناقهم؛ فَذكَر محمَّد بن عمرانَ بن أبي ذئب ، حدّثه عمَّن رأى جابر بنَ عبد الله مختوماً في يده.

وعن ابن أبي ذئب ، عن إسحاق بن يزيد: أنه رأى أنس بن مالك مختوماً في عنقه ، يريد أن يُذلَّه بذلك.

قال ابن عمر: وحدّثني شُرَحبيل بن أبي عون، عن أبيه ، قال: رأيتُ الحجَّاج أرسل إلى سهل بن سعد فدعاه، فقال: ما منعك أن تنصُر أميرَ المؤمنين عثمانَ بنَ عفَّان! قال: قد فعلتُ ، قال: كذبتَ ، ثمّ أمَر به فختم في عنقِه برَصاص.

---

(١) ذكرنا قسم الصحيح عند مقتل أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير رضي الله عنه سنة ٧٣هـ [٤/ ١٣] أن الآثار التي وردت في اتهام الصحابة لابن الزبير بالبخل لا تصح وذكرنا في حينها روايتين في إسناد الأولى مجهول (وهو عبد الله بن مساور) إذ يقول: سمعت عبد الله ابن عباس يعاتب ابن الزبير ويقول: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: المؤمن لا يشبع وجاره وابن عمه جائع. والثانية عن طريق ليث بن أبي سليم قال: (كان ابن عباس يكثر أن يعنف ابن الزبير بالخجل) وليث هذا ضعفه جمهور أئمة الحديث لأنه اختلط اختلاطاً شديداً حتى تركه علماء الحديث. . . هذا مختصر ما ذكرناه في قسم الصحيح ونزيد هنا فنقول أما الجزء المرفوع من الرواية (لا يشبع المؤمن وجاره جائع) فقد صح من طريق آخر وأما الجزء الموقوف ـ أي قول الصحابي ـ (وهو اتهام ابن الزبير بالبخل) فلا يصح وسها من قال بأن العلامة الألباني صحح الرواية وإنما صحح الألباني الجزء المرفوع فقط عند تخرجه لروايات الأدب المفرد للإمام البخاري والله أعلم.

وفيها استَقْضَى عبدُ الملك أبا إدريس الخَوْلانيَّ ـ فيما ذكَر الواقديّ.

وفي هذه السنة شَخَص في قول بعضِهم بِشر بنُ مروان من الكوفة إلى البَصْرة والياً عليها.

ذكر الخبر عن حرب المهلب للأزارقة

* ذكر الخبر عن أمرِه وأمرِهم فيها:

ولمَّا صار بِشْر بالبصرة كتب عبدُ الملك إليه ـ فيما ذكر هشامٌ عن أبي مِخنَف، عن يونسَ بن أبي إسحاق، عن أبيه:

أما بعد، فابعث المهلَّب في أهل مصر إلى الأزارقة، ولْينتخب من أهلِ مِصْره وجوهَهم وفُرسانهم وأولي الفَضْل والتجربة منهم، فإنَّه أعرف بهم، وخَلِّه ورأيه في الحرب، فإني أوثَقُ شيء بتجربته ونصيحتِهِ للمسلمين. وابعثْ من أهل الكوفة بعْثاً كثِيفاً، وابعثْ عليهم رجلاً معروفاً شريفاً، حسيباً صليباً، يُعرَف بالبأس والنَّجْدة والتَّجربة للحَرْب، ثمّ أنهِضْ إليهم أهلَ المِصْرين فليتبعوهم أيَّ وجهٍ ما توجَّهوا حتَّى يُبيدَهم الله ويستأصلَهم، والسلام عليك.

فدعا بِشْرٌ المهلَّبَ فأقرأه الكتاب، وأمره أن ينتخب مَنْ شاء، فبعث بجُديع بن سَعيد بن قَبِيصة بن سّراق الأزْدي ـ وهو خالُ يزيدَ ابنِه ـ فأمره أن يأتي الدّيوان فينتخب الناسَ، وشقّ على بشر أنّ إمرَة المهلَّب جاءتْ مِن قِبَل عبد الملك، فلا يستطيع أن يبعث غيره، فأوغرتْ صدرَه عليه حتَّى كأنَّه كان له إليه ذنب، ودعا بِشر بنُ مروانَ عبدَ الرحمن بنَ مِخنْفَ فبَعثه على أهل الكوفة، وأمره أن ينتخب فُرسانَ الناس ووجوهَهم وأولي الفَضْل منهم والنَّجدة[1]. (٦/ ١٩٦).

قال أبو مخنَف: فحدّثني أشياخ الحيّ، عن عبد الرحمن بن مِخنَف قال: دعاني بِشر بنُ مروان فقال لي: إنَّك قد عرفتَ منزلتَك منّي، وأثَرتك عندي، وقد رأيتُ أن أولِّيَك هذا الجيش للَّذي عرفتُ من جزئك وغنائك وشَرفِك وبأسِك، فكن عند أحسن ظني بك، انظرْ هذا الكذا كذا ـ يقع في المهلب ـ فاستبدّ عليه بالأمر، ولا تقبلنّ له مشورة ولا رأياً، وتنقَّصْه وقَصِّر به.

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

قال: فترَكَ أن يُوصِيني بالجُنْد ، وقتالِ العدُوّ ، والنَّظر لأهل الإسلام ، وأقبل يُغرِيني يا بن عمتي كأني من السُّفهاء ، أو ممَّن يُستَصْبي ويُستجهَل ، ما رأيتُ شيخاً مِثْلي في مِثْلِ هيئتي ومنزلتي طُمِع منه في مِثْلِ ما طَمع فيه هذا الغلامُ مِنّي ، شَبَّ عمرو عن الطَّوْق.

قال: ولمَّا رأى أني لستُ بالنَّشيط إلى جوابه قال لي: ما لَكَ؟ قلتُ: أصلحكَ الله! وهل يَسعني إلا إنفاذ أمرك في كلّ ما أحببت وكرهت! قال: امضِ راشداً ، قال: فودّعتُه وخرجتُ من عنده ، وخرج المهلَّب با أهل البصرة حتَّى نزل رامَهُرْمُز فلقيَ بها الخوارج ، فخندق عليه ، وأقبل عبدُ الرحمن بنُ مخنف بأهل الكوفة على ربع أهل المدينة معه بِشْر بنُ جريرٍ ، وعلى ربع تميم وهَمْدان محمَّد بن عبدِ الرحمن بن سعيد بن قيس ، وعلى ربع كِنْدَة وربيعةَ إسحاقُ بن محمَّد بن الأشعث ، وعلى ربع مَذحِج وأسَد زَحْر بن قيس ، فأقْبَل عبدُ الرحمن حتَّى نزل من المهلَّب على مِيل أو ميل ونصف ، حيث تراءى العسكران برَامَهُرْمُز ، فلم يلبث الناسُ إلا عشراً حتى أتاهم نعيّ بِشر بن مروان ، وتُوفّيَ بالبصرة ، فارفضَّ ناس كثيرٌ من أهل البصرة وأهلِ الكوفة واستخلف بشر خالدَ بنَ عبد الله بن أسيد ، وكان خليفته على الكوفة عمرو بن حُرَيث ، وكان الَّذين انصرفوا من أهل الكوفة زَحْر بن قيس وإسحاق بن محمَّد بن الأشعث ومحمَّد بن عبد الرحمن بن سعيد بن قيس ، فبعث عبدُ الرحمن بنُ مخنف ابنَه جعفراً في آثارهم ، فردّ إسحاق ومحمَّداً ، وفاتَه زحْر بن قيس ، فحبسهما يومين ، ثمّ أخذ عليهما ألاّ يفارقاه ، فلم يلبثا إلا يوماً حتى انصرفا ، فأخذا غير الطريق وطُلبا فلم يُلحقَا ، وأقبَلا حتى لحقا زَحْر بنَ قيس بالأهواز ، فاجتمع بها ناس كثير ممَّن يريد البصْرة ، فبلغ ذلك خالد بن عبد الله ، فكتب إلى الناس كتاباً ، وبعث رسولاً يضرب وجوهَ الناس ويردّهم ، فقدم بكتابه مولىً له ، فقرأ الكتاب على الناس؛ وقد جُمِعوا له:

بسم الله الرّحمن الرحيم ، من خالد بنِ عبد الله ، إلى من بلغه كتابي هذا من المؤمنين والمسلمين سلامٌ عليكم ، فإني أحَمد إليكم الله الَّذي لا إله إلاّ هو ، أمَّا بعد ، فإنّ الله كتب على عباده الجهاد ، وفرض طاعةَ وُلاةِ الأمر ، فمن جاهد فإنَّما يجاهد لنفسه ، ومن ترك الجهادَ في الله كان الله عنه أغنى ، ومن عَصَى ولاةَ

الأمر والقَوّام بالحق أسخَط الله عليه ، وكان قد استحقّ العُقوبة في بشره ، وعرّض نفسَه لاستفاءَة مالِه وإلقاء عطائه ، والتسيير إلى أبعد الأرض وشَرّ البُلْدان ، أيّها المسلمون ! اعلموا على من اجترأتم ومن عصيتم ؟! إنَّه عبدُ الملك بن مروان أميرُ المؤمنين ، الذي ليست فيه غَمِيزة، ولا لأهل المعصية عنده رُخْصة ، سوْطه على من عَصى ، وعلى من خالَف سيفُه ، فلا تجعلوا على أنفسكم سبيلاً ، فإني لم آلُكُم نصيحةً ، عبادَ الله ، ارجِعوا إلى مَكْتبِكم وطاعةِ خليفتِكم ، ولا ترجِعوا عاصِين مخالِفين فيأتيَكم ما تكرهون ، أقسِم بالله لا أثقَف عاصياً بعد كتابي هذا إلا قتلتُه إن شاء الله ، والسلام عليكم ورحمة الله .

وأخَذَ كلما قرأ عليهم سطراً أو سطرين قال له زحْر : أوْجز؛ فيقول له مولى خالد : واللهِ إني لأسمع كلامَ رجل ما يريد أن يفهم ما يَسمع ، أشهدَ لا يعيج بشيء مما في هذا الكتاب ، فقال له : اقرأ أيها العبد الأحمر ما أمِرتَ به ، ثم أرجع إلى أهلك ، فإنك لا تدري مافي أنفسنا .

فلما فرغ من قراءته لم يلتفت الناسُ إلى مافي كتابه ، وأقبَل زَحْر وإسحاقُ بن محمد ومحمد بن عبد الرحمن حتى نزلوا قريةً لآل الأشعث إلى جانب الكوفة ، وكتبوا إلى عمرو بن حُرَيث :

أما بعد ، فإنّ الناس لمّا بلغَهم وفاةُ الأمير رحمةُ الله عليه تفرّقوا فلم يَبْق معنا أحد؛ فأقبلنا إلى الأمير والي مصرِنا ، وأحببنا ألاّ نَدخل الكوفة إلاّ بإذن الأمير وعلمه .

فكتب إليهم :

أما بعد ، فإنكم تركتم مكْتَبكم ، وأقبَلتم عاصين مخالفين ، فليس لكم عندنا إذْن ولا أمان .

فلما أتاهم ذلك انتَظروا حتى إذا كان الليل دخلوا إلى رحالهم ، فلم يزالوا مقيمين حتى قَدِم الحجاج بن يوسف[1] . (٦/ ١٩٦ ـ ١٩٩) .

---

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك .

عزل بكير بن وشاح عن خراسان وولاية أمية بن عبد الله عليها

وفي هذه السنة عزل عبدُ الملك بُكيرَ بن وشاح عن خُراسان ، وولاّها أميةَ بن عبد الله بن خالد بن أسِيد.

* ذكر الخبر عن سبب عزل بُكَير وولايةِ أميّة:

وكانت ولايةُ بُكَير بن وِشاح خُراسان إلى حين قدم أمية عليها والياً سنتين في قول أبي الحَسَن ، وذلك أن ابن خازم قتِل سنة ثلاث وسبعين وقدم أميّة سنة أربع وسبعين.

وكان سبب عزل بُكير عن خُراسان أنّ بحِيراً ـ فيما ذكَر عليٌّ عن المفضّل ـ حبَسهُ بُكير بن وشاح لما كان منه فيما ذكرت في رأس ابن خازم حين قتله ، فلم يزل محبوساً عنده حتى استعمل عبدُ الملك أميّة بن عبد الله بن خالد بن أسيد ، فلما بلغ ذلك بُكيراً أرسل إلى بَحير ليصالحَه ، فأبى عليه وقال: ظنّ بُكير أنّ خُراسان تبقى له في الجماعة! فمشت السفراء بينهم ، فأبى بَحِير ، فدخل عليه ضرار بن حصين الضَّبيّ ، فقال: ألا أراك مائقاً! يُرسل إليك ابنُ عمّك يَعتذِر إليك وأنت أسيرُه ، والمَشَرفيّ في يده ـ ولو قتلك ما حَبَقتْ فيك عنز ، ولا تَقبَل منه! ما أنت بموفَّق. اِقبَل الصّلح ، واخرج وأنت على أمرك ، فقبل مشورته ، وصالح بُكَيراً ، فأرسل إليه بكير بأربعين ألفاً ، وأخذ على بَحير ألاّ يقاتله ، وكانت تميم قد اختلفت بخُراسان ، فصارت مُقاعس والبطونُ يتعصّبون له ، فخاف أهلُ خُراسان أن تعود الحربُ وتَفسد البلاد ، ويقهرهم عدوّهم من المشركين ، فكتبوا إلى عبد الملك بن مَرْوان: إنّ خُراسان لا تصلح بعد الفتنة إلا على رجل من قريش لا يحسدونه ولا يتعصّبون عليه ، فقال عبد الملك: خُراسان ثَغْر المَشرق ، وقد كان به من الشرّ ما كان ، وعليه هذا التميميّ ، وقد تعصّب الناس وخافوا أن يصيروا إلى ما كانوا عليه ، فيَهلك الثّغر ومَنْ فيه ، وقد سألوا أنْ أولّيَ أمرَهم رجلاً من قريش فيسمعوا له ويطيعوا ، فقال أميّة بن عبد الله: يا أمير المؤمنين ، تداركهم برجل منك ، قال: لولا انحيازُك عن أبي فُدَيك كنت ذلك الرجل ، قال: يا أمير المؤمنين ، والله ما انحزْتُ حتى لم أجدْ مُقاتلاً ، وخذَلني الناس ، فرأيت أنّ انْحيازي إلى فئة أفضل من تعريضي عصبةً بقيتْ من المسلمين

للهلكة ، وقد علم ذلك مَرّار بن عبد الرحمن بن أبي بَكْرة ، وكتبَ إليك خالدُ بن عبد الله بما بَلَغه من عُذْري ـ قال: وكان خالد كتب إليه بعذره ، ويُخبره أنّ الناس قد خذلوه ـ فقال مرّار: صدق أميّة يا أمير المؤمنين ، لقد صبر حتى لم يَجد مقاتَلاً ، وخَذلَه الناس ، فولاّه خُراسان ، وكان عبدُ الملك يُحب أميّة ، ويقول: نتيجتي ، أي لِدَتي ، فقال الناس: ما رأيْنا أحداً عُوِّض من هزيمة ما عُوّض أمية فرّ من أبي فُدَيْك فاستُعْمل على خراسان ، فقال رجل من بكر بن وائل في محبس بُكَير بن وشاح:

أَتَتْـكَ العِيسُ تَنْفخُ فـي بُـراهـا ... تُكشِّـفُ عَـنْ مَنَـاكِبِهـا القُطُـوعُ
كـأنَّ مـواقـعَ الأكـوارِ منهـا ... حَمـامُ كَنـائـسٍ بُقْـعٌ وُقـوعُ
بـأبيْـضَ مـن أُميَّـةَ مضـرحِـيٍّ ... كـأنَّ جبينَـهُ سَيْـفٌ صنيـعُ

وبَحير يومئذ بالسِّنْج يَسأل عن مسير أميّة؛ فلما بلغه أنه قد قارب أبْرشَهْر قال لرجل من عجم أهل مرْوَ يقال له رُزَين ـ أو زرير: دُلّني على طريق قريب لألقَى الأميرَ قبل قدومه ، ولك كذا وكذا ، وأجزِل لك العطية؛ وكان عالماً بالطريق ، فخرج به فسار من السِّنج إلى أرض سَرَخْسَ في ليلة ، ثمّ مضى به إلى نيسابورَ فوافَى أميّة حين قدم أبرَشَهْر ، فلقيَه فأخبره عن خُراسان وما يُصلح أهلَها وتَحسُن به طاعتُهم ويخف على الوالي مؤونتهم ، ورفع عن بُكَير أموالاً أصابها ، وحَذّره غدرَه.

قال: وسار معه حتى قدم مَرْو ، وكان أمية سيِّداً كريماً ، فلم يَعرِض لبُكَير ولا لعماله ، وعرض عليه أن يوليَه شُرطتَه ، فأبى بُكَير ، فولاّها بَحير بن وَرْقاء ، فلام بُكيراً رجالٌ من قومه ، فقالوا: أبيتَ أن تلِي ، فولّى بَحيراً وقد عرفتُ ما بينكما! قال: كنتُ أمس واليَ خُراسانَ تُحمَل الحِرابُ بين يديّ فأصير اليوم على الشرطة أحمل الحربة!

وقال أمية لبُكَير: اختَر ما شئت من عَمل خُراسانَ ، قال: طُخارِسْتان ، قال: هي لك ، قال: فتجهزَ بُكَير وأنفَق مالاً كثيراً ، فقال بحِير لأمية: إنْ أتى بُكَير طَخارِسْتانَ خلعك ، فلم يزل يحذّره حتى حذِر ، فأمَره بالمُقام عندَه. (٦/ ١٩٩ ـ ٢٠١).

ثم دخلت سنة خمس وسبعين
ذكر الخبر عمَّا كان فيها من الأحداث
ولاية الحجاج على الكوفة وخطبته في أهلها

وفيها قَدِم الحجّاج الكوفة ، فحدّثني أبو زيد ، قال: حدّثني محمد بنُ يحيى أبو غسان ، عن عبد الله بن أبي عُبيدة بن محمّد بن عمّار بن ياسر ، قال: خرج الحجَّاج بن يوسف من المدينة حين أتاه كتاب عبد الملك بن مروانَ بولاية العراق بعد وفاة بشر بن مروان في اثني عشر راكباً على النّجائب حتى دخل الكوفة حين انتشر النهار فجاءةً ، وقد كان بشر بعث المهلب إلى الحروريّة ، فبدأ بالمسجد فَدَخله ، ثمّ صعِد المنبرَ وهو متلثّم بعمامة خَزّ حمراء ، فقال: عليَّ بالناس ، فحسبوه وأصحابَه خارجةً ، فهَمّوا به ، حتى إذا اجتمع إليه الناسُ قام فكشف عن وجهه وقال:

أنا ابنُ جَلاَ وطَلاَّعُ الثَّنَايا مَتَى أضَعِ العِمامَةَ تَعْرِفوني

أما والله إنّي لأحمل الشرَّ محملَه ، وأحذُوه بنعله ، وأجزيه بمثله ، وإني لأرى رؤوساً قد أيْنَعتْ وحانَ قِطافُها ، وإني لأنظر إلى الدِّماء بين العمائم واللِّحَى.

قد شمَّرَتْ عن ساقِهَا تَشْميرا

هذا أوان الشَّد فاشتدِّي زِيَمْ قد لَفَّها الليلُ بِسَوَّاقٍ حُطَمْ
ليسَ براعِي إبِلٍ ولا غَنَمْ ولا بجزَّارٍ على ظهرِ وضَمْ
قد لَفَّها الليْلُ بعصْلَبِيِّ أرْوَعَ خَرّاجٍ من الدّوِّيِّ
مُهَاجِرٍ لَيْسَ بأعْرَابيِّ
ليس أوان يكْره الخِلاطُ جاءَت به والقُلُص الأعلاطُ
تَهوِي هُويَّ سابقِ الغَطاطِ

وإني والله يا أهل العراق ما أغمَز كتَغماز التّين ، ولا يقَعْقَعُ لي بالشِّنان ، ولقد فُرِرْت عن ذكاء ، وجَرَيْت إلى الغاية القصوى ، إن أمير المؤمنين ، عبدَ الملك نَثَر كنانتهَ ثمّ عَجَم عيدانَها فوجدني أَمَرَّها عُوداً ، وأصلبَها مَكسراً ، فوجّهني إليكم؛ فإنكم طالما أوضَعْتم في الفتَن ، وسنَنتُم سنن الغيّ ، أما والله لألحُوَنكم

لَحْوَ العود ، ولأعصبنّكم عَصْب السلَمة ، ولأضربنكم ضربَ غرائب الإبلِ ، إني والله لا أعِد إلا وَفَيْت ولا أخلُق إلا فَرَيْت ، فإيّاي وهذه الجماعات وقيلاً وقال ، وما يقول ، [و] فيمَ أنتم وذاك؟ واللهِ لتسْتَقيمُنَّ على سُبُلِ الحق أو لأدَعَنّ لكلّ رجل منكم شُغْلاً في جَسَده ، من وجدتُ بعد ثالثة مَن بَعْثِ المهلب سَفكْتُ دمَه ، وأنهبْتُ مالَه .

ثم دخل منزله ولم يزدْ على ذلك .

قال : ويقال : إنه لما طال سكوتُه تَناوَل محمد بنُ عُمَير حَصيً فأراد أن يَحصِبه بها ، وقال : قاتله الله! ما أعيَاه وأدمّه! والله إنّي لأحسَب خبرَه كرُوَائه ، فلما تكلم الحجاج جَعل الحَصَى يَنتشر من يدِه ولا يعقل به ، وأنّ الحجاج قال في خُطْبته :

شاهت الوجوه! إنّ الله ضَرَبَ ﴿مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ ، وأنتم أولئك وأشباه أولئك ، فاستوثقوا واستقيموا ، فوالله لأذيقنّكم الهوان حتَّى تَدِرُّوا ، ولأعصبنَّكم عَصْب السَّلَمة حتَّى تنقادوا ، أقسِم بالله لتقبلُنّ على الإنصاف ، ولتَدَعُنّ الإرجاف ، وكان وكان ، وأخبرني فلان عن فلان ، والهبْر وما الهبْر! أو لأهْبُرنكم بالسَّيف هبْراً يدَع النساءَ أيامَى ، والولدان يتامى ، وحتَّى تمشوا السُّمَّهى ، وتقلعوا عن هاوهَا ، إيَّاي وهذه الزّرافاتِ ، لا يركَبَنَّ الرجلُ منكم إلا وحده ، ألا إنَّه لو ساغ لأهل المعصية معصيتُهم ما جُبِي فيءٌ ولا قُوتل عدوّ ، ولعُطِّلت الثغور ، ولولا أنَّهم يُغزَون كَرْهاً ما غزوا طَوْعاً ، وقد بَلَغَني رَفْضكم المهلّب ، وإقبالُكم على مصركم عُصاةً مخالفين ، وإني أقسِم لكم بالله لا أجد أحداً بعد ثالثة إلاَّ ضربتُ عنقَه .

ثمّ دعا العُرَفاءَ فقال : ألحقُوا الناس بالمهَلَّب ، وأتُوني بالبراءات بمُوافاتهم ولا تُغلقنّ أبوابَ الجسْر ليلاً ولا نهاراً حتَّى تنقضِيَ هذه المدّة .

تفسير الخُطْبة : قولُه : «أنا ابنُ جَلاَ» فابنُ جلا : الصُّبْح لأنَّه يجلو الظُّلمة ، والثنايا : ما صَغُر من الجبال ونتأ . وأينَع الثَّمر : بلغ إدْراكه .

وقوله : «فاشتدّي زِيَم» فهي اسمٌ للحَرْب ، والحُطَم : الَّذي يَحطم كلَّ شيء يَمُرّ به ، والوَضَمُ : ما وُقي به اللَّحم من الأرض ، والعَصْلَبيّ : الشديد ،

والدَّوِّيَّة: الأرض الفضاء الَّتي يُسمع فيها دَويُّ أخفاف الإبل.

والأعلاط: الإبلُ الَّتي لا أرسانَ عليها، أنشَد أبو زيد الأصمعيُّ:

واعرَوْرَت العُلُطُ العُرْضيُّ تركضُهُ   أمُّ الفوارس بالدِّيداءِ والرَّبَعَهْ

والشِّنان، جمعَ شَنَّة: القِرْبة البالية اليابسة، قال الشاعر:

كأنَّك مِنْ جِمالِ بَنِي أُقَيْشٍ   يُقَعْقَعُ خَلْفَ رِجلَيْه بِشَنِّ

وقولُه: «فعَجَم عيدانَها» أي: عَضَّها، والعَجم بفتح الجيم: حَبّ الزبيب، قال الأعشى:

وملفوظُها كلَقيط العَجَمْ

وقوله: «أمَرّها عُوداً» أي: أصلبها، يقال: حبْل مُرٌّ، إذا كان شديدَ الفتْل، وقولُه: «لأعصبنَّكم عَصْب السَلَمَة» فالعَصْب القَطعْ، والسلَمَة؛ شجرةٌ من العِضاه، وقولُه: «لا أخلُق إلاّ فَرَيْت»، فالخَلْق: التَّقدير: قال الله تعالى: ﴿مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾، أي مقدَّرة وغير مقدّرة، يعني ما يتمّ وما يكون سِقْطاً قال الكُمَيت يصف قرْبة:

لم تَجْشَمِ الخالقاتُ فَرْيتَها   ولم يَفِضْ من نِطاقِها السَّرَبُ

وإنَّما وصف حواصل الطَّير، يقول: ليست كهذه، وصَخرة خَلْقاء، أي مَلْساء، قال الشاعر:

وبَهْوٌ هَواءٌ فوقَ مورٍ كأنَّه   من الصَّخْرة الخَلْقاءِ زُحْلوقُ مَلعَبِ

ويقال: فَريتُ الأديم إذا أصلحتَه، وأفرَيت، بالألف إذا أنتَ أفسَدْته، والسُّمَّهَى: الباطل، قال أبو عمرو الشَّيبانيّ: وأصله ما تُسمِّيه العامَّةُ مُخاطَ الشَّيطان، وهو لُعابُ الشَّمس عند الظَّهيرة، قال أبو النَّجم العجْليّ:

وذابَ للشَّمسِ لُعَابٌ فنَزَلْ   وقامَ مِيزانُ الزَّمان فاعتَدَلْ

والزَّرافات: الجماعات، تمّ التفسير. (٦/ ٢٠٢ ـ ٢٠٦).

قال أبو جعفر: قال عمر: فحدّثني محمّد بن يحيى، عن عبد الله بن أبي عُبيدَة، قال: فلمَّا كان اليومُ الثالث سمع تكبيراً في السُّوق، فخرج حتَّى جلس على المنبر، فقال:

يا أهلَ العراق، وأهل الشِّقاق والنفاق، ومساوئ الأخلاق، إني سمعتُ

تكبيراً ليس بالتَّكبير الَّذي يراد اللهُ به في التَّرغيب ، ولكنَّه التكبيرُ الَّذي يُراد به التَّرهيب ، وقد عرفتُ أنَّها عَجاجةٌ تحتَها قَصْف ، يا بني اللَّكيعة وعَبيد العصا ، وأبناء الأيَامَى ، ألا يَربَع رجلٌ منكم على ظَلْعه ، ويُحْسن حَقْن دمه ، ويبصر موضعَ قدمه! فأقسم بالله لأوشكُ أن أوقعَ بكم وقعةً تكون نكالاً لما قَبْلها ، وأدباً لما بَعدَها .

قولُه : «تحتَها قصْف» فهو شدّة الرّيح ، واللَّكعاء : الوَرْهاء ، وهي الحَمْقاء من الإماء ، والظَّلع : الضّعْف والوَهن من شدّة السير ، وقوله : «تهوى هَويّ سابق الغُطاط» فالغُطاط بضم الغين : ضربٌ من الطير . قال الأصمعيّ : الغَطَاط بفتح الغَين : ضربٌ من الطَّير ، وأنشد لحسَّان بن ثابت :

يُغْشَـوْن حتـى مـا تَهـرُّ كـلابُهـمْ   لا يَسـأَلـون عـن الغَطَـاطِ المُقْبِـل

بفتح الغين ، قال : والغُطاط بضم الغين : اختلاط الضوء بالظلمة من آخر الليل ، قال الراجز :

قـامَ إلـى أَدْمَـاءَ فـي الغُطَـاطِ   يَمْشـي بِمِثْـلِ قَـائِـمِ الفُسْطـاطِ

تمّ التفسير .

قال : فقام إليه عُمَير بن ضابئ التَّميميّ ثمّ الحنظليّ فقال : أصلَح اللهُ الأمير! أنا في هذا البعث ، وأنا شيخٌ كبير عليل ، وهذا ابني ، وهو أشَبّ مني؛ قال : ومَنْ أنت؟ قال : عُمَير بنُ ضابئ التَّميميّ ، قال : أسمعتَ كلامنا بالأمس؟ قال : نعم ، قال : ألستَ الَّذي غزا أميرَ المؤمنين عثمانَ؟ قال : بلى؛ قال : وما حملك على ذلك؟ قال : كان حَبَس أبي ، وكان شيخاً كبيراً ، قال : أوليس يقول :

هَمَمْـتُ ولـم أفعَـلْ وكِـدْتُ وليْتنـي   تَـرَكْـتُ على عثمـانَ تَبكـي حَـلائـلُـهْ

إني لأحسَب في قتلك صلاح المِصرَيْن ، قم إليه يا حَرسيّ ، فاضرب عنقَه؛ فقام إليه رجلٌ فضربَ عنقَه ، وأنهَب ماله .

ويقال : إنّ عَنبَسة بن سعيد قال للحجَّاج : أتعرف هذا؟ قال : لا ، قال : هذا أحدُ قَتَلة أمير المؤمنين عثمان؛ فقال الحجَّاج : يا عدوَّ الله ، أفلا إلى أمير المؤمنين بعثتَ بديلاً! ثمّ أمر بضرْب عنقِه ، وأمر منادياً فنادَى : ألا إنّ عُمَير بن

ضابئ أتَى بعد ثالثة؛ وقد كان سمِع النداء ، فأمرنا بقتْله ، ألا فإنَّ ذمة الله بريئةٌ ممَّن بات الليلة من جُنْد المهلَّب.

فخرج الناسُ فازْدَحموا على الجسر ، وخرجت العُرَفاء إلى المهلَّب وهو برَامَهُرْمُز فأخذوا كتُبَه بالمُوافاة ، فقال المهلَّب: قدم العراقَ اليومَ رجل ذكَر: اليومَ قُوتِل العدوُّ.

قال ابن أبي عُبيدة في حديثه: فعَبر الجِسْر تلك الليلة أربعةُ آلاف من مَذْحج ، فقال المهلَّب: قدم العراقَ رجل ذكرَ. (٦/ ٢٠٦ ـ ٢٠٧).

قال عمر عن أبي الحسن ، قال: لمَّا قرأ عليهم كتابَ عبد الملك قال القارئ: أمَّا بعد ، سلامٌ عليكم فإني أحمَد إليكم الله ، فقال له: اقطع ، يا عبيد العصا ، أيسلِّمَ عليكم أميرُ المؤمنين فلا يَردّ رادٌّ منكم السَّلام! هذا أدبُ ابن نِهية ، أما والله لأؤدبنَّكم غير هذا الأدب ، ابدأ بالكتاب ، فلمَّا بلغ إلى قوله: «أما بعد ، سلامٌ عليكم» ، لم يَبق منهم أحدٌ إلاّ قال: وعلى أمير المؤمنين السَّلام ورحمة الله. (٦/ ٢٠٨).

قال عمر: حدّثني عبدُ الملك بن شيبان بن عبد الملك بن مِسمَع ، قال: حدّثني عمرو بن سعيد ، قال: لمَّا قدم الحجَّاجُ الكوفة خطبهم فقال: إنَّكم قد أخللتم بعسكر المهلَّب ، فلا يُصبِحنّ بعد ثالثة من جُنْده أحدٌ ، فلمَّا كان بعد ثالثة أتى رجلٌ يستدمي ، فقال: من بك؟ قال: عمير بنُ ضابئ البُرْجُميّ ، أمرتُه بالخروج إلى مُعسكره فضربني ـ وكَذَب عليه.

فأرسل الحجَّاج إلى عُمير بن ضابئ ، فأُتِيَ به شيخاً كبيراً ، فقال له: ما خلَّفك عن مُعسكرِك؟ قال: أنا شيخ كبيرٌ لا حراك بي ، فأرسلتُ ابني بديلاً فهو أجلد منّي جَلداً ، وأحدَث مني سنّاً ، فسلْ عما أقول لك ، فإن كنتُ صادقاً وإلاّ فعاقبني ، قال: فقال عَنْبسة بنُ سعيد: هذا الَّذي أتى عثمان قتيلاً؛ فلطم وجهه ووثب عليه فكسر ضلعين من أضلاعه ، فأمر به الحجّاجُ فضربتْ عنقه ، قال عمرو بن سعيد: فوالله إني لأسير بينَ الكوفة والحيرة إذ سمعتُ رَجَزاً مُضَريّاً ، فعدلْت إليهم فقلت: ما الخبر؟ فقالوا: قَدم علينا رجل من شرّ أحياء العرب من هذا الحيّ من ثمود ، أسْقف الساقين ، مَمْسُوح الجاعِرَتين ، أخفَش العينين ، فقدّم سيّد الحيّ عميرَ بن ضابئ فضرَبَ عنقَه.

ولما قَتَل الحجاج عمير بن ضابئ لقي إبراهيمُ بن عامر أحد بني غاضرةَ من بني أسد عبدَ الله بن الزُّبير في السوق فسأله عن الخبر ، فقال ابن الزّبير :

أَقُـولُ لإبـراهيـمَ لمَّـا لقِيتُـهُ أرَى الأَمـر أَمْسَـى مُنْصِباً متشَعِّبـا
تجَهَّزْ وأَسْرِعْ والحق الجَيْشَ لا أَرَى سِوَى الجيش إلاَّ في المَهالِك مَذْهَبَا
تَخيَّـرْ فـإِمـا أَن تـزور ابـنَ ضَـابـئٍ عمَيـراً وإِمَّـا أن تـزور المهَلَّبـا
همـا خُطَّتـا كـرهٍ نَجَـاؤُكَ مِنْهُمَـا ركُـوبُـك حَـوْليّـاً مـن الثّلـج أَشْهَبَـا
فحـالَ ولـو كـانـت خُـراسَـان دونَـه رآهـا مكـان السّـوقِ أَوْ هِـيَ أَقْـربـا
فكائنْ ترَى من مُكْرهِ العَدْوِ مُسْمنٍ تحَمّـمَ حِنْـوَ السَّـرْج حتّـى تحنَّبـا

وكان قُدومُ الحجاج الكوفة ـ فيما قيل ـ في شهر رمضانَ في هذه السنة ، فوجّه الحكم بن أيوب الثّقَفيّ على البَصْرة أميراً ، وأمره أن يشتدّ على خالد بن عبد الله ، فلما بلغ خالداً الخبرُ خرج من البَصْرة قبل أن يدخُلَها الحَكَمُ ، فنزل الجَلْحاءَ وشيَّعه أهلُ البصرة ، فلم يَبَرح مُصَلاَّه حتى قسّم فيهم ألف ألف . (٦/ ٢٠٨ ـ ٢٠٩) .

وحجَّ بالناس في هذه السنة عبدُ الملك بنُ مَرْوان ، حدّثني بذلك أحمَد بنُ ثابت عمّن حدّثه ، عن إسحاقَ بن عيسى ، عن أبي معشر ، ووَفَد يحيى بن الحَكَم . في هذه السنة على عبد الملك بن مروان ، واستخلف على عمله بالمدينة أبان بنَ عثمان ، وأمر عبدُ الملك يحيىَ بنَ الحكم أنّ يقرّ على عمله على ما كان عليه بالمدينة ، وعلى الكوفة والبصرة الحجّاج بن يوسف ، وعلى خُراسانَ أميّة بن عبد الله ، وعلى قضاء الكوفة شُرَيح ، وعلى قضاء البَصْرة زُرارة بن أوْفى .

وفي هذه السنة خرج الحجّاجُ من الكوفة إلى البَصْرة واستَخْلَفَ على الكوفة أبا يَعْفُور عُروَة بن المغيرة بن شُعْبة ، فلم يزل عليها حتى رَجَع إليها بعد وَقْعة رُستقْباذ . (٦/ ٢٠٩ ـ ٢١٠) .

ذكر الخبر عن ثورة الناس بالحجّاج بالبصرة

وفي هذه السنة ثار الناسُ بالحجّاج بالبَصْرة.

* ذكر الخبر عن سبب وثوبهم به:

ذكر هشام، عن أبي مخنف، عن أبي زهير العَبْسيّ، قال: خرج الحجّاج بن يوسفَ من الكوفة بعدما قدمها، وقتل ابن ضابئ من فوره ذلك حتّى قدم البصرة، فقام فيها بخُطْبة مِثل التي قام بها في أهْل الكوفة، وتوعدهم مِثْل وعيده إياهم، فأتِيَ برجل من بني يَشْكرَ فقيل: هذا عاصٍ، فقال: إنَّ بي فتْقاً، وقد رآه بِشر فعذَرَني، وهذا عطائي مَرْدود في بيت المال، فلم يقبل منه وقتله، ففزع لذلك أهل البَصْرة، فخرجوا حتى تداكؤوا، على العارض بقَنْطرة رامَهُرْمز، فقال المهلب: جاء الناسَ رجلٌ ذكَر.

وخرج الحجّاج حتى نزل رُسْتقْباذَ في أوّل شعبان سنة خمس وسبعين فثارَ الناسُ بالحجاج، عليهم عبد الله بن الجارود، فقتل عبد الله بن الجارود، وبعث بثمانية عشر رأساً فنُصبتْ بِرامَهُرمُز للناس، فاشتدّت ظهورُ المسلمين، وساء ذلك الخوارج، وقد كانوا رَجوْا أن يكونَ من الناس فُرقة واختلاف، فانصرَف الحَجاج إلى البَصْرة.

وكان سبب أمر عبد الله بن الجارود أنّ الحجاج لما ندب الناسَ إلى اللحاق بالمهلب بالبصرة فشخصوا سار الحجاج حتى نزل رستقْباذ قريباً من دَسْتَوَى في آخر شعبانَ ومعه وجوهُ أهل البصرة، وكان بينه وبين المهلّب ثمانيةَ عشرَ فَرْسَخاً، فقام في الناس، فقال: إنّ الزيادة التي زادكم ابنُ الزبير في أعطِياتكم زيادة فاسِق منافق، ولستُ أجيزُها، فقام إليه عبدُ الله بن الجارود العَبْديّ فقال: إنها ليست بزيادة فاسق منافق، ولكنها زيادة أمير المؤمنين عبد الملك قد أثبَتها لنا. فكذَّبه وتوعّده، فخرج ابنُ الجارود على الحَجّاج وتابَعه وجوهُ الناس، فاقتتَلوا قتالاً شديداً، فقتل ابن الجارود وجماعة من أصحابه، وبعث برأسه ورؤوس عشرة من أصحابه إلى المهلب، وانصرَفَ إلى البَصْرة، وكتَب إلى المهلب وإلى عبد الرحمن بن مخنف: أما بعد، إذا أتاكم كتابي هذا فناهِضوا

الخوارجَ؛ والسلام[١]. (٦/ ٢١٠ ـ ٢١١).

نفى المهلَّب وابن مخنف الأَزارقة عن رامهرمز

وفي هذه السنة نفى المهلّب وابنُ مخنَف الأزارقةَ عن رامَهُرْمُز.

* ذكر الخبر عن ذلك وما كان من أمرهم في هذه السنة:

ذكر هشام عن أبي مخنف، عن أبي زهير العبسيّ، قال: ناهض المهلب وابنُ مخنف الأزارقة برَامَهُرْمز بكتاب الحجّاج إليهما لعشر بقين من شعبان يومَ الإثنين سنة خمس وسبعين، فأجلوهم عن رامَهُرمُز من غير قتال شديد، ولكنهم زَحفوا إليهم حتى أزالوهم، وخرج القوم كأنهم على حامية، حتى نزلوا سابُورَ بأرض منها يقال لها كازَرُون، وسار المهلب وعبدُ الرحمن بنُ مخنَف حتى نزلوا بهم في أول رمضانَ، فخندقَ المهلب عليه، فذكر أهلُ البصرة أنّ المهلب قال لعبد الرحمن بن مخنف: إنْ رأيتَ أن تُخندق عليك فافعَلْ؛ وإنْ أصحاب عبد الرحمن أبَوْا عليه وقالوا: إنما خندقُنا سُيوفنا، وإن الخوارج زحفوا إلى المهلب ليلاً ليُبيِّتوه، فوجدوه قد أخذ حذْره، فمالُوا نحوَ عبد الرحمن بن مخنف فوجدوه لم يخندق، فقاتلوه، فانهزم عنه أصحابُه، فنزل فقاتل في أناس من أصحابه فقُتِل، وقتِلوا حوله، فقال شاعرهم:

لمن العَسْكَرُ المكلَّلُ بالصَّرْ ... عى فَهُمْ بين ميّتٍ وقَتِيلِ
فتَرَاهُم تَسْفِي الرياحُ عليهمْ ... حاصِبَ الرَّمْل بَعْدَ جَرِّ الذُّيولِ

وأما أهل الكوفة فإنهم ذكروا أنّ كتاب الحجاج بن يوسف أتى المهلب وعبد الرحمن بن مخنف: أنْ ناهِضَا الخوارجَ حين يأتيكما كتابي، فناهضاهم يومَ الأربعاء لعشر بقِين من رمضانَ سنة خمس وسبعين واقتَتَلوا قتالاً شديداً لم يكن بينهم فيما مضى قتالٌ كان أشدَّ منه، وذلك بعد الظهر، فمالت الخوارجُ بحدّها على المهلب بن أبي صُفرة فاضطروه إلى عَسْكره، فسرّح إلى عبد الرحمن رجالاً من صلحاء الناس، فأتَوْه، فقالوا: إنّ المهلب يقول لك: إنما عدوُّنا واحد، وقد ترَى ما قد لقي المسلمون، فأمِدَّ إخوانك يرحمك الله، فأخذ يُمِدّه بالخيل

---

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

بعد الخيل ، والرّجال بعد الرّجال ، فلما كان بعد العصر ورأت الخوارجَ ما يجيء من عسكر عبد الرحمن من الخيل والرّجال إلى عسكر المهلب ظنوا أنه قد خَفّ أصحابه فجعلوا خمس كتائبَ أو سِتّاً تُجاهَ عسكر المهلب ، وانصرَفوا بحدّهم وجمعِهم إلى عبد الرحمن بن مخنَف ، فلما رآهم قد صمدوا له نزل ونزل معه القُرَّاء ، عليهم أبو الأحوص صاحبُ عبد الله بن مسعود ، وخُزَيمة بن نصر أبو نصر بن خُزَيمة العبسيّ الذي قُتل مع زيد بن عليّ وصُلب معه بالكُوفة ، ونزل معه من خاصَّة قومه أحدٌ وسبعون رجلاً ، وحملت عليهم الخوارجُ فقاتلتْهم قتالاً شديداً ، ثمّ إنّ الناس انكشفوا عنه ، فبقي في عِصابة من أهل الصّبر ثبتوا معه ، وكان ابنه جعفر بن عبد الرحمن فيمن بعثه إلى المهلب ، فنادَى في الناس ليتْبعوه إلى أبيه ، فلم يتْبعه إلاّ ناس قليل ، فجاء حتى إذا دنا من أبيه حالت الخوارجُ بينه وبين أبيه ، فقاتل حتى ارتثّته الخوارج ، وقاتل عبد الرحمن بن مخنف ومن معه على تلّ مُشرف حتى ذهب نحوٌ من ثُلثي الليل ، ثمّ قُتل في تلك العصابة ، فلما أصبحوا جاء المهلب حتى أتاه ، فدَفَنه وصلّى عليه ، وكتب بمُصابه إلى الحجّاج ، فكتب بذلك الحجاج إلى عبد الملك بن مَرْوان ، فنعى عبد الرحمن بمِنىً ، وذمَّ أهلَ الكوفة ، وبعثَ الحجّاجُ على عسكر عبد الرحمن بن مخنف عتّابَ بن وَرقاء ، وأمره إذا ضمّتْهما الحَرْب أن يَسمَع للمهلّب ويطيع ، فساءه ذلك ، فلم يجد بُدّا من طاعة الحجاج ولم يَقدر على مراجعته ، فجاء حتى أقام في ذلك العسكر ، وقاتل الخوارج وأمرُه إلى المهلب ، وهو في ذلك يَقضي أمورَه ، ولا يكاد يستشير المهلب في شيء ، فلما رأى ذلك المهلب اصطَنع رجالاً من أهل الكوفة فيهم بِسطامُ بن مَصْقَلة بن هُبيرة ، فأغراهم بَعتّاب[1] . (٦/ ٢١١ ـ ٢١٣) .

قال أبو مخنف عن يوسفَ بن يزيد: إن عتَّاباً أتى المهلَّب يسأله أن يرزق أصحابَه ، فأجلسَه المهلَّب معه على مجلسه ، قال: فسأله أن يرزق أصحابه سؤالاً فيه غِلظة وتجهُّم ، قال: فقال له المهلب: وإنَّك لها هنا بابن اللَّخناء! فبنو تميم يَزعمون أنَّه رَدَّ عليه ، وأمَّا يوسفُ بنُ يزيدَ وغيرُه فيَزعمون أنَّه قال: والله إنَّهما لمعمّةٌ مُخْوِلَةٌ ، ولوَددتُ أن الله فرّق بيني وبينك ، قال: فجرى بينهما

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك .

الكلام حتَّى ذهب المهلَّب ليرفع القضيب عليه. فوثب عليه ابنُه المغيرة ، فقَبض على القضيب وقال: أَصلح الله الأمير! شيخٌ من أشياخ العرب ، وشريفٌ من أشرافهم ، إنْ سمعتَ منه بعضَ ما تكرهه فاحتملْه له ، فإنَّه لذلك منك أهل ، ففعل ، وقام عتَّاب فرجع من عنده ، واستقبله بسطامُ بن مَصقلَة يشتُمه ، ويقع فيه.

فلما رأى ذلك كَتَب إلى الحجَّاج يشكو إليه المهلَّب ويُخبِره أنَّه قد أغرى به سُفهاءَ أهلِ المصر ، ويسأله أن يضمَّه إليه ، فوافق ذلك من الحجَّاج حاجةً إليه فيما لقي أشرافُ الكوفة من شبيب ، فبعث إليه أن اقدَمْ واترك أمر ذلك الجيش إلى المهلَّب ، فبعث المهلَّب عليه حبيب بن المهلَّب.

وقال حُمَيد بن مُسلم يرثي عبدَ الرحمن بن مخنف:

إن يقتُلوك أبا حكيم غُدوةً ... فلقدْ تَشُدُّ وتَقتُل الأَبطَالاَ
أو يُثْكِلونا سيداً لمُسوَّدٍ ... سَمْحَ الخليقةِ ماجِداً مِفضالاَ
فلَمِثل قتلك هَدَّ قومَكَ كلَّهُمْ ... مَن كان يَحمِلُ عنهمُ الأَثقالاَ
من كان يَكشفُ غُرمهم وقتالَهُم ... يوماً إذا كان القتالُ نِزالاَ!
أقسمتُ ما نِيلَتْ مَقاتِلُ نفسه ... حتى تَدَرَّعَ من دَمٍ سِرْبالاَ
وتناجَزَ الأَبْطالُ تحتَ لوائِه ... بالمَشْرَفيَّة في الأَكُفّ نِصالاَ
يوماً طويلاً ثمّ آخرَ ليلِهم ... حين ٱستبانوا في السماءِ هِلالاَ
وتكشَّفَتْ عنه الصُّفُوف وخَيلُهُ ... فهنُاكَ نالَتْهُ الرِّماحُ فمالاَ

وقال سُراقة بنُ مِرْداس البارقيّ:

أَعَيْنيَّ جُودَا بالدُّموع السواكبِ ... وكُونَا كَواهِي شَنَّةٍ مع راكبِ
على الأَزْدِ لمّا أن أصِيب سَراتُهُمْ ... فنُوحَا لعيشٍ بعدَ ذلك خائبِ
نُرجِّي الخلودَ بعدهْم وتَعُوقنا ... عوائقُ موتٍ أو قِرَاعُ الكَتَائبِ
وكنَّا بخيرٍ قبلَ قَتل ٱبنِ مِخْنفٍ ... وكلُّ امرئٍ يوماً لبعضِ المذاهب
أمارَ دُموعَ الشِّيبِ من أَهل مِصرِهِ ... وعَجَّل في الشُّبَّان شَيْبَ الذوائبِ
وقَاتَل حتى ماتَ أكرَمَ مِيتةٍ ... وخرَّ على خَدٍّ كَريم وحاجبِ
وضَارَب عنه المارِقينَ عصابةٌ ... منَ الأَزْدِ تمشي بالسّيوف القَواضبِ
فلا ولَدَتْ أُنثى ولا آبَ غائبٌ ... إلى أهلِه إنْ كان ليسَ بآيبِ

فيا عينُ بَكّي مِخنفاً وٱبنَ مخنفٍ وفُرسانَ قومي قُصْرَةً وأقاربي

وقال سُراقة أيضاً يَرثي عبدَ الرحمن بن مخنَف:

ثَوَى سيّدُ الأَزْدِيْن أَزْد شَنُوءَةٍ وأَزد عُمانَ رهن رَمْسٍ بكازِرِ
وضارب حتَّى ماتَ أكرم مِيتةٍ بأبيضَ صافٍ كالعقيقة باترِ
وصُرِّع حولَ التَّلّ تحتَ لوائه كرامُ المسَاعي من كِرَام المعاشِر
قَضَى نحبَهُ يومَ اللِّقاء ابنُ مِخنفٍ وأدبَر عنه كلُّ ألوَثَ دَاثر
أَمدَّ فلم يُمدَدْ فراحَ مُشَمّراً إلى الله لم يَذهبْ بأَثواب غَادِرِ

وأقامَ المهلَّب بسابُورَ يقاتِلُهم نحواً من سنة[1]. (٦/ ٢١٣ ـ ٢١٥).

وفي هذه السنة تحرَّك صالح بن مُسَرّح أحدُ بني امرئ القيس، وكان يرى رأيَ الصُّفريّة، وقيل: إنَّه أوّل من خرج من الصُّفْريّة. (٦/ ٢١٥).

ذكر الخبر عن تحرُّك صالح للخروج وما كان منه في هذه السنة

ذكر أنّ صالح بن مسرّح أحد بني امرئ القيس حجّ سنة خمس وسبعين، ومعه شبيبُ بنُ يزيدَ وسُوَيد والبَطين وأشباهُهم.

وحجَّ في هذه السنة عبدُ الملكُ بنُ مروان، فهمّ شبيب بالفتْك به، وبلغه ذَرْءٌ من خبَرهم، فكتب إلى الحجّاج بعد انصرافه يأمره بطَلبهم، وكان صالح يأتي الكوفةَ فيقيم بها الشَّهْرَ ونحوه فيلقَى أصحابه ليَعِدَهم، فنبتْ بصالح الكوفة لَمَّا طلبه الحجَّاج، فتنكَّبَها. (٦/ ٢١٥).

ثم دخلت سنة ست وسبعين ذكر الكائن من الأحداث فيها

فمن ذلك خروج صالح بن مسرّح.

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

ذكر الخبر عن خروج صالح بن مسرّح وعن سبب خروجه

وكان سببُ خروجه ـ فيما ذكرَ هشام ، عن أبي مِخْنف ، عن عبد الله بن علقمة ، عن قَبيصة بن عبد الرّحمن الخَثْعميّ ـ: أنّ صالح بنَ مسرّح التميميَّ كان رجلاً ناسكاً مُخبِتاً مصفرّ الوجه ، صاحب عبادة ، وأنه كان بدَارا وأرض المَوْصل والجزيرة له أصحابٌ يُقرئهم القرآن ويفقِّهُهُم ويقصّ عليهم ، فكان قبيصة بنُ عبد الرحمن حدّث أصحابنا أنّ قصص صالح بن مسرِّح عنده ، وكان ممَّن يرى رأيَهم ، فسألوه أن يبعث بالكتاب إليهم ، ففعل.

وكان قصصه : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ . اللهمَّ إنَّا لا نَعدل بك ، ولا نحْفِد إلا إليك ، ولا نعبدُ إلا إيَّاك ، لك الخَلْق والأمر ، ومنك النَّفع والضرّ ، وإليك المصير ، ونَشهد أنّ محمَّداً عبدُك الَّذي اصطفيتَه ، ورسولُك الذي اخْتَرْتَه وارتضيْتَه لتبليغ رسالاتك ، ونصيحةِ عبادك ، ونَشهدُ أنَّه قد بلَّغ الرسالة ، ونَصَح للأمَّة ، ودعا إلى الحقِّ ، وقام بالقِسْط ، ونصر الدّين ، وجاهد المشركين ، حتَّى توفَّاه الله ﷺ ، أوصيكم بتقوى الله والزّهدِ في الدنيا ، والرّغبة في الآخرة ، وكثرةِ ذكر الموت ، وفراقِ الفاسقين ، وحبِّ المؤمنين ، فإنّ الزَّهادة في الدنيا تُرغِّب العبدَ فيما عند الله ، وتُفرّغ بدنَه لطاعة الله ، وإنّ كثرةَ ذِكر الموت يُخيف العبد من ربِّه حتى يَجأرَ إليه ، ويستكين له ، وإن فراق الفاسقين حقٌّ على المؤمنين ، قال الله في كتابه : ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ .

وإن حُبّ المؤمنين للسّبب الَّذي تُنال به كرامة الله ورحمته وجنَّتُه ، جعلنا الله وإيَّاكم من الصادقين الصابرين ، ألا إنّ من نعمة الله على المؤمنين أنْ بعث فيهم رسولاً من أنفسِهم فعلَّمهم الكتابَ والحكمة وزكَّاهم وطَهّرهم ووفّقهم في دينهم ، وكان بالمؤمنين رؤوفاً رحيماً ، حتَّى قبضه الله ، صلواتُ الله عليه ، ثمّ وليَ الأمر من بعدِه التقيّ الصدّيق على الرّضا من المسلمين ، فاقتدى بِهديه ، واستن بسُنّته ، حتى لحِق بالله ـ رحمه الله ـ واستَخلف عمرَ ، فولّاه الله أمر هذه الرعيّة ، فعَمِل بكتاب الله ، وأحيا سُنة رسولِ الله ، ولم يُحنِقْ في الحقّ على

جِرّته ، ولم يخفْ في الله لومة لائم ، حتى لَحِقَ به رحمةُ الله عليه ، ووليَ المسلمينِ من بعده عثمان ، فاستأثر بالفَيء ، وعَطّل الحدُود ، وجارَ في الحُكْم ، واستَذلَّ المؤمن ، وعزّز المجرِم ، فسار إليه المسلمون فقتلوه ، فبرئ الله منه ورسولُه ، وصالحُ المؤمنين؛ ووَلِي أمر الناس من بعده عليّ بن أبي طالب ، فلم ينشب أن حكّمَ في أمر الله الرّجال ، وشكّ في أهل الضلال ، وركن ، وأدْهن ، فنحن من عليّ وأشياعِه بُراء ، فتيسّروا رحمكم الله لجهاد هذه الأحزاب المتحَزّبة ، وأئمة الضلال الظّلمة وللخروج من دارِ الفناء إلى دار البقاء ، واللَّحاق بإخواننا المؤمنين الموقِنين الذِين باعوا الدنيا بالآخرة ، وأنفقوا أموالَهم التماس رضوان الله في العاقبة ، ولا تجزعوا من القتل في الله ، فإنَّ القتل أيْسرُ من الموت ، والموتُ نازِلٌ بكم غير ما ترجُم الظنون ، فمفرّق بينكم وبين آبائكم وأبنائكم ، وحلائِلِكم ودنياكم ، وإن اشتدّ لذلك كُرْهكم وجزعكم ، ألاَ فبِيعوا الله أنفسَكم طائعين وأموالَكم تدخلوا الجنة آمنين ، وتعانِقوا الحُور العين ، جعلنا الله وإيّاكم من الشاكرين الذاكرين ، الذين يَهْدون بالحقّ وبه يَعدِلون[١] . (٦/ ٢١٦ ـ ٢١٨) .

قال أبو مخنَف: فحدّثني عبدُ الله بنُ عَلْقمة ، قال: بينا أصحابُ صالح يختلفون إليه إذ قال لهم ذاتَ يوم: ما أدرِي ما تنتظرون! حتّى متى أنتم مقيمون! هذا الجوْر قد فشا ، وهذا العَدْل قد عفا ، ولا تَزداد هذه الولاةُ على الناس إلاّ غُلوّاً وعُتُوّاً ، وتباعداً عن الحقّ ، وجُرأةً على الرّبّ؛ فاستعِدّوا وابعثوا إلى إخوانِكم الذين يريدون من إنكار الباطل والدعاء إلى الحقّ مِثلَ الذي تريدون ، فيأتوكم فنلتقي وننظر فيما نحن صانعون ، وفي أيّ وقت إنْ خرجْنا نحن خارجون.

قال: فترَاسل أصحابُ صالح ، وتلاقَوا في ذلك ، فبَيْناهم في ذلك إذْ قَدِم عليهم المحَلل بن وائل اليَشْكُريّ بكتاب من شَبيب إلى صالح بن مسرّح:

أما بعد: فقد علمتُ أنّك كنت أردتَ الشخوص ، وقد كنتَ دعوتَني إلى ذلك فاستجبْتُ لك ، فإن كان ذلك اليوم من شأنك فأنتَ شيخُ المسلمين ، ولن نَعدِل

---

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

بك منّا أحداً ، وإن أردت تأخيرَ ذلك اليوم أعلَمْتني ؛ فإنّ الآجال غادية ورائحة ، ولا آمَن أن تختَرمَني المنيّةُ ولما أجاهِد الظالمين.

فيالَه غَبْناً، ويالَه فَضْلاً متروكاً! جَعَلَنا الله وإيّاك ممن يريد بعَمِله اللهَ ورضوانَه، والنظر إلى وجهه ، ومرافقة الصالحين في دار السلام ، والسلام عليك.

قال : فلما قَدِم على صالح المحلّل بن وائل بذلك الكتابِ من شبيب كتب إليه صالح :

أما بعد : فقد كان كتابُك وخبرُك أبطأا عني حتى أهمَّني ذلك ، ثمّ إنّ امرأً من المسلمين نبّأني بنبأ مُخرجِك ومقدَمك ، فنَحمدُ الله على قضاء ربّنا ، وقد قَدِم عليَّ رسولُك بكتابك ، فكلّ ما فيه قد فهمتُه ، ونحن في جهاز واستعداد للخروج ، ولم يمنعْني من الخروج إلا انتظارك ، فأقبِل إلينا ، ثمّ اخرج بنا متى ما أحبَبْت ، فإنك ممن لا يُستغنَى عن رأيه ، ولا تُقَضى دونَه الأمور ، والسلام عليك.

فلما قَدِم على شبيب كتابُه بعث إلى نفر من أصحابه فجمعهم إليه ؛ منهم أخوه مصاد بن يزيد بن نُعيم ، والمحلل بن وائل اليَشْكُري ، والصقر بن حاتم من بني تَيم بن شيبان ، وإبراهيم بن حجر أبو الصُّقير من بني مُحْلَم ، والفضل بنُ عامر من بني ذُهْل بن شَيْبان ، ثمَّ خرج حتى قَدِم على صالح بن مسرّح بِدارَا ، فلمّا لقَيه قال : اخرُج بنا رحمك الله! فواللهِ ما تزداد السنَّة إلا دُروساً ، ولا يَزداد المجرمون إلاّ طُغْياناً ، فبثّ صالحُ رسله في أصحابه ، وواعدهم الخروج في هلال صفر ليلة الأربعاء سنة ستٍّ وسبعين ، فاجتمع بعضُهم إلى بعض ، وتهيَّؤوا وتيسروا للخروج في تلك اللَّيلة ، واجتمعوا جميعاً عنده في تلك الليلة لِميعاده[١]. (٦/ ٢١٨ ـ ٢١٩).

قال أبو مخنف : فحدّثني فَرْوة بن لقيط الأزْديّ ، قال : والله إني لَمَع شبيب بالمَدائن إذْ حدّثنا عن مخرجهم ، قال : لما هممنا بالخروج اجتمعْنا إلى صالح بن مسرّح ليلة خرج ، فكان رأيي استعراضُ الناس لِمَا رأيتُ من المنكر والعدوان

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

والفساد في الأرض ، فقمتُ إليه فقلت: يا أميرَ المؤمنين ، كيف تَرَى في السيرة في هؤلاء الظلَمة؟ أنقتلهم قبل الدّعاء ، أم ندعوهم قبلَ القتال؟ وسأخبرك برأيي فيهم قبل أن تُخبرَني فيهم برأيك؛ أمّا أنا فأرَى أن نَقتُل كلّ من لا يرى رأيَنا قريباً كان أو بعيداً ، فإنا نخرج على قوم غاوين طاغين باغِين قد تركوا أمر الله ، واستحوذ عليهم الشيطان ، فقال: لا بل ندعوهم ، فلعمْري لا يُجيبك إلاّ من يرى رأيَك وليقاتِلنَّك مَنْ يزرِي عليك ، والدعاءُ أقطع لحجَّتِهم ، وأبلغ في الحجة عليهم ، قال: فقلت له: فكيف ترى فيمن قاتَلَنا فظفرْنا به؟ ما تقول في دِمائهم وأموالهم؟ فقال: إن قتلنا وغنمنا فلنا ، وإن تجاوزنا وعفونا فموسَع علينا ولنا ، قال: فأحسن القول وأصابَ ، رحمة الله عليه وعلينا[١]. (٦/ ٢١٩).

قال أبو مخنف: فحدّثني رجلٌ من بني محلّم أنّ صالحَ بنَ مسرح قال لأصحابه ليلَة خرج: اتَّقوا الله عبادَ الله ، ولا تعجلوا إلى قتال أحد من الناس إلاّ أن يكونوا قوماً يريدونكم ، وينصِبون لكم ، فإنكم إنَّما خرجتم غَضباً لله حيث انتُهكتْ محارمه ، وعُصِي في الأرض ، فسُفكت الدماء بغير حِلِّها ، وأخِذتْ الأموال بغير حقّها ، فلا تَعيبوا على قوم أعمالاً ثمّ تعملوا بها ، فإن كلّ ما أنتم عاملون أنتم عنه مسؤولون ، وإنّ عُظْمَكم رجّالة ، وهذه دوابّ لمحمّد بن مروان في هذا الرُّسْتاق ، فابدَؤوا بها ، فشُدّوا عليها ، فاحمِلوا أراجِلَكم ، وتقوّوا بها على عدُوّكم.

فخرجوا فأخذوا تلك الليلة الدوابّ فحَمَلوا رَجّالتهم عليها ، وصارت رجّالتُها فُرساناً ، وأقاموا بأرضِ دارا ثلاثَ عَشْرَة ليلة ، وتَحصَّن منهم أهل دارا وأهلُ نَصِيبين وأهلُ سِنْجار ، وخرج صالحُ ليلةَ خرجَ في مئة وعشرين - وقيل في مئة وعشرة - قال: وبلغ مخرجهُم محمد بن مروان وهو يومئذ أميرُ الجزيرة ، فاستخفّ بأمرهم ، وبعث إليهم عديّ بن عديّ بن عُميرة من بني الحارث بن معاوية بن ثور في خَمسمئة ، فقال له: أصَلح الله الأمير! أتَبعثني إلى رأس الخوارج منذ عشرين سنة! قد خرج من مئة فارس في خمسمئة رجل ، قال له: فإني أزيدك خمسمئة أخرى ، فسر إليهم في ألف ، فسار من حرّان في ألف

---

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

رجل ، فكان أول جيش سار إلى صالح وسار إليه عديّ ، وكأنَّما يساق إلى الموت ، وكان عديّ رجلاً يتنسّك ، فأقبَل حتى إذا نزل دوْغانَ نزل بالنَّاس وسرّح إلى صالح بنِ مسرّح رجلاً دَسَّهُ إليه من بني خالد من بني الوِرْثة ، يقال له: زِياد بن عبد الله ، فقال: إنّ عديّاً بَعثَني إليك يسألُك أن تخرج من هذا البلد وتأتيَ بلداً آخر فتُقاتِلَ أهلَه؛ فإنّ عديّاً لِلقائك كاره ، فقال له صالح: ارجع إليه ، فقل له: إن كنتَ ترى رأينا فأرِنا من ذلك ما نَعرِف ، ثمَّ نحن مُدلجون عنك من هذا البلد إلى غيره ، وإن كنتَ على رأي الجبابرة وأئمة السَّوء رأيْنا رأينا ، فإن شئنا بدأنا بك ، وإن شئنا رحلنا إلى غيرِك. فانصرف إليه الرسولُ فأبلَغه ما أرسِل به ، فقال له: ارجعْ إليه فقل له: إني واللهِ ما أنا على رأيك ، ولكني أكره قتالَك وقتال غيرك ، فقاتِلْ غيري ، فقال صالح لأصحابه: ارْكبوا فَركبوا وحَبَس الرجلَ عنده حتى خرجوا ، ثمّ تركه ومضى بأصحابه حتى يأتيَ عديّ بن عديّ بن عميرة في سُوقِ دَوغان هو قائمٌ يصلّي الضّحى ، فلم يَشعرُ إلاّ والخيل طالعةٌ عليهم ، فلما بَصُروا بها تنادوا ، وجعل صالحُ شبيباً في كَتِيبة في ميمنة أصحابه ، وبعث سويد بن سليم الهنديّ ، من بني شيبان في كتيبة في ميسرةِ أصحابه ، ووقَف هو في كَتيبة في القَلْب ، فلما دنا منهم رآهم على غير تعبِية ، وبعضهم يجول في بعض ، فأمرَ شبيباً فحملَ عليهم ، ثمّ حملِ سويد عليهم فكانت هزيمتهم ولم يُقاتلوا ، وأتِيَ عديّ بن عديّ بدابَّته وهو يصلِّي فركبها ومضى على وجهِه ، وجاء صالحُ بنُ مسرّح حتى نزل عسكره وحوى ما فيه ، وذهب فلُّ عَدِيّ وأوائلُ أصحابِه حتى دخلوا على محمَّد بن مروان ، فغَضِبَ ثم دعا خالدَ بن جَزْء السُّلَميّ فبعثه في ألف وخمسمِئة ، ودعا الحارث بنَ جَعْونَة من بني ربيعة بن عامر بن صعَصْعة فَبعثه في ألف وخمسمئة ، ودعاهما ، فقال: أُخرُجا إلى هذه الخارجة القليلة الخَبيثة ، وعجِّلا الخروج ، وأغِذّا السيْر ، فأيّكما سبق فهو الأمير على صاحبه؛ فخرجا من عنده فأغَذّا السير ، وجعلاَ يسألان عن صالح بن مسرّح فيقال لهما: إنّه توجّه نحو آمِدَ ، فأتبعاه حتى انتهيا إليه ، وقد نزل على أهل آمد ، فنزلا ليلاً ، فخندَقا وانتهيَا إليه وهما متساندانِ كلّ واحد منهما في أصحابه ، على حدته ، فوجّه صالح شَبيباً إلى الحارث بن جَعْونة العامريّ في شطر أصحابه ، وتوجّه هو

نحو خالد بن جَزْء السُّلَميّ[١]. (٦/ ٢١٩ ـ ٢٢١).

قال أبو مخنف: فحدّثني المُحَلّميّ، قال: انتهوا إلينا في أوّل وقت العصر، فصلّى بنا صالح العصر، ثمّ عبّانا لهم فاقتتلْنا كأشدّ قتال اقتتله قومٌ قطّ، وجعلنا والله نرى الظفر يحمل الرجل منّا على العشرة منهم فيهزمهم، وعلى العشرين فكذلك، وجعلتْ خيلُهم لا تَثبت لخَيلنا.

فلما رأى أميراهُم ذلك ترجّلا وأمرا جُلّ من معهما فترجّل، فعند ذلك جعلنا لا نَقدر منهم على الذي نريد، إذا حَمَلْنا عليهم استقبلتْنا رجّالَتهم بالرّماح، ونضحتنا رماتُهم بالنَّبل، وخيلُهم تُطاردنا في خلال ذلك، فقاتلناهم إلى المَساء حتى حالَ الليلُ بيننا وبينهم، وقد أفشَوْا فينا الجراحة، وأفشيْناها فيهم، وقد قَتَلوا منا نحواً من ثلاثين رجُلاً، وقتلْنا منهم أكثرَ من سبعين، ووالله ما أمسينا حتى كرهناهم وكرهونا، فوقفْنا مُقابِلَهم ما يَقْدمون علينا وما نَقدُم عليهم، فلما أمسوا رجعوا إلى عسكرهم، ورجعْنا إلى عسكرنا فصلّينا وتروّحْنا وأكلنا من الكِسَر.

ثمّ إنّ صالحاً دعا شبيباً ورؤوسَ أصحابِه فقال: يا أخلاّئي، ماذا ترون؟ فقال شبيب: أرَى أنّا قد لقينا هؤلاء القومَ فقاتلناهم، وقد اعتَصموا بخندقهم، فلا أرى أن نقيم عليهم، فقال صالح: وأنا أرى ذلك، فخرجوا من تحت ليلتِهم سائرين، فمضوا حتى قطعوا أرض الجزيرة، ثمّ دخلوا أرضَ الموصِل فساروا فيها حتى قطعوها ومضَوا حتى قطعوا الدّسْكرةَ.

فلما بلغ ذلك الحجّاج سرّح إليهم الحارث بنَ عميرة بن ذي المِشعار الهَمْدانيّ في ثلاثة آلاف رجل من أهل الكوفة، ألف من المقاتلة الأولى، وألفَين من الفَرْض الذي فرض لهم الحجّاج، فسار حتى إذا دنا من الدَّسْكرة خرج صالح بن مسرّح نحو جَلولاءَ وخانِقين، وأتبعه الحارثُ بن عميرةَ حتى انتهى إلى قرية يقال لها المدبّج من أرض الموصِل على تُخومِ ما بينها وبين أرض جُوخَى، وصالح يومئذ في تسعين رجلاً، فعبّى الحارث بن عميرة، يومئذ أصحابه، وجعل على ميمنته أبا الرّوّاغ الشاكريّ، وعلى ميسرَته الزّبير بن الأروَح

---

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

التميميّ، ثم شدّ عليهم ـ وذلك بعد العصر ـ وقد جعل أصحابه ثلاثةَ كراديس؛ فهو في كُرْدوس، وشبيب في كُرْدوس في ميمَنته، وسُوَيد بن سليم في كرْدوس في الميسرة، في كلّ كُرْدوس منهم ثلاثون رجلاً.

فلما شدّ عليهم الحارثُ بن عميرة في جماعة أصحابِه انكشف سُوَيد بن سليم، وثبت صالح بنُ مسرّح فقُتِل، وضارب شبيبٌ حتى صُرِع، فوقع في رجّالة، فشدّ عليهم فانكشفوا، فجاء حتى انتَهى إلى موقف صالح بن مسرّح فأصابه قتيلاً، فنادى: إليّ يا معشر المسلمين؛ فلاذُوا به، فقال لأصحابه: ليَجْعَل كلّ واحد منكم ظهرَه إلى ظهر صاحبه، وليطاعِن عدوَّه إذا أقدَم عليه حتى ندخل هذا الحصن، ونرى رأينا؛ ففعلوا ذلك حتى دخلوا الحصن وهم سبعون رجلاً بشَبيب، وأحاط بهم الحارثُ بنُ عميرة مُمْسِياً، وقال لأصحابه: احرقوا الباب، فإذا صار جَمْراً فدعوه فإنهم لا يَقدِرون على أن يخرجوا منه حتَّى نصبّحهم فنقتلهم، ففعلوا ذلك بالباب، ثمّ انصرَفوا إلى عسكرهم، فأشرَف شبيب عليهم وطائفةٌ من أصحابه، فقال بعضُ أولئك الفَرْض: يا بني الزَّواني، ألم يُخزكم الله! فقالوا: يا فُسَّاق، نعم تقاتلوننا لقتالِنا إيَّاكم إذْ أعماكُم الله عن الحقّ الَّذي نحن عليه، فما عُذْركم عند الله في الفَرْي على أمَّهاتِنا! فقال لهم حُلَماؤهم: إنَّما هذا من قول شباب فينا سُفهاء، والله ما يُعجِبنا قولهم ولا نستحلّه.

وقال شبيب لأصحابه: يا هؤلاء، ما تَنتظِرون! فوالله لئن صبَّحكم هؤلاء غُدْوةً إنَّه لَهلاَكُكم، فقالوا له: مرنا بأمرِك، فقال لهم: إنَّ اللَّيل أخفى للوَيْل، بايعوني أو من شئتم منكم، ثم اخرجوا بنا حتَّى نشُدّ عليهم في عسكرهم، فإنَّهم لذلك منكم آمنون، وأنا أرجو أن ينصُرَكم الله عليهم، قالوا: فابسُطْ يدك فلنُبايعْك، فبايَعوه، ثمّ جاؤوا ليخرجوا، وقد صار بابُهم جمراً، فأتوا باللُّبود فبلُوها بالماء، ثمَّ ألقَوْها على الجَمْر، ثمّ قطعوا عليها، فلمَ يشعرُ الحارث بن عميرة ولا أهلُ العسكر إلاّ وشبيب وأصحابُه يضربونهم بالسيوف في جوفِ عسكرِهم، فضارب الحارث حتّى صُرِع، واحتمَلَه أصحابُه وانهزموا، وخلَّوْا لهم العسكر وما فيه، ومضَوا حتى نزلوا المدائن، فكان ذلك الجيشُ أوّلَ جيش

هزَمَه شبيب ، وأصيب صالحُ بن مسرّح يوم الثلاثاء لثلاثَ عشرة بقيتْ من جُمادَى الأولى من سنته[١] . (٦/ ٢٢١ ـ ٢٢٣).

خبر دخول شبيب الكوفة وما كان من أمره مع الحجّاج

وفي هذه السنة دخل شبيب الكوفةَ ومعه زوجتُه غزَالة .

* ذكر الخبر عن دخولِه الكوفة وما كان من أمرِه وأمرِ الحجَّاج بها والسبب الَّذي دعا شبيباً إلى ذلك :

وكان السبب في ذلك ـ فيما ذَكر هشام ، عن أبي مِخنَف ، عن عبد الله بن علقمة ، عن قبيصة بن عبد الرحمن الخَثْعمي ـ أنّ شبيباً لمَّا قُتِل صالحُ بنُ مسرّح بالمدبَّج وبايعه أصحابُ صالح ، ارتفع إلى أرض الموْصل فلقَي سلامة بن سيَّار بن المضاء التَّيْميّ تَيْم شيبان ، فدعاه إلى الخروج معه ، وكان يَعرفه قبل ذلك إذ كانا في الدّيوان والمَغَازي ، فاشتَـرَط عليه سلامةُ أن يَنتخِب ثلاثين فارساً ، ثم لا يغيب عنه إلا ثلاثَ ليال عدداً. ففعل فانتَخب ثلاثين فارساً ، فانْطلق بهم نحو عَنَزة ، وإنَّما أرادهم ليَشفي نفسَه منهم لقتلِهم أخاه فَضالة ، وذلك أنّ فَضالة كان خرج قبل ذلك في ثمانية عشر نَفْساً حتَّى نزل ماءً يقال له الشَّجرَة من أرضِ الجبال ، عليه أثلَة عظيمة ، وعليه عَنَزة ، فلمَّا رأتْه عَنَزة قال بعضهم لبعض: نقتلهم ثمّ نغدو بهم إلى الأمير فنُعطى ونُحبَى ، فأجمعوا على ذلك ، فقال بنو نصر أخوالُه: لَعَمر الله لا نساعدكم على قتل وَلَدنا ، فنهضت عنَزَةُ إليهم فقاتَلوهم فقَتَلوهم ، وأتَوا برؤوسهم عبدَ الملك بنَ مروان ، فلذلك أنْزَلهم بانِقيَا ، وفرض لهم ، ولم تكن فرائضُ قبلَ ذلك إلا قليلة ، فقال سلامة بنُ سيَّار ، أخو فضالة يَذكُر قتل أخيه وخِذلان أخوالِه إيَّاه :

وما خِلْتُ أخْوالَ الفتَى يُسلمونَهُ لِوَقْعِ السلاح قبلَ ما فَعَلتْ نَصْرُ

قال : وكان خروج أخيه فَضالَة قبل خروج صالح بنِ مسرّح وشبَيب .

فلمَّا بايع سلامةُ شبيباً اشترط عليه هذا الشرط ، فخرج في ثلاثين فارساً حتَّى انتهى إلى عَنزة ، فجعل يَقتل المحلَّة منهم بعد المحلة حتَّى انتهى إلى فريق منهم

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك .

فيهم خالته ، وقد أكبَّت على ابنٍ لها وهو غلام حين احتلم ، فقالت وأخرجت ثديَها إليه: أنشدك برَحم هذا يا سلامة! فقال: لا والله ، ما رأيتُ فضالة مذ أناخ بعُمْر الشَّجرة ـ يعني أخاه ـ لتقومِنّ عنه ، أو لأجْمعَنّ حافتكِ بالرّمح ، فقامت عن ابنها عند ذلك فقتَله[1] . (٦/ ٢٢٤ ـ ٢٢٥) .

قال أبو مخنفَ: فحدّثني المفضّل بن بكر من بني تَيْم بن شيبان أنّ شبيباً أقبل في أصحابه نحو رَاذانَ ، فلمَّا سمعتْ به طائفة من بني تَيم بنِ شيبانَ خرجوا هُرّاباً منه ، ومعهم ناس من غيرهم قليل ، فأقبلوا حتى نزلوا دَير خرّزاد إلى جنب حَوْلايا ، وهم نحو من ثلاثةِ آلاف ، وشبيب في نحو من سبعين رجلاً أو يزيدون قليلاً ، فنزل بهم؛ فهابوه وتحصّنوا منه ، ثمّ إنّ شبيباً سَرَى في اثني عشرَ فارساً من أصحابه إلى أمه ، وكانت في سَفْحِ ساتيدَما نازِلةً في مَظلّة من مَظالّ الأعراب: فقال: لآتينّ بأمّي فلأجعلنّها في عسكري فلا تفارقني أبداً حتَّى أموتَ أو تموت ، وخرج رجلان من بني تَيم بن شيبانَ تخوَّفَا على أنفسِهما فنزلا من الدّير ، فلَحِقا بجماعة من قومهما وهم نُزول بالجبالِ منهم على مسيرةِ ساعة من النهار ، وخرج شبيبٌ ، في أولئك الرّهط في أوّلهم وهم اثنا عشر ، يريد أمَّه بالسفح ، فإذا هو بجماعة من بني تَيْم بن شيبان غارّين في أموالهم مقيمين ، لا يرَوْن أنّ شبيباً يمرّ بهم لمكانِهم الّذي هم به ، ولا يشعر بهم ، فحمل عليهم في فَرْسانه تلك ، فقتل منهم ثلاثين شيخاً؛ فيهم حَوْثرةُ بنُ أسَد ووَبرة بن عاصم اللّذان كانا نَزَلا من الدَّير ، فلحقا بالجبال ، ومَضى شبيب إلى أمه فحمَلَها من السَّفح ، فأقبل بها ، وأشرف رجلٌ من أصحاب الدّير من بكرِ بن وائل على أصحابِ شبيب ، وقد استَخلف شبيب أخاه على أصحابه مصاد بن يزيد ، ويقال لذلك الرّجل الّذي أشرف عليهم سلاّمُ بن حيان ، فقال لهم: يا قوم ، القرآن بيننا وبينكم ، ألم تسمعوا قولُ الله: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ .

قالوا: بلى ، قال لهم: فكفّوا عنَّا حتَّى نُصبح ، ثمّ نخرج إليكم على أمان لنا منكم ، لكيلا تَعرِضوا لنا بشيء نكرهه حتَّى تَعرضوا علينا أمركم هذا ، فإن نحن

---

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

قَبلناه حرُمتْ عليكم أموالنا ودماؤنا ، وكنَّا لكم إخواناً ، وإن نحن لم نقبَلْه رددْتمونا إلى مأمَننا ، ثمّ رأيتم رأيكم فيما بيننا وبينكم؛ قالوا لهم: فهذا لكم ، فلما أصبحوا خرجوا إليهم ، فعَرَض عليهم أصحابُ شبيب قولَهم ، ووصفوا لهم أمرَهم ، فقَبِلوا ذلك كلَّه ، وخالطوهم ، ونَزلوا إليهم ، فدخل بعضُهم إلى بعض ، وجاء شبيب قد اصطلحوا ، فأخبرَه أصحابُه خبرَهم ، فقال: أَصَبتم ووُفّقتم وأحَسنتُم.

ثمّ إن شبيباً ارتحل فخرجت معه طائفة وأقامتْ طائفةٌ جانحة ، وخرج يومئذ معه إبراهيمُ بن حَجَر المحلَّمي أو الصُّقَير كان مع بني تَيْم بن شيبان نازلاً فيهم ، ومضى شبيب في أداني أرض المَوْصل وتخُوم أرض جُوخَى ، ثمّ ارتفع نحو أذرَبيجانَ ، وأقبل سفيان بن أبي العالية الخَثْعميّ ، في خيل قد كان أمر أن يدخل بها طَبَرسْتان ، فأمِر بالقُفولِ ، فأقبلَ راجعاً في نحو من ألف فارس ، فصالح صاحب طَبَرَستانَ[1] . (٦/ ٢٢٥ ـ ٢٢٦).

قال أبو مخنف: فحدّثني عبدُ الله بن علقمة عن سفيان بن أبي العالية الخثعميّ أنّ كتاب الحجَّاج أتاه: أما بعد ، فسرْ حتَّى تنزل الدسْكرة فيمن معك ، ثمّ أقِم حتَّى يأتيَك جيشُ الحارث بن عميرة الهَمْدانيّ بن ذي المِشعار ، وهو الَّذي قتَل صالحَ بن مسرّح وخيل المناظر ، ثمّ سِرْ إلى شبيب حتَّى تُناجزَه ، فلمَّا أتاه الكِتاب أقبَل حتَّى نزل الدّسْكرة ، ونُوديَ في جيش الحارثِ بن عميرة بالكوفة والمَدائن: أنْ بَرِئت الذّمَّة من رجل من جيش الحارث بنِ عميرة لم يُواف سُفيان بن أبي العالية بالدّسْكرة.

قال: فخرجوا حتَّى أتوه ، وأتته خيلُ المناظر ، وكانوا خمسمئة ، عليهم سَوْرة بن أبْجَر التميميّ من بني أبَان بنِ دارم ، فوافَوْه إلا نحواً من خمسين رجلاً تخلَّفوا عنه ، وبعث إلى سُفيان بن أبي العالية ألاّ تبرح العسكَر حتَّى آتيَك ، فعَجل سفيانُ فارتحل في طلب شبيب ، فلَحِقه بخانِقين في سَفْح جبل على ميمنته خازمُ بن سُفيان الخثعميّ من بني عمرو بن شَهْران ، وعلى ميسرته عديّ بن عميرة الشَّيبانيّ ، وأصحَرَ لهم شبيب ، ثم ارتفع عنهم حتَّى كأنَّه يكره لقاءَه ، وقد أكمن

---

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

له أخاه مصاداً معه خمسون في هَزْم من الأرض.

فلمَّا رأوْه جَمَع أصحابَه ثمَّ مضى في سفح الجبل مُشْرقاً فقالوا: هرب عدوّ الله فاتَّبعوه، فقال لهم عديّ بن عميرة الشَّيبانيّ: أيّها الناس، لا تعجلوا عليهم حتَّى نَضرب في الأرض ونسير بها، فإن يكونوا قد أكمنوا لنا كميناً كنّا قد حَذِرْناه وإلا فإنّ طلبهم لن يفوتنا، فلم يسمع منه الناس، وأسرعوا في آثارهم، فلمَّا رأى شبيب أنَّهم قد جازوا الكَمِينَ عَطَف عليهم.

ولما رأى الكَمينُ أن قد جاوَزُوهم خرجَوا إليهم، فحمل عليهم شبيب من أمامِهم، وصاح بهم الكمين من ورائهم، فلم يقاتلهم أحد، وكانت الهزيمة، فثبت ابنُ أبي العالية، في نحو من مئتي رجل، فقاتلهم قتالاً شديداً حسناً؛ حتَّى ظنّ أنَّه انتصف من شبيب وأصحابه، فقال سُويد بن سُليم لأصحابه: أمِنْكم أحد يَعرف أميرَ القوم ابنَ أبي العالية؟ فوالله لئن عَرَفْتُه لأجهدَنّ نفسي في قتْلِه، فقال شبيبٌ: أنا مِن أعرَف الناس به، أما تَرَى صاحب الفرس الأغرّ الَّذي دونَه المُرامية! فإنَّه ذلك، فإن كنت تريدُه فأمهِلْه قليلاً ثمّ قال: يا قعنب، اخرج في عشرين فائْتِهم من ورائهم، فخرج قعنب في عشرين فارتفع عليهم.

فلمَّا رأوه يريدُ أن يأتيَهم من ورائهم جعلوا ينتقضون ويتسلَّلون، وحمل سُوَيد بنُ سُليم على سُفيان بن أبي العالية فطاعنه، فلم تصنع رُمْحاهما شيئاً، ثم اضطربا بِسَيْفيهما ثمَّ اعتنق كل منهما صاحبه، فوقعا إلى الأرض يعتركان؛ ثم تحاجزوا وحَمَل عليهم شبيب فانكشفوا، وأتى سُفيان غلامٌ له يقال له غَزْوان، فنزل عن بِرْذَونه، وقال: اركبْ يا مولاي، فَرَكب سفيان، وأحاط به أصحاب شبيب، فقاتَل دونَه غَزْوان فقُتل، وكانت معه رايتُه، وأقبل سُفيانُ بن أبي العالية حتَّى انتهى إلى بابل مَهْرُوذ، فنزل بها، وكتب إلى الحجَّاج:

أمَّا بعد، فإني أخبِر الأميرَ أصلَحه الله أني اتَّبعت هذه المارقةَ حتَّى لِحقتُهم بخانِقين فقاتلتهم، فضَربَ الله وجوههم، ونصرنا عليهم، فبينا نحن كذلك إذْ أتاهم قوم كانوا غُيَّباً عنهم، فَحَملوا على الناس فهزموهم، فنزلتُ في رجال من أهل الدّين والصبّر فقاتلتهم، حتَّى خررتُ بين القتلى، فحُمِلت مرتثّاً، فأتِيَ بي بابل مهروذ، فهأنذا بها والجند الَّذين وجَّههم إليّ الأمير وافَوا إلا سَوْرةَ بن أبْجَر فإنه لم يأتني ولم يشهد معى حتّى إذا ما نزلت بابل مَهْروذ أتاني يقول

ما لا أعرفُ ، ويَعتذر بغير العُذر ، والسلام.

فلمَّا قرأ الحجَّاجُ الكتاب قال: مَنْ صنع كما صنع هذا ، وأبلى كما أبلى فقد أحسن ، ثم كتب إليه:

أمَّا بعد ، فقد أحسَنْتَ البلاء ، وقضيتَ الَّذي عليك ، فإذا خَفّ عنك الوجع فأقبِل مأجوراً إلى أهْلِك ، والسلام.

وكتب إلى سَوْرة بن أبجَر:

أمَّا بعد فيا بن أمّ سَوْرة ، ما كنتَ خليقاً أن تجترَئ على ترك عهدي وخذلان جُندي ، فإذا أتاك كتابي فابعث رَجُلاً ممَّن معك صَليباً إلى الخيل الَّتي بالمدائن ، فَلينتخِب منهم خمسمئة رجلٍ ، ثمّ لِيُقدم بهم عليك ، ثمّ سِرْ بهم حتَّى تَلَقى هذه المارقة ، واحزمْ في أمرك ، وكدْ عدوّك فإنْ أفضل أمر الحرب حسن المكيدة. والسلام.

فلمَّا أتى سَوْرةَ كتابُ الحجَاج بعث عديّ بن عميرة إلى المدائن ، وكان بها ألفُ فارس ، فانتَخب منهم خَمسمئة ثمّ دخل على عبد الله بن أبي عُصَيْفِير ـ وهو أميرُ المدائن في إمارته الأولى ـ فسلَّم عليه ، فأجازه بألف درْهم ، وحمله على فرس ، وكساه أثواباً ، ثم إنَّه خرج من عنده ، فأقبل بأصحابه حتَّى قدم بهم على سَورة بن أبجر ببابل مَهْروذ ، فخرج في طلب شبيب ، وشبيب يَجُول في جُوخَى وسَوْرة في طَلبه ، فجاء شبيب حتَّى انتهى إلى المَدائن ، فتحصَّن منه أهلُ المدائن وتحرّزوا ، وهي أبْنية المدائن الأولى ، فدخل المدائن ، فأصاب بها دوابَّ جندٍ كثيرة ، فقتل مَنْ ظهر له ولم يَدخلُوا البيوت ، فأتِيَ فقيل له: هذا سَوْرة بنُ أبجر قد أقبلَ إليك ، فخرج في أصحابه حتَّى انتهى إلى النَهرَوان فنزلوا به وتوضّؤوا وصلُّوا ، ثمّ أتَوْا مصارعَ إخوانهم الذين قتَلهم عليّ بنُ أبي طالب عليه السلام ، فاستغفروا لإخوانِهم ، وتبرّؤوا من عليّ وأصحابِه ، وبَكوْا فأطالوا البكاءَ ، ثم خرجوا فقطعوا جِسْرَ النَّهرَوان ، فنزلوا من جانِبه الشرقي ، وجاء سَوْرة حتَّى نزل بقطراثا ، وجاءته عُيونه فأخبرتْه بمنزل شبيب بالنَّهروان ، فدعا رؤوس أصحابه فقال: إنَّهم قلَّما يُلْقَون مُصحِرين أو على ظَهر إلاّ انتصَفوا منكم ، وظهروا عليكم ، وقد حُدّثت أنَّهم لا يزيدون على مئة رجل إلا قليلاً ، وقد رأيتُ أن أنتخبكم فأسيرَ في ثلاثمئة رجل منكم من أقويائكم ، وشُجْعانِكم ، فآتِيهم الآن إذْ

هم آمنون لبَياتِكم؛ فوالله إني لأرجو أن يصرعهم الله مصارع إخوانهم الَّذين صُرعوا منهم بالنَّهروان من قبلُ. فقالوا: اصْنع ما أحببتَ، فاستعمل على عسكره حازم بن قُدامة الخثعميّ، وانتخب من أصحابه ثلاثمئة رجل من أهل القوّة والجَلَد والشَّجاعة، ثمّ أقبَل بهم نحو النَّهروان، وبات شبيب وقد أذكى الحَرَس، فلمَّا دنا أصحابُ سَوْرة منهم نَذِروا بهم، فاستَوَوا على خُيولهم وتعبَّوا تعبيتهم.

فلمَّا انتهى إليهمْ سَوْرة وأصحابُه أصابوهم قد حَذَروا واستعدّوا فحمل عليهم سورة وأصحابه فثبتوا لهم، وضارَبوهم حتَّى صدّ عنهم سَوْرة وأصحابه، ثمّ صاح شبيب بأصحابه، فحمل عليهم حتَّى تركوا له العرصة، وحَمَلوا عليهم معه، وجَعَل شبيب يَضرب ويقول:

مــن يَنِــكِ العَيْــرَ يَنِــكْ نَيَــاكَــا ... جَنْــدلَتَــانِ اصطَكَّتــا اْصطِكَــاكَــا

فرجع سَورة إلى عسكره وقد هُزم الفُرْسان وأهلُ القَوّة، فتحمَّل بهِم حتَّى أقبل بهم نحوَ المدائن، فدفع إليهم وقد تحمَّل وتعدّى الطريق الذي فيه شبيب، واتبعه شبيب وهو يرجو أن يَلحقه فيُصيب عسكره، ويصيب بهزيمته أهل العسكر، فأغَذَّ السير في طلبهم، فانتَهوْا إلى المدائن فَدخلوها، وجاء شبيب حتَّى انتهى إلى بيُوت المدائن، فدفع إليهم وقد دخل الناس، وخرج ابنُ أبي عُصَيْفِير في أهل المَدائن فرماهم الناس بالنَّبْل، ورُمُوا من فوق البيوت بالحجارة، فارتفع شبيب بأصحابه عن المدائن. فمرّ على كِلوَاذَا فأصاب بها دوابّ كثيرةً للحجّاج فأخَذَها، ثمّ خرج يسيرُ في أرض جُوخَى، ثم مضى نحو تَكْريت، فبينا ذلك الْجُنْد في المدائن إذا أرجفَ الناسُ بينهم، فقالوا: هذا شبيب قد دَنَا، وهو يريد أن يبيِّت أهلَ المدائن اللَّيلة، فارتَحَل عامَّة الجُنْدِ، فَلحِقوا بالكوفة[١]. (٦/ ٢٢٦ ـ ٢٣٠).

قال أبو مخنف: وحدّثني عبد الله بن عَلْقمة الخثْعميّ، قال: والله لقد هربوا من المدائن وقالوا: نُبيَّتُ اللَّيلة، وإنْ شبيباً لَبِتكريتَ، قال: ولمَّا قَدم الفَلّ على

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

الحَجَّاج سرَّح الجَزْل بن سعيد بن شُرَحبيل بن عَمرو الكنديّ[1]. (٦/ ٢٣٠).

قال أبو مخنف: حدّثنا النّضر بنُ صالح العَبْسيّ وفُضيلُ بنُ خديج الكنديّ أنّ الحجَّاج لمَّا أتاه الفَلّ قال: قبح الله سَوْرة! ضَيَّع العسكر والجُنْد، وخرج يبيِّت الخَوارج، أمَّا والله لأسوءنَّه، وكان بعدُ قد حَبَسَه ثمّ عَفَا عنه[2]. (٦/ ٢٣٠).

قال أبو مخنف: وحدّثني فضيل بن خديج أنّ الحجَّاج دعا الجزْل ـ وهو عثمان بن سعيد ـ فقال له: تيسّر للخروج إلى هذه المارقة، فإذا لقيتَهم فلا تعجلْ عجلةَ الخَرِق، ولا تُحجِم إحجامَ الواني الفَرِق، هل فهمتَ؟ لله أنتَ يا أخا بني عمرو بن معاوية! فقال: نعم أصلح الله الأمير قد فهمت؛ قال له: فاخرج فعسْكِر بديْر عبد الرحمن حتَّى يخرج إليك الناس، فقال: أصلَحَ الله الأمير! لا تبعثنَّ معي أحداً من أهل هذا الجُنْد المفلول المهزوم، فإنَّ الرعب قد دخل قلوبَهم، وقد خشيتُ ألاّ ينفعك والمسلمين منهم أحد؛ قال له: فإنْ ذلك لك، ولا أراك إلاّ قد أحسنْتَ الرأي ووُفِّقتَ، ثمّ دعا أصحابَ الدّواوين فقال: اضربوا على الناس البعث، فأخرجوا أربعة آلاف من الناس، من كلّ ربع ألف رجل، وعجّلوا ذلك، فجُمعت العُرفاء، وجلس أصحابُ الدّواوين، وضَربوا البعث فأخرجوا أربعة آلاف، فأمرهم بالعسكر فعَسْكروا، ثمَّ نودي فيهم بالرّحيل، ثم ارتحلوا ونادى منادي الحجَّاج: أن برئت الذّمة من رجل أصبْناه من هذا البعث متخلِّفاً؛ قال فمضى الجَزْل بنُ سعيد، وقد قدم بين يديه عياض بن أبي لينة الكِنْديّ على مُقدّمته، فخرج حتَّى أتى المدائنَ، فأقام بها ثلاثاً، وبعث إليه ابنُ أبي عُصَيْفير بفرس وبِرْذَوْن وبغلين وألفيْ درهم، ووضع للناس من الجزر والعلف ما كفاهم ثلاثة أيام حتّى ارتحلوا، فأصاب الناس ما شاؤوا من تلك الجزر والعَلَف الَّذي وَضَع لهم ابْنُ أبي عُصيْفير، ثمَّ إنّ الجزل بنَ سعيد خرج بالناس في أثر شبيب، فطَلَبه في أرض جُوخَى، فجعل شبيب يُريه الهيبة، فيَخرج من رُسْتاق إلى رُسْتاق، ومن طَسّوج إلى طَسّوج، ولا يقيم له إرادة أن يفرّق الجزل أصحابه، ويتعجَّل إليه فيلقاه في يسير من الناس على غير تعبية، فجعل الجَزل لا يسير إلاّ على تعبية، ولا ينزل إلا خندق على نفسه خندقاً، فلمَّا

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.
(٢) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

طال ذلك على شبيب أمرَ أصحابه ذات ليلة فسرَوْا[١]. (٦/ ٢٣٠ ـ ٢٣١).

قال أبو مخنف: فحدّثني فروة بنُ لَقيط أنّ شبيباً دعانا ونحن بدير بيرما ستون ومئة رجل، فجعل على كلّ أربعين من أصحابه رجلاً، وهو في أربعين، وجعل أخاه مصاداً في أربعين، وبعث سُوَيد بن سُليم في أربعين، وبعث المحلَّل بن وائل في أربعين، وقد أتتْه عيونُه فأخبرتْه أنّ الجزل بن سعيد قد نزل ديرَ يزدَ جِرْد، قال: فدعانا عند ذلك فعبَّانا هذه التعبية، وأمرنا فعلَّقْنا على دوابنا، وقال لنا: تيسَّروا فإذا قضمتْ دوابُّكم فاركبوا، ولْيسر كلّ امرىء منكم مع أميره الَّذي أمَّرناه عليه، ولْينظر كل امرئ منكم ما يأمرُه أميرُه فليتَّبعه، ودعا أمراءنا فقال لهم: إني أريد أن أبيِّت هذا العسكرَ اللَّيلة، ثم قال لأخيه مصاد: إيتهم فارتفعْ من فوقهم حتَّى تأتيَهم من ورائهم من قِبَل حُلوان، وسآتيهم أنا من أمامي من قِبل الكوفة، وائْتِهم أنتَ يا سويد من قِبَل المشرق، وائْتِهم أنتَ يا محلّل من قِبَل المغرب، ولْيَلِج كلّ امرئ منكم على الجانب الَّذي يَحمِل عليه، ولا تُقلِعوا عنهم، تَحمِلون وتكرّون عليهم، وتصيحون بهم حتَّى يأتيَكم أمري، فلم نزل على تلك التعبية، وكنتُ أنا في الأربعين الَّذين كانوا معه، حتى إذا قَضِمتْ دوابُّنا ـ وذلك أوّل اللَّيلِ أوّل ما هدأت العيون ـ خرجْنا حتى انتَهينا إلى دَيْر الخرّارة، فإذا للقوم مَسلحة، عليهم عِياض بن أبي لينة، فما هو إلا أن انتهَينا إليهم، فحَمَل عليهم مصاد أخو شبيب في أربعين رجلاً، وكان أمام شبيب، وقد كان أراد أن يَسبِق شبيباً حتَّى يرتفع عليهم ويأتيهم من ورائهم كما أمره، فلمَّا لقيَ هؤلاء قاتَلهم فصبروا ساعةً، وقاتلوهم، ثمّ إنّا دفعنا إليهم جميعاً، فحَمَلْنا عليهم فهزمناهم، وأخذوا الطريق الأعظم وليس بينهم وبين عسكرهم بدَيْر يَزْدَجرد إلا قَريب من ميل، فقال لنا شبيب: اركبوا معاشر المسلمين أكتافهم حتَّى تدخُلوا معهم عسكرَهم إن استطعتم؛ فاتّبعناهم والله مُلِظِّين بهم، ملحِّين عليهم، ما نرفّه عنهم وهم منهزمون، ما لهم همّة إلا عسكرهم، فانتهوا إلى عسكرهم، ومنعهم أصحابُهم أن يدخلُوا عليهم، ورَشَقونا بالنَّبْل، وكانت عيون لهم قد أتتْهم فأخبرتْهم بمكاننا، وكان الجَزْل قد خندق عليه، وتحرّز ووضع هذه المسلحة الَّذين لقِيناهم بدَيْر الخرّارة، ووَضَع مسلحةً أخرى ممَّا يلي حُلوان على

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

الطريق ، فلمَّا أن دفعنا إلى هذه المسلَحة التي كانت بدَير الخرّارة فألحقْناهم بعسكر جماعتهم ورجعت المسالح الأخر حتى اجتمعت ، منعها أهل العسكر دخول العسكر وقالوا لهم: قاتِلوا، وانضحوا عنكم بالنَّبل[١] . (٦/ ٢٣١ ـ ٢٣٢).

قال أبو مخنف: وحدّثني جَرير بن الحسين الكنديّ ، قال: كان على المَسلحَتيْن الأخْريَيْن عاصمُ بنُ حجر على الَّتي تلي حُلْوان ، وواصلُ بن الحارث السَّكونيّ على الأخرى ، فلمَّا أن اجتمعتْ المَسالحُ جَعل شبيبُ يَحْمل عليها حتَّى اضطرّها إلى الخندَق ، ورَشَقَهم أهلُ العسكر بالنبل حتَّى ردّوهم عنهم ، فلمَّا رأى شبيب أنَّه لا يصل إليهم قال لأصحابه: سِيروا ودَعُوهم ، فمضى على الطريق نحو حُلْوان حتَّى إذا كان قريباً من موضع قِباب حسين بن زُفَر من بني بَدْر بن فزارة ـ وإنَّما كانت قبابُ حسين بن زُفَر بعد ذلك ـ قال: لأصحابه: انزلوا فاقضِموا وأصلِحوا نَبلَكم ، وتروّحوا وصَلّوا ركعتين ، ثمّ اركبوا؛ فنزلوا ففعلوا ذلك ، ثمَّ إنَّه أقبل بهم راجعاً إلى عسكر أهل الكوفة أيضاً ، وقال: سيروا على تعبيَتِكم الَّتي عبَّأتكم عليها بدير بِيرما أوّل الليل ، ثمّ أطِيفوا بعسكرهم كما أمرتكم ، فأقبلوا قال: فأقبلنا معه وقد أدخل أهل العسكر مَسالِحهم إليهم ، وقد أمَّنونا فما شعروا حتى سمعوا وَقع حَوافِر خيولنا قريباً منهم ، فانتهينا إليهم قُبيلَ الصّبح فأحَطْنا بعسكرهم ، ثم صيّحنا بهم من كلّ جانب ، فإذا هم يُقاتلوننا من كلّ جانب ، ويرموننا بالنَّبل ، ثم إنّ شبيباً بعث إلى أخيه مصاد وهو يقاتلهم من نحو الكوفة ، أنْ أقبِل إلينا وخلِّ لهم سبيل الطريق إلى الكُوفة ، فأقبل إليه ، وترك ذلك الوجه ، وجعلنا نقاتلهم من تلك الوجوه الثلاثة؛ حتَّى أصبحْنا ، فأصبحنا ولم نستفل منهم شيئاً ، فسرنا وتركناهم ، فجعلوا يصيحون بنا: أين يا كلاب النار! أينَ أيَّتها العِصابة المارقة! أصبِحوا نخرجْ إليكم ، فارتفعنا عنهم نحواً من مِيل ونصف ، ثم نزلْنا فصلّينا الغَداةَ ، ثمّ أخذْنا الطريق على يراز الرُّوذ ، ثمّ مَضينا إلى جَرجَرايا وما يليها ، فأقبلوا في طلبنا[٢] . (٦/ ٢٣٢ ـ ٢٣٣).

قال أبو مخنف: فحدّثني مولى لنا يُدعَى غاضرة أو قيصر ، قال: كنت مع الناس تاجراً وهم في طلب الحَرورّية ، وعلينا الجَزْل بنُ سعيد ، فجعل يتبعهم

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

(٢) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

فلا يسير إلا على تعبية ، ولا ينزل إلا على خندق ، وكان شبيبٌ يَدعه ويَضرب في أرض جُوخَى وغيرها يكسر الخَراج ، وطال ذلك على الحجَّاج ، فكتب إليه كتاباً ، فقرئ على الناس :

أما بعد ، فإني بعثتُك في فرسان أهل المِصر ووجوه الناس ، وأمرتُك باتباع هذه المارقة الضّالة المُضلَّة حتَّى تلقاها ، فلا تُقلِع عنها حتَّى تقتلَها وتُفنيها؛ فوجدتَ التعريسَ في القُرَى والتَّخييمَ في الخَنادق أهوَن عليك من المُضيّ لما أمرتك به من مناهَضتهم ومناجَزتِهم ، والسَّلام .

فقرئ الكتابُ علينا ونحن بقطراثا ودَيْر أبي مَرْيم ، فشَقّ ذلك على الجَزْل ، وأمَر الناسَ بالسَّير ، فخرجوا في طلب الخوارج جادّين ، وأرجَفنا بأميرنا وقلنا : يُعزل[1] . (٦/ ٢٣٣ ـ ٢٣٤) .

قال أبو مخنف : فحدّثني إسماعيلُ بن نعيم الهَمْدانيّ ثمّ البُرسميّ أنّ الحجَّاج بعثَ سعيد بنَ المجالد على ذلك الجيش ، وعَهِد إليه إن لقيتَ المارقةَ فازحفْ إليهم ولا تُناظِرْهم ولا تُطاولْهم وواقِفْهم واستَعِن بالله عليهم .

ولا تصنع صنيع الجَزْل ، واطلبهم طلبَ السَّبع ، وحِدْ عنهم حَيَدان الضَّبع ، وأقبلَ الجَزْل في طلب شبيب حتَّى انتهوا إلى النَّهْرَوان فأدرَكوه فلزم عسكَره ، وخندق عليه ، وجاء إليه سعيدُ بن المجالد حتَّى دخل عسكرَ أهل الكوفة أميراً ، فقام فيهم خطيباً فحمِد الله وأثْنَى عليه ثمّ قال :

يا أهلَ الكوفة ، إنّكم قد عجزتم ووهَنتمْ وأغضَبتم عليكم أمِيرَكم .

أنتم في طلب هذه الأعاريب العُجْف منذ شهرين ، وهم قد خرّبوا بلادكم ، وكسروا خراجكم ، وأنتم حاذرون في جَوْف هذه الخنَادق لا تزايلونها إلا أن يَبلُغَكم أنَّهم قد ارتَحَلوا عنكم ، ونزلوا بلداً سوى بلدكم ، فاخرجوا على اسم الله إليهم .

فخرج وأخرجَ الناس معه ، وجمع إليه خيول أهل العسكر ، فقال له الجزل : ما تريد أن تصنع؟ قال : أريد أن أقدم على شبيب في هذه الخيل ، فقال له الجَزْل :

---

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك .

أقمْ أنت في جماعة الجيش؛ فارسَهم وراجلهم ، وأصحِرْ له؛ فوالله ليقدمنّ عليك ، فلا تُفرّق أصحابك؛ فإنّ ذلك شرّ لهم وخيرٌ لك.

فقال له: قف أنت في الصّفّ ، فقال: يا سعيد بن مجالد ، ليس لي فيما صنعتَ رأي ، أنا بريءٌ من رأيك هذا ، سَمِعَ اللهُ ومَن حضر من المسلمين.

فقال: هو رأيي إن أصبتُ؛ فالله وفّقني له ، وإن يكن غيرَ صواب فأنتم منه بُراء ، قال: فوقف الجَزل في صفّ أهل الكوفة وقد أخرجهم من الخندق ، وجعل على ميمنتهم ، عياض بن أبي لينة الكِنْديّ ، وعلى ميسرتِهم عبد الرحمن بن عوف أبا حُميد الرّواسيّ ، ووَقف الجزل في جماعتهم واستقدم سعيد بن مجالد ، فخرج وأخرج الناسَ معه ، وقد أخذ شبيبٌ إلى بَراز الرُّوز ، فنزل قَطُفتا ، وأمر دهْقَانَها أن يشترَي لهم ما يُصلحهم ، ويتّخذ لهم غَداءً ، ففعل ، ودخل مدينة قَطُفتا وأمر بالباب فأغلق ، فلم يَفرغ من الغداء حتى أتاه سعيد بنُ مجالد في أهل ذلك العسكر ، فصعد الدّهقان السور فنظر إلى الجُنْد مقبلين قد دنَوا من حِصْنه ، فنزل وقد تغيَّر لونُه ، فقال له شبيب: ما لي أراك متغيِّر اللون! فقال له الدّهقان: قد جاءتك الجنود من كلّ ناحية ، قال: لابأس ، هل أدرَكَ غداؤنا؟ قال: نعم ، قال: فقرّبْه ، وقد أغلَق الباب ، وأتِيَ بالغداء ، فتغدَّى وتوضّأ وصلَّى ركعتين ، ثمّ دعا ببغل له فركبه.

ثمّ إنّهم اجتمعوا على باب المدينة ، فأمر بالباب فَفُتح ، ثمّ خرج على بغله فحمَل عليهم ، وقال: لا حكمَ إلا للحَكَم الحكيم ، أنا أبو مدلّه ، اثبتوا إن شئتم ، وجعل سعيد يجمَع قومه وخيلَه ، ويُزلِفها في أثرَه ويقول: ما هؤلاء! إنّما هم أكلَةُ رأس ، فلمَّا رآهم شبيب قد تقطّعوا وانتشروا لفَّ خيله كلَّها ، ثمّ جمعها ، ثم قال: استعرضوهم استعراضاً ، وانظروا إلى أميرهم ، فوالله لأقتلنّه أو يقتلني ، وحَمَل عليهم مستعرضاً لهم ، فهَزَمهم وثبت سعيد بن المجالد ، ثمّ نادى أصحابه: إليّ إليّ ، أنا ابن ذي مُرّان!

وأخذ قلَنْسُوتَه فوضعها على قَربوس سَرْجه ، وحَمَل عليه شبيب فعمّمه بالسيف ، فخالط دماغَه ، فخرّ ميتاً ، وانهزم ذلك الجيش ، وقتِلوا كلّ قِتْلة ، حتَّى انتهوا إلى الجزَل ، ونزل الجزل ونادَى: أيها الناس ، إليّ. وناداهم عِياضُ بن أبي لينة: أيها الناس ، إن كان أميركم القادم قد هَلَك فأميركم الميمونُ

النَّقيبة المبارك حيٌّ لم يَمت ، فقاتل الجزل قِتالاً شديداً حتَّى حُمِل من بين القتلَى ، فحُمل إلى المدائن مرْتثّاً ، وقَدم فلّ أهل ذلك العسكر الكوفة ، وكان من أشدّ الناس بلاءً يومئذ خالدُ بن نَهيك من بني ذُهْل بن معاوية وعياض بن أبي لِينة ، حتى استنقذاه وهو مرتَثّ هذا حديثُ طائفة من الناس ، والحديث الآخرُ قتالهم فيما بين دَيْر أبي مريم إلى بَراز الرّوز ، ثمّ إنّ الجَزْل كتب إلى الحجاج.

قال: وأقبَل شبيب حتَّى قَطع دجْلة عند الكَرْخ ، وبعث إلى سوق بغداد فآمنهم ، وذلك اليوم سُوقهم ، وكان بلغه أنَّهم يخافونه ، فأحَبّ أن يؤمِّنهم ، وكان أصحابُه يريدون أن يشتروا من السوق دوابّ وثِياباً وأشياءَ ليس لهم منها بُدّ ، ثمّ أخذ بهم نحو الكوفة ، وساروا أول الليل حتَّى نزلوا عُقْر المَلِك الَّذي يلي قصر ابن هُبيرة ، ثمّ أغذّ السَّيرَ من الغد ، فبات بين حمّام عمر بن سعد وبين قُبِّينَ ، فلمَّا بلغ الحجّاج مكانه بعث إلى سُويد بن عبد الرحمن السعديّ ، فبعثه في ألفي فارس نقاوَة وقال له: اخرُج إلى شبيب فالقه ، واجعل ميمنةً وميسَرة ، ثمَّ انزل إليه في الرّجال فإن استطرد ذلك فدعه ولا تتبعه ، فخرج فعسكر بالسَّبْخة ، فبلغه أنّ شبيباً قد أقبل ، فأقبل نحوه وكأنَّما يساقُون إلى الموت ، وأمر الحجَّاج عثمان بن قَطن فعسكَر بالناس بالسَّبَخة ، ونادى: ألا بَرئت الذمّة من رجل من هذا الجند باتَ اللَّيلة بالكوفة لم يخرُج إلى عثمانَ بن قَطَن بالسَّبَخة!

وأمر سُوَيد بن عبد الرحمن أن يسيرَ في الألفين اللَّذين معه حتَّى يلقى شبيباً فعبَر بأصحابه إلى زُرَارة وهو يعبِّئهم ويحرّضهم إذ قيل له: قد غشيَك شبيب ، فنزل ونزل معه جُلُّ أصحابه ، وقدَّم رايتَه ومضى إلى أقصى زُرارة ، فأخبِر أن شبيباً قد أخبر بمكانك فتركك ، ووجد مخاضةً فعبر الفُرات وهو يريد الكوفة من غير الوجه الَّذي أنت به ، ثم قيل له: أما تراهم! فنادى: في أصحابه ، فركبوا في آثارهم.

وإنْ شبيباً أتى دارَ الرّزق ، فنزَلها ، فقيل: إن أهل الكوفة بأجمعهم معسكرون بالسَّبَخة ، فلمَّا بلغهم مكانَ شبيب صاح بعضهم ببعض وجالوا ، وهَمّوا أن يَدخلوا الكوفة حتَّى قيل لهم: إنّ سويد بن عبد الرحمن في آثارهم قد

لحقهم وهو يقاتِلُهم في الخيل[١]. (٦/ ٢٣٤ ـ ٢٣٧).

قال هشام: وأخبرَني عمرُ بنُ بشير، قال: لمّا نزل شبيب الدّير أمر بغَنم تُهيَّأ له، فصَعِد الدّهقان، ثمّ نزل وقد تغيَّر لونُه، فقال: مالك! قال: قد والله جاءك جمعٌ كثير؛ قال: أبلغ الشِّواءُ بعدُ؟ قال: لا، قال: دَعْه. قال: ثم أشرف إشرافةً أخرى، فقال: قد والله أحاطُوا بالجُوْسق قال: هات شِواءَك، فجعل يأكل غير مكترِث لهم، فلما فرغ توضّأ وصلَّى بأصحابه الأولى، ثمّ تقلَّد سَيفين بعدما لبس درْعه، وأخذ عمود حديد ثمّ قال: أسرجوا لي البغلة، فقال أخوه مصاد: أفي هذا اليوم تُسرَج بغلة! قال: نعم أسرِجوها، فرَكبها، ثم قال: يا فلان، أنت على المَيْمنَة وأنت يا فلان على الميسرة، وقال لمصاد: أنت في القلب، وأمر الدّهقان ففتح الباب في وجوههم، قال: فخرج إليهم وهو يحكّم، فجعل سعيد وأصحابه يرجِعون القَهقَري حتَّى صار بينهم وبين الدَّير نحوٌ من ميل.

قال: وجعل سعيد يقول: يا معشر هَمْدان، أنا ابن ذي مُرّان، إليّ إليّ.

ووجَّه سِرْباً مع ابنه وقد أحسَّ أنَّها تكون عليه، فنظَر شبيب إلى مصاد فقال: أثكَلَنِيك الله إنْ لم أثكله ولَده، قال: ثمّ علاه بالعَمود، فَسَقَط ميتاً، وانهزم أصحابُه وما قُتِل بينهم يومئذ إلا قتيل واحد، قال: وانكشف أصحابُ سعيد بن مجالد حتَّى أتَوا الجَزْل، فناداهم الجزل: أيها الناس، إليّ إليّ، وناداهم عِياض بنُ ابي لينة: أيها الناس، إنْ يكن أميرُكم هذا القادمُ قد هلك فهذا أميرُكم الميمون النقيبة، أقبِلوا إليه، وقَاتِلوا معه؛ فمنهم من أقبل إليه، ومنهم من ركب رأسَه منهزماً، وقاتل الجَزْلُ قتالاً شديداً حتَّى صُرع، وقاتل عنه خالدُ بن نهيك وعياض بن أبي لِينة حتَّى استنقَذاه وهو مُرْتَثّ، وأقبَل الناسُ منهزمين حتَّى دخلوا الكوفة، فأتِيَ بالجَزْل حتى أدخِل المدائن، وكُتب إلى الحجَّاج بن يوسف[٢]. (٦/ ٢٣٧).

قال أبو مِخنف: حدّثني بذلك ثابتٌ مولى زُهير:

أمَّا بعد، فإني أخبر الأمير أصلَحه الله أني خرجت فيمن قبَلي من الجند الَّذي

---

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

(٢) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

وجَّهني إلى عدوّه ، وقد كنت حفظتُ عهدَ الأمير إليّ فيهم ورأيَه ، فكنتُ أخرجُ إليهم إذا رأيت الفُرْصة ، وأحبِس الناس عنهم إذا خشيت الوَرْطة ، فلم أزل كذلك ، ولقد أرادني العدوّ بكلّ رِيدة فلم يُصب منّي غِرّةً ، حتّى قدم عليّ سعيدُ بن مجالد رحمة الله عليه ، ولقد أمرته بالتؤدَة ، ونهيته عن العَجلة ، وأمرتُه ألاّ يقاتلهم إلاّ في جماعة الناس عامّةً فعصاني ، وتعجَّل إليهم في الخيل ، فأشهدتُ عليه أهل المِصْرَيْن أنّي بريءٌ من رأيه الّذي رأى ، وأني لا أهوى ما صَنع ، فمضى فأصيب تجاوز الله عنه ، ودُفِع الناسُ إليّ ، فنزلتُ ودعوتُهم إليّ ، ورفعتُ لهم رايَتي ، وقاتلتُ حتّى صُرعتُ ، فحملني أصحابي من بين القَتلى ، فما أفقت إلا وأنا على أيديهم على رأسِ ميل من المعركة ، فأنا اليومَ بالمدائن في جراحة قد يموت الرجلُ من دونِها ويُعافَى من مثلها ، فليسأل الأمير أصلحه الله عن نصيحتي له ولجنده ، وعن مكايدتي عدوّه ، وعن موقفي يومَ البأس ، فإنه يستبين له عند ذلك أنى قد صَدقتهُ ونصحتُ له ، والسلام .

فكتب إليه الحجّاج :

أمَّا بعد ، فقد أتاني كتابُك وقرأته ، وفهمتُ كلَّ ما ذكرتَ فيه ، وقد صدّقتُك في كلّ ما وصفتَ به نفسَك من نصيحتك لأميرك ، وحيْطتك على أهلِ مصْرك ، وشدّتك على عدوّك ، وقد فهمتُ ما ذكرتَ من أمر سعيد وعجلته إلى عدوّه ، فقد رضيتُ عَجلتَه وتُؤَدَتك ، فأمَّا عجلته فإنَّها أفضت به إلى الجنَّة ، وأمَّا تُؤَدَتُك فإنَّها لم تَدَع الفرصة إذا أمكنتْ ، وترْك الفرصة إذا لم تُمكِن حَزْمٌ وقد أصبتَ وأحسنتَ البلاء ، وأجِرْتَ ، وأنتَ عندي من أهل السمع والطاعة والنَّصيحة ، وقد أشخصتُ إليك حيَّان بن أبجر ليداوِيَك ويعالجَ جراحتَك ، وبعثتُ إليك بألفَي درهم فأنفِقْها في حاجتك وما ينوبُكَ ، والسلام .

فقدِم عليه حَيَّان بنُ أبجر الكنانيّ من بني فراس ـ وهم يعالجون الكَيِّ وغيرِه ـ فكان يداويه ، وبعث إليه عبد الله بن أبي عُصَيفير بألف درهم ، وكان يعوده ويتعاهدُه باللَّطَف والهديّة . قال : وأقبل شبيب نحوَ المدائنِ . فعلم أنَّه لا سبيل له إلى أهلها مع المدينة ، فأقبل حتَّى انتهَى إلى الكرْخ ، فعبر دِجلة إليه ، وبعث إلى أهل سُوق بَغْداد وهو بالكَرْخِ أن اثبتُوا في سُوقكم فلا بأس عليكم ـ وكان ذلك يوم سوقهم ـ وقد كان بلغه أنَّهم يخافونه .

قال: ويخرجُ سُويد حتَّى جعل بيوتَ مُزَينة وبني سُلَيم في ظهره وظهور أصحابه، وحمل عليهم شبيب حملةً منكرة، وذلك عند المساء، فلم يقدِر منهم على شيء، فأخذ على بيوتِ الكُوفة نحو الحِيرة، وأتبعه سُويد لا يفارقه حتى قطع بيوتَ الكوفة كلّها إلى الحيرة، وأتبعه سوَيد حتى انتهى إلى الحيرة، فيَجِده قد قَطَع قنطرةَ الحيرة ذاهباً، فتَركه وأقام حتى أصبح.

وبعث إليه الحجَّاج أن أتبعه فأتبعه، ومضَى شبيب حتَّى أغار في أسفل الفُرات على من وجد من قَوْمه، وارتفع في البرّ من وراء خَفَّان في أرض يقال لها الغلظة، فيصيب رجالاً من بني الوِرْثة، فَحَمل عليهم، فاضطرّهم إلى جَدد من الأرض، فجعلوا يَرْمونه وأصحابَه بالحجارة من حجارة الأرحاء كانت حولَهم، فلَمَّا نَفِدَت وصل إليهم فقتل منهم ثلاثةَ عشر رجلاً، منهم حنظلة بن مالك ومالكَ بن حنظلة وحمران بن مالك، كلّهم من بني الورْثة[1]. (٦/ ٢٣٧ ـ ٢٣٩).

قال أبو مخنف: حدّثني بذلك عطاءُ بنُ عَرْفَجة بن زياد بن عبد الله الورثيَّ، ومضى شبيب حتَّى يأتي بني أبيه على اللصف (ماءٌ لرَهْطه) وعلى ذلك الماء الفِزْر بنُ الأسود، وهو أحد بني الصَّلْت، وهو الَّذي كان يَنهَى شبيباً عن رأيه، وأن يُفسِد بني عمه وقومه، فكان شبيب يقول: والله لئن ملكتُ سبعةَ أعنَّة لأغزُوَنّ الفِزْر، فلمَّا غشيَهم شبيب في الخيل سأل عن الفِزْر فاتَّقاه الفِزْر، فخرج على فرس لا تُجارَى من وراء البيوت، فذهب عليها في الأرض، وهرب منه الرجال، ورجع وقد أخاف أهلَ البادية حتَّى أخذ على القُطقُطانة؛ ثمّ على قصر مُقاتِل، ثمّ أخذ على شاطئ الفُرات حتَّى أخذ على الحَصّاصة، ثم على الأنبار، ثم مضى حتى دخلَ دقُوقاء، ثمّ ارتفع إلى أداني أذْربيجان، فترَكه الحجَّاج وخرج إلى البَصْرة، واستخلَف على الكوفة عروة بن المغيرة بن شعبة، فما شعر الناس بشيء حتَّى جاء كتابٌ من ماذرواسب دِهْقان بابل مَهْرُوذ وعظيمها إلى عُروَة بن المغيرة بن شُعْبة أنّ تاجراً من تجّار الأنْبار من أهل بلادي أتاني فَذَكر أنّ شبيباً يريد أن يدخُل الكوفة في أول هذا الشهر المستقبل، أحببتُ إعلامَك ذلك لترَى رأيك، ثمّ لم ألبث إلا ساعةً حتَّى جاءني جابيان من جُباتي فحدّثاني أنّه قد نزل

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

خانِيجار ، فأخذ عروة كتابَه فأدْرَجَه وسرّح به إلى الحجَّاج بالبصرة ، فلمَّا قرأه الحجَّاج أقبل جواداً إلى الكُوفة ، وأقبَل شبيب يسيرُ حتَّى انتهى إلى قرية يقال لها حَرْبى على شاطئ دِجْلة فعبر منها ، فقال: ما اسمُ هذه القرية؟ فقالوا: حَرْبَى؛ فقال: حرْب يَصْلَى بها عدوّكم ، وحَرب تُدخِلونه بُيوتهم ، إنَّما يتطيَّر من يَقُوف ويَعِيف ، ثم ضرب رايتَه وقال لأصحابه: سيروا؛ فأقبَل حتَّى نزل عَقْرقُوفَا ، فقال له سُويد بن سُليم: يا أميرَ المؤمنين ، لو تحوّلتَ بنا من هذه القرية المشؤومة الاسم! قال: وقد تطيَّرتَ أيضاً! والله لا أتحوّل عنها حتَّى أسيرَ إلى عدوّي منها ، إنَّما شؤمُها إن شاء الله على عدوِّكم تَحمِلون عليهم فيها ، فالعَقْر لهم.

ثمّ قال لأصحابه: يا هؤلاء ، إنّ الحجّاج ليس بالكوفة ، وليس دون الكوفة إن شاء الله شيءٌ ، فسيروا بنا. فخرج يُبادِر الحجَّاج إلى الكوفة ، وكتب عُروةُ إلى الحجَّاج أنّ شبيباً قد أقبل مسرعاً يريد الكوفة ، فالعجلَ العجلَ ، فطوى الحجّاج المنازل ، واستبَقا إلى الكوفة ، ونزلها الحجّاج صلاةَ الظهر ، ونزل شبيبٌ السَّبَخة صلاةَ المغرب ، فصلَّى المغرب والعِشاء ، ثمّ أصاب هو وأصحابه من الطَّعام شيئ يسيراً ، ثمّ ركبوا خيولهم فدخلوا الكوفة ، فجاء شبيبٌ حتَّى انتهى إلى السوق ، ثمّ شدّ حتى ضربَ بابَ القصر بعموده.

قال أبو المنذر: رأيت ضربَةَ شبيب بباب القصر قد أثَّرتْ أثراً عظيماً ، ثمّ أقبل حتَّى وقف عند المَصْطبة ، ثم قال:

وكأنَّ حافِرَهَا بكلِّ خَمِيلَةٍ كَيْلُ يَكِيلُ به شَحِيحٌ مُعْدِمُ
عَبْدٌ دَعِيٌّ من ثمودٍ أصلُه لا بل يُقال أبُو أَبيهمْ يَقْدُمُ

ثمّ اقتحموا المسجد الأعظم وكان كبيراً لا يفارقه قومٌ يصلون فيه ، فقَتل عقيلَ بن مصعب الوادعيّ وعديّ بن عمرو الثَّقفيّ وأبا لَيْث بن أبي سُلَيم مولى عَنْبسة بن أبي سُفيان ، وقتلوا أزهرَ بن عبد الله العامريّ ، ومَرّوا بدار حَوْشب هو على الشُّرَط فوقفوا على بابه وقالوا: إنّ الأمير يدعو حَوْشباً ، فأخرج ميمون غلامه بِرْذَونَ حَوْشب ليركبه حَوْشب ، فكأنَّه أنكرهم فظنُّوا أنه قد اتَّهمهم ، فأراد أن يدخل ، فقالوا له: كما أنت ، حتَّى يَخرجُ صاحبُك ، فسمع حوْشب الكلامَ ، فأنكرَ القوم ، فخرج إليهم فلمَّا رأى جماعتَهم أنكرَهم ، وذهب لينصرِف ، فعجَّلوا نحوه ، ودخل وأغلَق الباب ، وقتلوا غلامَه ميموناً ، وأخذوا بِرْذَوْنه

ومَضوا حتى مرّوا بالجحّاف بن نبيط الشَّيْبانيّ من رَهْط حَوْشب ، فقال له سويد: انزلْ إلينا ، فقال له: ما تَصنع بنُزولي! قال له سويد: أقضِيك ثمنَ البكرةِ الَّتي كنتُ ابتعتُ منك بالبادية ، فقال له الجحّاف: بئس ساعةُ القضاء هذه الساعة ، وبئس قَضاءُ الدَّين هذا المكان! أما ذكرتَ أمانتَك إلا واللَّيل مظلم ، وأنت على ظهر فرسِك! قبّح الله يا سويد ديناً لا يَصلُح ولا يتمّ إلا بقتل ذوي القَرابة وسفك دماء هذه الأمَّة.

قال: ثمّ مضوا فمرّوا بمسجد بني ذُهْل فلقوا ذُهَل بن الحارث ، وكان يصلِّي في مسجد قومه فيُطيلُ الصلاة ، فصادفوه منصرفاً إلى منزله ، فشدّوا عليه ليقتلُوه ، فقال: اللهمَّ إني أشكو إليك هؤلاء وظلمَهم وجهلَهم. اللَّهمَّ إني عنهم ضعيف ، فانتصرْ لي منهم! فضربوه حتَّى قتلوه ، ثمَّ مضَوا حتَّى خرجوا من الكوفة متوجّهين نحو المردَمة[1]. (٦/ ٢٣٩ ـ ٢٤١).

قال هِشام: قال أبو بكر بنُ عيَّاش: واستقبله النَّضرُ بنُ قَعقَاع بن شوْر الذّهْليّ ، وأمّه ناجية بنت هانئ بن قَبيصة بن هانئ الشَّيبانيّ فأبطَره حين نظر إليه ـ قال: يعني بقوله: «أبطَرَه» أفزعه ـ فقال: السلام عليكَ أيّها الأمير ورحمة الله؛ قال له سويد مبادراً: أميرَ المؤمنين ، وَيْلكَ!

فقال: أمير المؤمنين ، حتَّى خرجوا من الكوفة متوجِّهين نحو المردمة ، وأمر الحجّاج المناديَ فنادَى: يا خيلَ الله اركبي وأبْشِري ، وهو فوق بابِ القَصْر ، وثَمَّ مصباحٌ مع غلام له قائم ، فكان أوّل من جاء إليه من الناس عثمان بن قَطَن بن عبد الله بن الحصين ذي الغُصّة ، ومعه مواليه ، وناس من أهله ، فقال: أنا عثمان بن قَطَن ، أعلموا الأمير مكاني ، فليأمر بأمره ، فقال له ذلك الغلام: قفْ مكانك حتَّى يأتيَك أمرُ الأمير ، وجاء الناسُ من كلّ جانب ، وبات عثمانُ فيمن اجتمع إليه من الناس حتَّى أصبح.

ثمّ إن الحجَّاج بعث بُسْرَ بن غالب الأسَديّ من بني والبة في ألفي رجل ، وزائدة بن قدامةَ الثقفيَّ في ألفَيْ رجل ، وأبا الضريس ، مولى بني تميم في ألف من الموالي ، وأعيَن ـ صاحب حمَّام أعيَن مَولى بِشْر بن مروان ـ في ألف رجل ،

---

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

وكان عبد الملك بن مروان قد بعث محمَّد بن موسى بن طلحة على سِجِسْتان ، وكتب له عليها عهده ، وكتب إلى الحجَّاج : أمَّا بعد ، فإذا قدم عليك محمد بن موسى فجهِّز معه ألفَيْ رجل إلى سِجْستان ، وعجِّلْ سرَاحه ، وأمَر عبد الملك محمَّد بن موسى بمكاتبة الحجَّاج ، فلمَّا قدم محمَّد بنُ موسى جعل يتحبَّس في الجَهاز ، فقال له نصحاؤه ، تعجَّل أيّها الأمير إلى عَمَلك؛ فإنَّك لا تدري ما يكون من أمر الحَجَّاج ! وما يبدو له .

فأقام على حالِه ، وحدَث من أمر شبيب ما حدثَ ، فقال الحجَّاج لمحمَّد بن موسى بن طلحة بن عبيد الله : تلقى شبيباً وهذه الخارجةَ فتجاهِدْهم ثمّ تَمضِي إلى عملك ، وبعث الحجَّاج مع هؤلاء الأمَراء أيضاً عبد الأعلى بن عبد الله بن عامر بن كُرَيز القُرشيّ وزياد بن عمرو العتَكيّ ، وخرج شبيبٌ حيث خرج من الكوفة ، فأتى المردمة وبها رجل من حضرَموت على العُشور يقال له ناجية بن مَرْثد الحضرمي ، فدخل الحمَّام ودخل عليه شبيب فاستخرجه فضرب عنقه ، واستقبل شبيب النضّر بن القَعْقَاع بن شَوْر ـ وكان مع الحجاج حين أقبلَ من البصرة ، فلمَّا طوى الحجَّاجُ المنازل خلّفه وراءه ـ فلما رآه شبيب ومعه أصحابه عرفه ، فقال له شبيب: يا نضر بن القَعْقَاع ، لا حُكم إلا لله ـ وإنَّما أراد شبيب بمقالته له تَلقِينَه ، فلم يفهم النَّضر ـ فقال: ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ ، فقال أصحاب شبيب: يا أمير المؤمنين ، كأنَّك إنَّما تريد بمقالتك أن تلقِّنَه ، فشَدّوا على نضر فقتَلوه .

قال: واجتمعتْ تلك الأمراء في أسفل الفرات ، فترك شبيب الوجهَ الذي فيه جماعةُ أولئك القواد ، وأخذ نحو القادسيَّة ، ووجَّه الحجَّاج زَحْر بن قيس في جَريدة خيل نقاوة ألف وثمانمئة فارس ، وقال له: أتْبع شبيباً حتى تواقعَه حيثما أدركْتَه ، إلا أن يكون منطلقاً ذاهباً فاتركه مالم يعطف عليك أو ينزل فيقيم لك ، فلا تبرحْ إن هو أقام حتَّى تواقعه ، فخرج زَحْر حتى انتهى إلى السَّيْلحِين ، وبلغ شبيباً مَسيرُه إليه ، فأقبل نحوه فالتقَيا ، فجَعل زَحْر على ميمنته عبد الله بن كنَّاز النَّهديّ ، وكان شجاعاً وعلى ميسرته عديَّ بن عديّ بن عميرة الكنديّ الشيبانيّ ، وجمع شبيب خيلَه كلّها كَبْكَبةً واحدة ، ثمّ اعترض بها الصفّ ، فوجف وجيفاً ، واضطرب حتَّى انتهى إلى زَحْر بن قيس ، فنزل زَحْر بن قيس ، فقاتل زَحْر حتَّى

صُرع ، وانهزم أصحابُه ، وَظنّ القومُ أنَّهم قد قتلوه ، فلما كان في السَّحَر وأصابَه البرد قام يتمشّى حتَّى دخل قريةً فبات بها ، وحُمل منها إلى الكوفة وبوَجْهه ورأسه بضع عشرة جراحة ما بين ضربة وطعنة ، فمكث أيَّاماً ، ثمّ أتى الحجَّاج وعلى وجْهه وجراحه القُطن ، فأجْلسه الحجَّاج معه على السَّرير ، وقال لمن حوله : من سرّه أن ينظر إلى رجل من أهل الجنَّة يمشي بين الناس وهو شَهِيد فلينظرْ إلى هذا ، وقال أصحابُ شبيب لشبيب وهم يظنّون أنَّهم قد قتلوا زَحْراً : قد هزمنا لهم جُنْداً ، وقَتلَنا لهم أميراً من أمرائهم عظيماً ، انصرِفْ بنا الآن وافرين ، فقال لهم : إنْ قتلنا هذا الرجل ، وهزيمتنا هذا الجند ، قد أرْعبتْ هذه الأمراء والجنود التي بُعثَتْ في طلبكم ، فاقصِدوا بنا قصْدَهم ، فوالله لئن نحن قتلناهم ما دون الحجَّاج من شيء وأخْذ الكوفة إن شاء الله ، فقالوا : نحن لرأيك سمع تَبع ، ونحن طوع يديك .

قال : فانقضّ بهم جواداً ، حتَّى يأتي نَجْران ـ وهي نَجْران الكوفة ناحية عَيْن التَّمر ـ ثمّ سأل عن جماعة القوم فخُبّر باجتماعهم برُوذبار في أسفل الفُرات في بِهْقُباذ الأسفل على رأس أربعة وعشرين فرسخاً من الكُوفة ، فبلغ الحجَّاجَ مسيره إليهم ، فبعث إليهم عبد الرحمن بن الغَرِق مولى ابن أبي عَقِيل ـ وكان على الحجَّاج كريماً ـ فقال له : اِلحَق بجماعتهم ـ يَعنِي جماعةَ الأمراء ـ فأعلمْهم بمسير المارقة إليهم ، وقل لهم : إنْ جمعكم قِتالٌ فأميرُ الناس زائدة بن قدامة ، فأتاهم ابن الغرِق فأعْلمهم ذلك ، وانصرَف عنه . (٦/ ٢٤٢ ـ ٢٤٤).

قال أبو مِخنف : فحدّثني عبد الرحمن بن جُنْدب قال : انتهى إلينا شَبيب وفينا سَبعة أمراء على جماعتهم زائدةُ بن قدامة ، وقد عبَّى كلّ أمير أصحابه على حِدَة ، ففي ميمنتنا زيادُ بن عمرو العتكيّ ، وفي ميسرتنا بِشْر بن غالب الأسديّ ، وكلّ أمير واقف في أصحابه ، فأقبل شبيبٌ حتَّى وقف على تَلّ ، فأشرف على الناس وهو على فرس له كُمَيت أغرّ ، فنظر إلى تعبيتهم ، ثمّ رجع إلى أصحابه ، فأقبل في ثلاثِ كتائب يوجفون ، حتى إذا دنا من الناس مضتْ كتيبةٌ فيها سُوَيد بن سُليم ، فتقف في ميمنتنا ، ومضت كتيبة فيها مَصاد أخو شبيب ، فوقفتْ على ميسرتنا ، وجاء شبيبٌ في كتيبة حتَّى وقف مُقابِل القلب ، قال : وخرج زائدةُ بنُ قدامة يسيرُ في الناس فيما بين ميمنتهم إلى ميسرتهم ، يحرّض الناس ويقول :

يا عبادَ الله ، أنتم الكثيرون الطيّبون ، وقد نزل بكم القليلون الخبيثون ، فاصبروا ـ جُعِلت لكم الفِداء ـ لكرّتَين أو ثلاث تكرّون عليهم ، ثم هو النَّصر ليس بينه حاجز ولا دونه شيء ، ألا تروْن إليهم والله ما يكونون مئتي رجل ، إنَّما هم أَكَلَة رأس إنَّما هم السّرّاق المُرّاق ، إنَّما جاؤوكم ليُهَرِيقوا دماءكم ، ويأخذوا فَيئَكم ، فلا يكونوا على أخذه أقوَى منكم على مَنْعه ، وهم قليل وأنتم كثير ، وهم أهلُ فُرْقة وأنتم أهلُ جَماعة ، غضّوا الأبصار ، واستقبلوهم بالأسِنَّة ، ولا تَحملوا عليهم حتى آمركم ، ثمّ انصرف إلى مَوْقفه.

قال: ويَحْمِل سُوَيد بنُ سليم على زياد بن عمرو ، فانكشف صَفُّهم ، وثبَت زياد في نحو من نصف أصحابه ، ثمّ ارتفع عنهم سُوَيد قليلاً ، ثم كرّ عليهم ثانيةً ، ثمّ اطَّعنوا ساعة[1]. (٦/ ٢٤٤ ـ٢٤٥).

قال أبو مخنَف: فحدّثني فروة بن لقيط ، قال: أنا والله فيهم يومئذ ، قال: اطَّعَنَّا ساعةً وصبروا لنا حتَّى ظننتُ أنَّهم لن يزولوا ، وقاتل زياد بنُ عمرو قتالاً شديداً ، وجعل ينادي: يا خيلي ، ويشُدّ بالسيف فيقاتِل قتالاً شديداً ، فلقد رأيتُ سويدَ بن سليم يومئذ وإنَّه لأشجع العرب وأشدّه قتالاً ، وما يُعرض له ، قال: ثمّ إنا ارتفَعْنا عنهم آخِراً فإذا هم يتقوّضون ، فقال له أصحابه: ألا تراهم يتقوّضون! احْمِل عليهم ، فقال لهم شبيب: خلّوهم حتَّى يَخِفّوا ، فتركُوهم قليلاً ، ثم حمل عليهم الثالثة فانهزموا ، فنظرت إلى زياد بن عمرو وإنَّه ليُضَرب بالسيف ، وما مِن سيف يُضْرَب به إلا نبا عنه وهو مجفَّف ، ولقد رأيته اعتوره أكثرُ من عشرين سيفاً فما ضَرّه ، من ذلك شيء ، ثمّ إنه انهزم وقد جُرِح جراحةً يسيرة ، وذلك عند المساء.

قال: ثمّ شدَدْنا على عبد الأعلى بن عبد الله بن عامر فهزمناه ، وما قاتَلنَا كثيرَ قتال ، وقد ضارب ساعةً ، وقد بلغني أنه كان جُرح ثمّ لحق بزياد بن عمرو ، فمضينا منهزمين حتى انتهينا إلى محمد بن موسى بن طلحة ، عند المغرب ، فقاتلنا قتالاً شديداً وصبر لنا[2]. (٦/ ٢٤٥).

---

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

(٢) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

ذكر هشامٌ عن أبي مِخنَف ، قال: حدّثني عبد الرحمن بن جندَب وفروة بن لقيط ، أن أخا شبيب مصاداً حمل على بِشْر بن غالب وهو في الميسرة؛ فأبْلَى وكرم والله وصبر ، فنزل ونزل معه رجالٌ من أهل الصَّبر نحوٌ من خمسين ، فضاربُوا بأسيافهم حتَّى قُتِلوا عن آخرِهم وكان فيهم عروةُ بن زهير بن ناجذ الأزديّ ، وأمه زارة امرأة ولدتْ في الأزْد ، فيقال لهم بنو زارة ، فلمَّا قَتلوه وانهزم أصحابُه مالُوا فشدّوا على أبي الضُّرَيْس مولى بني تميم ، وهو يلي بِشر بن غالب ، فهزموه حتى انتهى إلى موقف أعْيَن ، ثمّ شدوا عليه وعلى أعْيَن جميعاً فهزموهما حتى انتهوا بهما إلى زائدةَ بن قدامة ، فلمَّا انتهَوا إليه نزل ونادى: يا أهل الإسلام ، الأرض الأرض ، إليّ إليّ! لا يكونوا على كُفْرهم أصبر منكم على إيمانكم ، فقاتلهم عامَّة الليل حتَّى كان السَّحَر ، ثم إنّ شبيباً شدّ عليه في جماعة من أصحابه فقتَله وأصحابه وتركهم رِبضةً حولَه من أهل الحفاظ[١] (٦/ ٢٤٦).

قال أبو مخنف: وحدّثني عبد الرحمن بن جندب قال: سمعتُ زائدةَ بن قدامة ليلتئذ رافعاً صوتَه يقول: يا أيها الناس ، اصبروا وصابِروا ، ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ . ثمّ والله ما بَرح يقاتلُهم مقبلاً غيرَ مدبر حتَّى قُتِل[٢] . (٦/ ٢٤٦).

قال أبو مخنَف: وحدّثني فروة بنُ لَقيط أنّ أبا الصُّقَيْر الشَّيبانيّ ذكر أنه قتَل زائدة بن قدامة ، وقد حاجَّه في ذلك آخر يقال له الفَضْل بن عامر ، قال: ولمَّا قَتل شبيبٌ زائدةَ بنَ قدامة دخل أبو الضُّرَيس وأعيَن جَوْسَقاً عظيماً ، وقال شبيب لأصحابه: ارفَعوا السيف عن الناس وادعوهم إلى البَيْعة ، فدَعَوْهم إلى البيعة عند الفَجْر.

قال عبدُ الرحمن بن جُنْدَب: فكنتُ فيمن قدم إليه فبايعه وهو واقفٌ على فرس وخيلَه واقِفة دونه ، فكلّ من جاء ليبايِعه نُزِع سيفُه عن عاتقِه ، وأخِذ سلاحُه منه ، ثم يُدْنَى من شبيب فيسلّم عليه بإمرة المؤمنين ، ثم يخلَّى سبيله. قال: وإنَّا

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.
(٢) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

لكذلك إذ انفجر الفَجْر ومحمَّد بن موسى بن طلحة بن عبيد الله في أقْصَى العسكر ، معه عصابةٌ من أصحابه قد صبروا ، فلمَّا انفجر الفجر أمر مؤذِّنه فأذّن ، فلمَّا سَمِع شبيب الأذان قال: ما هذا؟ فقال: هذا محمَّد بن موسى بن طلحة بن عُبيد الله لم يَبرح؛ فقال: قد ظننت أنّ حُمقه وخُيَلاءه سيحمله على هذا؛ نَحُّوا هؤلاء عَنّا وانزلوا بنا فلنُصَلّ ، قال: فنزل فأذّن هو ، ثمّ استقدم فصلّى بأصحابه ، فقرأ: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ ، و﴿أَرَءَيْتَ الَّذِى يُكَذِّبُ بِالدِّينِ﴾ ، ثم سلَّم ، ثم رَكِبوا فَحَمَلَ عليهم فانكشف طائفة من أصحابه ، وثبتتْ طائفة. قال فروة: فما أنسى قوله وقد غشيناه وهو يقاتل بسيفه وهو يقول: ﴿الٓمٓ ۝ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا أَن يَقُولُوٓا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَٰذِبِينَ﴾.

قال: وضارب حتّى قتل ، قال: فسمعتُ أصحابي يقولون: إنّ شبيباً هو الّذي قتله ، ثمّ إنّا نزلْنا فأخذنا ما كان في العسكر من شيء ، وهرب الّذين كانوا بايعوا شبيباً فلم يبق منهم أحد[1]. (٦/ ٢٤٦ ـ ٢٤٧).

وقد ذكر من أمر محمَّد بن موسى بن طلحة غيرُ أبي مِخنَف أمراً غير الّذي ذكرته عنه ، والذي ذكر من ذلك أنّ عبدَ الملك بن مروان كان ولّى محمَّدَ بن موسى بن طلحة سِجِستان ، فكتب إليه الحجّاج: إنك عامل كلّ بلد مررت به ، وهذا شبيب في طريقك ، فعدل إليه محمَّد ، فأرسل إليه شبيب: إنك امرؤ مخدوع ، قد اتَّقى بك الحجّاج ، وأنا جارٌ لك حقّ ، فانطَلِقْ لما أُمِرتَ به ولك الله لا آذَيْتك ، فأبى إلا محاربته ، فواقفه شبيب ، وأعاد إليه الرسول ، فأبى إلاّ قتاله ، فدعا إلى البراز ، فبرز إليه البطين ثم قعنب ثم سويد ، فأبى إلا شبيباً ، فقالوا لشبيب: قد رغب عنا إليك ، قال: فما ظنّكم هذه الأشراف! فبرز إليه شبيب. وقال: إني أنشدُكَ اللهَ في دَمِكَ ، فإنّ لك جِواراً ، فأبى إلا قِتاله فحَمَل عليه شبيبٌ فضربه بعصا حديدٍ فيها اثنا عشر رطلاً بالشاميّ ، فهشم بها بيضة عليه ورأسه فسقط ، ثم كفَّنه ودفنه ، وابتاع ما غنموا من عسكره ، فبعث به إلى أهله ، واعتذر إلى أصحابه وقال: هو جاري بالكوفة ، ولي أن أهَبَ ما غنمتُ لأهل الرِّدّة. (٦/ ٢٤٧ ـ ٢٤٨).

---

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

قال عمرُ بنُ شَبَّة: قال أبو عبيدة: كان محمَّد بنُ موسى مع عمر بن عبيد الله بن معمر بفارس، وشهد معه قتال أبي فُدَيك وكان على ميمنته، وشُهِر بالنَّجْدة، وشدة البأس وزوّجه عمر بن عُبيد الله بن معمر ابنتَه أمّ عثمان وكانت أخته تحت عبد الملك بن مروان ـ فولاه سِجِسْتان، فمرَّ بالكوفة وبها الحجَّاج بن يوسف، فقيل للحجَّاج: إن صار هذا إلى سِجِسْتان، مع نجدته وصهْره لعبد الملك فلجأ إليه أحد ممَّن تطلب، مَنَعَك منه؛ قال فما الحيلة؟ قيل: تأتيه وتسلّم عليه، وتذكر نجدته وبأسه وأنّ شبيباً في طريقه، وأنه قد أعياك، وأنَّك ترجو أن يريحَ الله منه على يده، فيكون له ذكر ذلك وشهرته، ففعل، فعدل إليه محمَّد بن موسى بن طلحة بن عُبيد الله، فواقعه شبيب، فقال له شبيب: إني قد علمتُ خِدَاعَ الحجَّاج، وإنَّما اغترّك وَوَقى بك نفسَه، وكأني بأصحابك لو قد التقَتْ حَلْقَتَا البطان قد أسلَموك، فُصرعتَ مَصرع أصحابِك؛ فأطِعْني وانطلِق لشأنِك، فإني أنفسُ بك عن الموت؛ فأبَى محمَّد بن موسى، فبارَزَه شبيب فقتله. (٦/ ٢٤٨).

رجع الحديث إلى حديث أبي مِخنَف، قال عبدُ الرحمن: لقد كان فيمن بايَعه تلك الليلة أبو بُردَة بن أبي موسى الأشعريّ، فلمَّا بايعه قال له شبيب: أَلَسْتَ أبا بردة! قال: بلى؛ قال شبيب لأصحابه: يا أخلاّئي، أبو هذا أحد الحَكَمين، فقالوا: ألا نقتل هذا؟ فقال: إنّ هذا لا ذنبَ له فيما صنع أبوه؛ قالوا: أجل. قال: وأصبح شبيب، فأتى مُقبِلاً نحوَ القَصْر الَّذي فيه أبو الضَّريس وأعيَن فرَموه بالنَّبل، وتحصَّنا منه، فأقام ذلك اليوم عليهم، ثمّ شخص عنهم، فقال له أصحابُه: ما دون الكوفة أحد يمنعنا؛ فنظر فإذا أصحابُه قد جُرِحوا؛ فقال لهم: ما عليكم أكثر ممَّا قد فعلتم، فخرج بهم على نِفرَّ، ثمّ على الصَّراة، ثمّ على بغداد، ثم خرج إلى خانِيجَار فأقام بها.

قال: ولمَّا بلغ الحجَّاجَ أن شبيباً قد أخذ نحو نِفرَّ ظَنّ أنَّه يريد المدائن ـ وهي باب الكوفة، ومَن أخذ المدائن كان مافي يده من أرض الكوفة أكثر ـ فهال ذلك الحجَّاج، وبعث إلى عثمان بن قَطَن، ودعاه وسرّحه إلى المدائن، وولاّه منبَرها والصَّلاة ومَعونة جُوخى كلَّها وخَراجَ الأسْتان.

فخرج مسرعاً حتَّى نزل المدائن، وعزل الحجَّاجُ عبدَ الله بن أبي عُصَيفير؛

وكان بها الجَزْل مقيماً أشهراً يُداوِي جراحَته ، وكان ابن أبي عصيفير يعوده ويكرمه ، فلمَّا قدم عثمانُ بن قطن المدائن لم يَعُدْه ، ولم يَكن يَتعاهده ولا يُلطِفه بشيء ، فقال الجزل: اللَّهمّ زِد ابنَ عصيفير جوداً وكرماً وفضلاً ، وزد عثمان بن قطن ضِيقاً وبُخلاً ، قال: ثم إن الحجَّاج دعا عبدَ الرَّحمن بن محمد بن الأشعث فقال: انتخِب الناس ، واخرجْ في طلب هذا العدو ، فأمره بنُخبة ستَّةِ آلاف ، فانتخب فُرْسان الناس ووجوههم ، وأخرج من قومِه ستَّمئة من كِنْدة وحَضْرَموت ، واستحثَّه الحجّاجُ بالعسكر ، فعسكر بدير عبد الرحمن ، فلمَّا أراد الحجَّاج إشخاصَهُم كتب إليهم:

أما بعد ، فقد اعتدتُم عادةَ الأذلاّء ، ووليّتم الدُّبر يومَ الزَّحْف ، وذلك دأب الكافِرين ، وإني قد صفحتُ عنكم مرّة بعد مرّة ، ومرّة بعد مرّة ، وإني أقسِم لكم بالله قَسَماً صادقاً لئن عدتم لذلك لأوقِعنّ بكم إيقاعاً أكون أشدَّ عليكم من هذا العدوّ الذي تَهرُبون منه في بطون الأودية والشِّعاب ، وتَستترون منه بأثناء الأنْهار وألْواذ الجِبال ، فخافَ من له مَعقولٌ على نفسِه ، ولم يَجعل عليها سبيلاً ، وقد أعَذَر من أنذَر .

وقد أسمعتَ لَوْ ناديتَ حَيّاً ... ولكنْ لا حياةَ لمن تُنادِي

والسلامُ عليكم .

قال: ثمّ سرّح ابن الأصمّ مؤذّنَه ، فأتى عبدَ الرحمن بن محمَّد بن الأشعث عند طلوع الشمس ، فقال له: ارتحِلْ الساعةَ ونادِ في الناس: أن برِئتِ الذِّمَّةُ من رجل من هذا البَعْث وَجدناه متخلفاً . فخرج عبدُ الرحمن بنُ محمد بن الأشعَث في الناس حتَّى مَرّ بالمدائن فنزل يوماً وليلةً ، وتشَرّى أصحابه حوائجَهم ، ثمّ نادَى في الناس بالرَّحيل ، فارتحَلوا ، ثمّ أقبلوا حتى دَخل على عثمان بن قطن ، ثم أتى الجَزْلَ فسأله عن جراحَته ، وسأله ساعةً وحدثه ، ثم إنّ الجَزْل قال له: يا بن عمّ: إنَّك تسير إلى فُرْسان العَرَب وأبناءِ الحرب ، وأحْلاس الخيل ، واللهِ لكأنّما خُلِقوا من ضُلوعها ، ثم بُنوا على ظهورِها ، ثم هم أسْد الأجَم ، الفارسُ منهم أشدّ من مئة ، إن لم تبدأ به بدأ ، وإن هُجهِج أقدَم ، فإني قد قاتلتُهم وبلَوْتُهم ، فإذا أصحرتُ لهم انتَصفوا منّي ، وكان لهم الفضل عليّ ، وإذا خَندقت عليّ وقاتلتُهم في مَضِيق نلتُ منهم بعضَ ما أحِبّ ، وكان لي عليهم

الظَّفَر ، فلا تلقهم وأنت تستطيع إلا في تعبيةٍ أو في خندق ، ثمّ إنه ودّعه ، فقال له الجَزْل: هذه فَرَسي الفُسَيْفِساء ، خُذْها فإنّها لا تجارَى ، فأخَذَها ثمّ خرج بالناس نحو شبيب ، فلمّا دنا منه ارتفع عنه شبيبٌ إلى دَقُوقاء وشَهْرَزُور ، فخرج عبد الرحمن في طلبه ، حتّى إذا كان على التخوم أقام ، وقال: إنّما هو في أرض المَوْصِل ، فليقاتِلوا عن بلادهم أو ليَدَعوه ، فكتب إليه الحجّاج بنُ يوسف:

أمّا بعد ، فاطلب شبيباً واسلُكْ في أثَرِه أين سَلَك حتّى تُدرِكَه فتقتله أو تَنفِيَه ، فإنّما السلطان سلطانُ أميرِ المؤمنين والجندُ جندُه ، والسلام.

فخرج عبدُ الرحمن حين قرأ كتابَ الحجّاج في طلب شبيب ، فكان شبيبٌ يدَعه حتى إذا دنا منه بيَّنه ، فيجده قد خندق على نفسه وحَذِر ، فيمضي ويَدَعُه ، فيتبعه عبد الرحمن ، فإذا بلغه أنَّه قد تحمّل وأنَّه يسير أقبل في الخيل ، فإذا انتهى إليه وجَده قد صَفَّ الخيل والرّجال وأدنى المرامية ، فلا يصيبُ له غِرّة ولا له عِلَّة ، فيمضي ويدعه.

قال: ولمّا رأى شبيب أنَّه لا يصيب لعبد الرحمن غِرّةً ولا يصل إليه ، جعل يَخرُج إذا دنا منه عبد الرحمن في خيله ، فينزل على مسيرةِ عشرِين فرسخاً ، ثمّ يقيم في أرض غليظة حَزْنة ، فيجيء عبد الرحمن ، فإذا دنا من شبيب ارتحل شبيب فسار خمسةَ عشرَ أو عشرين فرسخاً ، فنزل منزلاً غليظاً خَشِناً ، ثم يقيم حتَّى يدنوَ عبد الرحمن[1]. (٦/ ٢٤٨ ـ ٢٥١).

قال أبو مخنف: فحدّثني عبد الرحمن بن جُندب أنّ شبيباً كان قد عَذّب ذلك العسكرَ وشقّ عليهم ، وأحفى دوابَّهم ، ولَقُوا منه كلَّ بلاء ، فلم يزل عبد الرحمن يتَّبعه حتَّى مرّ به على خانِقين ثمّ على جلولاء ثم على تامرا ، ثمّ أقبَل حتَّى نزل البتّ ـ قرية من قُرَى المَوْصل على تُخوم المَوْصِل ، ليس بينها وبين سواد الكوفة إلاّ نهر يسمَّى حَولايا ـ قال: وجاء عبدُ الرحمن بنُ محمَّد بن الأشعث حتَّى نزل في نهر حولايا وفي راذان الأعلى من أرض جُوخَى ، ونزل عَواقيل من النَّهر ، ونزلها عبدُ الرحمن حيث نزلها وهي تُعجِبه ، يرى أنَّها مثل الخندق والحصن ، قال: وأرسل شبيب إلى عبد الرحمن: إنّ هذه الأيام أيامُ عيدٍ

---

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

لنا ولكم ، فإن رأيتم أن تُوادِعونا حتَّى تمضي هذه الأيَّام فافعلوا ، فقال له عبدُ الرحمن: نعم ، ولم يكن شيء أحبّ إلى عبدِ الرحمن من المطاولة والموادعة ، قال: وكتب عثمان بنُ قَطَن إلى الحجَّاج:

أمَّا بعد ، فإني أخبِر الأميرَ أصلَحه الله أنّ عبد الرحمن بن محمَّد قد حفَر جُوخَى كلَّها خَندَقاً واحداً ، وخَلّى شبيباً وكسر خراجها وهو يأكل أهلَها ، والسلام.

فكتب إليه الحجَّاج:

أمَّا بعد ، فقد فهمتُ ما ذكرتَ لي عن عبد الرحمن ، وقد لَعَمري فعل ما ذكرت ، فسِرْ إلى الناس فأنتَ أميرُهم ، وعاجِل المارقةَ حتَّى تلقاهم ، فإن الله ـ إن شاء الله ـ ناصِرُك عليهم والسلام.

قال: وبعث الحجَّاج إلى المدائن مطرّف بن المغيرة بن شعبة ، وخرج عثمان حتى قدِم على عبد الرحمن بن محمَّد ومَنْ معه من أهل الكوفة وهم مُعسكرون على نهر حَوْلايا قريباً من البتّ ، عشيَّة الثلاثاء ، وذلك يوم التَّروية ، فنادى الناس وهو على بغلة: أيّها الناس ، اخرجوا إلى عدوّكم ، فوثب إليه الناس ، فقالوا: نُنْشِدك اللهَ ، هذا المساءَ قد غُشينا ، والناس لم يُوطِّنوا أنفسهم على القتال ، فبت اللَّيلة ثمّ اخرج بالناس على تعبية. فجعل يقول: لأناجزَنَّهم ، ولتكوننّ الفرصة لي أوْلهم ، فأتاهم عبد الرحمن فأخذ بعنان دابَّته ، وناشده الله لمّا نزل ، وقال له عقيلُ بنُ شدّاد السَّلُوليّ: إن الَّذي تريد من مُناجَزتهم الساعةَ أنت فاعلُهُ غداً ، وهو غداً خيرٌ لك وللناس ، إن هذه ساعة ريح وغُبرة ، وقد أمسيت فانزل ، ثمّ أبكِرْ بنا إليهم غُدْوةً ، فنزل ، فَسفت عليه الريح ، وشَقّ عليه الغُبارُ ، ودعا صاحب الخراج العُلُوج فبَنوا له قُبَّةً فَبات فيها ، ثمّ أصبح يومَ الأربعاء ، فجاء أهلُ البتّ إلى شبيب ـ وكان قد نزل ببيعَتهم ـ فقالوا: أصلحَك الله! أنت ترحم الضّعفاء وأهلَ الجِزْية ، ويكلّمك مَنْ تلي عليه ، ويَشكون إليك ما نزل بهم فتنظر لهم ، وتكفّ عنهم ، وإنّ هؤلاء القوم جبابرة لا يُكلّمون ولا يقْبَلون العُذْر ، والله لئن بَلغهم أنَّك مقيم في بِيعتنا لَيقتلنّنا إن قُضي لك أن تَرتَحِل عنَّا ، فإن رأيتَ فانزل جانبَ القَرْية ولا تجعل لهم علينا مقالاً ، قال: فإني أفعل ذلك بكم ، ثمّ خرج فنزل جانبَ القَرْية ، قال: فباتَ عثمان ليلتَه كلَّها

يحرّضهم؛ فلمّا أصبح ـ وذلك يومَ الأربعاء ـ خرج بالنَّاس فاستقبلتهم ريحٌ شديدة وغبرة ، فصاحَ الناس إليه ، فقالوا: نُنْشدُك الله أن تخرج بنا في هذا اليوم ، فإنّ الريح علينا! فأقام بهمْ ذلك اليوم ، وأراد شبيبٌ قتالهم ، وخرجَ أصحابُه ، فلمَّا رآهم لم يَخرجُوا إليه أقام ، فلمَّا كان ليلة الخميس خرج عثمانُ فعبَّى الناسَ على أرباعِهم ، فجعل كلّ رُبْع في جانب العسكر ، وقال لهم: اخرُجوا على هذه التعبية ، وسألهم: من كان على ميمنتكم؟ قالوا: خالدُ بن نَهيك بن قيس الكِنْديّ ، وكان على ميسرتنا عَقِيل بنُ شدَّاد السَّلوليّ ، فدعاهما فقال لهما: قفا مواقفكما الَّتي كنتما بها ، فقد ولَّيتكما المجنَّبتين ، فاثبتا ولا تَفِرّا ، فوالله لا أزول حتَّى يزول نَخْل راذان عن أصوله ، فقالا: ونحن واللهِ الَّذي لا إله إلا هو لا نَفِرّ حتَّى نظفر أو نُقتل ، فقال لهما: جزاكما اللهُ خيراً ، ثمّ أقام حتَّى صلَّى بالناس الغداة ، ثمّ خرج فجعل ربْع أهلِ المدينة تميم وَهمْدان نحوَ نهر حَوْلايا في الميسَرة ، وجعل ربع كِندة وربيعة ومَذْحج وأسَد في الميمنة ، ونزل يمشي في الرّجال ، وخرج شبيب وهو يومئذ في مئة وأحد وثمانين رجلاً فقطع إليهم النَّهر ، فكان هو في ميمنة أصحابه ، وجعل على ميسرته سُوَيد بن سُليم ، وجعل في القلب مصاد بن يزيدَ أخاه، وزحفوا وسما بعضُهم لبعض[1]. (٦/ ٢٥١ ـ ٢٥٣).

قال أبو مخنف: فحدّثني النّضر بنُ صالح العبسيّ أنّ عثمان كان يقول فيُكثر: ﴿لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ، أين المحافظون على دينهم ، المحامون عن فيئهم! فقال عَقيل بن شَدّاد بن حُبْشي السَّلُوليّ: لعلّي أن أكون أحدَهم قتِل أولئك يومَ رُوذْبار ، ثم قال شبيب لأصحابه: إني حاملٌ على ميسرتهم ممَّا يلي النهر ، فإذا هزمتُها فليحمِل صاحبُ ميسرتي على ميمنتهم ، ولا يبرح صاحب القلب حتى يأتيَه أمري ، وحمل في ميمنة أصحابه ممَّا يلي النَّهر على ميسرة عثمانَ بن قَطن فانهزموا ، ونزل عقيل بنُ شدّاد فقاتل حتَّى قُتِل ، وقُتل يومئذ مالكُ بنُ عبد الله الهمْدانيّ ثمّ المُرْهبيّ ، عمّ عيَّاش بن عبد الله بن عيَّاش المَنْتوف ، وجعل يومئذ عَقيل بن شَدّاد يقول وهو يُجالِدهم:

لأضْـرِبَـنّ بـالحُسـام البـاتِـر ضَـرْبَ غُـلاَم مِـنْ سَلُـولٍ صـابـر

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

ودخل شبيب عسكرَهم ، وحمل سُويد بن سليم في ميسَرة شبيب على ميمنة عثمان بن قَطَن فهزَمها ، وعليها خالد بن نهيك بن قيس الكنديّ ، فنزل خالد فقاتل قتالاً شديداً ، وحمل عليه شبيبٌ من ورائه وهو على ربْع كندة وربيعةَ يومئذ وهو صاحب الميمنة ، فلم ينثنِ شبيبٌ حتى علاه بالسيف فقتله ، ومضى عثمان بن قَطَن وقد نزلت معه العُرَفاء وأشرافُ الناس والفُرسان نحو القلب ، وفيه أخو شبيب في نحو من ستين راجلاً ، فلمّا دنا منهم عثمانُ بن قطَن شدَّ عليهم في الأشراف وأهل الصبر فضاربوهم حتَّى فرّقوا بينهم ، وحمل شبيب بالخيل من ورائهم ، فما شعروا إلا والرّماح في أكتافهم تُكِبّهم لوجُوهِهم ، وعطَف عليهم سُوَيد بنُ سليم أيضاً في خَيْله ، ورجع مصاد وأصحابُه ، وقد كان شبيب رَجَّلهم ، فاضطربوا ساعةً ، وقاتل عثمان بن قَطن فأحسَنَ القتال ، ثم إنَّهم شَدّوا عليهم فأحاطوا به ، وحَمَل عليه مصاد أخو شَبيب فضربه ضربةً بالسيف استدارَ لها ، ثمّ قال: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ ، ثمّ إن الناس قتلوه ، وقُتل يومئذ الأبْرَد بنُ ربيعة الكِنْديّ ، وكان على تَلّ ، فألقى سلاحه إلى غلامه وأعطاهُ فرسه ، وقاتل حتى قُتِل ، ووقع عبدُ الرحمن فرآه ابن أبي سَبْرة الجُعفيّ ، وهو على بغلة فعَرَفه ، فنزل إليه فناوَله الرّمح وقال له: اركب ، فقال عبد الرحمن بن محمَّد: أيُّنا الرَّديف؟ قال ابنُ أبي سَبْرة: سبحانَ الله! أنت الأمير تكون المقدّم ، فَركب وقال لابن أبي سَبْرة: ناد في الناس: الحَقوا بِدَيْر أبي مَرْيم: فنادَى ، ثمّ انطلَقَا ذاهبَين ، ورأى واصلُ بن الحارث السّكونيّ فرسَ عبدِ الرحمن الَّذي حمله عليه الجَزْلُ يَجُول في العسكر ، فأخذها بعضُ أصحاب شبيب ، فظَنَّ أنَّه قد هلك ، فطلبه في القتلى فلم يجدْه ، وسأل عنه فقيل له: قد رأيْنا رجلاً قد نزل عن دابَّته ، فحمَله عليها ، فما أخلقه أن يكون إيَّاه؛ وقد أخذ هاهنا آنفاً ، فأتبعه واصلُ بنُ الحارث على بِرْذَوْنه ومع واصِل غلامُه على بَغْل ، فلمَّا دَنوْا منهما قال محمَّد بن أبي سَبْرة لعبد الرحمن: قد والله لَحِق بنا فارِسان ، فقال عبدُ الرحمن: فهل غيرُ اثنين؟ فقال: لا ، فقال عبد الرحمن: فلا يعجز اثنان عن اثنين.

قال: وجعل يحدّث ابن أبي سَبْرة كأنَّه لا يكترث بهما ، حتَّى لحقهما الرجلان ، فقال له ابنُ أبي سَبْرة: رحمك الله! قد لِحقَنَا الرّجلان ، فقال له: فانزل بنا ، فنزلا فانتضيا سيفيهما ، ثمّ مضَيا إليهما ، فلما رآهما واصِل عرَفهما ،

فقال لهما: إنّكما قد تركتما النزول في موضعه، فلا تَنزلا الآن، ثمّ حسَر العمامةَ عن وجهه، فعرفاه فرحَّبا به، وقال لابنِ الأشعث: إني لمَّا رأيتُ فرسك يجول في العسكر ظننتُك راجلاً، فأتيتك ببِرْذَوني هذا لتركَبَه، فترك لابن أبي سَبْرة بغلته، ورَكب البِرْذَون، وانطلق عبدُ الرحمنُ بنُ الأشعث حتَّى نزل دَيْر اليعار، وأمرَ شبيبٌ أصحابَه فرفعوا عن الناس السَّيف، ودعاهم إلى البَيْعة، فأتاه من بقي من الرَّجَّالة فبايعوه، وقال له أبو الصُّقَيْر المحلّميّ قتلت من الكوفيِّين سبعةً في جوف النَّهر كان آخرهم رجلاً تعلَّق بثوبي وصاح، ورهَّبني حتَّى رهبْتُه، ثمَّ إني أقدَمْت عليه فقتَلتُهُ، وقُتِل من كندة مئة وعشرون يومئذ وألفٌ من سائرِ الناس أو ستّمئة، وقُتِل عُظْم العُرَفاء يومئذ[١]. (٦/ ٢٥٣ ـ ٢٥٥).

قال أبو مِخنَف: حدّثني قُدامة بن حازم بنِ سُفْيان الخَثْعميّ، أنَّه قَتَل منهم يومئذ جماعةً، وبات عبد الرحمن بنُ محمَّد تلك الليلة بدَير اليعار، فأتاه فارسان فصعِدا إليه فوق البيت، وقام آخرُ قريباً منهما فخلا أحدُهما بعبد الرحمن طويلاً يناجيه، ثمّ نزل هو وأصحابُه، وقد كان الناسُ يتحدّثون أنّ ذلك كان شبيباً، وأنَّه قد كان كاتبه، ثمّ خرج عبد الرحمن آخر الليل فسار حتى أتى دَيْرَ أبي مريم، فإذا هو بأصحاب الخيل قد وضَع لهم محمَّد بن عبد الرحمن بن أبي سَبْرة صُبَرَ الشَّعير وألقَتّ بعضهُ على بعض كأنه القُصور، ونحر لهم من الجزر ما شاؤوا، فأكلوا يومئذ وعَلفوا دوابَّهم، واجتمع الناسُ إلى عبد الرحمن بن محمَّد بن الأشعث فقالوا له: إنْ سمعَ شبيبٌ بمكانك أتَاك وكنتَ له غنيمة، قد ذهب الناس وتفرّقوا وقُتِل خيارهم فالحقْ أيها الرجل بالكوفة، فخرج إلى الكوفة ورجع الناس أيضاً، وجاء فاختبأ من الحجَّاج حتَّى أخَذ الأمانَ بعد ذلك[٢]. (٦/ ٢٥٥ ـ ٢٥٦).

ثم دخلتْ سنة سبع وسبعين

محاربة شبيب عتاب بن ورقاء وزهرة بن حَوِية وقتلهما

ففي هذه السنة قتل شبيبٌ عَتَّاب بن ورقاءَ الرّياحيّ وزُهرة بن حَوِية.

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

(٢) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

* ذكر الخبر عن سبب مقتلهما :

وكان سبب ذلك فيما ذَكر هشام عن أبي مخنف ، عن عبد الرحمن بن جندَب وفَرْوة بن لَقِيط ، أنّ شبيباً لمَّا هزم الجيشَ الَّذي كان الحجَّاج وجَّهَه مع عبد الرحمن بن محمَّد بن الأشعث إليه ، وقتَل عثمان بن قطن ، وذلك في صَيْف وحرّ شديد ، واشتدّ الحرّ على أصحابه ، فأتَى ماه بَهْزاذان فتصيَّف بها ثلاثة أشهر ، وأتاه ناسٌ كثير ممَّن يطلب الدُّنيا فَلِحقُوا به ، وناس ممَّن كان الحجَّاج يَطلبهم بمال أو تِباعات؛ كان منهم رجلٌ من الحيّ يقال له الحرّ بنُ عبد الله بن عَوْف ، وكان دِهْقانان من أهل نهر دَرْقيط قد أساءَا إليه وضَيّقَا عليه ، فشَدَّ عليهما فقتَلهما ، ثم لَحِق بشبيب فكان معه بماه. وشَهِد معه مواطنَه حتَّى قُتل ، فلمَّا آمن الحجَّاجُ كلَّ مَنْ كان خَرَج إلى شبيب من أصحاب المال والتِّباعات ـ وذلك بعد يوم السَّبَخة ـ خرج إليه الحرّ فيمن خرج ، فجاء أهلُ الدّهقانَين يَستعدُون عليه الحجَّاج ، فأتِيَ به فدخل. وقد أوصى ويئِس من نفسه ، فقال له الحجَّاج : يا عدوَّ الله ، قتلتَ رَجُلين من أهل الخراج! فقال له : قد كان أصلَحك الله ما هو أعظم من هذا ، فقال : وما هو؟ قال : خروجي من الطاعة وفراق الجماعة ، ثمّ آمنتَ كلَّ من خرج إليك ، فهذا أماني وكتابُك لي ، فقال له الحجَّاج : أوْلى لك! قد لَعَمري فعلتُ ، وخَلَّى سبيلَه.

قال : ولمَّا انفسخ الحَرّ عن شبيب خرج من ماه في نحو من ثمانمئة رجل ، فأقبلِ نحو المَدائن وعليها مُطرّف بن المغيرة بن شُعْبة ، فجاء حتَّى نزل قناطرَ حُذيفَة بن اليمَان ، فكتب ماذرواسب عظيم بابل مهروذ إلى الحجَّاج :

أمَّا بعد : فإني أخبر الأميرَ ـ أصلَحهُ الله ـ أنّ شبيباً قد أقبل حتى نزل قناطر حُذَيفة ، ولا أدري أين يُريد!

فلمَّا قرأ الحجَّاج كتابَه قام في الناس فحَمِد الله وأثنى عليه ثمّ قال :

أيها الناس ، والله لتقاتِلُنّ عن بلادكم وعن فَيْئكم أو لأبعثنّ إلى قوم هم أطوع وأسمَع وأصبرُ على اللأواء والغيظ منكم ، فيقاتلون عدوَّكم ، ويأكلون فيئكم.

فقام إليه الناس من كلّ جانب ، فقالوا : نحن نُقاتِلُهم ونُعتِب الأميرَ ، فليندبنا الأميرُ إليهم ، فإنَّا حيث سَرّه ، وقام إليه زُهْرة بن حَويّة وهو شيخ كبيرٌ لا يستتمّ

قائماً حتَّى يؤخَذ بيَدِه ، فقال له : أصلح اللهُ الأميرَ! إنَّك إنَّما تَبعَث إليهم الناسَ متقطِّعين ، فاستنفِر الناسَ إليهم كافةً فلينفَروا إليهم كافَّة ، وابعثْ عليهم رجلاً ثَبْتاً شُجاعاً مجرّباً للحرب ممَّن يرى الفِرارَ هَضْماً وعاراً والصبرَ مجداً وكرماً ، فقال الحجَّاج : فأنت ذاك فاخرج ، فقال : أصلح الله الأميرَ! إنما يصلح للناس في هذا رجل يَحْمِل الرمح والدِّرع ، ويهزّ السيفَ ويَثبت على مَتن الفرس ، وأنا لا أطيق من هذا شيئاً ، وقد ضعف بصري وضَعفتُ ، ولكن أخْرجني في الناس مع الأمير ، فإني إنما أثبت على الراحلة ، فأكون مع الأمير في عسكره وأشيرُ عليه برأيي ، فقال له الحجَّاج : جزاك الله عن الإسلام وأهلِه في أوّل الإسلام خيراً ، وجزاك اللهُ عن الإسلام في آخرِ الإسلام خيراً ، فقد نصحت وصدقتَ ، أنا مُخْرِجُ الناسَ كافَّة ، ألا فسيروا أيّها الناس. فانصرف الناسُ فجعلوا يَسيرون وليس يَدرون مَنْ أميرُهم!

وكتب الحجَّاج إلى عبد الملك بن مروان :

أمَّا بعد ، فإني أخبِر أميرَ المؤمنين أكرَمه الله أنّ شبيباً قد شارف المدائن وإنَّما يريد الكوفَة ، وقد عجز أهلُ الكوفة عن قتاله في مواطن كثيرة ، في كلها يقتُلُ أمراءَهم ، ويَفُلّ جنودهم؛ فإنْ رأى أميرُ المؤمنين أن يبعثَ إلى أهل الشأم فيُقاتِلوا عدوَّهم ويأكلوا بلادَهم فلْيَفعل ، والسلام.

فلمَّا أتى عبدَ الملك كتابُه بعث إليه سُفْيان بن الأبرد في أربعة آلاف ، وبعث إليه حبيبَ بنَ عبد الرحمن الحكَميّ ، من مَذْحج في ألفين ، فسَرَّحهم حين أتاه الكتاب إلى الحجَّاج ، وجعل أهل الكوفة يتجهّزون إلى شبيب ولا يدرون من أميرُهم! وهم يقولون : يبعث فلاناً أو فلاناً ، وقد بعث الحجَّاج إلى عتَّاب بن ورْقاء ليأتيَه وهو على خَيْل الكوفة مع المهلَّب ، وقد كان ذلك الجيش من أهل الكوفة هم الَّذين كان بِشْر بن مروانَ بعث عبد الرحمن بن مخنَف عليهم إلى قطريّ ، فلم يلبث عبدُ الرحمن بن مِخنفَ إلاّ نحواً من شهرين حتَّى قدم الحجَّاج على العراق ، فلم يلبثْ عليهم عبدُ الرحمن بنُ مخنف بعد قدوم الحجَّاج إلاّ رَجبَ وشعبان ، وقتَل قطريٌّ عبدَ الرحمن في آخرِ رمضان ، فبعث الحجَّاج عتَّاب بنَ ورقاءَ على ذلك الجيش من أهل الكوفة الَّذين أصيب فيهم عبدُ الرحمن بنُ مخنف ، وأمر الحجَّاجُ عَتَّاباً بطاعة المهلَّب ، فكأنّ ذلك قد كَبُر

على عتّاب ، ووقع بينَه وبين المهلَّب شرّ ، حتَّى كتب عَتَّاب إلى الحجَّاج يَستعفِيه من ذلك الجيش ويضمُّه إليه ، فلمَّا أن جاءه كتابُ الحجَّاج بإتيانه سُرَّ بذلك .

قال : ودعا الحجَّاج أشرافَ أهلِ الكوفة ؛ فيهم زُهرةُ بن حَويّة السَعْديّ من بني الأعرَج ، وقَبيصة بن والق التَّغلَبيّ ، فقال لهم : مَنْ تَروْن أن أبعثَ على هذا الجيش؟ فقالوا : رأيُك أيّها الأمير أفضل ؛ قال : فإني قد بعثتُ إلى عتَّاب بنِ ورقاء ؛ وهو قادمٌ عليكم الليلة أو القابلة ، فيكون هو الَّذي يسير في النَّاس ؛ قال زُهْرة بن حَوِيَّة : أصلحَ الله الأميرَ! رَمَيْتَهُمْ بِحَجَرِهِم ، لا والله لا يَرجع إليك حتَّى يَظفَر أو يُقتَل .

وقال له قَبيصةُ بن وَالق : إني مُشيرٌ عليك برأيي ، فإن يكن خطأً فبعدَ اجتهادي في النصيحة لأميرِ المؤمنين وللأمير ولعامَّة المسلمين ، وإن يك صواباً فاللهُ سدَّدني له ؛ إنَّا قد تحدّثنا وتحدّث الناسُ أنّ جيشاً قد فصل إليكَ من قِبَل الشام ، وأن أهلَ الكوفة قد هُزموا وَفُلُّوا واستَخَفّوا بالصبر ، وهان عليهم عارُ الفِرار ، فقلوبهم كأنَّها ليست فيهم ، كأنَّما هي في قوم آخرين ، فإنْ رأيتَ أن تبعث إلى جيشك الذي أمْدِدتَ به من أهل الشام ، فيأخذوا حِذْرَهم ، ولا يبيتُوا إلا وهم يرون أنَّهم مُبيَّتون فعلت ، فإنك تُحارب حَوَّلاً قُلّباً ، ظَعَّاناً رَحَّالا ، وقد جهَّزتَ إليه أهل الكوفة ولستَ واثِقاً بهم كلّ الثقة ، وإنما إخوانهم هؤلاء القوم الَّذين بُعثوا إليك من الشام ، إنّ شبيباً بينا هو في أرض إذ هو في أخرى ، ولا آمن أن يأتيَهم وهم غارّون فإن يهلِكوا نَهلك ويهلك العراق ، فقال : لله أنت! ما أحسن ما رأيت! وما أحسن ما أشرت به عليّ!

قال : فبعث عبد الرحمن بن الغرِق مولى عَقيل إلى مَنْ أقبل من أهل الشام ، فأتاهم وقد نزلوا هِيتَ بكتاب من الحجَّاج :

أمَّا بعد ، فإذا حاذَيْتم هِيتَ فدَعُوا طريقَ الفُرات والأنبار ، وخذوا على عين التّمر حتَّى تقدمُوا الكوفة إن شاء الله ، وخذوا حذركم ، وعجِّلوا السَّيرَ ، والسلام .

فأقبل القومُ سِراعاً ، قال : وقدم عتّاب بن وَرْقاء في اللَّيلة الَّتي قال الحجَّاج إنَّه قادم عليكم فيها ، فأمَرَه الحجَّاج فخرج بالناس فعسكر بهم بحَمَّام أعيَنَ ، وأقبل شبيب حتى انتهى إلى كَلْواذا فقطع منها دِجلة ، ثمّ أقبل حتَّى نَزَل مدينة

بَهُرَسير الدّنيا ، فصار بينه وبين مطرّف بن المغيرة بن شُعْبة جِسر دِجْلة .

فلمَّا نزل شبيب مدينة بَهُرَسير قَطَع مطرِّف الجِسْر ، وبعث إلى شبيب: أن ابعثْ إليّ رجالاً من وجوه أصحابك أدارِسهم القرآن ، وأنظر فيما تدعو إليه ، فبعث إليه شبيب رجالاً من وجوهِ أصحابِهِ؛ فيهم قعْنَب وسُوَيد والمحلّل ، فلمَّا أرادوا أن ينزِلوا في السفينة بعث إليهم شبيب ألاّ تدخلوا السفينة حتَّى يَرجع إليّ رسولي من عند مطرّف ، فرجع الرسولُ. وبعث إلى مطرّف أن ابعث إليّ من أصحابِك بعَدَدِ أصحابي يكونوا رهناً في يدي حتى تردّ عليَّ أصحابي ، فقال مطرّف لرسوله: القه وقل له: كيف آمَنك أنا على أصحابي إذا أنا بعثْتُهم الآن إليك ، وأنتَ لا تأمنني على أصحابك! فرجع الرسولُ إلى شبيب فأبلغَه ، فأرسَل إليه شبيب: إنَّك قد علمتَ أنَّا لا نستحلّ الغَدْر في دِيننا ، وأنتم تفعلونه وتستحلّونه ، فبعث إليه مطرِّف الرّبيعَ بن يزيد الأسَديّ وسليمان بن حذيفة بن هلال بن مالك المُزَنيّ ، ويزيد بن أبي زياد مولاه وصاحب حَرَسه ، فلمّا صاروا في يديْ شَبيب سرّح إليه أصحابه ، فأتوا مطرّفاً فمكثوا أربعة أيّام يتراسلون ، ثمّ لم يتّفقوا على شيء ، فلمَّا تبيَّن لشبيب أنّ مطرّفاً غير تابعِه ولا داخل معه تهيَّأ للمسير إلى عتَّاب بن وَرْقاء ، وإلى أهل الشام[1] . (٦/ ٢٥٧ ـ ٢٦١).

قال أبو مخنف: فحدّثني فَروة بنُ لَقِيط أنّ شبيباً دعا رؤوس أصحابِهِ فقال لهم: إنَّه لم يثبِّطني على رأي قد كنتُ رأيتُه إلا هذا الثَّقَفي منذ أربعة أيَّام ، قد كنتُ حدّثتُ نفسي أن أخرُجَ في جريدةِ خيل حتَّى ألقَى هذا الجيش المُقْبِل من الشام رجاءَ أن أصادِفَ غِرّتهم أو يَحذَروا فلا أبالي كنت ألقاهم منقطعين من المِصْر ، ليس عليهم أمير كالحجَّاج يستندون إليه ولا مِصْرٌ كالكوفة يَعتصِمون به؛ وقد جاءتني عيوني اليوم فخبَّروني أن أوائلَهم قد دخلوا عَينَ التَّمر ، فهم الآن قد شارفوا الكوفة ، وجاءَتني عُيوني من نحو عَتَّاب بن وَرْقاء فحدّثوني أنه قد نزل بجماعة أهلِ الكُوفة الصّراة ، فما أقرب ما بيننا وبينهم! فتيسّروا بنا للمَسيرِ إلى عتَّاب بن وَرْقاء.

قال: وخاف مطرّف أن يَبلغَ خبرُه وما كان من إرساله إلى شبيب الحجَّاج ،

---

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

فخرج نحو الجبال ، وقد كان أراد أن يقيمَ حتَّى ينظر ما يكون بين شبيب وعَتَّاب ، فأرسل إليه شبيب : أمَّا إذا لم تُبايعني فقد نبذتُ إليك على سَواء ، فقال مطرّف لأصحابه : اخرجوا بنا وافرِين فإنّ الحجَّاج سيقاتِلُنا فيقاتلنا وبنا قوّةٌ أمثلُ فخرج ونزل المدائن ، فعقَد شبيب الجِسْر ، وبعث إلى المدائن أخاه مصاداً ، وأقبل إليه عَتَّاب حتَّى نزل بسُوق حَكَمة ، وقد أخرج الحجَّاج جماعةَ أهلِ الكوفة مقاتلتهم ، ومن نَشِط إلى الخروج من شبابهم ، وكانت مقاتلتهم أربعين ألفاً سوى الشَّباب ، ووافى مع عَتَّاب يومئذ أربعون ألفاً من المقاتِلة وعشرة آلاف من الشَّباب بِسُوقِ حَكمة ، فكانوا خمسين ألفاً ، ولم يَدع الحجَّاج قُرَشياً ، ولا رجلاً من بُيوتاتِ العَرَب إلاّ أخرَجه[1] . (٦/ ٢٦١ ـ ٢٦٢) .

قال أبو مخنَف : فحدّثني عبدُ الرحمن بنُ جُندَب ، قال : سمعتُ الحجَّاج وهو على المِنبرَ حين وَجَّه عَتَّاباً إلى شبيب في الناس وهو يقول : يا أهل الكوفة ، اخرُجوا مع عَتَّاب بن وَرْقاء بأجمَعكم ، لا أرَخِّص لأحد من الناس في الإقامة إلا رجلاً قد ولَّيناه من أعمالنا ، ألا إنّ للصابر المجاهِد الكرامة والأثرة ، ألا وإنَّ للناكل الهارِبِ الهَوانَ والجَفْوة ، والَّذي لا إله غيره لئن فعلتم في هذا الموطنِ كفعلكم في المواطن الَّتي كانت لأولينَّكم كنفاً خَشناً ، ولأعْرُكنَّكم بِكَلكلٍ ثقيل .

ثم نزل ، وتوافَى الناس مع عتَّاب بسُوقِ حَكَمة[2] . (٦/ ٢٦٢) .

قال أبو مخنَف : فحدّثني فَروةُ بنُ لقيط ، قال : عرضَنا شبيبٌ بالمدائن فكنَّا ألف رجل ، فقام فينا فحَمِد الله وأثنى عليه ثمّ قال : يا معشرَ المسلمين ، إنّ الله قد كان ينصركم عليهم ، وأنتم مئة ومئتان ، وأكثر من ذلك قليلاً ، وأنقَص منه قليلاً ، فأنتم اليومَ مئون ومئون ، ألا إني مصلٍّ الظهرَ ثمّ سائِر بكم ، فصلَّى الظهر ثمّ نُودي في الناس ، يا خيل الله ِاركبي وأبشِري ، فخرج في أصحابه ، فأخذوا يتخلَّفون ويتأخَّرون ، فلمَّا جاوَزْنا ساباطَ ونزلنا معه قَصّ علينا وذَكَّرنا بأيَّام الله ، وزهَّدنا في الدنيا ، ورغّبنا في الآخرة ساعةً طويلة ، ثمّ أمر مؤذّنه فأذّن ، ثمّ تقدّم فصلَّى بنا العصر ، ثمّ أقبَل حتَّى أشرف بنا على عَتَّاب بن وَرْقاء وأصحابِه ، فلما

---

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك .

(٢) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك .

أن رآهم من ساعتِه نزل وأمر مؤذّنه فأذّن ، ثمّ تقدّم فصلّى بنا المغرب ، وكان مؤذّنه سلاّم بنُ سيَّار الشَّيبانيّ ، وكانت عيونُ عَتَّاب بن وَرْقاء قد جاؤوه فأخبَروه أنَّه قد أقبل إليه ، فخَرج بالناس كلِّهم فعبَّأهم ، وكان قد خندَق أوّل يوم نزل ، وكان يُظهِر كلّ يوم أنَّه يريد أن يسير إلى شبيب بالمدائن ، فبلغ ذلك شبيباً ، فقال: أسيرُ إليه أحَبّ إليّ من أن يسير إليّ ، فأتاه فلمَّا صَفّ عَتَّاب الناسَ بعث على ميمنته محمَّد بن عبدِ الرحمن بنِ سعيد بن قيس ، وقال: يابن أخي: إنَّك شريف فاصبر وصابر ، فقال: أمَّا أنا فوالله لأقاتلنّ ما ثَبت معي إنسان وقال لقَبيصةَ بن والق ـ وكان يومئذ على ثُلُث بني تَغلِب: اكِفنِي المَيسَرة ، فقال: أنا شيخٌ كبير ، كثيرٌ مني أن أثبت تحتَ رايتي ، قد انبتّ مني القِيام ، ما أستَطيع القيام إلاّ أن أقام؛ ولكنّ هذا عبيد الله بن الحُليس ونُعَيم بن عُلَيم التَّغلَبيّان ـ وكان كل واحد منهما على ثُلث من أثلاث تَغلِب ـ فقال: ابعثْ أيهما أحببت ، فأيهما بعثت فلتبعثنّ ذا حزم وعزم وغناء. فبعث نُعيم بن عُلَيم على ميسرته ، وبعث حنظلة بن الحارث اليربوعيّ ـ وهو ابن عم عَتَّاب شيخ أهل بيته ـ على الرجَّالة ، وصفَّهم ثلاثة صُفوف: صفٌّ فيهم الرجال معهم السيوف ، وصفّ وهم أصحاب الرّماح ، وصفّ فيه المُرامية ، ثمّ سار فيما بين الميمنة إلى الميسرة يمرّ بأهلِ راية راية؛ فيحثّهم على تَقوى الله ، ويأمُرهم بالصّبر ويَقصّ عليهم[1]. (٦/ ٢٦٢ ـ ٢٦٣).

قال أبو مِخنَف: فحدّثني حَصيرة بنُ عبد الله أن تميم بن الحارث الأزديّ قال: وقف علينا فَقصّ علينا قصصاً كثيراً ، كان ممَّا حفِظتُ منه ثلاثَ كلمات ، قال: يا أهلَ الإسلام ، إنّ أعظم الناس نصيباً في الجنَّة الشهداء ، وليس الله لأحد من خلقِه بأحمَد منه للصّابرين ، ألا تَرون أنَّه يقول: ﴿وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ فَمَنْ حمد اللهُ فِعْلَه فما أعظم درجته ! وليس اللهُ لأحد أمقَتَ منه لأهلِ البَغْي؛ ألا ترون أنّ عدوّكم هذا يستعرض المسلمين بسيفه ، لا يرون إلاّ أنّ ذلك لهم قرْبَةً عند الله! فهم شِرار أهل الأرض وكِلاب أهل النار ، أين القصاص؟ قال: ذلك فلم يُجبْه واللهِ أحدٌ مِنَّا؛ فلمَّا رأى ذلك ، قال: أين مَنْ يَروي شعرَ عَنْترة؟ قال: فلا والله ما رَدَّ عليه إنسان كلمةً. فقال: إنَّا لله! كأني بكم قد فررْتُم عن عَتَّاب بن وَرْقاء ، وتركتموه تَسفِي في استِه الرّيح.

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

ثم أقبل حتى جلس في القلب معه زُهْرة بن حَوِيّة جالس وعبد الرحمن بن محمد بن الأشعث وأبو بكر بن محمد بن أبي جَهْم العَدويّ ، وأقبَل شبيبٌ وهو في ستِّمئة وقد تخلَّف عنه من الناس أربعمئة ، فقال: لقد تخلّف عنّا من لا أحِبّ أن يُرَى فينا ، فبعث سُوَيد بن سُلَيم في مئتين إلى المَيْسرة ، وبعث المحلّل بن وائل في مئتين إلى القلب ، ومضى هو في مئتين إلى المَيْمنة بين المغرب والعشاء الآخرة حين أضاء القمرُ ، فناداهم: لِمَن هذه الرايات؟ قالوا: راياتُ ربيعة. فقال: شبيب: راياتٌ طالَما نصرت الحقَّ ، وطالما نصرت الباطل ، لها في كلٍّ نصيبٌ ، والله لأجاهدنّكم محتسباً للخير في جهادِكم ، أنتم ربيعة وأنا شبيب ، أنا أبو المدلّه ، لا حُكْم إلا لِلحَكَم ، اثبتُوا إن شئتمْ ، ثمّ حَمَل عليهم وهو على مسنَّاة أمامَ الخَندق فَفضّهم ، فثبت أصحابُ رايات قبيصةَ بن والق وعبيد بن الحُلَيْس ونُعَيم بن عليم ، فقُتلوا وانهزمت الميسرة كلُّها وتنادَى أناس من بني تَغلِب: قُتِل قبيصة بن والق ، فقال شبيب: قتلتم قبيصةَ بن والق التغلَبيّ يا معشرَ المسلمين! قال الله: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾. هذا مثل ابن عمّكم قبيصة بن والق ، أتى رسولَ الله ﷺ فأسلَم ، ثمّ جاء يُقاتلكم مع الكافرين! ثمّ وقف عليه فقال: وَيْحك! لو ثبتَّ على إسلامك الأوّل سعدتَ ، ثمّ حمل من الميسرة على عَتَّاب بنِ وَرْقاءَ ، وحمل سُوَيد بن سليم على الميمنة وعليها محمَّد بن عبد الرحمن ، فقاتَل في الميمنة في رجال من بني تميم وهَمْدان ، فأحسنوا القتال ، فما زالوا كذلك حتَّى أُتُوا فقيل لهم: قُتِل عَتَّاب بن ورقاء ، فانفضّوا ولم يزل عَتَّاب جالساً على طِنْفِسَة في القَلب وزُهرة بن حَوِيّة معه ، إذ غَشِيَهم شبيب ، فقال له عَتَّاب: يا زُهرة بن حَوِيّة ، هذا يومٌ كَثُر فيه العدد ، وقَلَّ فيه الغَناء ، والهفي على خمسمئة فارس من نحو رجال تميم معي من جميع الناس! ألا صابِرٌ لعدوّه! ألا مُؤاسٍ بنَفْسه! فانفَضّوا عنه وتَركوه ، فقال له زهرة: أحسنتَ يا عَتّاب ، فعلتَ فعلَ مثلك ، والله والله لو منحتَهم كَتِفَك ما كان بقاؤك إلاّ قليلاً ، أبشر فإني أرجو أن يكون الله قد أهدى إلينا الشَّهادة عند فَناء أعمارِنا؛ فقال له: جَزاك الله خيراً ما جَزَى آمراً بمعروف وحاثّاً على تَقوى.

فلمَّا دنا منه شبيب وثب في عصابة صبرتْ معه قليلة ، وقد ذهب الناسُ يميناً

وشمالاً ، فقال له عمَّار بنُ يزيدَ الكلبيُّ من بني المدينة: أصلَحك الله! إنّ عبدَ الرحمن بن محمَّد قد هَرَب عنك فانَصفق معه أناسٌ كثير ، فقال له: قد فرّ قبل اليوم ، وما رأيتُ ذلك الفتى يُبالي ما صنع ، ثمّ قاتلهم ساعة ، وهو يقول: ما رأيتُ كاليوم قطّ مَوْطناً لم أبْتَلَ بمثله قط أقلّ مقاتلاً ولا أكثر هارِباً خاذلاً؛ فرآه رجلٌ من بني تغلِب من أصحابِ شبيب من بني زيد بنِ عمرو يقال له عامر بن عمرو بن عبد عمرو ، وكان قد أصابَ دماً في قومه ، فلَحِق بشبيب ، وكان من الفُرسان ، فقال لشبيب: والله إني لأظنّ هذا المتكلِّم عَتَّابَ بنَ وَرْقاء! فحَمل عليه فطعَنه ، فوَقَع فكان هو ولِيَ قتلهُ ، ووطِئَتِ الخيل زُهرة بن حَوِيّة ، فأخذ يَذُبّ بسيفه وهو شيخ كبير لا يستطيع أن يقومَ ، فجاء الفضلُ بنُ عامر الشَّيبانيّ فقَتله ، فانتهى إليه شبيب فوجَده صريعاً فعرَفه ، فقال: مَنْ قَتَل هذا؟ فقال الفضل: أنا قتلتُه ، فقال شبيب: هذا زهْرة حَوِيّة ، أما والله لئن كنتَ قتِلت على ضلالة لربَّ يوم من أيَّام المسلمين قد حَسُن فيه بلاؤك ، وعظم فيه غَناؤكَ! ولربّ خيلٍ للمشركين قد هزمْتَها ، وسَرِيّة لهم قد ذعرتها وقرية من قراهم جَمّ أهلُها قد افتتحتَها ، ثم كان في علم الله أن تُقتَل ناصراً للظَّالمين![1] (٦/ ٢٦٣ ـ ٢٦٦).

قال أبو مخنَف: فحدّثني فَرْوة بنُ لقَيط قال: رأيناه واللهِ توجَّعَ له ، فقال رجل من شُبّان بكر بن وائل: والله إن أمير المؤمنين منذ اللَّيلة ليتوجَّع لرجل من الكافرين! قال: إنَّك لستَ بأعرف بضلالتهم منّي ، ولكني أعرف من قديم أمرهم ما لا تعرف؛ ما لو ثبتوا عليه كانوا إخواناً ، وقُتِل في المعركة عمَّار بن يزيدَ الكلبيّ ، وقُتل أبو خَيثمة بن عبد الله يومئذ ، واستَمكن شبيبٌ من أهل العسكر والناس ، فقال: ارفعوا عنهم السيف ، ودعا إلى البيعة ، فبايعه الناس من ساعتهم ، وهربوا من تحت ليلتهم ، وأخذ شبيب يُبايعهم ، ويقول: إلى ساعة يَهْرُبُون وحوى شبيب على ما في العسكر ، وبعث إلى أخيه ، فأتاه من المدائن ، فلمَّا وافاه بالعسكر أقبلَ إلى الكوفة وقد أقامَ بعسكره ببيت قرّة يومين ، ثم توجَّه نحو وجه أهلِ الكوفة ، وقد دخل سُفْيان بنُ الأبرد الكلبيّ وحبيب بن عبد الرحمن الحكميّ من مَذْحِج فيمن معهما من أهل الشام الكوفة ، فشَدّوا للحَجَّاج ظهرَه ، فاستغنى بهما عن أهل الكوفة ، فقام على منبر الكوفة فحَمِد الله

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

وأثنى عليه ثمّ قال: أمَّا بعد يا أهل الكوفة ، فلا أعزَّ الله من أراد بكم العِزّ ، ولا نَصَر من أراد بكم النَّصْر ، اخرُجوا عنَّا ، ولا تَشهَدوا معنا قتال عدوّنا ، الحقوا بالحيرة فانزلوا مع اليهود والنصارى ، ولا تقاتلوا معنا؛ إلا من كان لنا عاملاً ، ومن لم يكن شَهِدَ قتالَ عَتَّاب بنَ وَرقاء[1] . (٦/ ٢٦٦) .

قال أبو مخِنَف: فحدّثني فروة بن لقيط ، قال: والله لَخرَجْنا نَتّبَع آثارَ الناس ، فانتهى إلى عبد الرحمن بن محمَّد بن الأشعث ومحمَّد بن عبد الرحمن بن سعيد بن قيس الهمْدانيّ وهما يَمشِيان كأني أنظر إلى رأس عبد الرحمن قد امتلأ طِيناً ، فصددتُ عنهما ، وكرهت أن أذْعَرَهما ، ولو أني أوذِن بهما أصحاب شبيب لقُتِلا مكانَهما ، وقلت في نفسي: لئن سُقْت إلى مِثلِكما من قومي القتلَ ما أنا برشيدِ الرأي؛ وأقبل شبيبٌ حتَّى نزل الصَّراة[2] . (٦/ ٢٦٦) .

قال أبو مخنَف: فحدّثني موسى بن سوار أنّ شبيباً خرج يريدُ الكوفَة فانتهى إلى سُورا ، فندبَ الناس ، فقال: أيُّكم يأتيني برأسِ عامل سُورا؟ فانتدب له بَطِينٌ وقَعْنَب وسُوَيد ورجُلان من أصحابه ، فساروا مُغِذِّين حتَّى انتهوا إلى دار الخَراج والعُمَّال في سَمَرَّجة فدخلوا الدارَ وقد كادُوا الناسَ بأن قالوا: أجيبوا الأميرَ ، فقالوا: أيّ الأمراء؟ قالوا: أميرٌ خرج من قِبَل الحجَّاج يريد هذا الفاسق شبيباً ، فاغترّ بذلك العامل منهم ، ثم إنهم شَهروا السيوف وحكَّموا حين وصلوا إليه فضربوا عنقَه ، وقبضوا على ما كان من مال ، ولحقوا بشبيب ، فلمَّا انتهوا إليه قال: ما الَّذي أتيتُمونا به؟ قالوا: جئناك برأس الفاسق وما وجدنا من مال ، والمال على دابّة في بُدوره ، فقال شبيب: أتيتمونا بفِتنة للمسلمين ، هلُمّ الحَرْبة يا غلام ، فخرّق بها البُدور ، وأمر فنُخِس بالدّابة والمالُ يتناثر من بدوره حتَّى وردت الصَّراة ، فقال: إن كان بقي شَيء فاقذفه في الماء ، ثمّ خرج إليه سُفْيان بن الأبرد مع الحجَّاج ، وكان أتاه قبلَ خروجه معه ، فقال: ابعَثْني أستقبِله قبل أن يأتيَك ، فقال: ما أحِبّ أن نفترق حتى ألقاه في جماعتكم والكُوفةُ في ظهورنا والحصنُ في أيدينا[3] . (٦/ ٢٦٧) .

---

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك .
(٢) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك .
(٣) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك .

ذكر الخبر عن دخول شبيب الكوفة مرة ثانية

وفي هذه السنة دَخَل شبيبٌ الكوفةَ دَخْلَتَهُ الثانية.

* ذكر الخبر عن ذلك وما كان من حربه بها الحجّاج:

قال هشام: حدّثني أبو مخنف، عن موسى بن سوار، قال: قَدِم سَبْرة بنُ عبد الرحمن بن مخنَف من الدَّسْكرة الكوفةَ بعدما قدم جيش الشام الكوفة، وكان مُطَرّف بن المغيرة كَتَب إلى الحجَّاج: إنّ شبيباً قد أطل عليّ، فابعث إلى المَدائن بَعْثاً فبعث إليه سبْرة بن عبد الرحمن بن مخنف في مئتي فارس، فلمَّا خرج مطرّف يريد الجبل خرج بأصحابه معه وقد أعلمهم ما يريد، وكتم ذلك سَبْرة، فلمَّا انتهَى إلى دَسْكرة الملك دعا سَبْرَةَ فأعلمه ما يريد، ودعاه إلى أمره، فقال له: نعم أنا معك، فلمَّا خرج من عنده بعث إلى أصحابه فجمعَهم وأقبَل بهم فصادف عتَّاب بن وَرْقَاء قد قُتِل وشبيباً قد مضى إلى الكوفة، فأقبل حتى انتهى إلى قرية يقال لها بيطرى، وقد نزل شبيب حَمَّام عُمر، فخرج سَبْرة حتَّى يعبر الفرات في معبر قرية شاهي، ثم أخذ الظَّهر حتَّى قَدِم على الحجَّاج، فوجد أهل الكوفة مَسْخوطاً عليهم، فدخل على سُفْيان بن الأبرَد، فقَصّ قصّته عليه وأخبره بطاعته وفراقِهِ مُطَرّفاً، وأنه لم يشهد عَتَّاباً ولم يشهد هزيمةً في موطن من مواطن أهلِ الكوفة، ولم أزل للأمير عاملاً، ومعي مئتا رجل لم يشهدوا معي هزيمةً قط، وهم على طاعتهم ولم يَدخلوا في فتنة.

فدخل سُفيانُ إلى الحجَّاج فخَبَّره بخبر ما قصّ عليه سَبْرة بن عبد الرحمن، فقال: صَدقَ وبرّ! قُلْ له: فليَشْهد معنا لقاءَ عدوّنا، فخرج إليه فأعلَمه ذلك، وأقبلَ شبيب حتَّى نزل موضعَ حَمَّام أعيَن، ودعا الحجَّاج الحارث بن معاوية بن أبي زرعة بن مسعود الثَّقَفيّ فوجَّهه في ناس من الشرَط لم يكونوا شهدوا يوم عَتَّاب، ورجالاً كانوا عمَّالاً في نحو من مئتي رجل من أهل الشام، فخرج في نحو من ألف، فنزل زُرَارةَ، وبلغ ذلك شبيباً، فتعجَّل إليه في أصحابه، فلمَّا انتهى إليه حمل عليه فقتَلَه، وهَزَم أصحابه، وجاءت المنهزمة فدخلوا الكوفة، وجاء شبيب حتَّى قطع الجِسر، وعسكر دونه إلى الكوفة، وأقام شبيب في عسكره ثلاثةَ أيَّام؛ فلم يكن في أول يوم إلاّ قتل الحارث بنُ معاوية، فلمَّا كان في

اليوم الثاني أخرج الحجَّاج مواليَهُ وغِلمانَه عليهم السلاح ، فأخذوا بأفواهِ السِّكَك ممَّا يلي الكُوفَة ، وخرج أهلُ الكوفة فأخذوا بأفواه سِكَكهم ، وخشوا إن لم يخرجوا مَوْجدةَ الحجَّاج وعبد الملك بن مروان ، وجاء شبيب حتى ابتنى مسجداً في أقصى السَّبَخة مما يلي موقفَ أصحاب القتّ عند الإيوان ، وهو قائمٌ حتى الساعة ، فلمَّا كان اليوم الثالث أخرجَ الحجَّاج أبا الورْد مولىً له عليه تجْفاف ، وأخرج مجفَّفة كثيرة وغِلماناً له ، وقالوا: هذا الحجاج ، فحَمَل عليه شبيبٌ فقتله ، وقال: إن كان هذا الحجَّاج فقد أرَحْتُكم منه .

ثم إن الحجَّاج أخرج له غلامه طُهمانَ في مثلِ تلك العُدّة على مثل تلك الهيئـة ، فَحَمَل عليـه شبيبٌ فقتله ، وقال: إن كان هـذا الحجَّاج فقد أرَحْتُكم منه .

ثمّ إنّ الحجَّاج خرج ارتفاعَ النهار من القَصْر فقال: ائتوني ببَغْلٍ أركبُه ما بَيْني وبين السَّبَخة ، فأتِيَ ببغل محجَّل ، فقيل له: إنّ الأعاجمَ أصلحك الله تَطيَّرُ أن تركَب في مثل هذا اليوم مثلَ هذا البَغل ، فقال: أدنُوه مِنّي ، فإن اليوم يومٌ أغرّ محجَّل ، فركِبه ثم خرج في أهل الشام حتى أخذ في سكة البريد ، ثمّ خرج في أعلى السّبَخة ، فلمّا نظر الحجاج إلى شبيب وأصحابه نزل ، وكان شبيب في ستِّمئة فارس ، فلما رأى الحجَّاج قد خرج إليه أقبل بأصحابه ، وجاء سبْرة بنُ عبد الرحمن إلى الحجَّاج فقال: أين يأمرني الأمير أن أقف؟ فقال: قِفْ على أفواه السكَك ، فإن جاؤوكم فكان فيكم قتالٌ فقاتِلوا ، فانْطلق حتَّى وَقف في جماعة الناس ودَعا الحجَّاج بكرسيّ له فقَعد عليه ، ثمّ نادى: يا أهل الشام ، أنتم أهلُ السَّمع والطاعة والصَّبر واليَقين ، لا يغلبنّ باطلُ هؤلاء الأرجاس حقَّكم ، غضّوا الأبصار ، واجثُوا على الرّكَبِ ، واستقبلوا القوم بأطراف الأسِنَّة ، فجثوا على الركب ، وأشرَعوا الرّماح ، وكأنَّهم حَرّة سوداء ، وأقبَل إليهم شبيب حتَّى إذا دنا منهم عبّى أصحابه ثلاثة كَراديسَ ، كتيبة معه ، وكُتيبة مع سُويد بن سُليم ، وكتيبة مع المحلّل بن وائل ، فقال لسويد. احمِل عليهم في خيلِك فحَمَل عليهم فَثبتوا له ، حتَّى إذا غَشِيَ أطراف الأسنَّة وَثبوا في وجهه ووجوه أصحابه ، فطَعنوهم قُدُماً حتَّى انصَرف ، وصاحَ الحجَّاج: يا أهلَ السَّمع والطاعة ، هكذا فافعلوا قدّم كُرسيّ يا غلام ، وأمر شبيب المحلَّل فحَمَل عليهم ، ففعلوا به مِثلَ ما فعلوا

بسُويد ، فناداهم الحجَّاج : يا أهلَ السمعِ والطاعة ، هكذا فافعلوا ، قدّمْ كُرْسيّ يا غلام.

ثمّ إنّ شبيباً حَمَل عليهم في كتيبته فَثبتُوا له ، حتَّى إذا غشي أطراف الرّماح وَثَبوا في وجهه ، فقاتَلهم طويلاً ، ثمّ إنّ أهل الشام طعَنوه قُدُماً حتى ألْحَقُوه بأصحابه ، فلمَّا رأى صبرَهم نادى : يا سويد ، احمِل في خَيْلك على أهل هذه السكة ـ يعنِي سِكَّة لحَّام جرير ـ لعلك تزيل أهلَها عنها ، فتأتي الحجَّاجَ من ورائه ، ونَحمل نحن عليه من أمامه ، فانفرد سُوَيد بن سُلَيم فَحَمل على أهل تلك السكة؛ فرمى من فوق البُيوت وأفواه السكك ، فانصرفَ ، وقد كان الحجَّاج جعل عروةَ بن المغيرة بن شعبة في نحو من ثلاثمئة رجل من أهل الشام رِدْءاً له ولأصحابه لئلا يُؤْتَوا من وَرائِه[١]. (٦/ ٢٦٧ ـ ٢٧٠).

قال أبو مخنف : فحدّثني فَروة بن لَقيط : أنّ شبيباً قال لنا يومئذ : يا أهل الإسلام إنَّما شريْنا الله ، ومن شرى اللهَ لم يكبر عليه ما أصابه من الأذى والألم في جَنْب الله ، الصَّبرَ الصَّبر؛ شدّة كشَدّاتكم في مواطنكم الكريمة.

ثمّ جمع أصحابَه ، فلَما ظنّ الحجَّاج أنه حاملٌ عليهم قال لأصحابه : يا أهل السمع والطاعة ، اصبِروا لهذه الشَّدّة الواحدة ، ثمّ وربِّ السماء ما شيءٌ دونَ الفتح. فجثَوا على الرُّكَب ، وحَمَل عليهم شبيب بجميع أصحابه ، فلمَّا غشيهم نادى الحجَّاج بجماعة الناس ، فوثبوا في وجهه ، فما زالوا يَطعنُون ويَضربون قُدماً ويَدفَعون شبيباً وأصحابَه وهو يقاتِلهم حتَّى بلغوا موضع بُسْتان زائدة ، فلما بلغ ذلك المكان نادى شبيب أصحابَه : يا أولياء الله ، الأرضَ الأرض ، ثم نزل وأمر أصحابه فنزل نصفُهم وترك نصفهم مع سُوَيد بن سليم ، وجاء الحجَّاج حتى انتهى إلى مسجد شبث ، ثم قال : يا أهل الشام ، يا أهل السَّمع والطاعة ، هذا أوّل الفَتْح والَّذي نفسُ الحَجَّاج بيَده! وصَعد المسجد معه نحوٌ من عشرين رجلاً معهم النَّبْل ، فقال : إن دَنوْا منا فارشقوهم ، فاقتتلوا عامَّة النهار من أشدّ قتال في الأرض ، حتَّى أقرّ كل واحد من الفريقين لصاحبه ، ثمّ إنّ خالد بن عتَّاب قال

---

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

للحجَّاج: ائذنْ لي في قتالهم فإني مَوْتور، وأنا ممَّن لا يُتَّهم في نصيحة، قال: فإني قد أذنْت لك، قال: فإني آتيهم من ورائهم حتَّى أغيرَ على عسكرهم؛ فقال له: افعل ما بدا لك، قال: فخرج معه بعصابة من أهل الكوفة حتَّى دخل عسكرَهم من ورائهم، فقتل مصَاداً أخا شَبيب، وقتل غزالة امرأته، قتلها فروة بن الدَّقَّان الكلبيّ، وحرّق في عسكره، وأتَى ذلك الخبرُ الحَجَّاج وشبيباً، فأمَّا الحجَّاج وأصحابه، فكبَّروا تكبيرة واحدة، وأمَّا شبيب فوثب هو وكلّ راجل معه على خيولهم، وقال الحجّاج لأهل الشام: شُدّوا عليهم فإنَّه قد أتاهم ما أرعب قلوبَهم، فشَدّوا عليهم فهزموهم، وتَخلَّف شبيب في حامِيَة الناس[١]. (٦/ ٢٧٠ ـ ٢٧١).

قال هشام: فحدّثني أصغر الخارجيّ، قال: حدّثني من كان مع شبيب قال: لما انهزم الناسُ فخرج من الجسْر تَبِعه خيل الحجَّاج، قال: فجعل يَخفِق برأسِه، فقلت: يا أمير المؤمنين، التَفِت فانظرْ من خَلفَك؛ قال: فالتفت غير مكترث، ثمّ أكبّ يخفِق برأسه؛ قال: ودنَوا منَّا؛ فقلنا: يا أمير المؤمنين، قد دنوا منك، قال: فالتفت والله غيرَ مكترِث، ثمّ جعل يخفق برأسه. قال: فبعث الحجَّاج إلى خيله أن دعوه في حرق الله ونارِه، فتركوه ورجعوا. (٦/ ٢٧١).

قال هشام: قال أبو مخنَف: حدّثني أبو عمرو العذريّ، قال: قَطَع شبيب الجِسْر حين عَبَر، قال: وقال لي فَرْوة: كنتُ معه حين انهزمْنا فما حَرّك الجسر، ولا اتّبعونا حتَّى قَطَعنَا الجِسر، ودخل الحجَّاج الكُوفَة، ثمَّ صَعِد المِنبرَ فَحَمِد الله، ثمّ قال: واللهِ ما قُوتِل شبيب قبلها مثلها، وَلَّى واللهِ هارباً، وترك امرأته يكسر في استها القصب[٢]. (٦/ ٢٧١ ـ ٢٧٢).

رجع الحديث إلى حديثِ أبي مِخنَف، عن أبي عَمرو العُذْريّ: أن الحجَّاج دخل الكوفةَ حين انهزمَ شبيب، ثم صَعِد المنبر، فقال: واللهِ ما قُوتِل شَبيب قطّ قبلَها مثِلَها، وَلَّى واللهِ هارباً، وترك امرأته يُكسرَ في ٱستها القصب. ثمّ دعا حبيب بن عبد الرحمن الحكميّ فبعثه في أثره في ثلاثة آلاف من أهل الشام، فقال

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

(٢) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

له الحجّاج: احذَر بياتَه، وحيثما لقيتَه فنازِله، فإن الله قد فَلَّ حَدَّه، وقصم نابَه، فخرج حبيبٌ بنُ عبد الرحمن في أثر شبيب حتَّى نزل الأنبار، وبعث الحجَّاج إلى العمَّال أن دُسُّوا إلى أصحاب شبيب أنّ مَنْ جاءنا منهم فهو آمِن؛ فكان كلّ من ليست لـه تلك البصيرة ممَّن قد هـدّه القتال يجيء فيؤمَّن، وقبل ذلك ما قد نادى فيهم الحجَّاج يومَ هُزِموا: إنّ من جاءنا منكم فهو آمِن، فتفرّق عنه ناس كثير من أصحابه، وبلغ شبيباً مَنْزِلُ حبيب بنِ عبد الرحمن الأنبارُ، فأقبلَ بأصحابه حتَّى إذا دنا من عسكرِهم نَزَل فصلَّى بهم المغرب[1]. (٦/ ٢٧٦ ـ ٢٧٧).

قال أبو مِخنَف: فحدّثني أبو يزيدَ السكسَكيّ، قال: أنا والله في أهل الشام ليلةَ جاءنا شبيب فبيَّتنَا، قال: فلمَّا أمسيْنَا جمعَنا حبيبُ بنُ عبد الرحمن فجعَلنا أرباعاً، وقال لكل رُبْعٍ منا: ليُجْزِئ كلّ رُبْع منكم جانبَه، فإن قاتل هذا الرّبع فلا يُغثهم هذا الرّبْع الآخَر، فإنه قد بلغني أنّ هذه الخوارج منَّا قريب، فوطِّنوا أنفسَكم على أنّكم مبيَّتون ومقاتَلون؛ فما زِلنا على تعبيتنَا حتَّى جاءنا شبيب فبيَّتنا فشدَّ على رُبْع منَّا، عليهم عثمانُ بنُ سعيد العذريّ فضاربهم طويلاً، فما زالتْ قدمُ إنسان منهم، ثمّ تركهم وأقبلَ على الرّبْع الآخر، وقد جعل عليهم سعد بن بجل العامريّ فقاتلهم، فما زالت قدم إنسان منهم، ثمّ تركهم وأقبَل على الرّبع الآخر وعليهم النعمان بن سَعْد الحميريّ فما قدر منهم على شيء، ثمّ أقبل على الربع الآخرَ وعليهم ابنُ أقيصِر الخَثْعميّ فقاتلهم طويلاً، فلم يَظفر بشيء ثم أطاف بنا يحمل علينا حتى ذهب ثلاثة أرباع اللَّيل، وألزّ بنا حتى قلنا، لا يُفارِقنا، ثم نازلنا راجلاً طويلاً، فسقطتْ والله بيننا وبينهم الأيدي وفُقِئت الأعيُن وكثرت القتلى قتلنا منهم نحواً من ثلاثين، وقتلوا منَّا نحواً من مئة، والله لو كانوا فيما نري يزيدون على مئة رجل لأهلَكونا، وايمُ الله على ذلك ما فارَقونا حتَّى مَلِلناهم وملُّونا، وكرِهونا وكرهناهم.

ولقد رأيت الرجل منَّا يضرب بسيفه الرجل منهم فما يضرّه شيء من الإعياء والضّعف، ولقد رأيت الرجل منَّا يقاتل جالساً يَنْفَح بسَيْفه ما يستطيع أن يقوم من

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

الإعياء ، فلمَّا يئسوا منَّا ركب شبيب ثمّ قال لمن كان نزل من أصحابه : اركبوا ، فلمَّا استوَوا على متُون خُيولهم وجّه منصرفاً عنَّا[1] . (٦/ ٢٧٧ ـ ٢٧٨).

قال أبو مخنف : حدّثني فروة بنُ لقيط ، عن شبيب ، قال : لما انصرفنا عنهم وبنا كآبة شديدة ، وجراحة ظاهرة ، قال لنا : ما أشدَّ هذا الَّذي بنا لو كنّا إنما نطلب الدنيا! وما أيسرَ هذا في ثواب الله! فقال أصحابُه : صدقت يا أمير المؤمنين ، قال : فما أنسَى منه إقبالَه على سُويد بن سليم ولا مقالَته له : قتلتُ منهم أمس رجلين : أحدُهما أشجَع الناس ، والآخر أجْبَن الناس ، خرجتُ عشيَّة أمس طليعةً لكم فلقيتُ منهم ثلاثةَ نفر دخلوا قريةً يشترون منها حوائجَهم ، فاشترى أحدُهم حاجتَه ، ثمّ خرج قبل أصحابه وخرجتُ معه ، فقال : كأنَّك لم تشترِ عَلَفاً ، فقلت : إنّ لي رُفَقاءَ قد كَفَوْني ذلك ، فقلت له : أين تَرَى عدوَّنا هذا نزَل؟ قال : بلغني أنَّه قد نزل منَّا قريباً ، وايم الله لودِدْت أنِّي قد لقيتُ شبيبَهم هذا ، قلت : فتحبّ ذلك؟ قال : نعم ، قلت : فخذ حِذْرَك ، فأنا والله شبيب ، وانتضيْت سَيْفي ، فخَرَّ والله مَيْتاً ، فقلت له : ارتفِع وَيْحَك! وذهبتُ أنظُر فإذا هو قد مات ، فانصرفتُ راجعاً ، فأستقبِل الآخر خارجاً من القرية ، فقال : أين تذهب هذه الساعة؟ وإنَّما يرجع الناس إلى عسكرهم! فلم أكلّمه ، ومضيتُ يقرّب بي فرسي ، وأتبعني حتَّى لَحِقني ، فقطعت عليه فقلت له : ما لَك؟ فقال : أنتَ والله من عَدوّنا؟ فقلتُ : أجل والله ، فقال : والله لا تبرح حتَّى تَقْتلني أو أقتُلَك ، فحمَلت عليه وحَمَل عليّ ، فاضطربْنا بسيْفينا ساعةً ، فوالله ما فَضَلْتُه في شدّة نَفْس ولا إقدام إلا أن سيفي كان أقْطَع من سيفه ، فقَتَلتُه؛ قال : فمضَينا حتَّى قطعنا دِجلة ، ثم أخذْنا في أرض جُوخَى حتى قطعْنا دجلةَ مرّة أخرى من عند واسِط ، ثم أخذنا إلى الأهواز ثمّ إلى فارس ، ثم ارتفعْنا إلى كِرْمان[2] . (٦/ ٢٧٨ ـ ٢٧٩).

ذكر الخبر عن مهلك شبيب

وفي هذه السنة هلك شبيبٌ في قولِ هشامِ بن محمَّد ، وفي قول غيرِه كان هلاكُه سنة ثمان وسبعين.

---

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

(٢) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

* ذكر سبب هلاكه:

قال هشام، عن أبي مِخنَف: قال: حدّثني أبو يزيدَ السَّكْسَكيّ، قال: أقفَلنا الحَجّاج إليه ـ يعني إلى شبيب ـ فقسَّم فينا مالاً عظيماً، وأعطى كل جريح منا وكل ذي بلاء، ثمّ أمر سفيان بن الأبرد أن يسير إلى شبيب، فتجهّز سُفيان، فشقّ ذلك على حبيب بن عبد الرحمن الحكميّ، وقال: تبعث سُفْيان إلى رجل قد فللته وقتلت فُرسانَ أصحابِه! فأمضى سفيان بعدَ شهرين، وأقام شبيب بكِرْمان، حتَّى إذا انجبر واستراش هو وأصحابُه أقبل راجعاً، فيستقبله سُفْيان بجِسْر دُجيل الأهواز، وقد كان الحجَّاجِ كتب إلى الحَكَم بن أيّوب بن الحكَم بن أبي عَقيل، وهو زوج ابنة الحجَّاج وعامله على البَصْرة.

أما بعد، فابعثْ رجلاً شجاعاً شريفاً من أهل البصْرة في أربعة آلاف إلى شبيب، ومُرْه فلْيَلْحق بسُفْيان بن الأبرد، وليَسْمع له وليُطعْ.

فبعث إليه زياد بن عمرو العَتكيّ في أربعة آلاف، فلم ينته إلى سُفيان حتى التقى سُفْيان وشبيب، ولمَّا أن التقيا بجِسْر دجيل عبر شبيب إلى سُفيان فوجد سُفْيان قد نزَل في الرجال، وبعث مُهاصِر بن صيفيّ العُذريّ على الخيل، وبعث على ميمنته بشر بن حسان الفِهريّ، وبعث على ميسرته عمر بن هُبيرة الفزاريّ، فأقبل شبيب في ثلاثة كراديسَ من أصحابه، هو في كتيبة وسُوَيد في كتيبة، وقَعنَب المُحلّميّ في كتيبة، وخلَّف المحلَّل بن وائل في عسكره، قال: فلمَّا حمل سُويد وهو في ميمنته على ميسرة سُفْيانَ، وقعنبٌ وهو في ميسرته على ميمنته حَمَل هو على سُفْيان، فاضْطَرَبْنا طويلاً من النهار، حتَّى انحازوا فرجعوا إلى المكان الَّذي كانوا فيه، فكرّ علينا هو وأصحابه أكثرَ من ثلاثين كَرّة، كلّ ذلك لا نزول من صَفّنا، وقال لنا سُفْيان بنُ الأبرد: لا تتفرّقوا، ولكن لِتزحَف الرجالُ إليهم زحفاً، فوالله ما زلْنا نطاعِنُهم ونضاربهم حتَّى اضطررناهم إلى الجِسْر، فلما انتهى شبيب إلى الجِسْر نزل ونزل معه نحوٌ من مئة رجل، فقاتَلْناهم حتى المساء أشدّ قتال قاتله قومٌ قطّ، فما هو إلا أن نزلوا فأوقعوا لنا من الطَّعن والضّرب شيئاً ما رأينا مِثلَه من قوم قطّ، فلمَّا رأى سفيانُ أنَّه لا يَقدِر عليهم، ولا يأمن مع ذلك ظفرهم، دعا الرّماةَ فقال: ارشقُوهم بالنَّبل، وذلك عند المساء، وكان التقاؤهم نصفَ النهار، فرماهم أصحابُ النَّبل بالنَّبل عند

المساء، وقد صفَّهم سُفْيان بن الأبرد على حِدَة، وبعث على المرامِية رجلاً، فلمَّا رشقوهم بالنَّبل ساعةً شدّوا عليهم، فلمَّا شدّوا على رُماتنا شدَدْنا عليهم، فشغَلْناهم عنهم، فلما رموا بالنَّبل ساعةً ركب شبيب وأصحابُه ثمّ كَرُّوا على أصحاب النَّبل كرّةً صُرع منهم أكثرُ من ثلاثين رجلاً، ثمّ عطف بخَيْله علينا، فمشى عامداً نحونا؛ فطاعَنَّاه حَتَّى اختَلط الظلام، ثمّ انصَرَف عنا، فقال سُفيان لأصحابه: أيُّها الناس، دَعُوهم لا تتَّبعوهم حتى نُصبِّحهم غُدْوة، قال: فكَفَفنا عنهم وليس شيء أحبّ إلينا من أن ينصرفوا عنّا[1]. (٦/ ٢٧٩ ـ ٢٨٠).

قال أبو مخنف: فحدّثني فَروة بنُ لقيط، قال: فما هو إلاّ أن انتهَينا إلى الجِسْر، فقال: اعبرُوا معاشرَ المسلمين، فإذا أصبَحْنَا باكَرْناهم إن شاء الله، فعَبرْنا أمامَه، وتخلَّف في أخرانا، فأقبل على فرسه، وكانت بين يديه فرس أنثى ماذيانة، فنزا فرسُه عليها وهو على الجسر فاضطربت الماذيانة، ونزل حافرُ رجل فرس شبيب على حرف السفينة، فسَقط في الماء، فلمَّا سَقَط قال: ﴿لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ فارتمس في الماء ثمّ ارتَفَع فقال: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾[2]. (٦/ ٢٨٠).

قال أبو مخنَف: فحدثني أبو يزيد السَّكْسكيّ بهذا الحديث ـ وكان ممَّن يقاتله من أهل الشام، وحدّثني فروة بنُ لقيط، وكان ممَّن شهد مواطنَه ـ فأمَّا رجل من رهطه من بني مُرّة بن هَمَّام فإنَّه حدَّثني أنه كان معه قومٌ يقاتلون من عشيرته، ولم يكن لهم تلك البصيرةُ النافذة، وكان قد قتل من عشائرهم رجالاً كثيراً، فكأن ذلك قد أوجع قلوبَهم، وأوغَرَ صدورَهم؛ وكان رجلٌ يقال له مُقاتل من بني تيم بن شَيْبان من أصحاب شبيب، فلمَّا قتل شبيبٌ رجالاً من بني تَيم بن شيبانَ أغار هو على بني مُرّة بن هَمَّام فأصاب منهم رجلاً، فقال له شبيب: ما حَمَلك على قَتلِهم بغيرِ أمري! فقال له: أصلحك الله! قتلتُ كفَّار قومي، وقتلتَ كفَّار قومك، قال: وأنت الوالي عليّ حتَّى تقطع الأمور دُونِي! فقال: أصلَحك الله! أليس من دِيننا قتل مَنْ كان على غير رأينا، منَّا كان أو مِنْ غيرِنا! قال: بلى،

---

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

(٢) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

قال: فإنَّما فعلت ما كان ينبغي، ولا والله يا أمير المؤمنين ما أصبت من رهطك عُشر ما أصبت من رهطي، وما يحلّ لك يا أمير المؤمنين أن تَجِد من قَتْل الكافرين؛ قال: إني لا أجد من ذلك، وكان معه رجال كثير قد أصاب من عشائرهم، فزعموا أنَّه لمَّا تخلَّف في أخْريات أصحابِهِ قال بعَضهم لبعض: هل لكم أن نقطع به الجِسْر فندْركَ ثأرَنا الساعة! فقطعوا الجِسْر، فمالت السفُن، فَفزِع الفرس ونفر، ووقع في الماء فغرِق[١]. (٦/ ٢٨١).

قال أبو مخنف: فحدّثني ذلك المُرّيّ بهذا الحديث، وناسٌ من رَهْط شبيب يَذْكرون هذا أيضاً؛ وأمَّا حديث العامَّة فالحديثُ الأوّل[٢]. (٦/ ٢٨١).

قال أبو مخنف: وحدّثني أبو يزيدَ السَّكْسَكيّ، قال: إنَّا والله لنتهيَّأ للانصراف إذ جاء صاحبُ الجسر فقال: أين أميرُكم؟ قلنا: هو هذا، فجاءه فقال: أصلَحَك الله! إن رجلاً منهم وقع في الماء، فتنادَوا بينهم: غَرق أميرُ المؤمنين! ثمّ إنَّهم انصرفوا راجعين، وتركوا عسكرَهم ليس فيه أحد، فكبَّر سُفيانُ وكبَّرنا، ثمّ أقبل حتَّى انتهى إلى الجسر، وبعث مُهاصِر بن صَيفيّ فعبر إلى عسكرهم، فإذا ليس فيه منهم صافِرٌ ولا آثِر، فنزل فيه، فإذا أكثُر عسكر خلق اللهِ خيراً، وأصبَحْنا فطلبنا شبيباً حتَّى استخرَجْناه وعليه الدّرْع، فسمعتُ النَّاس يزْعمون أنه شَقّ بطنَه فأخرج قلبَه، فكان مجتمِعا صُلْباً كأنَّه صَخْرة، وإنَّه كان يَضرِب به الأرض فيثب قامةَ إنسان؛ فقال سفيان: احْمَدوا الله الَّذي أعانكم فأصبح عسكرهم في أيدينا[٣]. (٦/ ٢٨١ _ ٢٨٢).

قال أبو زيد عُمر بنُ شَبَّة: حدّثني خلاّد بنُ يزيد الأرقط، قال: كان شبيب يُنْعَى لأمِّه فيقال: قتِل، فلا تَقبل قال: فقيل لها: إنَّه غرِق فَقبِلتْ وقالت: إني رأيتُ حين ولدتُه أنَّه خرج مِنّي شهاب نار، فعَلِمتُ أنه لا يُطفئِه إلاّ الماء. (٦/ ٢٨٢).

قال هِشام عن أبي مِخنَف: حدّثني فَرْوة بن لقَيط الأزديّ ثمّ الغامريّ أن يزيد بن نُعَيم أبا شبيب كان ممَّن دخل في جيش سَلْمان بن ربيعة إذ بعث به وبمن

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.
(٢) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.
(٣) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

معه الوليد بن عُقْبة عن أمرِ عثمانَ إيّاه بذلك مَدداً لأهل الشام أرض الروم ، فلمَّا قَفَل المسلمون أقيمَ السَّبى للبيع ، فرأى يزيد بن نُعَيم أبو شبيب جاريةً حمراءَ ، لا شَهْلاَء ولا زَرْقاء طويلةً جميلةً تأخُذُها العين ، فابتَاعَها ثم أقبل بها ، وذلك سنة خمس وعشرين أوّل السنة ، فلمَّا أدخَلَها الكوفة قال: أسلِمي ، فأبتْ عليه ، فضربها فلم تزدَد إلا عصياناً ، فلمَّا رأى ذلك أمر بها فأصلِحت ، ثمّ دعا بها فأدخِلَتْ عليه ، فلما تغَشاها تَلَقَّتْ منه بحَمْل فولدتْ شبيباً ، وذلك سنة خمس وعشرين في ذي الحجَّة في يوم النَّحر يومَ السبت ، وأحبَّت مولاها حُبّاً شديداً ـ وكانت حَدثة ـ وقالت: إن شئت أجبتُك إلى ما سألتَني من الإسلام ، فقال لها: شئتُ ، فأسلَمَت وولدتْ شبيباً وهي مُسْلمة ، وقالت: إني رأيت فيما يَرَى النائم أنَّه خرج من قُبُلي شِهَابٌ فثَقب يسطع حتَّى بلغ السماءَ وبَلغ الآفاقَ كلَّها ، فبينا هو كذلك إذ وقع في ماء كثير جارٍ فخبا ، وقد ولدتُه في يومِكم هذا الَّذي تُهريقون فيه الدماء ، وإني قد أوّلْتُ رؤيايَ هذه أني أرى ولدِي هذا غلاماً ، أراه سيكون صاحب دماء يُهَرِيقها ، وإني أرى أمره سيعلو ويعظم سريعاً ، قال: فكان أبوه يختلف به وبأمّه إلى البادية إلى أرض قومه على ماء يُدعَى اللَّصَف[١]. (٦/ ٢٨٢ ـ ٢٨٣).

قال أبو مِخنَف: وحدّثني موسى بنُ أبي سُويد بن رادي أنّ جُنْدَ أهل الشام الذين جاؤوا حملوا معهم الحَجَر فقالوا: لا نفرّ من شبيب حتَّى يفرّ هذا الحجر؛ فبلغ شبيباً أمرُهم ، فأراد أن يكيدهم ، فدعا بأفراس أربعة ، فربط في أذنابها تَرَسة في ذَنَب كلّ فرس تُرْسَيْن ، ثمّ ندب معه ثمانيةَ نفر من أصحابه ، ومعه غلامٌ له يقال له حيَّان ، وأمره أن يحمل معه إداوةً من ماء ، ثم سار حتَّى يأتي ناحيةً من العسكر ، فأمر أصحابه أن يكونوا في نواحي العسكر ، وأن يجعلوا مع كلّ رجلين فرساً ، ثم يُمِسُّوها الحديدَ حتَّى تجد حرَّه ويخلّوها في العسكر ، وواعدهم تلعةً قريبةً من العسكر ، فقال: من نجا منكم فإنّ موعده هذه التَّلعة؛ وكره أصحابُه الإقدامَ على ما أمرهم به ، فنزل حيثُ رأى ذلك منهم حتى صنع بالخَيْل مِثلَ الَّذي أمرهم ، ثمّ وغلتْ في العسكر: ودخل يَتْلوها مُحكّماً فضرب الناسُ بعضُهم بعضاً ، فقام صاحبُهم الَّذي كان عليهم ، وهو حبيب بن عبد الرحمن الحَكَميّ ،

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

فنادى: أيها الناس، إنّ هذه مكيدة، فالزَموا الأرض حتَّى يتبيَّن لكم الأمرُ، ففعلوا وبقي شبيب في عسكرهم، فلزم الأرض حيث رآهم قد سكنوا وقد أصابتْه ضربةُ عمود أوهنتْه، فلمَّا أن هدأ الناسُ ورجعوا إلى أبنيتهم خرج في غِمارهم حتَّى أتى التلعة، فإذا هو بحَيَّان، فقال: أفرغ يا حيَّان على رأسي من الماء، فلمَّا مدّ رأسه ليصبّ عليه من الماء همّ حيَّان أن يَضرِب عنقه، فقال لنفسه: لا أجد لي مكرُمةً ولا ذِكراً أرفعَ مِن قتلي هذا، وهو أماني عند الحجَّاج، فاستقبلتْه الرّعدْة حيثُ هَمّ بما هَمَّ به، فلمَّا أبطأ بِحَلِّ الإداوة قال: ما يُبطئك بحَلّها! فتناوَل السِّكين من مَوْزَجِه فخرَقها به، ثمّ ناولَها إياه، فأفرَغ عليه من الماء، فقال حيان: منعَني واللهِ الجُبْن وما أَخَذَني من الرّعدة، أن أضرِب عُنقه بعد ما هممتُ به، ثمّ لَحِق شبيب بأصحابه في عسكره[1]. (٦/ ٢٨٣ ـ ٢٨٤).

خروج مطرّف بن المغيرة على الحجَّاج وعبد الملك

قال أبو جعفر: وفي هذه السنة خرج مُطَرّف بن المغيرة بن شُعْبة على الحجَّاج، وخلع عبد الملك بن مروان ولحق بالجبال فقُتل.

* ذكر السبب الذي كان عند خروجه وخلعِه عبد الملك بن مروان:

قال هشامٌ عن أبي مخنَف، قال: حدّثني يوسفُ بنُ يزيدَ بن بكر الأزْدي أنّ بني المغيرة بن شعبة كانوا صُلَحاء نُبَلاء، أشرافاً بأبدانهم سوى شَرف أبيهم ومنزلتِهم في قومهم، قال: فلمّا قدم الحجاج فلقوه وشافَهَهم عَلِم أنّهم رجال قومه وبنو أبيه، فاستعمل عُروةَ بنَ المغيرة على الكوفة، ومطرِّفَ بن المغيرة على المدائن وحمزة بن المغيرة على هَمَدان[2]. (٦/ ٢٨٤).

قال أبو مخنَف: فحدّثني الحُصَين بن يزيد بن عبد الله بن سعد بن نُفَيلٍ الأزْديّ، قال: قَدِم علينا مطرّف بنُ المغيرة بنِ شُعْبة المدائن فصَعِد المنبرَ فَحمِد الله وأثنى عليه ثمّ قال: أيّها الناس، إن الأمير الحجَّاجَ أصلحه الله قد ولاّني عليكم، وأمَرَني بالحُكْم بالحق، والعدل في السيرة، فإن عملتُ بما أمَرني به

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.
(٢) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

فأنا أسعدُ الناس ، وإن لم أفعلْ فنفسي أوبقْتُ ، وحظّ نفسي ضيَّعت ، ألا إني جالس لكم العَصْرين ، فارفَعوا إليَّ حوائجَكم ، وأشيروا عليّ بما يصلحكم ويُصلح بلادَكم ، فإني لن آلُوكم خيراً ما استَطعتُ ، ثمّ نزل.

وكان بالمدائن إذ ذاك رجالٌ من أشرف أهل المصْر وبيوتات الناس ، وبها مقاتِلة لا تسعُها عدّة ، إن كان كَوْنٌ بأرض جُوخَى أو بأرض الأنبار فأقبل مطرّف حين نزل حتى جلس للناس في الإيوان ، وجاء حكيمُ بنُ الحارث الأزديّ يمشي نحوه ، وكان من وجوه الأزد وأشرافِهم ، وكان الحجَّاج قد استعمَله بعد ذلك على بيت المال ـ فقال له : أصلحك الله! إني كنتُ منك نائياً حين تكلَّمتَ ، وإني أقبلتُ نحوك لأجيبَك ، فوافَق ذلك نزولك ، إنَّا قد فهمنا ما ذكرتَ لنا : أنَّه عهد إليك ، فأرشد اللهُ العاهدَ والمعهودَ إليه ، وقد منّيتَ من نفسك العَدل ، وسألتَ المعونة على الحقّ، فأعانك الله على ما نويتَ ، إنَّك تُشبه أباكَ في سيرته برضا الله والناس ، فقال له مطرّف: هاهنا إليّ؛ فأوسَع له فجلَس إلى جَنْبه[1]. (٦/ ٢٨٤ ـ ٢٨٥).

قال أبو مخنَف: فحدّثني الحُصَين بن يزيدَ أنّه كان من خير عامل قدم عليهم قطّ، أقمعه لمُرِيب، وأشدّه إنكاراً للظلم ، فقَدِم عليه بشر بن الأجْدَع الهَمْدانيّ ، ثم الثوريّ ، وكان شاعراً فقال:

إنـي كلِفـتُ بخَـوْد غيـرِ فـاحشـةٍ   غـرَّاءَ وهَنْـانَـةٍ حُسَّـانَـةِ الجِيـدِ
كأنها الشمس يومَ الدَّجْنِ إذ برَزتْ   تمشـي مَعَ الآنُسِ الهيفِ الأَمـاليـدِ
ســلِّ الهــوى بعَلْنَــدَاةٍ مُــذَكَّــرَةٍ   عنها إلى المُجْتَدى ذي العُرْف والجود
إلـى الفتـى المـاجـد الفيَّاضِ نَعرفـهُ   في الناس ساعةَ يُحْلَى كلّ مردُود
مــن الأكَــارم أنْســابــاً إذا نُسِبُــوا   والحامِل الثِّقْل يومَ المغرَم الصِّيد
إنـي أعِيـذُك بـالـرحمـنِ مـن نَفَـرٍ   حمـر السِّبـال كـأُسْدِ الغـابـةِ السُّـودِ
فُـرسـانُ شَيْبـان لـم نسمـعْ بمثلِهـم   أبنـاءُ كـلِّ كـريـم النَّجـلِ صِنـديـدِ
شَـدُّوا علـى ابـنِ حُصيـنٍ فـي كَتِيبَتـه   فغــادَرُوهُ صــريعــاً ليلــةَ العِيــدِ
وابـنُ المجـالِـدِ أَرْدَتْـهُ رِمَـاحُهُـمُ   كـأنَمـا زَلَّ عـن خَـوصـاءَ صَيْخُـودِ

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

وكــلُّ جَمــعٍ بــروذابــارَ كــان لهــم   قد فُضَّ بالطَّعن بينَ النَّخلِ والبيدِ

فقال له: وَيْحَك! ما جئت إلا لترغّبنا، وقد كان شبيب أقبل من سَاتيدما، فكتب مطرّف إلى الحجَّاج:

أما بعد، فإني أخبِر الأميرَ أكرمَه الله أنّ شبيباً قد أقبل نحونا، فإن رأى الأميرُ أن يُمِدّني برجال أضبط بهم المَدائن فعَل، فإن المدائن بابُ الكوفة وحصنُها.

فبعث إليه الحجَّاجُ بن يوسفَ سَبْرَةَ بن عبد الرحمن بن مِخنَف في مئتين وعبد الله بن كنَّاز في مئتين، وجاء شبيب فأقبل حتَّى نزل قناطرَ حُذَيفة، ثمّ جاء حتى انتهى إلى كَلواذا، فعَبر منها دجلة، ثم أقبل حتى نزل مدينة بَهُرسير ومطرّف بن المغيرة في المدينة العتيقة الَّتي فيها منزل كسْرى والقَصْر الأبيض، فلمَّا نزل شبيب بَهُرَسير قطع مطرف الجسر فيما بينه وبين شبيب، وبعث إلى شبيب أن ابعثْ إليّ رجالاً من صُلْحاء أصحابك أدارِسْهم القرآن، وأنظر ما تَدْعون إليه، فبعث إليه رجالاً؛ منهم سويد بن سُليم وقعْنب والمحلَّل بن وائل، فلما أدنى منهم المِعْبر وأرادوا أن يَنزِلوا فيه أرسَل إليهم شبيب ألاّ تدخلوا السَّفينة حتَّى يرجع إليّ رسولي من عند مطرّف، وبعث إلى مطرّف: أن أبعثْ إليّ بعِدّة من أصحابك حتَّى تردّ عليّ أصحابي، فقال لرسوله: القَه فقل له: فكيف آمنُكَ على أصحابي، إذا بعثتُهم الآن إليك، وأنت لا تأمني على أصحابك! فأرسَلَ إليه شبيب: إنَّك قد علمتَ أنَّا لا نستحلّ في ديننا الغَدْر، وأنتم تفعلونه وتهوّنونه، فسَرّح إليه مطرّف الربيعَ بن يزيدَ الأسديّ، وسليمان بن حُذَيفة بن هلال بن مالك المزَنيّ، ويزيدَ بن أبي زياد مولى المغيرة ـ وكان على حَرَس مطرّف ـ فلمَّا وقعوا في يديه بعث أصحابَه إليه[1]. (٦/ ٢٨٥ ـ ٢٨٦).

قال أبو مِخنَف:

حدثني النضرّ بنُ صالح، قال: كنت عند مطرّف بن المغيرةِ بن شُعْبة فما أدري أقال: إني كنت في الجند الَّذين كانوا معه، أو قال: كنت بإزائه حيث دخلتْ عليه رُسُلُ شبيب! وكان لي ولأخي ودّاً مكرماً، ولم يكن ليستر منَّا شيئاً، فدخلوا عليه وما عنده أحدٌ من الناس غيري وغير أخي حلاّم بن صالح، وهم ستَّة

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

ونحن ثلاثة ، وهم شاكّون في السلاح ، ونحن ليس علينا إلا سيوفنا فلما دَنوا قال سُوَيد: السَّلام على من خاف مقام ربه وعرفَ الهُدى وأهلَه ، فقال له مطرّف: أجَلْ ، فسلَّم الله على أولئك ، ثم جلس القومُ ، فقال لهم مطرّف: قُصّوا عليّ أمركم ، وخبّروني ما الذي تَطلبُون؟ وإلامَ تَدْعون؟ فحمدِ الله سُويدُ بن سُليم وأثنى عليه ثمّ قال: أمّا بعد ، فإنّ الذي نَدْعو إليه كتاب الله وسنَّة محمد ﷺ ، وإنَّ الذي نقمنا على قومنا الاستئثار بالفَيء وتعطيل الحدود والتسلّط بالجبريّة ، فقال لهم مطرّف: ما دعوتم إلا إلى حقّ ، ولا نقَمْتم إلا جَوْراً ظاهراً ، أنا لكم على هذا مُتابع ، فتابِعوني إلى ما أدعوكم إليه ليجتمع أمري وأمرُكم ، وتكون يدي وأيديكم واحدة ، فقالوا: هاتِ ، اذكر ما تريد أن تذكُر ، فإن يكن ما تدعونا إليه حقّاً نُجِبْك؛ قال: فإني أدعوكم إلى أن نقاتل هؤلاء الظَّلمةَ العاصين على إحداثهم الَّذي أحدثوا ، وأن ندعوَهم إلى كتاب الله وسنَّة نبيِّه ، وأن يكون هذا الأمر شورى بين المسلمين ، يؤمِّرون عليهم من يرضوْن لأنفسهم على مثل الحال التي تركهم عليها عمرُ بنُ الخطَّاب؛ فإنّ العرب إذا علمتْ أنّ ما يراد بالشورَى الرِّضا من قريش رَضُوا ، وكثر تبعُكم منهم وأعوانُكم على عدوّكم ، وتمّ لكم هذا الأمر الَّذي تريدون.

قال: فوثَبوا مِن عنده ، وقالوا: هذا ما لا نجيبك إليه أبداً ، فلمَّا مَضوْا فكادوا أن يخرجوا من صُفَّة البيت التفت إليه سُويد بن سليم ، فقال: يا بن المغيرة ، لو كان القوم عُدَاةً غُدُراً كنتَ قد أمكنتَهم من نفسك ، ففَزِع لها مطرّف ، وقال: صدقتَ وإله موسى وعيسى.

قال: ورجعوا إلى شبيب فأخبروه بِمقَالته ، فطَمع فيه ، وقال لهم: إنْ أصبحتم فليأته أحدُكم؛ فلمَّا أصبحوا بعث إليه سُويداً وأمَرَه بأمره ، فجاء سُويد حتَّى انتهى إلى باب مطرّف ، فكنتُ أنا المستأذِن له ، فلمَّا دخل وجلس أردتُ أن أنصرفَ ، فقال لي مطرّف: اجلسْ فليس دونَك سِتر؛ فجلستُ وأنا يومئذ شابّ أغيَد ، فقال لِه سويد: من هذا الذي ليس لك دونَه سِتْر؟ فقال له: هذا الشَّريف الحسيب ، هذا ابنُ مالك بنِ زُهير بن جَذيمة ، فقال له: بَخ أكرمت فارتبِط ، إن كان دِينُه على قدْر حسبه فهو الكامل ، ثم أقبل عليه فقال: إنَّا لقينا أميرَ المؤمنين بالَّذي ذكرتَ لنا ، فقال لنا: القَوْه فقولوا له: ألستَ تعلَم أنّ اختيار المسلمين

منهم خيرَهم لهم فيما يرون رأيٌ رشيد! فقد مضتْ به السنة بعدَ الرسول ﷺ ، فإذا قال لكم: نعم ، فقولوا له: فإنا قد اخترنا لأنفسنا أرضانا فينا ، وأشدَّنا اضطلاعاً لِمَا حُمِّل ، فما لم يغيِّر ولم يُبدِّل فهو وليُّ أمرِنا ، وقال لنا: قُولوا له فيما ذكرت لنا من الشورى حين قلتَ: إنّ العرب إذا علمتْ أنّكم إنَّما تريدون بهذا الأمر قُريشاً كان أكثر لتبعكم منهم؛ فإنّ أهلَ الحقّ لا ينقُصُهم عند الله أن يقِلّوا ، ولا يزيد الظالمين خيراً أن يَكثروا ، وإن تَرْكنا حقَّنا الَّذي خرجْنا له ، ودخولنا فيما دعوتنا إليه من الشورى خطيئةٌ وعَجْز ورُخصة إلى نصر الظالمين ووَهْن ، لأنَّا لا نرى أنّ قريشاً أحقّ بهذا الأمر من غيرها من العرب ، وقال: فإن زعم أنَّهم أحقّ بهذا الأمر من غيرِها من العرب فقولوا له: ولم ذَاك؟ فإن قال: لقرابة محمَّد ﷺ بهم فقولوا له: فوالله ما كان يَنبغي إذاً لأسلافنا الصالحين من المهاجرين الأوَّلين أن يتولَّوا على أسْرة محمَّد ، ولا على ولد أبي لَهَب لو لم يبقَ غيرُهم ، ولولا أنَّهم علموا أنّ خيرَ الناس عندَ الله أتقاهم ، وأنّ أوْلاهم بهذا الأمر أتْقاهم ، وأفضلهم فيهم ، وأشدّهم اضطلاعاً بحَمْل أمورهم ما تولَّوْا أمور الناس ، ونحن أوّل من أنكر الظلم وغيَّر الجَوْر وقاتَل الأحزاب ، فإن اتَّبَعنا فله ما لنا وعليه ما علَينا ، وهو رجلٌ من المسلمين ، وإلا يفعلْ فهو كبعضِ من نُعادِي ونُقاتِل من المشركين.

فقال له مطرّف: قد فهمتُ ما ذكرتَ ، ارجع يومَك هذا حتَّى ننظرَ في أمرنا.

فرجع ودعا مطرّف رجالاً من أهل ثقاتِهِ وأهلِ نَصائحه ، منهم سليمانُ بن حذيفة المُزَنيّ ، والرّبيع بنُ يزيدَ الأسَديّ ، قال النَّضر بن صالح: وكنتُ أنا ويزيد بن أبي زياد مولَى المغيرة بن شُعْبة قائمينَ على رأسِه بالسَّيف ، وكان على حَرَسه فقال لهم مطرّفٌ: يا هؤلاء إنّكم نُصَحائي وأهلُ مودّتي ومَن أثق بصلاحه وحسن رأيه ، والله ما زلتُ لأعمال هؤلاء الظَّلَمة كارهاً ، أنكِرها بقلبي ، وأغيرها ما استَطعتُ بفعلي وأمري ، فلمَّا عظمتْ خطيئتُهم ، ومرّ بي هؤلاء القوم يجاهدونهم ، لم أرَ أنَّه يسعني إلا مناهَضتَهم وخلافَهم إنْ وجدتُ أعواناً عليهم ، وإني دعوتُ هؤلاء القومَ فقلت لهم كَيْتَ وكَيْت ، وقالوا لي كيتَ وكَيت ، فلستُ أرى القتالَ معهم ، ولو تابَعوني على رأيي وعلى ما وصفتُ لهم لخلعتُ عبدَ الملك والحجَّاج ولسِرْت إليهم أجاهِدهم ، فقال له المُزَنيّ: إنَّهم لن

يُتابِعوك ، وإنَّك لن تُتابِعَهم فأخْفِ هذا الكلامَ ولا تُظهِرْه لأحد ، وقال له الأسَديّ مِثلَ ذلك ، فجَثَا مولاه ابن أبي زياد على ركبَتَيْه ثمّ قال: والله لا يخفى ممَّا كان بينك وبينَهم على الحجَّاج كلمة واحدة ، ولَيُزادَنّ على كلِّ كلمة عشرة أمثالها ، والله أن لو كنتَ في السَّحاب هارباً من الحجَّاج ليلتمسنّ أن يصل إليك حتَّى يهُلِكك أنتَ ومَنْ معك؛ فالنَّجاءَ النجاء من مكانك هذا ، فإنّ أهلَ المدائن من هذا الجانب ومن ذاك الجانب ، وأهل عسكر شبيب يتحدّثون بما كان بينك وبين شبيب ، ولا تمس من يومِك هذا حتَّى يَبْلُغَ الخبرُ الحجَّاج ، فاطلبْ داراً غيرَ المَدائن ، فقال له صاحباه: ما نَرَى الرأي إلا كما ذكر لك ، قال لهما مطرّف: فما عندكما؟ قالا: الإجابَة إلى ما دعوْتنا إليه والمؤاساة لك بأنفسِنا على الحجَّاج وغيرِه ، قال: ثمّ نظر إليّ ، فقال: ما عندَكَ؟ فقلت: قتال عدوِّك والصَّبر معك ما صبرتَ ، فقال لي: ذاك الظَّنّ بك.

قال: ومكث حتَّى إذا كان في اليوم الثالث أتاه قعنب فقال له: إنْ تابعتَنا فأنتَ منَّا ، وإن أبيت فقد نابذْناك ، فقال: لا تَعجَلوا اليومَ فإنا نَنظر.

قال: وبعث إلى أصحابه أن ارحلوا اللَّيلةَ من عند آخِركم حتَّى تُوفُوا الدَّسْكرة معي لحدَث حدث هنالك.

ثم أدلجَ وخرج أصحابُه معه حتَّى مرَّ بدَيْر يَزْدَجِرد فنزله ، فلقيه قَبيصةُ بن عبد الرحمن القحافيّ من خثْعم ، فدعاه إلى صُحبته ، فصَحِبه فكَساه وحمَلَه ، وأمَرَ له بنَفَقة ثم سَار حتى نزل الدَّسكرة فلمَّا أراد أن يرتحل منها لم يجد بدّاً من أن يعلِمَ أصحابَه ما يريد ، فجمع إليه رؤوسَ أصحابِه ، فذكر الله بما هو أهلُه وصلّى على رسوله ، ثم قال لهم: أمَّا بعد ، فإنّ الله كتب الجهاد على خَلْقه ، وأمر بالعدل والإحسان ، وقال فيما أنزَل علينا: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ ، وإني أشهِد الله أني قد خلعتُ عبدَ الملك بنَ مروانَ والحجاجَ بن يوسف فمن أحبّ منكم صُحبتي وكان على مثل رأيي فليُتابعْني ، فإن له الأسوة وحُسن الصحبة ومن أبى فليذهب حيث شاء ، فإني لست أحبّ أن يتّبعني من ليست له نيّةٌ في جهادِ أهل الجوْر. أدعوكم إلى كتاب الله وسنَّة نبيِّه وإلى قِتال الظَّلمة ، فإذا جمع الله لنا أمرَنا كان هذا الأمرُ شُورَى بين المسلمين يرتَضون لأنفسهم من أحبُّوا.

قال: فوَثَب إليه أصحابهُ فبايعوه، ثمّ إنّه دخل رحلَه وبعث إلى سَبْرة بن عبد الرحمن بن مِخنَف وإلى عبد الله بن كنَّاز النَّهدي فاستخلاهما، ودعاهما إلى مِثل ما دعا عامَّة أصحابه، فأعطَياه الرّضا، فلمَّا ارْتَحَل انصرفا بمن معهما من أصحابِه حتَّى أتَيَا الحجَّاج فوجداه قد نازَل شبيباً، فشهدا معه وقعة شبيب، قال: وخرج مطرّف بأصحابه من الدَّسْكرة موجَّهاً نحو حُلْوان، وقد كان الحجَّاج بعث في تلك السنة سُويد بن عبد الرحمن السَّعديّ على حُلوان وما سبذان؛ فلمَّا بَلَغه أنّ مطرّف بن المغيرة قد أقبل نحو أرضِه عَرَف أنَّه إن رَفَق في أمره أو داهَن لا يَقبل ذلك منه الحجَّاج، فجمع له سُويد أهلَ البلد والأكراد، فأما الأكراد فأخذوا عليه ثَنِيَّة حُلْوان، وخرج إليه سُويد وهو يحبّ أن يَسلَم من قتاله، وأن يُعافى من الحجَّاج، فكان خروجُه كالتعذير[١]. (٦/ ٢٨٦ ـ ٢٩٠).

قال أبو مخنف: فحدّثني عبد الله بنُ علقمة الخَثعميّ أنّ الحجَّاج بن جارية الخَثعميّ حين سمع بخروج مطرّف من المدائن نحو الجبل اتَبعه في نحو من ثلاثين رجلاً من قومه وغيرهم، قال: وكنت فيهم فلِحقْناه بحُلْوانَ، فكنَّا ممَّن شهد معه قتال سُوَيد بنِ عبدِ الرحمن.

قال أبو مخنف: وحدثني بذلك أيضاً النَّضْر[٢]. (٦/ ٢٩٠ ـ ٢٩١).

قال أبو مخنف: وحدّثني عبدُ الله بنُ علقمة، قال: ما هو إلا أن قَدمنا على مطرّف بن المُغيرة، فُسرَّ بمقدَمنا عليه، وأجلس الحجَّاج بنَ جارية معه على مَجلسِه[٣]. (٦/ ٢٩١).

قال أبو مخنف: وحدّثني النضرُ بن صالح، وعبد الله بن علقمة، أنّ سُويداً لمَّا خرج إليهم بمن معه وقف في الرّجال ولم يخرج بهم من البُيوت، وقَدِم ابنُه القَعقاع في الخَيْل، وما خيله يومئذ بكثير[٤]. (٦/ ٢٩١).

قال أبو مخنف: قال النَّضر بنُ صالح: أراهم كانوا مئتين، وقال ابنُ علقمة:

---

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

(٢) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

(٣) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

(٤) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

أراهم كانوا ينقصُون عن الثلاثمئة ، قال : فدعا مطرّف الحجَّاج بن جارية فسَرَّحه إليهم في نحو من عِدّتهم ، فأقبَلوا نحوَ القعْقاع وهم جادّون في قتاله ، وهم فرسان متعالِمون ، فلمَّا رآهم سُويد قد تيسَّروا نحوَ ابنِه أرسَلَ إليهم غلاماً له يقال له رُسْتم ـ قُتل معه بعد ذلك بَدْير الجَماجم ـ وفي يده رايةُ بني سعد ، فانطلق غلامُه حتَّى انتهَى إلى الحجَّاج بن جارية ، فأسرَّ إليه : إن كنتم تريدون الخروجَ من بلادنا هذه إلى غيرها فاخرجوا عنَّا ، فإنَّا لا نريد قتالَكم ، وإن كنتم إيّانا تريدون فلابدّ من مَنْع مافي أيدينا ، فلمَّا جاءه بذلك قال له الحجَّاج بنُ جارية : ائتِ أميرَنا فاذكرْ له ما ذكرتَ لي ، فخرج حتى أتى مطرّفاً فذَكر له مِثلَ الّذي ذكر للحجَّاج بن جارية ، فقال له مطرّف : ما أريدكم ولا بلادَكم ، فقال له : فالزمْ هذا الطريقَ حتَّى تَخرُج من بلادنا ، فإنَّا لا نجد بدّاً من أن يَرَى الناسُ وتَسمع بذلك أنَّا قد خرجْنا إليك ، قال : فبعث مطرّف إلى الحجَّاج فأتاه ، ولَزِموا الطريقَ حتى مرّوا بالثّنيَّة فإذا الأكرادُ بها ، فنزل مطرّف ونزل معه عامَّة أصحابِه وصَعِد إليهم في الجانب الأيمن الحجَّاجُ بنُ جارية ، وفي الجانب الأيسر سليمانُ بن حُذَيفة ، فهزَماهم وقَتلاهم ، وسلِم مطرّف وأصحابُه فمضَوا حتَّى دنَوْا من هَمذان فتركَها وأخذ ذاتَ اليسار إلى ماه دينار ، وكان أخوه حمزة بن المغيرة على هَمَذان ، فكَره أن يدخلَها فيُتَّهمَ أخوه عند الحجَّاج ، فلمَّا دخل مطرّف أرضَ ماه دينار كتب إلى أخيه حمزة :

أمَّا بعد ، فإن النَّفقة قد كثُرت والمؤنة قد اشتدّت ، فأمدِد أخاك بما قَدرت عليه من مال وسلاح .

وبعث إليه يزيدَ بن أبي زياد مولى المغيرة بن شُعبة ، فجاء حتَّى دخل على حمزَة بكتاب مطرّف ليلاً ، فلمَّا رآه قال له : ثكلتك أمُّك! أنت قتلتَ مطرّفاً؟ فقال له : ما أنا قتلتُه جُعلتُ فِداك! ولكنّ مطرّفاً قتل نفسَه وقتلَني ، وليتَه لا يقتلُك ، فقال له : وَيْحَك! مَن سَوّل له هذا الأمر! فقال : نفسُه سوّلتْ هذا له ، ثمّ جلس إليه فقصّ عليه القصص ، وأخبَرَه بالخبر ، ودفع كتابَ مطرّف إليه ، فقرأه ثمّ قال : نعم ، وأنا باعثٌ إليه بمال وسلاح ، ولكن أخبرني تَرَى ذلك يَخفَى لي؟ قال : ما أظنّ أن يخفى ، فقال له حمزة : فوالله لئن أنا خذلته في أنفع النَّصرَين له نصر العلانية ، لا أخذُلُه في أيسر النَّصْرين نصر السَّريرة .

قال : فسرّح إليه مع يزيد بن أبي زياد بمال وسلاح ، فأقبل به حتَّى أتى مطرّفاً

ونحن نزولٌ في رُسْتاق من رَساتِيق ماه دينار ، يقال له: سامان مُتاخِم أرضَ أصبِهان ، وهو رُسْتاق كانت الحمراءُ تَنزِله[١]. (٦/ ٢٩١ ـ ٢٩٢).

قال أبو مخنف: فحدّثني النّضرُ بنُ صالح ، قال: والله ما هو إلاّ أن مضى يزيدُ بن أبي زياد ، فسمعتُ أهلَ العسكر يتحدّثون أنّ الأمير بَعث إلى أخيه يسأله النفقة والسلاح ، فأتيتُ مطْرفاً فحدّثته بذلك ، فضرب بيده على جبهته ثم قال: سبحان الله! قال الأوّلُ: ما يخفى إلا ما لا يكون ، قال: وما هو إلا أن قدم يزيدُ بن أبي زياد علينا ، فسار مطرّف بأصحابه حتى نزل قُمّ وقاشان وأصبهَان[٢]. (٦/ ٢٩٢ ـ ٢٩٣).

قال أبو مخنَف: فحدّثني عبدُ الله بنُ علقمة أنّ مطرّفاً حين نزل قُمّ وقاشان واطمأنّ ، دعا الحجّاج بن جارية فقال له: حدِّثني عن هزيمة شبيب يومَ السَّبَخة أكانت وأنتَ شاهدَها ، أم كنتَ خرجتَ قبل الوَقْعة؟ قال: لا ، بل شهدتُها؛ قال: فحدِّثني حديثَهم كيف كان؟ فحدَّثه ، فقال: إني كنتُ أحبّ أن يَظفَر شبيب وإن كان ضالاً فيقتل ضالاً. قال: فظننت أنه تمنى ذلك لأنه كان يرجو أن يتمّ له الذي يَطلُب لو هلك الحجّاج ، قال: ثمّ إنّ مطرفاً بعث عمّاله[٣]. (٦/ ٢٩٣).

قال أبو مخنف: فحدثني النّضرُ بنُ صالح أنّ مطرفاً عمل عملاً حازماً لولا أنّ الأقدار غالبة ، قال: كتب مع الرَّبيع بن يزيد إلى سُويد بن سِرحان الثقفيّ ، وإلى بكير بن هارونَ البَجَليّ:

أما بعد ، فإنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيِّه ، وإلى جهادِ مَنْ عنَدَ عن الحقّ ، واستأثر بالفَيء ، وتَرك حُكم الكتاب ، فإذا ظهر الحق ودُمِغ الباطل ، وكانت كلمةُ الله هي العليا ، جعلْنا هذا الأمر شُورَى بين الأمة يرتضى المسلمون لأنفسهم الرضا ، فمَن قَبِل هذا منّا كان أخانا في ديننا ، ووليّنا في محيانا ومماتِنا ، ومَن ردّ ذلك علينا جاهدْناه واستنصرْنا اللهَ عليه فكَفى بنا عليه حجة ، وكفى بتركه الجهادَ في سبيل الله غَبْناً ، وبُمداهنة الظالمين في أمر الله وَهْناً! إن الله

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

(٢) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

(٣) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

كتب القتال على المسلمين وسماه كُرْهاً ، ولن يُنالَ رضوانُ الله إلا بالصّبر على أمر الله ، وجهادِ أعداء الله ، فأجيبوا رحمَكم الله إلى الحقّ ، وادعوا إليه من ترجون إجابتَه ، وعرِّفوه ما لا يَعرِفه ، وليقْبِل إليّ كلُّ من رأى رأينا ، وأجاب دعوتَنا ، ورأى عدوّه عدوّنا ، أرشدنا الله وإياكم ، وتاب علينا وعليكم ، إنه هو التّواب الرحيم ، والسلام.

فلما قَدِم الكتاب على ذَيْنك الرجلين دَبَّا في رجال من أهل الريّ ودَعَوا من تابعَهما ، ثمّ خرجا في نحو من مئة من أهل الرَّي سرّاً لا يُفطَن بهم ، فجاؤوا حتى وافوا مطرّفاً ، وكتب البراءُ بنُ قبيصة ، وهو عامل الحجَّاج على أصبَهانَ:

أما بعد ، فإن كان للأمير أصلحه الله حاجةٌ في أصبهانَ فليبعث إلى مطرّف جيشاً كثيفاً يستأصله ومن معه ، فإنه لا تزال عصابة قد انتفحتْ له من بلدة من البلدان حتى تُوافيَه بمكانه الذي هو به ، فإنه قد استكثَف وكَثُر تَبَعه ، والسلام.

فكتب إليه الحجّاج:

أما بعد ، إذا أتاك رسولي فعَسْكِرْ بمن معك ، فإذا مرّ بك عَدِيّ بن وتّاد فاخرج معه في أصحابك ، واسمع له وأطِع ، والسلام.

فلما قرأ كتابَه خرج فعسكَر ، وجعل الحجاج بن يوسف يسرِّح إلى البراءِ بن قَبيصة الرّجالَ على دوابِّ البريد عشرين عشرين ، وخمسة عشر خمسةَ عشر ، وعشرة عشرة ، حتى سرّح إليه نحواً من خمسمئة وكان في ألفين.

وكان الأسود بن سعد الهمذانيّ أتى الرَّيّ في فتح الله على الحجّاج يومَ لقي شبيباً بالسَّبَخة ، فمرّ بهَمَذان والجبال ، ودخل على حمزةَ فاعتذر إليه.

فقال الأسود: فأبلغت الحجّاج عن حمزة ، فقال: قد بلغني ذاك ، وأراد عزلَه ، فخشي أن يَمكر به ، وأن يمتنع منه ، فبعث إلى قيس بن سعد العِجْليّ ـ وهو يومئذ على شُرْطة حمزة بن المغيرة ولبني عِجْل ورَبيعةَ عددٌ بهمَذان ـ فبعث إلى قيس بن سعد بعَهْده على هَمذان ، وكتب إليه أن أوثِقْ حمزَة بن المغيرة في الحديد ، واحبسْه قِبَلك حتى يأتيَك أمري.

فلما أتاه عهده وأمرُه أقبل ومعه ناس من عشيرته كثير ، فلما دخل المسجد وافق الإقامة لصلاة العصر ، فصلّى حمزة ، فلما انصرف حمزة انصرف معه

قيس بن سعد العجليّ ، صاحب شُرَطه ، فأقرأه كتابَ الحجّاج إليه ، وأراه عهدَه ، فقال حمزة: سمعاً وطاعة ، فأوثقه وحبَسه في السجن ، وتولى أمر همَذان ، وبعث عمّاله عليها ، وجعل عماله كلهم من قومه؛ وكتب إلى الحجاج:

أما بعد ، فإني أخبِر الأميرَ أصلحه الله ، أني قد شددتُ حمزةَ بن المغيرة في الحديد ، وحبَسْته في السجن ، وبعثتُ عمّالي على الخرَاج ، ووضعتُ يدي في الجباية ، فإن رأى الأميرُ ـ أبقاه الله ـ أن يأذَن لي في المَسير إلى مطرّف أذن لي حتى أجاهدَه في قومي ، ومن أطاعَني من أهل بلادي؛ فإني أرجو أن يكون الجهادُ أعظمَ أجراً من جباية الخرَاج ، والسلام.

فلما قرأ الحجاج كتابَه ضَحِكَ ثمّ قال: هذا جانبَ آثراً مَّا قد أمّناه.

وقد كان حمزة بهَمذَان أثقَل ما خلق الله على الحجّاج مخافة أن يمدّ أخاه بالسلاح والمال ، ولا يدري لعله يبدو له فيعقّ ، فلم يزل يكيدُه حتى عزله؛ فاطمأنّ وقصد قصْد مطرّف[1]. (٦/ ٢٩٣ ـ ٢٩٥).

قال أبو مِخنَف: فحدّثني مطرّف بن عامر بن واثلة أنّ الحجاج لما قرأ كتابَ قيس بنِ سعد العِجْليّ وسمع قولَه: إنْ أَحَبَّ الأميرُ سرت إليه حتى أجاهدَه في قومي. قال: ما أبغض إليّ أن تَكثر العربُ في أرض الخَراج. قال: فقال لي ابن الغرق: ما هو إلا أن سمعتها من الحجّاج فعلمتُ أنه لو قد فَرَغَ له قد عَزَله[2]. (٦/ ٢٩٥).

قال: وحدّثني النّضر بن صالح أنّ الحجاج كتب إلى عديّ بن وتّاد الإياديّ وهو على الرّيّ يأمره بالمسير إلى مطرّف بن المغيرة وبالممرّ على البرَاء بن قبيصَة ، فإذا اجتمعوا فهو أميرُ الناس[3]. (٦/ ٢٩٥).

قال أبو مخنَف: وحدّثني أبي عن عبد الله بن زهير ، عن عبد الله بن سُليم الأزديّ ، قال: إنّي لَجالسٌ مع عديّ بن وتّاد على مجلسه بالرّيّ إذ أتاه كتاب الحجّاج ، فقرأه ثمّ دفعه إليّ ، فقرأته فإذا فيه:

---

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

(٢) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

(٣) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

أما بعد ، فإذا قرأتَ كتابي هذا فانهض بثلاثة أرباعِ مَن معك من أهل الرّيّ ، ثمّ أقبِل حتى تمرّ بالبراء بن قبيصَة بجَيّ ، ثم سِيرَا جميعاً ، فإذا لقيتهما فأنتَ أمير الناس حتى يَقتل الله مطرّفاً ، فإذا كَفَى الله المؤمنينَ مؤنتَه فانصرِف إلى عملك في كَنَف من الله وكَلاءتِهِ وسِتره ، فلما قرأتهُ قال لي : قمْ ، وتجهزْ .

قال : وخرج فعسكَرَ ، ودعا الكتّاب فضَربَوا البَعْث على ثلاثة أرباع الناس ، فما مضت جمُعة حتى سرنا فانتهيْنا إلى جَيّ ، ويُوافينا بها قبيَصة القُحافيّ في تِسعمئة من أهل الشام ، فيهم عُمر بنُ هُبيرة ، قال : ولم نلبث بجَيّ إلا يومين حتى نهض عديّ بن وتّاد بمن أطاعه من الناس ومعه ثلاثة آلافِ مُقاتِل من أهل الرّيّ وألف مُقاتِل مع البَراء بن قبيصة بعثهم إليه الحجّاج من الكوفة ، وسبعمئة من أهل الشام ، ونحو ألف رجل من أهلِ أصبَهان والأكراد ، فكان في قريب من ستة آلاف مُقاتِل، ثمّ أقبلَ حتى دخل على مطرّف بن المغيرة[1] . (٦/ ٢٩٥ ـ ٢٩٦) .

قال أبو مخِنَف : فحدّثني النّضر بنُ صالح ، عن عبد الله بن علقمة ، أن مطرّفاً لما بلغه مسيرُهم إليه خَندَق على أصحابه خَنْدقاً ، فلم يزالوا فيه حتى قدموا عليه[2] . (٦/ ٢٩٦) .

قال أبو مِخنَف : وحدّثني يزيدُ مولى عبد الله بن زهير ، قال : كنتُ مع مولاي إذ ذاك ؛ قال : خرج عديّ بن وتّاد فعبّى الناسَ ، فجعل على ميمنتهِ عبدَ الله بنَ زهير ، ثمّ قال للبرَاء بن قبيصة : قُمْ في الميسرَة ، فغَضب البراء ، وقال : تأمرني بالوقوف في الميسرة وأنا أمير مِثلك! تلك خَيْلي في الميسرة ، وقد بعثتُ عليها فارسَ مُضَرَ الطُّفَيل بن عامر بن واثلة ؛ قال : فأنْهِيَ ذلك إلى عديّ بن وتّاد ، فقال لابن أقيصر الخثعميّ : انطلِق فأنت على الخيل ، وانطلِق إلى البَراء بن قبيصة فقل له : إنك قد أمِرت بطاعتي ، ولست من الميمنة والميسرة والخيل والرّجالة في شيء ، إنما عليك أن تؤمَر فتُطيع ، ولا تَعرض لي في شيء أكرهه فأتنكّر لك ـ وقد كان له مُكرِماً .

---

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك .

(٢) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك .

ثمّ إن عديّاً بعث على الميسرة عمرَ بنَ هبيرة ، وبعثه في مئة من أهل الشام ، فجاء حتى وقف برايته ، فقال رجل من أصحابه للطُّفيل بن عامر:

خَلِّ رايتَك وتَنحَّ عنّا ، فإنّما نحن أصحابُ هذا الموقف؛ فقال الطُّفَيل: إنّي لا أخاصمكم ، إنما عقد لي هذه الراية البَراء بنُ قبيصة ، وهو أميرُنا ، وقد علمْنا أنّ صاحبَكم على جماعة الناس ، فإن كان قد عَقَد لصاحبكم هذا فبارَكَ الله له ، ما أسمعَنا وأطوَعنا! فقال لهم عمرُ بنُ هبيرة: مهلاً ، كُفّوا عن أخيكم وابنِ عمِّكم ، رايتنا رايتك ، فإن شئتَ آثرْناك بها ، قال: فما رأينا رجُلَين كانا أحلَم منهما في موقفهما ذلك ، قال: ونزل عديّ بن وتّاد ثمّ زحف نحو مطرّف[1]. (٦/ ٢٩٦ ـ ٢٩٧).

قال أبو مِخنَف: فحدّثني النّضر بنُ صالح وعبدُ الله بنُ علقمة أنّ مطرّفاً بعث على ميمنته الحجّاج بنَ جارية ، وعلى ميسرته الرّبيع بن يزيدَ الأسديّ ، وعلى الحامية سليمان بن صخر المُزَنيّ ، ونزل هو يمشي في الرّجال ، ورأيتُه مع يزيد بن أبي زياد مولَى أبيه المغيرة بن شُعبة ، قال: فلما زحف القوم بعضهم إلى بعض وتدانَوْا قال لبكير بن هارونَ البجَليّ: اخرُج إليهم فادعهم إلى كتاب الله وسُنة نبيه ، وبَكّتْهم بأعمالهم الخبيثة ، فخرج إليهم بكير بن هارونَ على فرس له أدهَم أقرح ذنوب عليه الدِّرع والمِغفَر والساعدان ، في يده الرمح ، وقد شدّ درعَه بعصابة حَمراءَ من حواشي البرُود ، فنادى بصوتٍ له عال رفيع: يا أهلَ قِبلتنا ، وأهلَ ملّتنا ، وأهلَ دعوتِنا ، إنا نسألكم بالله الذي لا إله إلا هو الذي علمه بما تُسرّون مثل عِلمه بما تُعلنون لمّا أنصفتمُونا وصدَقْتمونا ، وكانت نَصِيحتُكم لله لا لخَلقه ، وكنتم شهداءَ لله على عباده بما يعلَمُه الله من عباده ، خبّروني عن عبد الملك بن مروان ، وعن الحجّاج بن يوسف ، ألستم تعلمونهما جبّارَيْن مستأثرَيْن يتّبعان الهوَى ، فيأخذَان بالظِّنّة ، ويقتُلان على الغَضَب ، قال: فتنادَوْا من كل جانب: يا عدوّ الله كذبتَ ، ليسا كذلك ، فقال لهم: ويْلَكم ﴿ لَا تَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴾ ويْلَكم ، أو تعلمون من الله ما لا يعلم ، إني قد استشهدتكم وقد قال الله في الشهادة: ﴿ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥۗ ﴾ .

---

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

فخرج إليه صارمٌ مولَى عديّ بن وتّاد وصاحب رايته ، فحمل على بُكَير بن هارونَ البجَليّ ، فاضطرَبا بسيفَيهما ، فلم تعمل ضربةُ مولَى عديّ شيئاً ، وضربه بكير بالسَّيف فقتَله ، ثمّ استقدم ، فقال : فارس لفارس ، فلم يخرج إليه أحدٌ ، فجعل يقول :

صَارِمُ قَدْ لاَقَيْت سيْفاً صَارِما وأَسَداً ذا لِبْدَة ضُبَارِمَا

قال : ثمّ إنّ الحجّاج بن جارية حَمل وهو في الميمنة على عُمر بنِ هبيرة وهو في الميسرة ، وفيها الطُّفَيل بن عامر بن واثلة ، فالتقى هو والطُّفَيل ـ وكانا صديقَين متآخيَيْن ـ فتعارَفا ، وقد رَفع كُلّ واحد منهما السيفَ على صاحبه ، فكفَّا أيديَهما ، واقتتلوا طويلاً ، ثمّ إنّ ميسرة عديّ بن وتّاد زالت غيرَ بعيد ، وانصرف الحجاج بنُ جارية إلى موقفه ، ثمّ إن الربيع بنَ يزيد حَمَل على عبد الله بن زُهير ، فاقتتلوا طويلاً ، ثمّ إن جماعة الناس حملتْ على الأسَديّ فقتلتْه ، وانكشفتْ ميسرةُ مطرّف بن المغيرة حتى انتهت إليه ، ثمّ إنّ عمرَ بن هُبيرة حمل على الحجاج بن جارية وأصحابه فقاتَلَه قتالاً طويلاً ، ثمّ إنه حذّره حتى انتهى إلى مطرّف ، وحمل ابن أقيصر الخثعميّ في الخَيْل على سليمان بن صخر المُزَنيّ فقتَله ، وانكشفت خيلُهم ، حتى انتهى إلى مطرّف ، فثَمّ اقتتلتْ الفُرسان أشدّ قتال رآه الناس قطّ ، ثمّ إنه وصل إلى مطرّف[1] . (٦/ ٢٩٧ ـ ٢٩٨).

قال أبو مِخنَف : فحدّثني النَّضْرَ بن صالح أنه جعل يناديهم يومئذ : ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ .

قال : ولم يزل يقاتل حتى قُتل ، واحتزّ رأسَه عُمر بنُ هبيرة ، وذكر أنه قتله ، وقد كان أسرع إليه غيرُ واحد ، غير أنّ ابن هُبيرة احتزَّ رأسه وأوفده إلى عديّ بن وتّاد وحظيَ به ، وقاتل عُمر بن هبيرة يومئذ وأبلى بلاءً حسناً[2] . (٦/ ٢٩٨ ـ ٢٩٩).

قال أبو مخنف : وقد حدّثني حكيم بن أبي سفيان الأزديّ أنه قتل يزيد بن زياد

---

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك .

(٢) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك .

مولى المغيرة بن شعبة ، وكان صاحب راية مطرّف ، قال: ودخلوا عسكر مطرّف ، وكان مطرّف قد جعل على عسكره عبد الرحمن بن عبد الله بن عفيف الأزديّ ، فقتِل ، وكان صالحاً ناسكاً عفيفاً[١] . (٦/ ٢٩٩).

قال أبو مخنف: حدثني زيد مولاهم أنه رأى رأسه مع ابن أقيصر الخثعميّ ، فما ملكتُ نفسي أن قلت له: أما والله لقد قتلتَه من المصلّين العابدين الذاكرين الله كثيراً ، قال: فأقبل نحوي وقال: منْ أنت؟ فقال له مولاي: هذا غلامي؛ ما له؟ قال: فأخبره بمقالتي؛ فقال: إنه ضعيف العقل؛ قال: ثم انصرفنا إلى الرّيّ مع عدي بن وتاد ، قال: وبعث رجالاً من أهلِ البلاء إلى الحجّاج ، فأكرمهم وأحسن إليهم ، قال: ولما رجع إلى الري جاءت بجيلة إلى عديّ بن وتّاد فطلبوا لبكير بن هارون الأمان فآمنه ، وطلبت ثقيف لسُويد بن سرحان الثقفيّ الأمان فآمنه ، وطلبت في كلّ رجل كان مع مطرّف عشيرتُه ، فآمنهم وأحسن في ذلك ، وقد كان رجال من أصحاب مطرّف أحيط بهم في عسكر مطرف ، فنادوا: يا برَاء ، خذَلَنا الأمان ، يا براء ، اشفَع لنا. فشَفَع لهم ، فتُرِكوا ، وأسَر عديّ ناساً كثيراً فخَلّى عنهم[٢] . (٦/ ٢٩٩).

قال أبو مخنف: وحدثني النّضر بن صالح أنه أقبل حتى قدم على سويد بن عبد الرحمن بحلوان ، فأكرمه وأحسن إليه ، ثم إنه انصرف بعد ذلك إلى الكوفة[٣] . (٦/ ٢٩٩).

قال أبو مخنف: وحدّثني عبدُ الله بن علقمة أنّ الحجّاج بن جارية الخَثْعميّ أتى الريّ وكان مَكْتَبهُ بها ، فطُلب إلى عديّ فيه ، فقال: هذا رجلٌ مشهور قد شُهِر مع صاحبه ، وهذا كتابُ الحجاج إليّ فيه[٤] . (٦/ ٢٩٩).

قال أبو مِخنَف: فحدّثني أبي عن عبد الله بن زُهير ، قال: كنت فيمن كلمه في الحجّاج بن جارية ، فأخرج إلينا كتابَ الحجّاج بن يوسف:

---

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.
(٢) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.
(٣) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.
(٤) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

أما بعد: فإن كان الله قتلَ الحجّاجَ بن جارية فبُعْداً له، فذاك ما أهوَى وأحِبّ؛ وإن كان حيّاً فاطلبه قبَلك حتى توُثِقَه، ثمّ سَرِّح به إليّ إن شاء الله، والسلام.

قال: فقال لنا: قد كُتِب إليّ فيه، ولابدّ من السمع والطاعة، ولو لم يُكتَب إليّ فيه آمنته لكم، وكففتُ عنه فلم أطلبْه، وقمنا من عنده.

قال: فلم يزل الحجّاج بن جارية خائفاً حتى عُزل عديّ بن وتّاد، وقدم خالد بن عتّاب بن وَرْقاء، فمشيتُ إليه فيه، فكلّمته فآمنه، وقال حبيب بن خِدُرْةَ مولى لبنى هلال بنِ عامر:

هـل أتـى فـائـدَ عـن أيسـارِنـا إذ خَشينَـا مِـنْ عَـدُوٍّ خـرُقَـا
إذ أَتـانـا الخَـوْفُ مـن مـأْمَنِنـا فطَـوينـا فـي سَـوادٍ أُفُقَـا
وسَلِـي هَـدْيَـة يَـوْمـاً هـل رأَتْ بشَـراً أكـرَمَ منَّـا خُلُقَـا!
وسَليهـا أعَلَـى العهـدِ لنـا أو يُصِـرُّونَ علينـا حَنَقَـا
ولكَـمْ مـن خُلَّـة مـن قَبلِهـا قَـدْ صَـرَمْنَـا حَبلَهـا فـانطلَقَـا
قَـدْ أَصَبْنَـا العَيْـشَ عَيْشـاً نـاعمـاً وأَصَبْنَـا الْعَيْـشَ عَيْشـاً رَنَقَـا
وأصَبْـتُ الـدَّهْـرَ دهـراً أَشْتَهِـي طبَقـاً منـه وأَلْـوي طبَقَـا
وشَهِـدتُ الخيـل فـي مَلْمُـومَـةٍ مـا تـرى منهـنَّ إلا الحـدَقَـا
يَتَسَـاقَـوْنَ بـأَطـرافِ القَنَـا مـن نَجيـعِ المـوت كـأْسـاً دَهقـا
فطِـرادُ الخيـلِ قـد يُـؤْنِقُنـي ويـردّ اللّهْـوُ عنـي الأَنَقَـا
بمُشيـح البَيْـض حتّـى يَتـركـوا لسُيـوفِ الهِنْـد فيهـا طُـرُقَـا
فكـأَنِّـي مـن غـدٍ وافقتهـا مثـل مـا وافَـقَ شَـنٌّ طَبَقَـا[1]

(٦/ ٢٩٩ ـ ٣٠٠).

* * *

ذكر الخبر عن وقوع الخلاف بين الأزارقة

قال أبو جعفر: وفي هذه السنة وقع الاختلاف بين الأزارقة أصحاب قَطَريّ بن

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

الفُجَاءَة فخَالفه بعضهم واعتزلَه وبايع عبد رَبّه الكبير ، وأقام بعضُهم على بيعة قطريّ .

* ذكر الخبر عن ذلك ، وعن السبب الذي من أجله حدث الاختلاف بينهم حتى صار أمرهم إلى الهلاك :

ذكر هشامٌ عن أبي مِخنَف ، عن يوسف بن يزيد ، أنّ المهلّب أقام بسابورَ فقاتَلَ قَطَرِيّاً وأصحابه من الأزارقة بعدما صرف الحجّاج عتابَ بن وَرْقاء عن عسكره نحواً من سنة ، ثمّ إنه زاحَفَهم يوم البُسْتان فقاتَلَهم قتالاً شديداً ، وكانت كِرْمان في أيدي الخوارج ، وفارس في يد المهلّب ، فكان قد ضاق عليهم مكانُهم الذي هم به ، لا يأتيهم من فارس مادّة ، وبَعُدَتْ ديارهم عنهم ، فخرجوا حتى أتوا كرمانَ وتبعهم المهلب حتى نزل بجيرفْتَ ـ وجيرفْتُ مدينة كرمان ـ فقاتلَهم بها أكثر من سنة قتالاً شديداً ، وحازهم عن فارسَ كلها ، فلما صارت فارسُ كلُّها في يدي المهلب بعث الحجّاج عليها عمّالَه وأخذها من المهلّب ، فبلغ ذلك عبد الملك ، فكتب إلى الحجّاج :

أما بعد ، فدَعْ بِيَد المهلَّب خراجَ جبالِ فارسَ ، فإنه لابد للجيش من قوّة ولصاحب الجيش من معونة ، ودعْ له كُورَة فَسَا وَدرَابجرْدَ. وكورة إصْطَخْر.

فتركَها للمهلّب ، فبعث المهلَّب عليها عمّالَه ، فكانت له قوّةً على عدوّه وما يصلحه ، ففي ذلك يقول شاعرُ الأزْد وهو يعاتِب المهلب :

نقاتِلُ عن قُصورِ دَرَابَجِرد ونَجْبِي للمغُيرَةِ والرُّقَادِ

وكان الرُّقاد بنُ زياد بن همّام ـ رجل من العَتِيك ـ كريماً على المهلَّب ، وبعث الحجاج إلى المهلب البراءَ بنَ قبيصة ، وكتب إلى المهلب :

أما بعد ، فإنك والله لو شئت فيما أرى لقد اصطلمتَ هذه الخارجة المارقةَ ، ولكنّك تحبّ طول بقائهم لتأكل الأرَض حولك ، وقد بعثتُ إليك البراء بن قبيصة لينُهِضك إليهم ، فانهض إليهم إذا قَدِم عليك بجميع المسلمين ، ثمّ جاهدهم أشدّ الجهاد ، وإيّاك والعِللَ والأباطيلَ ، والأمورَ التي ليست لك عندي بسائغة ولا جائزة؛ والسلام .

فأخرَج المهلب بنيه؛ كلَّ ابن له في كَتيبة ، وأخرج الناسَ على راياتهم ومَصافِّهم وأخماسهم ، وجاء البَرَاء بن قبيصة فوقف على تل قريب منهم حيث يراهم ، فأخذتْ الكتائبُ تحمل على الكتائب ، والرّجالُ على الرجال ، فيقتتلون أشدَّ قتال رآه الناس من صَلاة الغداة إلى انتصاف النهار ، ثم انصرَفوا.

فجاء البَراء بنُ قبيصةَ إلى المهلب فقال له: لا والله ما رأيت كبَنِيك فُرساناً قطّ ، ولا كفُرسانِك من العرب فُرساناً قطّ ، ولا رأيت مِثلَ قوم يقاتلونك قطّ أصبرَ ولا أبأسَ ، أنتَ والله المعذور ، فرجع بالناس المهلّب ، حتى إذا كان عند العصر خرج إليهم بالناس وبنيه في كتائبهم ، فقاتلوه كقتالهم في أول مرّة[١]. (٦/ ٣٠٠ ـ ٣٠٢).

قال أبو مخنَف: وحدّثني أبو المغلّس الكنانّي ، عن عمه أبي طلحة ، قال: خرجت كتيبةٌ من كتائبهم لكتيبة من كتائبنا ، فاشتدّ بينهما القتال ، فأخذتْ كلُّ واحدة منهما لا تصُدّ عن الأخرى ، فاقتتلنا حتى حَجَزَ الليلُ بينهما ، فقالت إحداهما للأخرى: ممن أنتم؟ فقال هؤلاء: نحن من بني تميم؛ وقال هؤلاء: نحن من بني تميم؛ فانصرَفوا عند المَساء ، قال المهلَّب للبرَاء: كيف رأيت؟ قال: رأيتُ قوماً والله ما يعينكِ عليهم إلاّ الله ، فأحسَنَ إلى البراء بن قبيصة وأجازه ، وحملَه وكساه ، وأمر له بعشرة آلاف درهم ، ثمّ انصرف إلى الحجاج فأتاه بعذر المهلّب ، وأخبره بما رأى ، وكتب المهلّب إلى الحجّاج:

أما بعد: فقد أتاني كتابُ الأمير أصلحه الله ، واتهامه إيّاي في هذه الخارجة المارقة ، وأمرني الأميرّ بالنهوض إليهم ، وإشهادِ رسولِه ذلك ، وقد فعلت ، فليسألْه عما رأى ، فأما أنا فوالله لو كنت أقدرِ على استئصالهم ، وإزالتهم عن مكانهم ثمّ أمسكتُ عن ذلك لقد غششتُ المسلمين ، وما وفَيتُ لأمير المؤمنين ، ولا نصحتُ للأميرِ ـ أصلحه الله ـ فمعاذ الله أن يكون هذا من رأيي ، ولا مما أدِين اللهَ به ، والسلام.

ثمّ إنّ المهلب قاتلهم بها ثمانية عشر شهراً لا يستقلّ منهم شيئاً ، ولا يرى في

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

موطن يُنْقِعون له ولمن معه من أهل العراق من الطعن والضرب ما يَرْدَعُونهم به ويَكفّونهم عنهم.

ثمّ إنّ رجلاً منهم كان عاملاً لقَطريّ على ناحية من كِرمان خرج في سَريّة لهم يُدعىَ المُقَعْطَرَ من بني ضَبَّة، فقَتَل رجلاً قد كان ذا بأس من الخوارج، ودخل منهم في ولاية، فقتله المُقَعْطرُ، فوثَبت الخوارج إلى قَطَريّ، فذكروا له ذلك، وقالوا: أمْكِنّا من الضّبيّ نقتله بصاحبنا، فقال لهم: ما أرى أن أفعل؛ رجلٌ تأوّل فأخطأ في التأويلِ ما أرى أن تقتلوه، وهو من ذوِي الفضل منكم، والسابقة فيكم، قالوا: بلى؛ قال لهم: لا، فوقع الاختلاف بينهم، فولَّوا عبدَ ربّه الكبير، وخلعوا قَطَريّاً، وبايع قطريّاً منهم عصابةٌ نحواً من ربعهم أو خمسهم، فقاتلهم نحواً من شهر غُدوةً وعشية.

فكتب بذلك المهلّبُ إلى الحجّاج:

أما بعد: فإن الله قد ألقى بأسَ الخوارج بينهم، فخلع عظمُهم قطريّاً وبايعوا عبد ربِّه، وبقيت عصابة منهم مع قطريّ، فهم يقاتل بعضهم بعضاً غُدُوّاً وعشيّاً، وقد رجوتُ أن يكون ذلك من أمرهم سبب هلاكهم إن شاء الله؛ والسلام.

فكتب إليه:

أما بعد: فقد بلغني كتابُك تَذكر فيه اختلافَ الخوارج بينها، فإذا أتاك كتابي هذا فناهِضْهم على حال اختلافهم وافتراقهم قبل أن يجتمعوا، فتكون مؤونتهم عليك أشدّ والسلام.

فكتب إليه:

أما بعد: فقد بلغني كتابُ الأمير، وكلّ ما فيه قد فهمتُ، ولستُ أرى أن أقاتلهم ما داموا يَقتلُ بعضُهم بعضاً، وينقص بعضُهم عَدَد بعض، فإن تموا على ذلك فهو الذي نريد وفيه هلاكهُم، وإن اجتَمعوا لم يجتمعوا إلا وقد رقّق بعضُهم بعضاً، فأناهِضُهم على تفِيئة ذلك، وهم أهوَن ما كانوا وأضعَفُه شوكةً، إن شاء الله والسلام.

فكفّ عنه الحجّاج، وتركهم المهلب يقتتلون شهراً لا يحرِّكهم.

ثمّ إنّ قَطَريّاً خرج بمن اتبعه نحو طَبرستانَ، وبايع عامّتهم عبد رَبِّه الكبير،

فنهض إليهم المهلّب ، فقاتلوه قتالاً شديداً ، ثمّ إنّ الله قتلهم فلم ينجُ منهم إلاّ قليل ، وأخذ عسكرهم وما فيه وسُبُوا ، لأنهم كانوا يَسبون المسلمين ، وقال كعبُ الأشقريّ ـ والأشقَر بطنٌ من الأزد ـ يذكر يومَ رامَهُرْمُز ، وأيام سابورَ ، وأيام جِيرَفْتَ :

يا حفْصَ إني عَدَاني عنكم السفرُ ... وقَدْ أرِقتُ فآذَى عَيْنيَ السهرُ
عُلّقْتَ يا كعبُ بعد الشَّيبِ غانِيَةً ... والشَّيبُ فيه عن الأَهواء مزْدَجرُ
أممْسكٌ أنتَ عنها بالّذي عَهِدَتْ ... أم حَبْلها إذ تأتَّكَ اليومَ مُنْبَتِرُ
عُلّقْتُ خَوْداً بأَعْلى الطَّف مَنزِلُها ... في غُرفَة دونها الأَبوابُ والحُجَر
دُرْماً منَاكِبُهَا رَيَّاً مآكِمُهَا ... تكاد إذ نَهضَتْ للمشي تنبَتِرُ
وقد تركْتُ بِشطِّ الزَّابِيَيْنِ لها ... داراً بها يَسْعَدُ البَادُونَ والحَضَر
واخْتَرْت داراً بها حيٌّ أسَرُّ بِهِمْ ... ما زال فيهم لمن نختارُهُمْ خَيرُ
لمَّا نَبَتْ بي بِلَادي سِرْتُ مُنتجِعاً ... وطَالِبُ الخير مُرْتادٌ ومُنتَظِرُ
أَبا سعيد فإني جئت مُنتجِعاً ... أرجُو نَوالَكَ لمّا مَسَّنِي الضَّرَرُ
لولا المهلَّبُ ما زُرْنا بلادَهُمُ ... ما دامت الأَرض فيها الماءُ والشجرُ
فما من الناس من حيٍّ عَلِمتُهُمُ ... إلا يُرَى فيهم من سَيْبِكم أَثَرُ
أحيَيْتَهُم بِسجَال من نَدَاكَ كما ... تحيَا البلادُ إذا ما مسَّها المطرُ
إني لأرجو إذا ما فاقَةٌ نزَلَتْ ... فضلاً من الله في كفَّيكَ يَبْتَدِرُ
فاجبرْ أخاً لك أَوْهَى الفقر قوته ... لعلَّهُ بعد وهْي العظْمِ ينجبرُ
جَفَا ذَوُو نَسَبي عنِّي وأخلفَني ... ظني فللهِ دَرِّي كيف آتمِرُ
يا واهِبَ القَينةِ الحسناءِ سُنَّتُها ... كالشمس هِرْكولةٌ في طَرْفِها فَتَرُ
وما تزال بُدُورٌ منك رائحة ... وآخرون لهم من سَيْبك الغُرَر
نماك للمجد أملاكٌ وَرِثْتَهُمُ ... شمُّ العَرانينِ في أخلاقهمْ يَسَرُ
ثاروا بقَتْلَى وأوتارٍ تُعدّدُها ... في حِين لا حَدَثٌ في الحرب يَتَّئِرُ
واستسلم الناسُ إذ حلَّ العدوُّ بهم ... فما لأمرِهِمُ وردٌ ولا صَدَرُ
وما تجاوزَ بابَ الجسر من أحد ... وعَضَّتِ الحربُ أهلَ المصرِ فانجحَروا
وأُدخل الخوفُ أجوافَ البيوت على ... مثلِ النساءِ رجال ما بهم غِيَرُ
واشتدَّتِ الحربُ والبَلوَى وحلَّ بنا ... أمرٌ تُشَمَّرُ في أَمثالِهِ الأُزُر

نظلّ من دون خفض مُعصمِين بهم ... فَشمر الشيخُ لما أعظمَ الخَطَر
كنا نهَوِّنُ قَبلَ اليومِ شأنَهُمُ ... حتى تفَاقَمَ أمرٌ كان يُحتقرُ
لمّا وهَنّا وقد حَلُّوا بساحتِنَا ... واستُنفر الناسُ تاراتٍ فما نَفَرُوا
نادَى امرؤٌ لا خلاَف في عَشِيرَتِه ... عنه وليس به في مِثلِهِ قِصَر
أفشى هنالك ممَّا كان مذ عصروا ... فيهم صنائع مما كان يُدَّخَرُ
تلبَّسُوا لقِراعِ الحربِ بَزَّتَها ... فأَصبَحُوا من وراءِ الجسر قد عَبرُوا
ساروا بألويَةَ للمجدِ قد رُفِعَت ... وتحتَهُنَّ ليُوثٌ في الوغَى وُقرُ
حتى إذا خَلَّفُوا الأهوازَ واجتمعوا ... بِرَامَهُرْمُزَ وافَاهُمْ بها الخبرُ
نَعِيُّ بِشرٍ فجال القومُ وانصدعوا ... إلا بَقَايا إذا ما ذُكِّرُوا ذَكَرُوا
ثم استمرَّ بنا راضٍ ببيعتِه ... يَنوِي الوفاءَ ولم نغْدِرْ كما غَدَرُوا
حتى اجتمعنا بسَابورِ الجنود وقد ... شُبَّتْ لنا ولهم نارٌ لها شَرَرُ
نَلقَى مساعِيرَ أبطالاً كأَنهمُ ... جِنٌّ نقارعُهُمْ ما مثلُهم بَشَرُ
نُسْقَى ونَسْقِيهمُ سَمّاً عَلَى حنَقٍ ... مُستأْنِفِي الليْلِ حتّى أَسْفَرَ السَّحَرُ
قَتْلَى هنالك لا عقلٌ ولا قَوَدٌ ... مِنَّا ومنهم دماءٌ سَفكَهَا هدَرُ
حتى تَنَحَّوْا لنا عنها تَسوقُهُمْ ... منَّا ليوث إذا ما أقدموا جَسروا
لم يُغنِ عنهم غدَاةَ التلِّ كيدُهُمُ ... عند الطِّعان ولا المكرُ الذي مَكَرُوا
باتَتْ كتائبُنا تَرْدِي مَسَّومَةً ... حولَ المهلَّبِ حتى نَوّرَ القمرُ
هناك ولَّوْا حِزَاناً بعد ما فَرِحوا ... وحالَ دونهُمُ الأنهَارُ والجدُرُ
عَبَّوْا جنودَهمُ بالسَّفح إذ نَزلوا ... بكازَرُونَ فما عزُّوا ولا ظفروا
وقد لقوا مُصْدَقاً منا بمنزلةٍ ... ظنُّوا بأَن يُنصَرُوا فيها فما نُصِرُوا
بدَشْت بارينَ يومَ الشِّعْبِ إذ لُحقتْ ... أسد بسفكِ دماءِ الناس قد زَئِرُوا
لاقَوْا كتائبَ لا يُخلونَ ثَغْرَهُمُ ... فيهمْ على من يقاسي حربهم صَعَرُ
المقْدِمين إذ ما خيلهم وردَتْ ... والعاطفين إذا ما ضيّع الدَّبرُ
وفي جُبيْرِينَ إذ صفُّوا بزَحفهم ... ولَّوا خزَايَا وقد فلُّوا وقد قُهرُوا
واللهِ ما نزلوا يوماً بساحَتِنا ... إلا أصابَهمُ من حربنا ظَفَرُ
نَنْفِيهمُ بالقَنا عن كلِّ منزلةٍ ... ترُوحُ منا مساعِيرٌ وتَبْتكرُ
وَلَّو حذاراً وقد هَزُّوا أَسِنّتَنَا ... نحو الحروب فما نجّاهمُ الحذرُ

صلْتُ الجبين طويلُ الباع ذو فُرَحٍ	ضخْمُ الدَّسيعَة لا وَانٍ ولا غمُرُ
مُجَرّبُ الحربِ ميمونٌ نَقيبتُهُ	لا يُسْتَخَفُّ ولا من رأيهِ البَطَرُ
وفي ثلاثِ سنين يَستدِيمُ بنا	يقارعُ الحربَ أَطواراً ويأْتمرُ
يقولُ إن غداً مُبْدٍ لناظرهِ	وفي الليالي وفي الأيام مُعْتَبرُ
دعوا التَّتابُعَ والإِسراع وارتَقبُوا	إنَّ المُحارِبَ يَستأنِي وينتظرُ
حتى أتته أمورٌ عندها فرجٌ	وقد تبيَّن ما يأتي وما يذَرُ
لما زَوَاهمْ إلى كَرمانَ وانصدعوا	وقد تقاربتِ الآجالُ والقدرُ
سرنا إليهم بمثل الموج وازدَلَفوا	وقبلَ ذلك كانت بينَنا مِئرُ
وزادَنا حَنقاً قَتلَى نُذكّرُها	لا تَسْتَفِيقُ عيونٌ كلَّما ذُكِرُوا
إذا ذكرنا جَرُوزاً والذينَ بها	قتلى مضى لهمُ حولانِ ما قُبِرُوا
تأْتي علينا حَزازَاتُ النفوسِ فما	نبقِي عليهم وما يبقون إن قَدَرُوا
ولا يُقِيلونَنَا في الحرب عثرَتَنا	ولا نقيلُهمُ يوماً إذا عثَرُوا
لا عُذْرَ يُقبَلُ منَّا دون أنفسِنا	ولا لهم عندنا عذرٌ لوِ اعتذَروا
صفَّانِ بالقاع كالطَّودينِ بينهما	كالبرقِ يَلمعُ حتى يَشْخَصَ البصَرُ
على بصائرَ كلٌّ غيرُ تارِكها	كلاَ الفريقين تُتلى فيهم السُّوَرُ
يَمشون في البَيض والأبدان إذ وردُوا	مشْي الزوامل تهدي صفَّهمُ زُمَرُ
وشيخنا حوله منَّا مُلمْلَمةٌ	حيٌّ من الأَزْد فيما نابَهُمْ صبُرُ
في موطنٍ يقطعُ الأبطال مَنظَرُهُ	تُشاطُ فيه نُفوسٌ حين تَبتكر
ما زال منَّا رجالٌ ثمَّ نَضْرِبهُمْ	بالمشرفيّ ونارُ الحرب تَسْتَعِرُ
وباد كلُّ سلاحٍ يُستعان به	في حومة الموت إلا الصارم الذَّكَرُ
نَدُوسُهمْ بعَناجيج مُجَفَّفَةٍ	وبيننا ثَمَّ من صُمِّ القَنا كِسَرُ
يغشَيْنَ قتلى وعقرَى ما بها رَمَقٌ	كأَنما فوقها الجاديُّ يُعتَصرُ
قتلى بقتلى قِصاصٌ يُستقادُ بها	تَشفِي صُدُورَ رجال طالما وُتِرُوا
مُجاورينَ بها خيلاً مُعَقَّرَةً	للطيرِ فيها وفي أَجسادهم جَزَرُ
في معرَكٍ تَحْسَبُ القتلى بساحَتهِ	أعجازَ نخلٍ زَفَتْهُ الريحُ يَنعقِرُ
وفي مواطِنَ قبلَ اليوم قد سَلَفتْ	قد كان للأَزْد فيها الحمدُ والظَّفر

فـي كـلِّ يـوم تُـلاقِـي الأَزدُ مُفظِعـةً يَشيبُ في ساعةٍ من هولها الشعرُ
والأَزدُ قومي خيارُ القوم قد علموا إذا قُـرومُهـم يـومَ الـوغـى خطـروا
فيهـم مَعـاقِـلُ مـن عِـزٍّ يـلاذُ بهـا يـومـاً إذا شَمّـرَتْ حـربٌ لهـا دِرَرُ
حـيٌّ بـأَسيـافِهـمْ يَبغـونَ مَجـدَهُـمُ إنَّ المكـارمَ فـي المكـروهِ تُبْتَـدَرُ
لـولا المهلَّـب للجيش الَّـذي وردوا أنهـارَ كَـرْمَـانَ بعـد اللهِ مـا صـدرُوا
إنَّـا اعتَصَمْنَـا بحبـل اللهِ إذ جحَـدوا بالمُحْكَمَاتِ ولم نكْفُرْ كما كَفَرُوا
جاروا عن القصد والإِسلام واتَّبعوا دِينـاً يُخَـالـفُ مـا جـاءَت بـه النُّـذُرُ

وقال الطفيل بنُ عامرِ بن واثلة وهو يذكر قتلَ عبد ربّه الكبير وأصحابه، وذهاب قَطَريّ في الأرض واتّباعهم إيّاه ومراوغته إيّاهم:

لقـد مـسَّ منَّـا عبـدَ ربّ وجنـدهُ عقابٌ فأَمسى سَبْيُهُمْ في المقاسمِ
سمـا لهـمُ بـالجيشِ حتـى أَزاحَهُـم بكرمانَ عن مثوىً من الأرض ناعِم
ومـا قَطَـرِيُّ الكُفـرِ إلاَّ نَعَـامَـةٌ طـريـدٌ يَـدوّي ليلـه غيـر نـائِـمِ
إذا فـرّ منَّـا هـاربـاً كـان وَجْهُـهُ طريقاً سوى قصدِ الهُدى والمعالِمِ
فليـس بمنجِيـه الفـرارُ وإنْ جَـرَتْ به الفُلكُ في لُجٍّ من البحر دائم[١]

(٦/ ٣٠٢ ـ ٣٠٨).

ذكر الخبر عن هلاك قطريّ وأصحابه

قال أبو جعفر: وفي هذه السنة كانت هَلَكة قَطريّ وعبيدة بن هلال وعبد ربّ الكبير ومن كان معهم من الأزارقة.

* ذكرُ سبب مهلَكِهم:

وكان سبب ذلك أنّ أمرَ الذين ذكرْنا خبرَهم من الأزارقة لما تشتّت بالاختلاف الذي حدث بينهم بكرمان فصار بعضهم مع عبد ربه الكبير وبعضهم مع قطريّ ووهَى أمرُ قطريّ، توجّه يريد طَبَرستان، وبلغ أمرُه الحجّاج، فوجّه فيما ذكر هشامٌ عن أبي مخنف، عن يونس بن يزيدَ ـ سفيانَ بن الأبرد، ووجّه معه جيشاً من أهل الشام عظيماً في طلب قَطريّ، فأقبل سفيانُ حتى أتى الرَّيّ ثمّ أتبعهم،

(١) في إسنادها لوط بن يحيى التالف الهالك.

وكتب الحجّاج إلى إسحاقَ بن محمد بن الأشعث ، وهو على جيش لأهل الكوفة بطَبرستان ، أن اسمَع وأطِع لسُفيان ، فأقبَلَ إلى سفيان فسار معه في طَلَب قطريّ حتى لحقوه في شِعْب من شِعاب طَبَرِستان ، فقاتلوه ، فتفرّق عنه أصحابُه ، ووقع عن دابته في أسفل الشعب فتَدَهْدَهَ حتى خرّ إلى أسفله ، فقال معاوية بن مِحصن الكنديّ : رأيتُه حيث هَوَى ولم أعرفْه ، ونظرت إلى خمس عشرَة امرأةً عربيّة هنّ في الجمال والبَزازة وحُسن الهيئة كما شاء ربُّك ، ما عدا عجوزاً فيهنّ ، فحملتُ عليهنّ فصرفتهنّ إلى سُفيانَ بن الأبرد.

فلما دنوتُ بهنّ منه انتحتْ لي بسيفها العجوزُ فتَضرِب به عنقي ، فقطعَت المِغْفر ؛ وقطَعَت جلدةً من حَلْقي ، وأختلِج السيف فأضرب به وجهَها ، فأصاب قِحفَ رأسِها ، فوقعت ميّتةً ، وأقبلتُ بالفتياتِ حتى دفعتهنّ إلى سُفيان وإنه ليضحك من العجوز ، وقال : ما أردت إلى قتل هذه أخزاهَا الله ـ فقلت : أوَما رأيتَ أصلحك الله ضربَتها إيّاي ! والله إن كادت لتقتلني ؛ قال : قد رأيتُ ، فوالله ما ألومك على فعلك ، أبعَدها الله ، ويأتي قطريّاً حيث تَدهدَه من الشعب عِلجٌ من أهل البلد ، فقال له قطريّ : اسقِني من الماء ـ وقد كان اشتدّ عطشه ـ فقال : أعطني شيئاً حتى أسقيَك ، فقال : وَيْحَك ؛ والله ما معي إلا ما ترى من سلاحي ، فأنا مُؤتِيكَه إذا أتيتني بماء ، قال : لا ، بل أعطِنيه الآن ، قال : لا ، ولكن ائتني بماء قبلُ ، فانطلق العِلْج حتى أشرف على قَطَريّ ، ثمّ حدر عليه حَجَراً عظيماً من فوقه دَهْدَاه عليه ، فأصاب إحدى ورِكيه فأوْهته ، وصاح بالناس ، فأقبلوا نحوَه والعلْجُ حينئذ لا يعرف قَطرِيّاً ، غيرَ أنه يظنّ أنه من أشرافهم لحسن هيئته ، وكمال سلاحِه ، فدفع إليه نفرٌ من أهل الكوفة فابتَدروه فقتلوه ، منهم سَوْرة بن أبجر التميميّ ، وجعفر بن عبد الرحمن بن مِخنَف ، والصباح بن محمّد بن الأشعث ، وباذام مولَى بني الأشعث ، وعمر بن أبي الصَّلْت بن كنارا ، مولَى بني نصر بن معاوية ، وهو من الدَّهاقين ، فكل هؤلاء ادّعَوا قتلَه ، فدفع إليهم أو الجَهْم بن كنانة الكلبيّ ـ وكلهم يزعم أنه قاتله ـ فقال لهم : ادفعوه إليّ حتى تصطلحوا ، فدفعوه إليه.

فأقبل به إلى إسحاق بن محمد ـ وهو على أهل الكوفة ـ ولم يأتِه جعفر لشيء كان بينه وبينه قبل ذلك ـ وكان لا يكلمه ، وكان جعفر مع سُفيان بن الأبرد ، ولم

يكن معه إسحاق ، وكان جعفر على ربع أهل المدينة بالريّ ، فلما مرّ سفيان بأهل الرّيّ انتخب فرسانهم بأمر الحجاج ، فسار بهم معه ، فلما أتى القومُ بالرأس فاختصموا فيه إليه وهو في يديْ أبي الجَهْم بنِ كنانة الكلبيّ ، قال له: امضِ به أنت ، ودَعْ هؤلاء المختلِفين ، فخرج برأس قَطَريّ حتى قدم به على الحجّاج ، ثمّ أتى به عبد الملك بن مروان ، فألحِق في ألفين ، وأعطي فطما - يعني أنه يفرض للصّغار في الدّيوان ، وجاء جعفر إلى سُفْيان فقال له: أصلحك الله! إن قَطَريّاً كان أصاب والدي فلم يكن لي همّ غيره ، فاجمع بيني وبين هؤلاء الذين ادّعَوا قتلَه ، فسَلْهم ، ألم أكن أمامهم حتى بدرتُهم فضربتُه ضربةً فصرعتُه ، ثمّ جاؤوني بعد ، فأقبلوا يضربونه بأسيافهم! فإن أقرّوا لي بهذا فقد صَدَقوا ، وإن أبَوا فأنا أحلف بالله أني صاحبه ، وإلا فليحلفوا بالله أنهم أصحابه الذين قتلوه ، وأنهم لا يعرفون ما أقول ، ولا حق لي فيه ، قال: جئت الآن وقد سرّحنا بالرأس ، فانصرَف عنه فقال له أصحابه: أما والله إنك لأخلق القوم أن تكون صاحبه.

ثمّ إنّ سُفيانَ بنَ الأبرد أقبل منصرفاً إلى عسكر عبيدة بن هلال ، وقد تحصّن في قصر بقُومِسَ ، فحاصره فقاتلَه أياماً ، ثمّ إنّ سُفيان بن الأبرد سار بنا إليهم حتى أحَطْنا بهم ، ثمّ أمر منَاديَهُ فنادى فيهم: أيّما رجل قتل صاحبَه ثمّ خرج إلينا فهو آمن؛ فقال عبيدة بن هلال:

لَعَمري لقد قام الأَصَمُّ بخطبةٍ ... لذي الشَّكّ منها في الصُّدُورِ غَليلُ
لَعَمري لئن أَعطيتُ سفيان بَيْعتي ... وفارقْتُ دِيني إنَّني لجهولُ
إلى الله أَشكو ما ترى بِجيادِنا ... تساوَكُ هزلى مُخّهنَّ قليلُ
تعاوَرَها القُذَّافُ مِن كلّ جانبٍ ... بقُومِسَ حتى صَعْبُهُنَّ ذَلولُ
فإنْ يكُ أَفناها الحِصارُ فرُبّما ... تشَحَّطَ فيما بينهنَّ قتيلُ
وقد كنَّ ممّا إن يُقَدْنَ على الوَجَى ... لهنَّ بأبوابِ القِبابِ صَهيلُ

فحاصرَهم حتى جهدوا وأكلوا دوابَّهم ، ثمّ إنهم خرجوا إليه فقاتَلوه ، فقتلهم وبعث برؤوسهم إلى الحجّاج ، ثمّ دخل إلى دُنباوَنْد وطَبَرِسْتان ، فكان هنالك حتى عزلَه الحجّاج قبل الجَماجم. (٦/ ٣٠٨ - ٣١١).

* * *

ملحق صغير

* ورد اسم القعقاع بن عمرو في بداية الفتوحات في عهد الراشدين [قسمي الصحيح والضعيف تأريخ الخلافة الراشدة في مواضع عدة من (تأريخ الطبري)] وقصارى ما نستطيع قوله أن القعقاع كان قائداً ميدانياً من جيل التابعين ولقد ذكرت بعض الروايات (من طريق سيف بن عمرو التميمي) أنه صحابي ـ ورواية سيف وحدها (دون تأييد من غيره) لا تقوى لإثبات الصحبة والله أعلم.

* * *

فهرس الموضوعات